

رسائل الشباب

رسائل الشباب

اعداد
محمد الحليوي

مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود
الباطين للإبداع الشعري



مؤسّسة جائزة عبد العزيز سعود
الباطين للإبداع الشعري

الطبعة الأولى، 1994
© جميع الحقوق محفوظة
لدار المغرب العربي - تونس

كلمة الناشر

كانت لفقيدنا الشابى صلات مودة مع عدد غير قليل من أدباء تونس والبلاد العربية . وكان يرأسل آخرين لاسباب أدبية أو اجتماعية محضة ، وقد امكنا ان نعرف اسماء عدد وفير منهم . ولكن احدا ممن عرفناهم لم يكن على صلة وثيقة به - أدبيا وروحيا - كما كان مع أدباء ثلاثة ، بادلهم الشابى ودا بود ، وفكرا بفكر ، واخلصا باخلص . وهؤلاء الثلاثة هم : الاستاذ محمد الحليوى والاستاذ محمد البشروش والدكتور أحمد زكى أبو شادى .

وتمتاز صلة الشابى بهؤلاء بميزات عديدة ، فضلا عن صدق الود وعمق المحبة وقوة الاخلاص .

ولعل ابرز هذه الميزات ان هذه الصلة قد اثمرت انتاجا أدبيا ، له طرافته الخاصة وقيمتها البالغة فى دراسة الشابى من جوانب عديدة ، وفى دراسة جيل الشابى وعصره بكل ما اعتوره من مشاكل وما اضطر به من احداث وتيارات وأفكار .

كما تمتاز هذه الصلة بأنها لم تكن مجرد علاقات شخصية او اجتماعية ، بقدر ما كانت علاقات أدبية مليئة بالحوار والآراء والمناقشات . ومن هنا تعتبر « رسائلهم » من اهم المصادر للكشف عن كثير من الحقائق المتعلقة بحياة الشابى وأدبه ، وما طرأ عليهما من عوامل مكيمة أو اسباب مؤثرة ، أو ظروف وملابسات تركت نتائج معينة فى ثقافة الشابى أو آرائه أو مواقفه المختلفة .

واننا حين نأخذ بعين الاعتبار - ويجب ان نفعل ذلك - أن الشابى لم يعيش سوى ربع قرن ، وانه قضى سنواته الست الاخيرة فى تعب متصل ، وعناء متلاحق بسبب النكبات والمرض وعنت الرجعية التى كانت تعوقه وتعوق كل حركة تقدمية ان فى الدين أو الأدب أو فى غيرهما اذا اخذنا بعين الاعتبار كل ذلك ، فان ميزاننا لأدب الشابى سيختلف تماما ، وتقديرنا واحكامنا له أو عليه ستكون اكثر عدلا ونزاهة وانصافا .

وهذا واحد من جملة الاسباب التي حملتني شخصيا - على اعتبار الشابي شاعر تونس الاول في العصر الحديث - واعتباره أيضا الشاعر الوحيد - حتى الآن - اندى استطاع ان يجعل لتونس كل هذا الصدى الأدبي اندى تتمتع به اليوم في العالم ، وان يجلب نحوها كامل التقدير والاكبار والاهتمام . وعلى الذين ينكرون علينا هذا الموقف أن يصنعوا لبلادهم مكانة مماثلة ، وان يضيفوا الى قمة الشابي قمما أخرى . أما هدم الشابي والتجديف عليه ، فانما هو - في نظرنا ايضا - هدم لتونس وكفر بنعمتها ، وعقوق لامومتها .

أنا لم ننكر قط وجود شعراء آخرين ذوى شأن في حياتنا ، ومكاننا الأدبي ، ولكننا لم نجد من بينهم احدا في مستوى الشابي ، ولا رأينا غيره رفع رأسنا وشأننا بين الشعوب والآداب العالمية . وهذا سبب آخر من اسباب تعلقنا به ، وشغفنا المتصل بأدبه وحياته وآثاره .

ولئن كان جل اهتمامي منصرفا الى الشابي ، فاننى لارجو ان يتفرغ آخرون لغيره من شعرائنا وكتابتنا ، قديمهم وحديثهم على السواء ، فان ميدان البحث والدراسة والنشر لا يزال واسعا جدا بل بكرا لمن يريد - حقا - ان يعمل ، فى شتى المجالات .

وها نحن بهذا الكتاب ، نستهل مشروعنا جديدا من مشاريعنا العديدة ، لخدمة الأدب التونسي - خدمة حقيقية - ، ذلك الأدب الذى ما انقطعنا عن خدمته واعلاء منزلته فى كل الاقطار منذ عشرين عاما .

وقد جعلنا هذا المشروع الخاص بالشابي تحت اسم « مكتبة الشابي » . مبتدئين بهذا الكتاب الذى أعده الاستاذ محمد الحليوى ، أحد أدبائنا الجهيرين الذين نعتز بهم ، لما لهم من دور فعال فى حياتنا الأدبية منذ ثلث قرن الى اليوم .

وعسى ان تتمكن من نشر كتب أخرى فى هذه « المكتبة » تتصل بالشابي أو بأدبه أو بعصره ، وعسى أن تتمكن ايضا من نشر سلاسل أو كتب مفردة عديدة تؤرخ حياتنا الأدبية والفكرية أو تزيل الغبار عن جوانب أخرى من تراثنا المغمور أو المنسى فى خزائن المخطوطات وفى احضان الاهمال .

أبو القاسم محمد كرو

الافتاء

الى روح الصديقين العزيزين

أبى القاسم الشابى

ومحمد البشروش

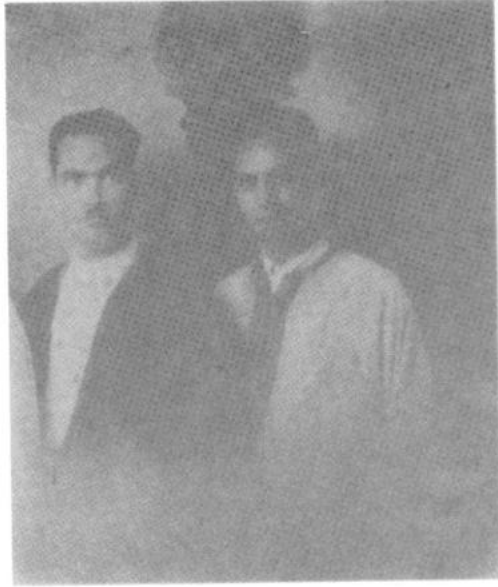
هذه الصحف التى كتبناها

فى سن العشرين

٢٠٠٤ ح



صورة الشابى عام 1930



الشباب والبشروش عام 1927



محمد الخيوى فى عام 1934

حاقته توزر

٤٤/٤/٤٤

عزيرى الله
كسبى عاكورة، وما اثنو في يا اذنى الله را الى اعادة
والى فخرات فديك واصوات نبيك. ولكن
فدا ردت ان نمر منى جنى حانه المتع الصغمة التي
هي كل ما سمع به الفه ري من منع الحياة.
لا اشفد املك نسيت افاك، وما احسب الا لخلان
المخول والسامى هي ايتو صرقتك على مر املة
انك ر صرقتك عن نذكار اخوانك الذين
لا تبارفهم ذكراك.

ما املك الله يا صدينى وعبرك. وذلك لك
ما قولك كى كى بما تانك نفسك وعوا لكر كى
حانه السامى. وعساك لا تفتنى عيى بعد الان
بما نال به جت قشوف.

اثنى الان من كثر شهر اقيم بالمقام بغضه ابد على
البراءة والاشهباك واشه الان اتي احسن فليلد
من قبله. ولست ادرى ما سكون الشفيل عيى
وتحياتى اليك

أبو الناسم الكاوي

نموذج من خط الشامي : (الرسالة 31)

نبذة ٣١٤ في شهر جمادى الأولى ١٩٤٤

صديقتي الأناج

لقد انتهت "العطلة" عند أحمد بجدد وعاد الراح الشابي
الي بلدنا . فهل نرى أن نستأنف "المراسلة" الالوية؟
اذا كان ذلك فبمن ننتظر منه الرسالة التي تتبع بها
البيت .

وأرجو أن ترسل الي المقدمة التي كنت بعثتها اليك
سأرد - انظر - يا صديقتي أنتم هاتين "المراسلة"
- لقد أرسلت اليك "المراسلة" - رسالة "تعبير" اليك
بها الأناج لفاسم . ولقد قد يعقد .

- لقد أرى في الرسالة الشابي بأن أسأله عنك للفتن
به "المراسلة" - أسأله - وما زلت أتردد نظراً لثباتها
الكتب وخدمتها اليك .

- فرائد منكم في - الرومانتيك مع الأناج
المراسلة وأرجو أن تبدأ به "المراسلة" وتعلمه حتى
حتى تكون لنا "المراسلة" في "المراسلة" في تاريخ الأناج - الالوية -
هذا كل ما خطر الي الأناج وأنا أكتب اليك بعدة "المراسلة"
وعلى يا تر . سلامي .

حلم اليك والسر

نموذج من خط البشروش : (الرسالة 5)

مقدمة

بعد مرور ما يزيد عن ثلاثين سنة على وفاة الشابي ها هو ذا العزم يصح على نشر هاته الرسائل التي كثيرا ما أشار اليها الدارسون لأدب الشابي منبهين على أهميتها لفهم روحه واهتمامات فكره والتي كثيرا ما عاتبني الأصدقاء على طيها كل هاته المدة .

والحقيقة أن الذي حال دون نشر هاته الرسائل الى غاية اليوم يرجع الى اسباب أهمها في نظري :

1) انها كانت رسائل شخصية تتناول مشاعر صديقين يتحدثان بكل حرية في مسائل أدبية وعن أشخاص مختلفين من الوسط الذي كانا يعيشان فيه ، ويتبادلان عواطف ذاتية متباعدة تندرج من المحبة الخالصة والاعجاب المطلق الى العتاب واللوم والتعنيف - فهي لم تكتب ليطلع عليها الناس أو ليغذي بها حبههم للفضول ومعرفة دخيلة الأدباء .

2) انها تتناول بالكلام أشخاصا عديدين منهم الأصدقاء ومنهم الخصوم في الفكرة ولا زال الكثيرون منهم أحياء ، ولا زال للاموات منهم كثير من الأنصار والمتعصبين . ولا شك أن نشر أسمائهم الصريحة لا يخلو من الحرج والاحراج للجميع .

3) ان هاته الرسائل تمثل عهد الشباب بما فيه من حماس وعفوية وتطرف وعواطف تلقائية نحو بعض الأشخاص والمذاهب والمشروعات وان مرور كل هذا الزمن على الرسائل يجعل احد كاتبها يعترف اليوم بان كثيرا مما جاء فيها من الأحكام والنظرات وحتى طريقة التعبير لا تمثل آراءه الحالية في جانب كبير من المسائل المطروقة .

4) ان نشر رسائل الشابي مجردة من كل شرح وتعليق ربما يفوت الغرض

منه اذ كانت هاته الرسائل شبه يوميات أو شبه محاوراة بين صديقين لها ظروفها ودواعيها ومبرراتها . فكان نشرى لرسائل الى جانب رسائل الشبابى له غاية مقصودة هى التعريف بهاته الظروف والدواعى وان كان فيه شىء من الحرج لى ؛ فالشأن فى مثل هاته الحالة أن تنشر رسائل الراحل وحدها غير مشفوعة برسائل من كان يرأسله . نعم ! خشيت من ان يقول الناس عنى انى بنشر رسائل الى جانب نصوص الشبابى أحاول أن أكون مساويا له فى المكانة ، او عاملا لرفع ذكرى بناهه ذكره ، او ناشرا لفضلى بما جاء فيها من رأى للشبابى فى نشاطى الأدبى وثنا على بعض انتاجى المنشور فى الصحف والمجلات .

والحقيقة انى لم أقصد من نشر رسائل الا الاستفادة والافادة من ظرف سعيد أتيج لى ولم يتح لغيرى من ناشرى الرسائل - فيما أظن - ألا وهو ان الأستاذ الأمين الشبابى قد أرجع الى غداة موت الفقيه العزيز مع جملة ما أرجع لى من كتب معارة مجموعة رسائل الى أخيه . ولا أذكر هل كان ذلك بطلب منى ام شعورا منه بأن هاته المجموعة ربما أفادت ذات يوم فى تخليد صداقة كان يعلم صدقها ومداهها .

على أنى - علم الله - كنت أؤثر أن تنشر هاته الرسائل بطرفيها بعد ان أفارق هذا العالم - لكن الحاح بعض الاصدقاء وإشارة من اشارته أمر جعلنى أقدم على هذا العمل أقدم المهيب الوجمل .

عرفت الشبابى حوالى سنة 1925 وكنت اذ ذاك طالبا فى دار المعلمين بالخاصرة وكان هو طالبا فى الزيتونة ومقيما بالمدرسة اليوسفية - وكنت أتردد على تلك المدرسة لملاقة ابن خالتي ورفيق صباى الشيخ محمود الباجى فتعرفت بجماعة من زملائه فى الدراسة ومساكنيه فى المدرسة اليوسفية ومنهم الشاب أبو القاسم الشبابى وكان الجميع أترابا أو متقاربين فى السن وكنا نقضى سويعات اللقاء فى أسمار لطيفة واحاديث طريفة وفكاهات بريئة . وسرعان ما ملت الى الشبابى ميلا كاملا دون بقية الجماعة لأنى لمست فيه مشابهة من

أفكارى واعجابا بنفس أعلام الفكر والأدب الذين كنت أعجب بهم وأتبع آثارهم . وكنا في ذلك الوقت قد بدأنا نكتشف العقاد في كتابه « الفصول » و « المطالعات » والملازنى في كتابه « حصاد الهشيم » ومخائيل نعيمة في « الغربال » وجبران في « العواصف » و « الأجنحة المتكسرة » وقد فتح هؤلاء الكتاب عقولنا على عالم جديد من الأفكار والمفاهيم والمقاييس للأدب .

ولا شك أن هؤلاء المفكرين هم الذين قادونا الى قراءة المعرى وابن الرومي كما أن جبران اغرى الشابى بالبحث عن الأدب الرومنتيكى المترجم للعربية ودراسة شعر ابن الفارض وابن عربى اللذين كان يتحدث عنهما جبران في فصوله .

وتخرجت من دار المعلمين في صيف 1927 وباشرت مهمة التعليم لأول مرة في أكتوبر من السنة نفسها في قرية « بنى خلاد » التى تبعد عن العاصمة بنحو 34 كلم - أما الشابى فبقى بتونس العاصمة لاتمام دراسة الحقوق التونسية ولم تلبث المكاتبة أن بدأت بيننا فجاءتنى منه أول رسالة في 29 محرم 1348 (7 جويلية 1929) وظلت الرسائل بيننا لا تنقطع حتى قبيل وفاته بشهرين فقد جاءتنى منه الرسالة الأخيرة مؤرخة في 12 أوت 1934 وفيها يقول :

« اننى اليوم أفارق الحامة راجعا الى توزر التى طال عنها »
« غيابى من نحو ما يزيد عن أربعة أشهر - واننى لأحمد الله »
« اننى أتيت منها سقيما متعبا موهون القوى لا أملك »
« فى نفسى عضوا وتعيينى الخطوات اليسيرة وأرجع اليها »
« معافى بعض العافية واحسب أن قلوبى على الحاضرة »
« سيكون فى أواخر هذا الشهر أوت . . . »

وقدم الحاضرة ولكن المرض اشتد عليه فى سبتمبر فنصحته الطبيب بالاقامة فى أريانة . وهناك زرتة صحبة الأخ مصطفى خريف ولم أكن أدرى أن تلك

الزيارة كانت هي الأخيرة وأنه قدر لي الا اراه بعدها . هذه قصة بدء التعارف بيني وبين الشابي الى أن فرق الموت بيننا .

أما سبب دوام الصلة كل تلك المدة - وان تخللها فترات سكوت وامسك عن المراسلة - ففي رأيي أنها ترجع الى ما كنت ذكرته في دراسة موجزة عن الرسائل نشرت بمجلة « الأفكار » وهو ان كلامنا كان في غربة روحية . كان هو في قرية « الشابية » وأنا في قرية « بنى خلاد » وكنا نحس بالحاجة الى التعاطف وليس له في قريته من يعاطفه ويفهم روحه ويستمع الى أحاديث نفسه . وكانت أغلب صحف ذلك الوقت رجعية مناهضة للأدب الحديث لا تفتح صدرها للشبان المجددين ولا ترحب بأفكارهم واساليبهم الكتابية « الجبرانية » فكان تبادل فيما بيننا الآراء والأخبار الأدبية ويحدث بيننا هذا التجاوب الذي لا بد منه للأديب الناشئ - فما نشر أحدنا شيئاً الا وجد صداه في الرسائل المتبادلة وما ظهرت فكرة في عالم الأدب أو نشر كتاب أو مجلة جديدة أو كثر الحديث حول حدث فكري هام الا وقع التراسل بيننا . وأعترف هنا أن فضل الشابي على كان عظيماً فطالما حرك منى خامر العزيمة وبعث في نفسي من حيوية نفسه وصفاء روحه ما طهرها من أرجاس المادية في مختلف صورها . وطالما أنقذني من الاستسلام الى رتابة الحياة اليومية في القرى وأخرجني من حالة الخمول والكسل التي يتعرض لها المعلم الشاب المنقطع عن حياة الحواضر - وهو الذي نهني الى مواقف واجتناب مزلق كدت أنحدر اليها بتأثير الوسط حين جعلني أؤمن مثله بقداسة الفكر وعظمة الأدب والتسامي به ابدا مهما كانت الأحوال والظروف .

هل كان سبب دوام هاته العلاقة في متانة اواصرها وصفاء ينبوعها أن كلا منا وجد في صاحبه ما يتم به مكونات شخصيته التي كانت في طور التكون والتكامل ؟ هل أثر أحدنا في الآخر وأى نوع من التأثير ؟ هل جنى كل منا فوائد عملية في تكوينه الأدبي من جراء هاته الصداقة ؟ ذلك ما أتركه لمن شاء أن يبحث عنه من خلال هاته الرسائل في جملة ما سيبحث عنه من أمور ربما تتجلى من حديث الشابي عن آلام نفسه ومتاعب حياته والتفانات ذهنه ، خصوصاً والشاعر يتحدث في رسائله حديثاً بسيطاً خالياً من كل بهرج وتزويق يتطلبه فن الكتابة .

وحسبنا اننا قمنا ببعض الواجب نحو الصديق العزيز حين لبينا رغبة محبي أدبه والباحثين عن أسرار روحه بنشر هاته الرسائل على علاتها .

سوسة في 8 أوت 1965

محمد الحليوي

تفسيرات

(1) رمزنا لأسماء بعض الأشخاص الوارد ذكرهم في الرسائل - كلما لم يمكن ذكر الاسم كاملا - بالحروف الأولى من أسمائهم وكذلك أسماء بعض الصحف وربما حذفنا الاسم بتامه وعوضناه بنقط أو نجوم .

(2) كان الشابي - رحمه الله - يؤرخ رسائله في الغالب بالتاريخ الهجري إلا أنه في رسائله الأخيرة صار يستعمل التاريخ الميلادي وربما استعمل التاريخين في آن واحد - وقد حرصنا على وضع التاريخ الميلادي بأسفل الصفحة لكل رسالة اقتصر فيها على التاريخ الهجري وذلك لتسهيل المقابلة بين الرسائل كلها .

(3) كان الشابي يفتتح رسائله الافتتاحات مهودة مثل : الحمد لله أو : حمدا وصلوة وسلاما ، جاريا في ذلك على العرف المتداول في المكاتبة على أنه في بعض رسائله الأخيرة قد عدل عن هاته التحميدات فحذفنا الافتتاحات في الرسائل التي وردت فيها دون أن ننبه على ذلك .

(4) من الملاحظ في الرسائل المخطوطة أن الشابي كان كثير السهو في كتابة الهمة حسب قواعد الرسم وكذلك كتابة الحرف المصدرى « أن » مع لا النافية فإنه في الغالب لا يدمج الحرفين كما يقتضيه الرسم القياسي . وربما سهيا عن رسم بعض الحروف أو وقع في أغلاط نحوية وصرفية . ولما كان ذلك يقع بقله وكان مبعثه في نظرنا السهو والعجلة فإننا أصلحنا ما لا يسع تركه واحترمنا ما لم يكن من ذلك القبيل . انظر مثلا الرسالة رقم 29 واستعمال كلمة « استمتاعها » و « ذكرها » .

(5) نعتقد أننا نشرنا كل الرسائل التي وصلتنا من الشابي والتي كنا نحتفظ بها كأنفس الأعلق . غير أن الحاج بعض أصحاب المجلات والصحف التونسية لإعارتهم نماذج من خط الشابي ، وتلبية طلب بعض مؤسساتنا الثقافية التي أقامت معارض لأثار الشابي قد جعلتني أعثر على جزء من رسالة لم أجد جزأها الأول - والغالب على الظن أنها بقيت عند بعض من أعزناهم نماذج خط الشابي وطال العهد عليها فلم نسترجعها في الإبان - كما أن أصل الرسالة المنشورة هنا برقم 3 قد بقي جله عند صاحب امتياز مجلة « الأفكار » ولم يرجعه لي رغم المعاولات التي بذلت لاسترجاعه وقد نبهت إلى ذلك في مكانه .

(6) لعل من المفيد أن أذكر الأماكن التي نشرت فيها جانبا من رسائل الشابي بمناسبة حلول ذكراه في شهر أكتوبر من كل عام وتخصيص بعض الأعداد أو الصفحات لهاته الذكرى في صحفنا ومجلاتنا التونسية :

- (1) الرسالة رقم 3 نشر معظمها بمجلة « الأفكار » (نوفمبر 1936)
- (2) الرسالة رقم 8 نشرت في جريدة « الزيتونة » (نوفمبر 1954)
- (3) الرسالة رقم 25 نشرت في مجلة « الندوة » (أكتوبر 1953)
- (4) الرسالة رقم 28 نشرت بمجلة « الفكر » السنة الثانية (أكتوبر 1956)
- (5) الرسالة رقم 29 نشرت بمجلة « الفكر » السنة الثانية (أكتوبر 1956)
- (6) الرسالة رقم 22 نشرت بمجلة « الفكر » السنة الرابعة (أكتوبر 1958)

الرسالة الاولى

في 29 محرم الحرام سنة 1348 (*)

اخى الفاضل وصديقى الحميم سيدى محمد الحليوى

تحية صديق ومودة اخ

وبعد فقد عزم الاخ سعيد ابوبكر على ان يتولى ادارة وتحرير مجلة « الصادرات والواردات » لكى ينقذها من ادارتها العاجزة الاولى ، ولذلك فقد اخذ يأخذ من اصدقائه طرائفهم الادبية اذ انه يريد ان يجعل مشربها ادبيا محضا ولذا فانى ازف اليك هاته البشارة لكى توجه لى باسرع ما فى جهدك قصيدا جميلا أو كتابة شيقة مما عودنا قلمك الجميل . اما لو سألتنى رأبى فانى اود لو نفذت ما كنت عزمتم عليه من جعل عنوان اكبر خاص بك اتنشر تحته آثارك الادبية والفلسفية .

وقد كنت اود لو حضرت مسامرتى الاستاذ اسكندر شلفون حتى تسمع اللهجة الحطائية الرائعة والروح التمثيلية الرائقة والذوق الساحر والفن الصحيح .

لقد وددت ذلك وانتظرت ولكن أبى الله الا ان لا يكون ذلك وليس لى بعد ما ذكر ما أذكره لك وانا عجول الا ان مقالك الذى ادرجته بالنهضة تحت عنوان « فكرة تختمر » (1) قد نشرت اكثره مجلة الرابطة الشرقية وهذا ما يحدونى الى ان أستحثك لشحذ عزمك على نشر موحياتك وأن تعطى لنفسك ما لها من حرية فكرية وحظ فنى فى هذا الوجود .

اما الشيخ . . . فقد أحدثت تلك الرسالة القبروانية (2) فى نفسه من الرجة أعنف مما أحدثت بنوادى القيروان ومجتمعاتها وما زالت تأخذه الراجفة تتبعها الرادفة حتى نشرت النهضة مقاله الاخير فكانت خير ما نفس على نفسه الحرجة وقلبه المغموم وان كنت قد عنفته كثيرا على كتابة مقاله بمثل ذلك الافحاش السافل واللهجة الحانقة ، فما زاد الا عتوا واصراراً .

(*) 7 جويلية 1929

ولما تلوت عليه كلمتك التي طلبت منى ابلاغها اليه اجاب بان مقالة النهضة
ستقر ذلك الزلزال وتأخذ مكانتها من النفوس .

وليس بمستطاعى ان أفيك حق الشكر لما قمت وتقوم به من الاعمال نحوى
وانما حسبى أن أقول حيا الله فيك تلك الاريحية العالية وتلك الاخوة
الصادقة والولاء الجميل ودمت للادب السامى روحه الفياضة العاملة وقلبه
النابض الخفاق ولاخيكم المخلص

بلقاسم الشمايى

حاشية :

أرجو العفو ان لم أتبسّط معكم فى الحديث ولم أطارحكم خواطر
الادب فان لى الان من الاعمال المتوفرة والمشاغل المتراكمة ما لا
أستطيع معه كتابة الكلمات .

ولا أزيدكم حثا لتلبية ذلك الطلب الذى اسلفته وعسى ان لا تكون
عقباه كعقبى ذلك الكتاب الذى وعدت بتوجيهه الى لما كنا ببني خلاد
ثم أخلفت أو نسيت ؟ لست ادرى .

رسائل الحليوى

القيروان جوبلية 1929

أخى العزيز

حاطك الله بعنايته ووقاك ، وابقاك للادب تعلى من شأنه ، وتقيم المنسك من بنيانه ، ثم عليك سلام أطف من روحك وأرق من شمائلك .

وبعد فقد اتصلت بكتابك الكريم محلى بحسن الظن الذى لا حيلة لى فى رده - لكنى لم أتسلمه الا فى يوم التاريخ لانه أعطى خطأ الى ابن عم لى يشاركنى فى الاسم ومكان الاقامة ويوسم بالاديب أيضا فلا لوم على اذن اذا أنا أخرت الرد الى هذا اليوم .

لقد سرنى كثيرا تولى الاخ سعيد أبو بكر شؤون تلك المجلة .

وأخاف أن يحجم أمام عقبة من العقبات أو تصده ضائقة مالية عن اتمام ما بدأ به ، ويحسن قبل البدء أن يفكر مليا فى مسألة المال ويضع للمجلة موارد ثابتة تقوم بنفقاتها والا كان مآلها مآل أخواتها الكثيرات . وبعد ذلك تأتى مسألة جمع الطرائف الادبية والأثار القلمية . وعلى كل فسأبذل الجهد لاكون عند حسن ظنك بى ، لكنى أرى أن مشاركتى فى تحرير هاته المجلة فى الصيف ربما تكون غير ممكنة أو عسيرة . ذلك لاننى أصبحت فى هاته الايام عاجزا عن القراءة والكتابة والتفكير وكان هاته الحياة التى أحيهاها فى هذا الوسط قد حجرت رأسى فاصبح كتلة من الصخر يضايقنى حملة . وانى لأجس بفراغ هائل فيه نشأ - فيما أظن - من كثرة ارتياد المجتمعات التى لا يدور الحديث فيها الا على كل سخيف تافه .

لم تعلمنى عن الزمن الذى حدد لاصدار المجلة ولا الفترة التى تكون بين صدور كل عدد أى هل هى أسبوعية أم نصف شهرية ، وربما ارسلت لك أو للاخ سعيد المقال الاول الذى أرجو أن يكون موضوعه شرح العنوان العام الذى سأكتب تحته خواطرى وسأكتب المقال الثانى بعد انتهائى من مطالعة كتاب الكاتب الانجليزى ويلز وفيه يصور المدينة الفاضلة كما يجب أن تكون فى القرن العشرين ومعنى المدينة الفاضلة المثل الاعلى للحياة الاجتماعية الخ . . . ولملك تعرف أن كلمة « طوبيا » أو « اثيوبيا » هى التى تدل على هذا المعنى فى اللغات الادوية .

لقد أساء الاخ ٠٠٠ لنفسه من حيث اراد ان يحسن اليها وينفس عنها ذلك لان صدور الرسالة القيروانية أوغرت المصدور على ع.ق. واشترك في مقتته وازدراؤه المستنير والجاهل زغما على أن الرسالة لم تحو هجرا من القول أو فحشا في الرد - فلما صدر مقال «النهضة» يحتوى على تبرئة الاخ ٠٠٠ لنفسه أولا وعلى الاسفاف في السب والشتم ثانيا قال الناس « ان هم الا أطفال يتنازرون بالالقاب » وقال آخرون ان هم الا كالعجائز يتبادلن السباب وبذلك خسر الشيخ ٠٠٠ أشد أنصاره تعصبا له وعظفا عليه ، وهذا كلام يطول لو شرحت لك طرفا منه ولكنه معاد سئمته نفسى وأصبحت لا أطيق سماعه بله شرحه وتفصيله .

هذا وانى اعتذر اليك نفس اعتذارك من كونى لم أطارحك أحاديث الادب ولا عذر لى الا العجز عن الكتابة في مثل هاته الظروف ومثل هذا الجو الحار الذى يرغمك على أن تنام وتاكل وترتاد المجالس وتجارى الناس فى سخافاتهم ولا يشجعك على تناول قلم أو فتح كتاب او حتى قراءة جريدة ولعل مستقبل الايام يكون خيرا من حاضرها والسلام من أخيك المخلص :

« محمد »

حاشية :

الهمة مبذولة في جمع الاشتراكات .

سمعت أن كتاب ساعات بين الكتب وصل الى تونس وهو يباع عند (الامين) فان كان ذلك حقا فالرجاء من الاخ أن يكلفه بارساله الى بعنوانى الى القيروان بطريقة الدفع عند التسلم .

بارك الله فيك والسلام .

المراتة الثانية

في صفر الحير سنة 1348 (*)

حضرة الاديب المجدد الاخ الفاضل الشيخ سيدي محمد الحليوي .

تحية عاطرة وسلاما جميلا .

وبعد فقد وددت لو كاتبك بما أريد ولكن هو القدر يأبى الا أن ينفذ احكامه
فقد شاء ان لا أكتبك الا لاما رغم لهفى الى مراسلتك والاستمتاع بما يمليه
قلبك وعقلك ويخطه يراعك الحر . وشاء أن لا أرسلك الا بما لا تطمئن اليه
نفسى من الأبحاث الادبية التى هى خير ما تمليه علينا الحياة .

لقد ذهبت منذ ايام بناء على رغبتكم الى مكتبة الامين وسألته عن كتاب
« ساعات بين الكتب » للاستاذ الجليل العقاد فنبأنى انه لم يتصل به لحد الآن
ولكنه سيأتى عما قريب ثم ذهبت أول أمس التاريخ الى مكتبة الثمينى وسألته
عن الكتاب فألفيته عنده وعلى ذلك رغبت اليه أن يوجه اليكم نسخة يستخلص
تمنها عند الوصول فلبى الطلب وأخبرنى انه سيوجهها اليكم أمس التاريخ .
وقد اطلعت على الكتاب قبل أن تكاتبونى فى شأنه اطلعنى عليه الاخ الاديب
الفاضل محمود خروف فاستعرتة منه وتمليت بما فيه من صور الفن ومثل
الحياة ما لا ينتج الا عن ذهن جبار ولود ، وعبقريّة نادرة خارقة . أما لغة
الكتاب وأسلوبه فهو الأسلوب القيم الجميل الذى لم يكتب العقاد فيما سلف
خيلا منه - على رأيي طبعا .

وقد كتب العقاد فيما كتب عن « شكسبير » كتابة لو علم شكسبير أنها
ستكتب عنه لمجد نفسه الف مرة ، كتب عنه كتابة لا أحسب أنها كتبت عن
بشرى من قبل ، فقد صور العقاد فيها شكسبير بصورة الالهية عليها جلال
الالوهية فى جدها ولعبها ، فى حزنها وفرحها ، فى بؤسها وسعادتها . وماذا

(*) 30 جويلية 1929

يمكننى أن أقول ؟ ان العقاد لم يجعل من شكسبير الا الاها صغيرا بشريا
يخلق فى دنياه الصغيرة صورة حية كاملة من صور الانسانية المتباينة . صوراً
ملأى بمعانى الحياة الالعبه العابثة ، والجادة العابسة . والشاعرة المفكرة .
والمجنونة التائهة .

والى هنا أقف القلم لأن المجال حرج والزمان قصير . فانا الآن على قدم
السفر اذ أننى سأغادر الحاضرة الى بلد زغوان بعد الزوال ولدى من مشاغل
العمل ومتاعب السفر ما ينوء به الجليد العتيد . لقد أحببت أن اكتب لك كما
اشاء فارسل النفس على سجيتها والقلم على طبعه ولكن مشيئة الدهر فوق
ذلك فانا وحقك أختلس الوقت اختلاسا لاحرر لك هذه الكلمات ولعلى أجد بعد
الآن سعة من الوقت ومنتدحا مما أنا فيه فأحدثك بما أود وكما أود . أما الآن
فاعذر أخاك فاننى والله لفى شغل ما لى طاقة بمثله ولا لى جلد على ما هو دونه
فكيف به فى هذا اليوم .

يجب على الذهاب الى « حفار الرسوم » لآخذ منه حفريه الكتاب (3) وان
اذهب الى السيد زين العابدين السنوسى لاصحح الكراس الاخير من الكتاب
تصحيحا أوليا ثم لأضع جدول الخطأ والصواب للكتاب كله ! الآن ! نعم
الآن ثم لأسمع المقدمة التى لا ادزى هل أتمها ام لا ثم لأصاحب الاخ الشاعر
الرقيق مصطفى خريف الى زين العابدين وبعض اصحاب المكاتب لاعلمهم أنه
هو الذى يجب ان يتسلموا منه النسخ التى لم نعين مقدارها لحد الآن ولكننا
سنعيه بعد ان سمحت هاته المنطقة الضيقة من الزمن التى لا زالت تتقلص
وتنكمش حتى اكاد اختنق من ضيقها وخرجها الى غير ذلك من الاعمال
الضرورية التى لا غنية للمسافر عنها . كل ذلك - ان لم أنس أشياء اخرى -
يجب على القيام بها وحدى فى عاتق الساعات القليلة الباقية !

ماذا يمكننى أن ازيدك ؟ ليس لى الا ان اقول آسال لآخيك العون فيما يحمل
من اعباء تنوء بحملها الجبال .

بلغ تحياتي الى كل أديب مخلص لقلبه وأدبه ومقدر لما يجب على الأديب
نحو أبناء العالم ولكم تحيات قلب ملؤه الود الأبدى والاخاء الخالد .

اخوكم بلقاسم بن محمد بن بلقاسم الشامي

ملحوظة :

سيحضر الكتاب بعد أربعة ايام على الاقل وبعد اسبوع على الاكثر
وقد كنت عازمة على ان أبقى بالحاضرة الى ان آتته ولكن حدث ما لم
يكن في الحسبان فقد جاني الى الحاضرة أول امس التاريخ من أعلمني
بان الوالد مصاب بمرض ألزمه الفراش وانه غاضب على لانني اتممت
أعمال الامتحان (4) ولم ازره وهو في مرضه ولهذا فاني تركت
الكتاب وعزمت على ان أغادر الحاضرة واترك الكتاب لطباعه لولا ان
تكفل الاخ مصطفى خريف بان يقوم عليه في بقية الاعمال وهي لا
تتجاوز مراقبة تفسير الكتاب وحمله بعد اتمامه الى محله يعلمني بذلك
ليوجه النسخ الى توزر اذ انني سأكون بعد أسبوع او اكثر بقليل
بتوزر مع الاهل ان شاء الله . عفوا فليس لدى متسع لكاكتبك اكثر
• مما كتبت .

رسائل الخيوى

القيروان موافى جويلية 1929

عزيزى الاخ النابغ

عليك سلام الله وفضله السابغ ، ثم اليك تحيات واشواق قلب اضناه
الوجيب ورماء شحط البعد بمستعر اللهيب .

وبعد فاليك أيها الاخ الاعز أقدم تهانى الحالصة بنجاحك فى امتحان
الحقوق أو بعبارة أخرى أهنيك بأول خطوة. خطوتها نحو معترك الحياة
الرهيب ذلك المعترك العتيد القاسى الذى لا يرحم ضعف المستضعفين ولا
بؤس البائسين ذلك المعترك الهائل الذى لا يثبت فيه الاكل جبار قوى ولا
يحتمل الصمود لاعاصيره الاكل مدره درى - فالله أسأل أن يوفقك الى اتمام
ما بقى من الخطى ، وأن يقدر لك خير هذا العراك الهائل . وإيقيك
شره ومتاعبه .

سيدى الاخ - لقد وصلنى « ساعات بين الكتب » قبل وصول كتابك
بساعات وقد بلغنى قبل وصوله أن موزع البريد أتانى به ولكنه ارجعه الى
ادارة البريد حين لم يجدنى - ولعلك تعجب اذا قلت لك اننى بت تلك الليلة
كالمحموم أهذى بين اليقظة والمنام . ولم أرقد الاغرا - وما كاد الصبح يبشر
بطلعه حتى طارت الى ادارة البريد وأخذت الكتاب وبأسرع من لمح البصر
فتحتة وتصفحته وكان قلبى يخفق عند كل عنوان أتلوه من عناوين تلك
المقالات - وقد القى الى موزع البريد رسالتك الكريمة وأنا أتلو فصل
« الشعر فى مصر » وكنت فى باطن نفسى أسخط على الظروف التى جعلتنى
ابدا بقراءة هذا الفصل لأنى رأيت العقاد يتعصب لابناء قومه وتتغلب عليه
نزعة القومية على نزعة الصراحة فيقر أن مصر لم تنجب شاعرا من غرار
أولئك الشعراء الملهمين القائمين برسالة الحياة فى هذا الكون - ولكنه بعد
أن يسأل التاريخ القديم والحديث عن شاعر واحد من طراز اولئك الشعراء

العظماء ويجيبه بالنفي والسلب يرجع ويقول ان العاطفة والشاعرية من طبيعة الامة المصرية ويروح معللا ذلك بعلم شتى فباى قوله ناخذ وما هو السبب فى عدم ظهور شعراء فى مصر اذا كانت هى أمة شاعرة . وعلى كل فان كلامه فى هذا الامر لم يقنعنى ولم استطع متابعتة فيه . وسأطالع بعد هذا الفصل كلامه عن شكسبير الذى شوقتنى اليه - وانى أشاطررك الرأى فى أن اسلوب الكتاب من أحسن ما خطه العقاد بعد كتاب « المطالعات »

عزيزى الاخ - اذا كنت تشكو من كثرة الاعمال وتراكم المشاغل وضيق الوقت وفرازه الى قرارة الابد فانا اشكو طوله وتمدده كما أشكو من فراغ البال وقلة الاعمال - لعلك تقول هنيئا له ذلك الفراغ الذى يشغل بالمطالعة والتفكير وما أسعده بعطلته التى تقضى فى الكتابة والتحرير ولكن وآسفاه فانى أصبحت كالمخدر عاجزا عن كل حركة لا أطلع فترا ولا أكتب سطرًا - ولعل ذلك يرجع الى سببين أصليين ؛ أولهما حرارة هذا الطقس التى ترغم الانسان على الرضى بحياة البطالة والكسل وعيش الاكل والنوم لما تحدثه تلك الحرارة من التخدير فى الاعصاب والرخو فى المفاصل وثانيها عادة ارتياد المجالس التى حدثتك عنها سابقا يندر أن تجد فيها من يحدثك حديث الادب والشعر واذا حاولت يوما أن تحملهم على ذلك ثناء بوا وسكتوا - فلا حديث الا على كل سخيف من الاحبار وكل مافون من القول أو ررىء من شخصيات القيروان ولا شغل للقوم الا بزيد وعمرو - ثم أنه لا مندوحة لى عن غشيان هاته المجالس والا مت ضجرا وتضاءلت كآبة . ولعلك تظننى من أولئك الافراد « الاجتماعيين » الذين لا يطيب لهم العيش الا فى تلك المجتمعات والمجالس المتحدقة . بل انى أوتر العزلة والوحدة وحياة الروية والتفكير ولكننى فى المدة الاخيرة أصبحت متشائما متبرما بالحياة . فاذا ما خلوت لنفسى أزانى مضطرا للتفكير فى منفصاتها والتبرم من متاعبها - ولا أزال اتساءل : رباه لماذا أعيش ؟ وما هى غايتى من هذه الحياة ؟ حتى يضيق صدرى ويضيق ويضيق - وأحس بالضغط يتزايد ويتعاضم فى نفسى الى درجة الانفجار - وقد وجدت شيئا من السلوى فى هاته المجالس السخيفة واتخذت

منها نافذة أطلع منها على مختلف الاخلاق ومتبائن الطبائع ولكنى أضعت الى جانب ذلك حساسيتي والاستفادة من آلامي وصرت أتداوى من الحمر بالخمير كما يقال

لعل اطلت عليك بلا فائدة - ولعل هاته الصورة التي قدمتها لك لحالي النفسية الحاضرة لم تكن كما أرجو من الدقة والتفصيل ولم تحتوى على شكوى واضحة ابشأ اليك ، يا شاعر القلب والاحزان . واذا لم اقدر على هذا الذي رجوته : فما هو لاضطراب البال وجمود العاطفة وبلادة الحس التي أعانيها .

أخي - طال انتظار (الخيال الشعري) واشتاقك النفس لمناجاة روحك من خلال سطورهِ ومجادته نفسك الكبيرة المهمة لعل ذلك يخفف شيئاً من أليم الشوق ومر التوق .

مأفعل الله بمجلة سعيد ابي بكر - ولعل الدافع الذي دفعه الى ذلك مادي اكثر من كونه أدبيا او لعله مشروع من تلك المشروعات التونسية التي تقبر ساعة تولد .

بلغ سلامي الى اصداء الجبل واسراز الغاب والى كل شحرور يتغنى وكل بائس ينتحب والسلام عليك من أخيك المهجب بادبك الفض

محمد

حاشية :

ستجد مع هذا اسماء وعناوين الذين اشتركوا في « الخيال الشعري » ودفعوا الى أو الى الاخ الفائز معلوم اشتراكهم وسوف احاول تشريك بعض الزملاء في سوسة لاني سأحضر عن قريب المؤتمر الذي سينعقد في هاته المدينة للنظر في شؤون التعليم والمعلمين ودمت لآخيك المخلص :

« محمد »

المرآة الثالثة

في 25 صفر سنة 1348 (٢)

أخي الفاضل

تحية وشكرا

وبعد فأننى أود أن أحادثك وأناجيك وأصعبو لأن أرافقك وأماشيك في تلك السبل التى جال فيها يراعك ولكن بماذا ؟ أبهذا القلب الذى كسرته صخور الحياة ؟ أم بهذه النفس التى مزقتها أعاصير الوجود ؟ أم بهذا الفكر الواهن المخبول ؟ أم بهذا الوجدان التائه فى شعاب الغد الغامض المريب ؟

آه ! أيها الاخ ، ان الحياة لأهول من أن تتحمل على مثل هذه الحال السيئة الاليمة وان خضم الزمان لأرهب من أن يتقحمه المرء وهو كما أراه جبار فى تمرده قوى فى جبروته وطفيانه .

ها هى الاقدار العتية تعبت بنا نحن البشر الضعاف وترميننا بما لا نستطيع احتماله ولا نملك اعتزاله وأنى لنا ذلك ونحن أهداف اللجج الثائرة وأعشاب السيول الهادرة .

لقد ضقت ذرعا بالحياة يا صاحبي ولا اخائنى ، ان ظلت الحياة على ما هى عليه اليوم الا ذاهبا الى القبر أو فى سبيل الجنون . اننى احاول أن أخط اليك ما تحسه نفسى من مرارة الوجود وهموم الزمن الجائر فلا أستطيع الا مثل هذه الكلمات المتقطعة التى لا تكاد تبين عما أكابد من غصص العيش وبأسائه ولا تعبر عما يساورنى من الافكار المدلهمة كقطع الليل المظلم لا أذكر أن قد مرت على فيما سلف من عمرى أيام أنكد من هذه الايام أو أشد .

فى الصباح أجلس الى ابى الذى انهكه المرض وأضناه وأرمضه الالم واذواه وطرفى الى وجهه الشاحب العليل والى جفنه الذاهل الذى أذبله الالم وأذوته الحمى والى جسمه المتهدم الواهن وسمى الى نفسه المتقطع وتأوهات المتابعة وعهدى به ذلك الرجل الجليد فما أراه كذلك الا وتملاً صدرى الزفرات وتملاً عينى العبرات وتنطلق من قلبى المثلوم وصدرى المكلوم أنات القهر ودعوات

(٢) أوت 1929

الرجاء الى اله الحياة والموت وباسط النور والظلمات أن يشفى هذا الاب الواهى الطريح، وأن يشفق على صبيته انصغار الذين ما زالوا واقفين بباب الحياة واطل كذلك بين لب شارذ وعقل ذاهب ونفس شقية معذبة وقلب مقسم بين هموم الحياة واحزانها الى ان يأتى أخ لى صغير أو أخية لم تفقه بعد لفة الوجوه .
فما تزال تقلب طرفها الحائر المتسائل بين وجهى الشاحب الكئيب ووجه والدى المتعوب (5) ثم تذهب من حيث جاءت وفى قلبها الصغير خواطر وهواجس وآلام وأحلام الله اعلم بمعناها الغامض وبأثرها البعيد . ومن حين لآخر يرفع والدى بصره الى فلا يسترجعه الا مترعا بالدمع أو مخضلا بالعبرات تلك صورة مقتضبة من حياتى البائسة الدامية أرسمها اليك بقلم لا أكاد أجد مسكه .

آه ! رب ! أشقيتنى وما أشقيت أحدا من عبيدك !

رب ! عذبتنى وأنا عبدك الذى لم يجدف باسمك ولا كفر بنعماك !

رب ! رحماك فان عبء القدر على شديد .

تلك كلمات كثيرا ما ردها لسانى فى ظلام الليل وقلبي فى ضوء النهار كلما خلوت الى نفسى وانفردت باحزانى المخضبة بدماء القلوب .

انى لأسألك يا صديقى أن تضرع معى الى بارئ الحياة أن لا يفجعنا فى هذا الوالد الكريم الذى لا أستطيع ان أصور لك عطفه على أبنائه وعطفه على أبناء البشر .

ردد معى يا صديقى دعوات الى الله وصل بقلبك الطاهر مع هذا القلب الكسير الى ذلك الذى يسمع خفقات الأرواح ووجيب السرائر لعله يلبي دعواتنا التى نرفعها اليه .

لو رأيت يا أخى منظر اخوانى انصغار حينما يلتزمون حلقة واحدة ويهتفون بصوت واحد وبقلوب مخلصه : ربنا اشف ابانا لعلمت كيف تجيش النفس وتطفى العواطف وتسيل الدموع ولأدركت أن الانسانية البريئة الطاهرة انما هى فى اطفال البشر .

ماذا تريد أن أحدثك يا أخى بعد هذه الآلام اللافتحة التى يتوهج من خلالها جحيم البشر ؟ أتريد ان أحدثك بأسرار « نفسى الكبيرة الملهمة » - كما شئت أن تقول - ؟ ان هذه « النفس » يا صاحبي لأهون والله من ذرة رمل فى أكف الرياح . وان هذه « النفس » لأحق من تلك البعوضة المغتبطة بطينها بين المزابل وان هذه النفس لأشقى بما وضع الله فيها من شعور من كل أبناء

الحياة ! ان الذرة من الرمل لتعيب بها ما شاءت الرياح ثم تفر العاصفة وتسكن
فاذا بها ذرة هادئة ساكنة بين ذرات الرمال تحلم احلامها الابدية الحرساء وترقد
بعيدا عن ضجيج الدهور وضوضائها وأنات الحياة وارزائها . اما هذه
« النفس » فانها طائر معذب مطعون يسكب دماؤه فوق الصخور القاسية وبين
اشواك السبيل دون ان يظفر بعشه الذي عبثت به العاصفة ولا يسربه الذي
شردته النسور .

وان البعوضة الحقيرة الضائعة لأسعد في طينها بين المزابل من هذه
« النفس » التي ما تزال تبحث عن معين الحياة وكلما تقدمت خطوة في سبيلها
الرائع المخوف كلما لفتتها الهواجر وتلمعت أمامها سيوف القدر

ها أنا مدلج في سبيل الحياة الأتيم . وها هي الاشباح الرهيبة تتعقبني
وتسمعني اناشيد السخرية والازدراء ولكني سأظل سائرا منتظرا صباح
الحياة . وسأظل مرددا على هاته الغابات والكهوف ! أغنية الحيرة والحنين الى
أن يبدو الصبح أو يسكتني صراخ القبور :

يا بني امي ! ترى أين الصباح ؟ قد تولى العمر والفجر بعيد
أين نأبي ؟ هل ترامته الرياح أين غابي ؟ أين محراب السجود ؟
يا بنات الليل قد غاض الصداح منذ طاشت نشوة العيش الحميد
يا بني امي ! ترى أين الصباح ؟ أورا البحر ؟ أم خلف الوجود ؟

يا بني امي ! ترى أين الصباح ؟

سأظل سائرا في سبيل وسأظل نائرا في هاته الحقول الجرداء العارية بذور
الاسى الى ان يبدو القمر الجميل فتفتح الاكام عن ورود جميلة ضاحكة
ويتفرد البلبل من وراء الزهور سأظل سائرا في سبيل متفنيا بهاته
الاجاع والدموع وان كنت اعلم :

ان الدهور البواكي **غنية عن دموعي**

وان قلب الحياة ثخين بالجراح وان راحة الليل ملأى بالدموع الدامية .
عفوا يا صديقي ، فقد آلمتك وعصرت نفسك عصرا .

فقد كان بودي ان أسرك وان أسمعك اغاني المسرة بدل ألحان الالم . ولكن
ما ذا اصنع ؟ والمريض لا ينطق بغير الأنين ، والجرح لا يرشح بغير الدماء .
ان الظلم لا تلد الضياء وان المحزون لا يتكلم بغير احزانه : انت صديقي

وليس لي ان أعدك صديقي حقا الا اذا قاسمتني كؤوس العلقم وعصير الحنظل
كما سقيتني زحيق المسرة وسلسبيل الفردوس .

رغبت يا صديقي ان أتلو تحياتك وصلوات قلبك علي « اصدااء الجبل واسرار
الغاب والى كل شحرور يتغنى وكل بانس ينتحب » وذلك عهدى فى تحيات
الشعراء يا صاحبي فانها لتكون عذبة جميلة كأرواحهم الملهمة النبيله ولكننى
يا صديقى لم أبلغ تحياتك الا الى نفسى القريحة الباكية لانها هى « البانس
الذى ينتحب » فى سكون الليل كلما خلا الى نفسه وتفكر فى الحياة . اما الغاب
واسراره والجبل واصداؤه والشحرور والحانه العذبة الحبيبة فان عهدى بها
بعيد وان تلك السعادة الالهية الطاهرة وتلك المباهج والمناظر والاغاني لا تنعم
بها الا الابصار الطافحة بالاشعة المكحولة بالبسمات . اما الاجفان التى قرحتها
الدمع وأذواها الالم فانها قصية عن تلك المناظر منفية فى سجون الحياة . حسبي
الآن يا أخى فقد انهكنى التعب واعيانى ولو ظلمت أخط اليك لظلت الذكرى
تتبعها الذكر ، والعبرة تتبعها العبر ، وظلمت نفسى كما عهدتها أول مرة :
نلك النفس المترعة باندموغ التائهة فى فلووات الزمان المترامية .

اننى اشكرك يا صديقى على ما تبذل من جهد فى تشريك معارفك فى كتابى
الحقير واعترف أننى لا أستطيع أن أفيك حقك من الشكر والمنة وعندما يتم
الكتاب وذاك قريب فاننى أوجه لك النسخ المطلوبة اما المقتطع والمال فدعهما
معك اذ ليس فى استطاعتى الآن - وانا البانس القريح - ان اشتمل بالماديات
وما لف لفها . فلتترك المقتطع معك ولتشارك من تشرك فى القيروان أو سوسة
ولنا بعد هاته الايام فى ذلك حديث وتكننى ارجو ان ذهبت الى سوسة ان
تذهب الى صاحب المكتبة العمومية هناك وتعلمه بكتابى وتسأله هل يود ان
يشترى منه بعض نسخ ولعلى اوجه لك نسخ الكتاب قبل سفرك الى سوسة
لتريه الكتاب وتسمع لما يقول . سأذهب وجملة الاهل الى توزر يوم الاثنين ان
شاء الله وسأوجه اليك الكتاب من توزر فيما اظن .

بلغ سلامى الى كل من تراه أهلا لذلك من كل من كان له قلب كقلبك وروح
كروحك وعاطفة كعاطفتك النبيلة السامية .

ولا تنس يا أخى ان تدعو معى بشفاء والدى لعل الله ان يلبى الدعاء
والسلام من أخيك المخلص :

ابى القاسم الشابي

حاشية :

ان نفسى الجياشة الناقمة لم تترك لى فرصة أتلفت فيها لما عداها حتى لقد نسيت أمورا كثيرة كان من واجبي ان احدثك عنها ولعلك من هنا تفهم ان الانانية والاثرة عنصر أولى من عناصر النفس والا فما الذى دعانى لان انسى كل شىء فى نفسى لما طفحت بها احزانها . وصلت الى رسالتك صبيحة اليوم وانا جالس الى والدى على النحو الذى وصفت لك طرفا منه فكانت لنفسى خير مفرج ورفيق لان نفسى قد سئمت الكتب والاسفار وملت كل ما يعده الناس لتفريج الهموم . فله تلك الرسالة الممتعة القيمة كم خفت عنى من أعباء واعانتنى على موقفى العصيب .

قرأت الرسالة فوجدتك تتبرم بمجالس القيروان فقلت لنفسى ماذا يقول ويكتب لو شهد مجتمعات زغوان هاته المجالس التى لا تعرف الاغاثة القول وبذآة الحديث ورأيتك تسائل الله عن علة خلقك وتستفسره عن أى شىء خلقت له فى هذا الوجود ؟ فقلت هنيئا لك نفسك وهنيئا لك حياتك فقد مر بى ذلك الطور الذى انت تقطع اشواطه : طور السامة المتضجرة والملل المتسائل عن علة هذا الوجود . وكنت أتبرم به كما تتبرم وأتألم منه كما تتألم ولكنى ادركت الآن ان ذلك الطور انما هو يقظة النفس وتنبه المشاعر عندما تهيب بها بواعث الحياة ويا ليت لى ساعة من مثل ساعاتك التى أنت بها برم ملول ! فاشكر الدهر على نعمائه فقد أصبحت أرزح بأعباء الحياة كما يرزح الجمل بانقاله غير شاعر الا باننى مثل الكاهل ثقلا لا رحمة فيه ولا جمال وغير أمل الا أن يرفع الله عن كاهلى هذا الثقل الذى تنوء به قواى فانتفس ملء رئتى من هذا النسيم .

سألتنى عن مجلة سعيد أبى بكر وهل أن الداعى اليها مآدى أم فنى وانا لا أدرى على التحقيق كيف اجيبك وبماذا أجيب اذ كل مبلغ العلم عندى هو انه تولى ادارتها الفنية أعنى ادارة التحرير وانه تسلم منى قطعة من الشعر المنشور عنوانها : الشاعر . تحت عنوان اكبر اود ان اكتب تحته مواضيع مختلفة ان ساعد الدهر واشفق الله وهذا العنوان هو : صفحات من كتاب الوجود واعلم اننى رأيتيه يصحح ما طبع من المجلة ومن بين ذلك قطعتى .

أما أن الغرض فني أم مادي فالله ادرى به . ولكن الذي انبثك به بعد ذلك فهو ان السيد الهادي العبيدي الذي كثيرا ما كتب في جريدة « الصواب » قد ازاد ان ينشئ نشرة جامعة ولكن نزعها الغالبة أدبية وقد اخذ يعد لها عدتها الفنية فاخذ مني قصيدا عنوانه : « أغاني التائه » واخذ من كثير من الأصدقاء كتابات ومقالات كثيرة وبعض قصائد ومما سينشر بها قطع من الادب الغربي تكفل بترجمتها اديب شاب تونسي لا أعرفه ، وقد عقد اتفاقا مع السيد زين العابدين السنوسي على انه يشرع في طبعا بمجرد انهائه طبع « الخيال الشعري » هذا من الوجهة الفنية اما من الوجهة المادية فقد تكفل بها شاب تونسي كثيرا ما حرر في الجرائد الافرنسية وبالاخص جريدة اللواء التونسي « الليتندار » نسيت اسمه الآن ولئن حرمت مجلة الصادرات والواردات من آثارك الفنية فأنني أود ان لا تحرم هاته النشرة التي أخال انها ستكون قيمة من آثارك - أرجو ان توجه لي بكتابة او قصيد وأظنها تصلني الى بلد الجريد لأوجهها الى هذا الصديق ولك الشكر والسلام . أخوكم المخلص :

ابو القاسم الشابي

الرسالة الرابعة

تونس في ربيع الأول سنة 1348 (*)

• أخي الاعز •

تحيات قلب ملؤه الاخلاص والود وعواطف صديق تعرف مقدار ولائه وتقدر
وده حق قدره •

وبعد فمئذ ان كاتبك بتلك الرسالة الولهي التي حاولت أن اصف لك فيها
لونا من الوان حياتي التي أحيهاها في محيط تموج به الأحزان وتزخر - لم
أتصل بكلمة منكم حتى اليوم رغم تشوفى الى كلماتك وتحناني الى نعماتك •
لا أريد اليوم ان أثقل كاهلك باوجاع انهكت قواى وضعضعت كياني
الطليح وانما حسبي أن أقول ان الوالد لم يزل طريح الفراش وأن الطبيب
الاستعماري بتوزر يزوره يوميا نسأل الله أن يعجل بشفائه •

لقد اعلمنى الاخ مصطفى خريف ان الكتاب قد أنجزت اعماله وأنه قدم
نسختين الى المحافظة لتأذن له فى ترويجه ولكنها ما زالت تسوفه وتضرب له
الوعود الكاذبة اثر الوعود • ولا أدري ما الذى تعنى بذلك وان غدا لناظره
قريب •

ثم وجه لى الاخ زين العابدين السنوسى نسخة من الكتاب اشعارا بانهاائه
وقد اعلمنى الاخ مصطفى خريف بانه بذل كل الجهد هو والاخ زين العابدين
فى اقتناء الورق اللماع حتى يطبع عليه رسمى ولكن أبى القدر ذلك فانهم بعد
كل مجهود لم يمكنهم ان يطبعوا على ذلك الورق الا ثلاثمائة صورة واما البقية
من نسخ الكتاب فقد اضطرروا الى طبعها على الورق الذى طبع منه الكتاب
والامر لله من قبل ومن بعد •

بما أننى بعيد بتوزر فاننى سأكلف مصطفى خريف بان يوجه اليكم بمجرد

(*) اوت 1929

ما يتسلم الاذن من المحافظة بذلك 28 نسخة من كتاب « الحيال الشعري عند العرب » نسخة هدية اليكم هدية ود واخاء وصدقة والبقية 15 نسخة للذين أشركتموهم وانتم ببني خلاد على مقتضى الجذر الذي سلمتموه الى وال I2 الباقية للسادة الذين اعلمتني في كتابكم الكريم بانهم اشتركوا في الكتاب بالقيروان وفي الحتام تقبل تحيات المخلص أخيك على الدوام :

بلقاسم بن محمد بن بلقاسم الشابي

حاشية :

بما ان النسخ سيتولى توجيهها اليكم الاخ مصطفى خريف فستصلكم سبع وعشرون نسخة من طرفه وأما نسخة الهدية فسأوجهها اليكم من توزر اذ من الواجب ان أكتب كلمة الاهداء .
بيمينى .

رسائل الخليوي

القيروان في 2 سبتمبر 1929

أخي العزيز .

يعلم الله اني ما سلوتك ولا أنسييت ذكرك وأني لى أن أسلوك أو أنساك
وكل شىء حولى وفي نفسى يذكرنى فيك ، ويشوقنى اليك . ولكن هي
شواغل الحاضر وشىء من النكد العائلى جعلنى أركن الى السكون ، وأعاف
الكتابة ويلحق بهاته المثبطات جهلى لعنوانك الجديد بتوزر واعتقادى بان كتبى
ربما تتكادك أو تنقل على نفسك وأنت المكلوم الفؤاد المعنى ، الساهر على
فراش أيبك فى مرضه .

ولقد لحقنى من الغم والكتابة يوم ورد على كتابك الواله الحزين ما لا يوصف
ويشهد الله انى بكيت لبكائك ورثيت لحائك وقاسمتك الوجيعة والالم وبسطت
كف الضراعة الى واهب النور والحياة داعيا ان يعجل شفاء ذلك الوالد الحنون
ويخفف عنه وصبه وبلواه .

أخى كنت وددت أن اكتب لك كتابا مطولا أصف لك فيه ما وقع عندنا من
المضحكات المبكيات فى حفلات المولد النبوى هذا العام - وتصييدت الفرص
لذلك ولكن الشواغل الكثيرة حالت بينى وبين ما كنت أريد . ولئن فاتنى
التفصيل فلن يفوتنى الاجمال والاشارة العابرة .

خطب الشيخ فى حفلة المدرسة القرآنية خطابا طويلا مسهبا لآك
فيه كلمة الإلحاد والملحدين والتجديد والمجددين وتشدق باسماء مصطفى كمال
وطه حسين وعلى عبد الرازق . وليس فى الأمر غرابة ان يقف أمثال هذا
الشيخ ويقول مثل ذلك الكلام وليس هو أول من حفظ هاته الكلمات وجعلها
شغله الشاغل وحديثه المعاد وانما الغريب حقا أن يصدق الشيخ كلام بعض
كلاب الانسانية ودعاة التفرقة والتخاذل الذين أسروا اليه ان « المتطوع »
م . ص . م . يقول بين الناس فى مجالس سمره قرآنكم ومحمدكم - وقد راجت
هات الوشاية على الشيخ لمرض فى نفسه فاخذ يبرق ويرعد فى خطابه ويسب
ويشتتم ويستعدى ويهدد ويطلب ابعاد هذا « الجانى » من « جمعية الشبان
المسلمين » خوفا عليها من أفكاره الشريرة !! - لم يصرح الخطيب باسم
الذى يعنيه فى كلامه لكن سرعان ما شاعت على اللسنة الأقاويل وعلموا ان
المعنى بلا شك هو صديقنا م وقد رأيت من الغد الشيخ يذكر اسم من

عناه في مجالسه الخاصة بعد أن لوح به في ذلك الجمع الحاشد . فهل رأيت بحقك شيئاً اسمح من هذا؟ رجل يعد نفسه من طليعة المرابين وفي مقدمة العلماء المستنيرين يقف هذا الموقف بين اناس جهال لم يسمعو قط بطه حسين ولا يفقهون معنى كلمة الحاد ثم يقول كلاماً مبتدلاً ملاكاً كهذا الكلام ولا يلتفت الى مئات الصبية الصغار فيرشدهم بعبارات مفهومة الى واجباتهم المدرسية ويوصيهم بالكد والعمل ويحرضهم على الاجتهاد في تعلم العربية ويبين لهم محاسنها ومزاياها فينتقش كلامه في صفحات تلك القلوب الطاهرة ويكون له تأثير في نفوسهم وصدى بعيد .

وكان جديراً بذلك الشيخ أن يلتفت الى اولياء التلامذة ويحدثهم في شأن تربية ابنائهم والاعتناء بتعليمهم فينفع بذلك ويفيد . ماذا أقول ؟ لقد طوح بي القلم في كلام اشترطت الا أخوض فيه لانه لا يفيدك ولا يهيك .

قدم س ٠٠٠ الى القيروان وحمل كثيراً من الناس على الاشتراك في دليله وقد حادثته في مسألة المجلة فرأيت منه رجلاً يحرص على الماديات أولاً وبالذات وان ظهر له عمل أدبي فهو ثان وبالعرض على أن الرجل كما يبدو لي ، ليس بنى الفكر المتسع ولا القلم البليغ ولا الاطلاع الواسع ولا خير فيه ولا في كتابه ومجلته .

بقيت عندي مواضيع أخرى وددت لو اني أقدر على تناولها هنا في هاته الكلمة . ولا أذكر منها الا كلمة بقيت عالقة في ذهني منذ ورود كتابك الأخير وهي قولك (اني أجتاز الطور الاول من أطوار الانتباه) الذهني وانك لذلك تغطيني . وقد أحببت ان اذكر لك اني لم أصف لك حالتى النفسية تفصيلاً وبدقة ساعة كتبت لك ذلك الكتاب وانما جاءت تلك الكلمات عرضاً - ولئن صح ان هذا طور من أطوار يقظة الحس . فقد عرفت قبل ذلك طورين آخرين . فقد احسست ذات يوم أن شيئاً ينقصنى وانه لا طعم للعيش ما دام ذلك الشيء مفقوداً وعلمت أن الذى ينقصنى هو شقيقة النفس ، على حد تعبير يوسف غصوب : « عيل صبرى أيا شقيقة نفسى » .

وقد قاسيت من الآلام الروحية الممضة ما أقض على مضجعى وحرمنى منامى - وأحسست بظماً للحب لا أقدر أن أصف أعراضه في هاته الكلمة ، وفي هاته الاثناء قرأت « الاجنحة المتكسرة » لجبران وغادة الكاميليا لديماس وبكيت بالدمع الغزير لأول مرة في حياتى وعرفت كآبة المحبين وعذاب الروح ثم عرفت طوراً آخر وهو طور التأمل فى الحياة والشعور برهبة الكون والتفكير فى معضلاته . وفى هذا الطور كثر تساؤلى عن غاية الحياة وسر الوجود ، وجاءت

فكرة الموت والنفس والحلود تعذبني أشد العذاب وكان الجواب عن تلك الاسئلة والمعضلات فاتحة طور آخر آمنت فيه بأنه ليس هناك ما يدعو للتحمس لاي شئ، فالحياة وأبناء الحياة والناس وأوضاعهم وجهادهم وعناؤهم كل ذلك لا جدوى له . والحطيب انذى ينفخ أوداجه ويمسح عرقه ليصفق له الناس ، أو يقولون له أحسنت هو عندي رجل يستحق الرثاء لا الاعجاب ، والمناظر الذي يشم عن ساعديه ليناطرنى أو يباحثنى فى رأى أو فكرة أو عقيدة ولا يهमे الا أن يسجل على انتصارا ساحقا ولو بالتهريج والتبكيك هو عندي رجل يستحق الاشفاق والرحمة - واستحال الرثاء والاشفاق والرحمة الى نوع من السخرية لا أدرى هل يستمر معى فى حياتى . والخلاصة أنى أصبحت أشفق على هاته البشرية وأسخر من حركاتها كما يسخر المتأمل من حركات قرية النمال . وأسخر كذلك من نفسى التى تدفعنى لمشاركتهم فى حركاتهم واضطرابهم الباطل . والفرق بينى وبين الناس هو انى أعذب بسخريتى وهم ينعمون بهدوء أنفسهم . هاته باختصار حالة الأطوار التى اجتزتها وبلوت حلوها ومرها ولا أدرى هل وراء ذلك أطوار أخرى . ولئن تأسفت على شئ فى حياتى فما أسفى الا على هذه الأطوار التى مرت بى دون أن أقيد فيها خطراتى أو أدون آلامى ونفماتى . ويشهد الله أنها آلام ذهبت صامتة الى وادى النسيان والتحتت بعالم الآلام غير المشكوة .

والآن استودعك الله طالبا منه أن يقر عينك بشفاء الوالد وان لا يريك فيه ما تكره .

حاشية :

يصلك داخل هذا حوالة بها فرنكات I36 وهى ثمن سبع عشرة نسخة من كتاب « الخيال الشعرى » واما النسخ الخاصة بالقيروان فسوف أبلغها الى أصحابها والى الملتقى القريب . أخوك على الدوام :

محمد

المرآة الخامسة

زغوان فى ربيع الثانى سنة 1348 (*)

أخى الماجد النبيل
الف تحية وشكران

وبعد فماذا اكتب اليك ؟ وأنا فى ساحة تعصف بها الهموم وتنعقد من فوقها الاحزان وتخر عليها أمواج الدموع ان استمعت ائى نفسى لم ألف الا الاسى يبكى او أضخت الى قلبى لم اسمع الا النحيب أو قلبت طرفى فيما حولى لم أبصر الا ظلمات تتدجى من فوقها ظلمات .

ان المصاب قوى جسيم وان قلبى الرازخ بهموم البشر لا ضعف من ان يضطلع بكل ما فى هذه الدنيا من مصائب . اين صبرك يا رب ؟ فقد ضاق على الوجود وأين سلواك فقد مزقت صدرى الزفرات . عفوا يا صاحبى فانتى لا أستطيع ان أكتب اليك اكثر مما كتبت .

ودم لآخيك المحزون :

بلقاسم بن المنعم المرحوم محمد بن بلقاسم الشابى

(*) سبتمبر 1929

رسائل الخليوى

فى 4 اكتوبر 1929

أخى العزيز

أجمل الله صبرك

أبرقت لك اثر تلك النكبة المهولة وذلك النخطب الجلل ولم أشأ أن اكتب اليك لا لضيق مذاهب القول لدى ولا لعجزى عن تسليتك بكلمات أنتزعتها أنتزاعا واقتلدها من قلبى اقتلاعا فالخطب أعظم هولا مما يتصوره الوهم ، وبتخيله الحدس ، ولقد خفت - ان أنا استمعت الى ما يمليه القلب حقا - ان أفعل معك ما فعل المنفلوطى مع ذلك الاصم الذى رجا منه أن يخفف عنه بعض البلوى ويجعل له من بيانه سلوى فزاده يأسا على يأسه وبؤسا فوق بؤسه .

لك الله يا أخى لقد فقدت أمى قبل فقدك اباك وذقت آلام اليتيم وتجرعت صابه فاذا هو لا يتجرع - وكنت أرجو أن ترانى ولو يوما واحدا أجنى ثمار ما غرسته يداها . وتمهلت الموت ريشا أرد لها جزاء ما وهبتى من روحها وحياتها فلم يمهلى ٠٠٠ وهكذا انتزعتها من بين يدى وفجعتنى فيها الدهر الخوون وحطم بيده العتيدة القاسية ذك السراج الضئيل من نور الامل فى قلبى وأبقى مكانه أول ظلمة قاتمة عرفتها فى حياتى . ولقد قلت ساعة حثوت التراب على قبرها وشيعتها بأخر نظراتى : حرام على قلبى السرور بعد اليوم وحرام على شفتى الضحك بعدها . ولكن هو الدهر ٠٠ فها انذا اليوم أضحك مع الناس ، وهبا أنفا أسر كما يسرون . فاصبر ايها العزيز وما صبرك الا بالله وعليك من أخيك الذى يشاطرك وجيعتك وآلامك ألف حسرة وعبرة والسلام .

الرجاء السادسة

تونس في 13 رجب سنة 1348 (*)

أخي الفاضل .

قد انتظرت كتابك (المطول) ولكن عبثا كانت تمضي الساعات ثم الايام
ثم الاسابيع واخشى ان تلحق بها الشهور .

وبعد ، فماذا أخبرك به من انباء العاصمة ؟ انى ليستخفنى الفرح حين
اعلمك ان العناية السموية قد جادت علينا بمجلة ادبية ستصرف همها الى
الادب والى القيام بواجبه فى هاته الديار وانى اعلم انك ستقول كلا بل هذا
وهم باطل وسراب كدوب فكثيرا ما سمعنا مثل هاته الانباء الجميلة
المستحبة فاستخفتنا ولكن ما لعبت بالبابنا خيالاتها حتى تكشفنا عن سراب
فاذا الكل باطل واذا الكل قبضة من ضباب اعلم انك ستقول هذا
واكثر منه ولكن ليطمئن بالك ولتعتقد ان هذا الامل المنشود قد أصبح حقيقة
مائلة ما بين عشية وضحاها فقد أحرز الاخ زين العابدين على تلك المنية التى
طالما صبا اليها وهى اصدار مجلة ادبية علمية . أجل أحرز على مجلة اختار
لها اسم « العالم » وقد أخذ فى طبع هاته المجلة وفى اعداد العدة الادبية اليها
حتى تكون جاهزة كاملة آخر هذا الشهر الافرنجى وحتى تحيى الناس فى
رأس هاته السنة وقد اخذ منى قطعة شعرية لنشرها ضمن مجلته . ولا تظن
ان تلك أباطيل فان كثيرا من المقالات الادبية قد قدمت للطبع بمحضر منى
بل ان بعضها قد كنت حاضرا لتصحيح مسودته المطبعية « بروفة » .

(*) 15 ديسمبر 1929

ولذا فالرجاء ايها الاخ ان تبعث الى في اقرب وقت ممكن بنفثة من نفثات
يراعك أو بحث من ابحاثك القيمة الممتعة حتى يمكن نشرها في العدد الاول
من اعداد المجلة . لاننى لا يروق لى أن يؤخر مقالك شهرا آخر لان المجلة
شهرية فى هذا الاوان على الاقل . لا أزيدك تأكيدا فى المبادرة بتوجيه بعض
ابحاثك الادبية الى على جناح العجل فاننى ليلذ لى أن تطلع الامة التونسية على
ثمرات أبنائها الشبان المخلصين ويلذ بالاخص أن يكون العدد الاول حافلا
جم انخسوبة والانتاج حتى يكون شجما فى حناجر أحلاس الجمود وطعنة فى
أكبادهم وغلة لا ينطفى، لها لهب فى عباد الموت وأمساخ القديم .

وفى الختام تقبل تحية أخيك المخلص :

ابو القاسم الشابى

اننى أنتظر فاسرع بالجواب ! .

رسائل الخليوى

أخى الاعز

أحبيك من قلب ملؤه الاخلاص والمودة والاعجاب . وأشكر لك تلك الاريحية الكريمة التى دفعتك الى اخبارى بذلك النبأ السار المحقق لامنية غالية طالما تمنيناها وأحسسنا بانحاجة اليها وقد بعث فى رقيمك راكد العزيمة وأيقظ منى خامل الاحساس فنشطت لاتمام هاته الكلمات الواصلة لك صحبة هذا (7) ولا أدرى هل فيها ما يستحق النشر ويروق صاحب المجلة أو يوافق مشربها ولكنى على كل حال لبيت بها دعوتك واستجبت لحسن ظن منك فى أخيك أما الكتاب « المطول » فقد شرعت حقا فى كتابته منذ مدة وقد كنت أحس فى هاته الايام بثقل ذلك الوعد فمضيت فيه شوطا ولكن عرض من المواع والعراقيل ما عطلنى عن العمل .

وقد آثرت أن أرسل لك فى فرصة اخرى كلمتى فى الكتاب (8) كموضوع من موضوعات « المجلة » الا اذا لم توافق على ذلك .

وأما السيد زين العابدين فيمكنه أن يعتمد على فى موضوعات تكتب تحت عنوان جامع مثل « فى عالم الآداب والفنون » او ما فى معناه . كما يمكنه أن يعتمد على فى ترجمة أحسن القطع الشعرية والنثرية لافذاذ شعراء الغرب أى الفرنسيين على الخصوص لاني أعد ذلك من أحسن الوسائل لنشر مذهب التجديد فى الادب والدعوة اليه . وسأوجه لك عن قريب بقصيدة « الصلاة » للامرتين متى أتممتها . ولعلك تختار عنوانا مناسباً لهاته الترجمات .

وسلامى اليك والى كل الرفاق .

رسائل الخيوى

بنى خلاد فى 20 جانفى 1930

أخى الاعز
تحية وأشواقا

وبعد فالواصل لك مع هذا كلمة (9) كتبتها كما خطرت فى الذهن فى وقت كنت فيه نهبا مقسما بين واجبات المهنة والمنزل - ولا أدرى هل تستحق النشر أم الاهمال أولى بها وأجدر . وعلى كل فها أنذا فوضت أمرها اليك فما شئت فاصنع بها .

لو تدرى ياخى كم تنازعت مع نفسى فى شان هذا النقد لعذرتنى عن التأخير وانتوانى فى اتمامه حتى اليوم . فقد كنت حريصا جد الحرص على صداقتك ، سنينا بها صن انشحيح بماله وكنت أخاف أن تصدر منى كلمة او رأى يكون سببا فى سوء التفاهم بيننا ذلك ان شيطان النقد كثيرا ما زرع بذور الشقاق بين الاحباء .

فبربك دعنى - أيها الاخ - أتمتع بصداقتك وانعم بودك ، ودعنى أعجب بأدبك عن بعد دون ان ندخل جمهور القراء فى ما بيننا ، واقنع منى بان اكون شريكك فى جل آرائك ولا تلمنى اذا رأيتنى أعدل . فى آخر وقت . عن الكلمة الثانية التى وعدت بها فى آخر المقال .

ليس لدى ما أقوله لك الآن سوى الرجاء بابلاغ التحيات الى الاخوان الباجى والمهيدى وخريف والسلام .

رسائل الخيوى

بنى خلاد فى 21 فيفري 1930

أخى وصديقى العزيز

يصلك طى هذا نبذة مما كتبته عن تولستوى (10) وقد دفعنى للكتابة عنه ما رأيت من تنديد صاحب الكلمة المنشورة فى المجلة تحت عنوان « تونس وتولستوى » بتقاعسنا وعدم اهتمامنا برجال الفكر العالميين .

وانى لاستحى أن أكون سببا فى تجشيمك متاعب لاجلى، فان كان فى ارسال ما أكتب لك تكليف نك وشاغل يشغلك عن أعمالك فسأعدل عنه وان كان الامر خلاف ذلك فانى أكون مسرورا جد السرور ، متشرفا كل الشرف أن تكون صلتي مع المجلة بواسطتك وأكون مرتاح البال من هاته الناحية .

طالعت مرات ما كتبت عن الشعر فكان عندى أحسن ما فى المجلة ولا شك أنك ستتولى زعامة التجديد الادبى فى تونس ونكون نحن تحت لوائك .

وانى لاستحدثك على الكتابة فى ذلك المعنى ولواقه تحت عنوان خاص .

وكم أود أنا أيضا أن أكتب تحت عنوان خاص كما كنا تحدثنا عن ذلك فى العام الفارط .

سلامى الى كل الرفاق والى أخيك الصغير وعليك السلام والتحيات من أخيك المخلص على الدوام .

المرحلة السابعة

تونس : في شوال سنة 1348 هـ

أخي الفاضل
تحية وسلاما

وبعد فأننى اهنيك بعيد الفطر المبارك وأسأل الله لك أن يسبغ عليك
مسراته ويفضى عليك بركاته ويريك من نعمه ألوانا وان يرزقك عمرا سعيدا
خصيبا منتجا ، ينتعش به الأدب فى هذا البلد القاحل المحل الحديد ، ويهب
هبتة التى تززع الجذوع النخرة وتقتلع الصخور الجائمة فى وضح الطريق .

سألتنى أيها الاخ هل فى توجيه رسائلك الممتعة الراقية الى « العالم »
بواسطتى تعب يلحقنى أو وصب ينجر الى ؟ وماذا عساي ان أجيبك ان كان
تساؤلك حقا ؟ بل ماذا عساي ان اقول ان كنت جادا فى استفسارك ؟ يعلم
الله يا صديقى ان لا حرج على فى ذلك ولا نصب ، وان ما ظننت أنه يكلفنى
نصبا انما هو مبعث مسرة لنفسى وايقاظ لعواطفى التى اركدتها عقول الناس
الحامدة وكلماتهم البادرة التى لا تنبه فكرة ولا تحرك وجدانا . الا يسرنى
يا صديقى ان اكون انا اول من يطلع على ما تخطه يمينك وتقطر بسحره براعتك
الحية اليقظى ؟

ولا أنسى ان اطلب عفوك فأننى ما تأخرت عن مراسلتك لحد الآن ، الا لاننى
- علم الله - فى شغل شاغل وعمل متواصل ونصب كامل لراحة فيه ولا روح
وانما هو كرة اثر اخرى . ومجهود وراء مجهود ونفس صاعد كأنما يصعد فى
السماء وملل أليم سميك الحجب ليس له ما يهلل حواشيه أو يلقي على
ظلمته قبسا من نور أو شعلة وميض . لقد أعجبت وأعجب الناس برسالتك

(*) مارس 1930

الاولى في « العالم » اذ انها احاطت بما عرضت له احاطة لم نعثر على مثلها فيما رأيت، ولا عثر الناس . وليس لي من نقد عليها الا انك وعدت بمتابعة النقد ثم كفت وعسى ان يكون ذلك غمامة عارضة لا تلبث ان تنقشع ولا اخالك الا لا زلت جاهلا نفسي يا صديقي ولولا ذلك لما اعتذرت لي تلك الاعذار عن انتقادك كأنك به انما تقدم على عمل منكر . لا أظن الصداقة تقف الى هذا الحد في التعرض لحركات العقول لان الصداقة انما هي ضرب من حرية الروح ويقظة الفكر وانتباه العواطف فان كانت تشمل من حركة العقل وتصفد من أعضاء القرائح والعقول فلا كانت هذه الصداقة ولا كان قلب يحبوها شيئا من حنوه وحنانه . لتنقذني يا صاحبي ما دمت ترى الحق في جانبك ولانتقدك ما دمت اعتقد اني أتكلم بوحى الحقيقة المقدس دون ان يكون في ذلك ما يمس عاطفة أو يجرح ودا أو يؤذي وجدانا . ذلك منهبي أصارحك به يا صديقي وبودي ان تعلمه حق العلم وتدرية حق الدراية فانك ان علمته علمت ناحية من نفسي كانت لديك مجهولة وانا أود ان اكون لمن أوده وأصافيه واضح الجوانب لا تغشيه سحب ولا تحجبه ظلمات . . .

اما رسالتك الثانية فليس لدى متسع من الوقت لاجيبك عنها وحسبي ان اقول لك انها ستبرز في هذا العدد من « العالم الادبي » فقد اصبح هكذا اسم المجلة - وان اعلمك اني بها جد معجب فلله هي !

تقبل التحية من اخيك على الدوام :

ابي القاسم الشابي

المرآة الثامنة

تونس : في 20 شوال ومارس سنة 1930/1348 (*)

الاديب الكبير أخى الفاضل الاستاذ محمد الحليوى .
تحية وسلاما .

وبعد فأننى فى شوق الى اخبارك واحاديثك ونفثات قلمك وآيات بيانك .
فقد وعدت انك ستقدم الحاضرة ثم تصرم الاسبوع تلو الاسبوع والشهر اثر
الشهر ولم يات ولا جاءنا من ناحيتك نبأ وقد وعدت أنك ستكتب وتكتب . . .
عن كتابى (II) وعن تولستوى (I2) ، وعن أدب الفرنجة وانك ستترجم قطعاً
فلسفية وآيات شعرية . . . وغيرها ولكنك لم تنفذ من كل وعودك شيئاً . ما
هذا أيها الصديق ؟ ان تونس لفى حاجة الى ابنائها الذين يتدفق فى دمائهم
عزمات الفتوة ونخوة الشباب ونشوة الاحلام . . . ان تونس لفى حاجة الى
ان تتقدم بخطوات ثابتة الى سبيل النور والزهور . . . ان تونس لفى حاجة الى
ان ترفع رأسها عالياً حتى تشاهد أنوار السماء وشموسه وحتى تقبل شفيتها
أضواء النجوم . . . ولئن كانت تونس فقيرة الى هذا الضرب من ابنائها ، هذا
الضرب الذى يحن الى أن يعيش عيشة كلها حق ولذة وجمال وكلها احساس
وشعور وعواطف أقول ان كانت تونس فقيرة الى مثل هذا النوع من ابنائها
ليجب على هذا النفر القليل منهم أن يبذلوا كل ما فى جهودهم من عزم وقوة
وحمية وشباب ، حتى يستطيعوا أن يكونوا نشأ حيا مخلصا شاعرا بواجبه لأمته
وللحياة وللوجود بأسره وان يخلقوا فى الواقع ذلك الوسط الحى الجميل الذى
نتصوره فى احلامنا ثم نلتفت حوالينا فلا نلمح له أثرا ، واذن فلتكتب ولتعمل
ولتطرد عنك خواطر الراحة والسكون فان شعبك فى حاجة اليك وليس لك
شيء من العذر فى أن تسكن ولا تعمل فأننى لاجدر منك بالعذر وأنا بين
دروس قانونية متوافرة تكد الذهن وتقتل الوجدان ومطالعات فى القانون اكثر
تفتية للنفس واركادا للعاطفة واخمادا للتفكير من أى شيء فى هذه
الدنيا . . . اننى انتظر رسالتك الأدبية والودية بفارغ صبر فانها هى التى
تزيل عنى بعض هاته الوحشة التى أجدها فى كتب القانون وبعض هذا التجهم

(*) 21 مارس 1930

والعبوس اللذين فيهما في مطالعته . كنت حدثتك أن مقالك سيدرج في هذا العدد من العالم الادبي وذلك ما نبأني به الاخ زين العابدين أول الامر ولكن ضاق نطاق العدد عنه وسينشر في العدد المقبل آخر هذا الشهر واليوم أرائه الاخ زين العابدين مطبوعا ولكن هذا لا يدعوك الى ان تؤجل الكتابة الى الشهر المقبل فان هذا هو الذي لا أرضاه .

ماذا احدثك عن العالم - اولا - والعالم الادبي - ثانيا - لقد احدثت من الرجة في الخارج ما احدثت وغيرت نظرة الشرقيين الى تونس تغييرا ما كانوا يتوقعونه واصبحوا ينظرون اليها نظرة لم تكن من قبل . لقد كتبت عنها كثير من الجرائد والمجلات الشرقية ولا يسعني أن أستوعب لك حديثها كلها ولكنني اقول لك أن « المقتطف » قد قالت ما مضمونه ان من العار علينا ان تكون في تونس مثل هاته النهضة وهذا الشباب وهاته الحركة الفكرية ثم لا نعلم بها ولا نتحدث عنها فاننا ما كنا نحسب في تونس مثل هاته اليقظة الفكرية التي رأيناها في العالم التونسي والذي أرانا أن الشعب التونسي شعب يحس بالحياة حقا . أرايت أيها الصديق كيف كانوا يتصورون تونس قبل الآن ؟ لا اخالهم كانوا يحسبوننا الا كالسودان وأعماق افريقيا الجنوبية . وكتب شاب سورى الى الاخ زين العابدين كتابا قيما مستفيضا يستوعب ثلاث صفحات من الحجم الكبير يعجب « بالعالم » التونسي وبمحرريه وبالاخص « الاستاذ الحليوي » الذي استوعب مذاهب الأدب الفرنسي بطريقة لم يسبق اليها و « الاستاذ الشابي » الذي أبان عن فكرة قيمة دقيقة في فهم الشعر والنظر اليه - كما يقول الكاتب - ومصطفى افندي خريف الذي شابه كثيرا بشعره البائس الحزين شاعر الاسى وأمير البؤساء الاستاذ انور العطار شاعر دمشق وقصيدة السيد كرباكة التي تناول فيها غضبة شاعر العراق الرصافي وقد امضى هذا الكاتب رسالته بـ « فتى العرب » وهو اسم طالما رأيت في بعض الصحافة الشرقية . كما جاء الى الاخ زين العابدين أيضا كتاب آخر من مصر يعجب بهاته النهضة الفكرية في تونس ويبتهجج بها ويتمنى لها قوة وشبابا .

وحتى رجميو مصر ، فقد بلغهم نبؤها وتخوفوه فقد بعث الشيخ الحضر حسين التونسي الى الاخ زين العابدين يعجب بمشروعه وعمله ولكنه يترأى بين سطور الشكر انه يوجس خيفة فقد قال له فيما قال : لقد خرجت المجلة بخطة جديدة ما كنا ننتظرها من تونس فقد عرفنا تونس بلدا هادئا آمينا مسالما بعيدا عن كل الحركات الثورية والحطط الطافرة . . . الخ .

وبعد فاني أحبيك الآن وإلى اللقاء ! . . .

أخوك المخلص : أبو القاسم الشابي

رسائل الخيوى

فى 26 مارس 1930

سيدي الاخ الاعز

أشكر كل الشكر لاهتمامك بأخيك وأشكر لك حسن ظنك فيه وعبارات الاطراء التى لا حيلة لى فى ردما ولا قدرة لى على تحقيق ما جاء فيها . كما أشكر لك ذلك الكتاب الكريم الذى هزرت به هذا القلب الحامد هذا ، هذا القلب الذى مهدته الساعات المتشابهة والعيش الرتيب فى هاته القرية الصغيرة فنام واستسلم - أو كاد - الى الخمود والهمود ، وأخلد الى عيش القناعة والجمود .

أخى العزيز ، لا أقول لك جديدا اذا قلت انى كنت تارة أتالم وأحزن لحالتنا البائسة وتمتت قوانا وخفوت اصواتنا وخلو تونسنا من كل حركة فكرية وكل حياة أدبية وبقائها بلدا هادئا مسالما بعيدا عن كل الحركات النائرة والتطورات الطافرة ، ثم أسخط وأحنق تارة أخرى على الشرقيين عامة وللمصريين خاصة أولئك الذين لا يزالون يحسبوننا من الهمج - كما قلت - فلا يرون لنا أية مزية ولا يعترفون لنا بأية مكانة ويسقطوننا من حسابهم كما يسقطون من حسابهم زنوج أفريقيا وهنود أمريكا بل ولا يعرفون بالضبط حتى موقع بلادنا من افريقيا الشمالية . ولقد كنت احمل من هاته الاهانة المزرية وهذا الاحتقار الشائن ابهظ الاحمال وافدحها واتحرق على ان ليس لنا صحافة راقية او مجلات جدية نسمع فيها اصواتنا بل صرخاتنا الى هؤلاء الصم ونريهم بالبرهان المحسوس أننا احياء حقا وان فينا على الاقل شبابا تغلى فى شرايينه دماء الشباب وينبض قلبه بنبضات الحياة وان هذا الشباب يتشوف هو أيضا الى عوالم النور والحرية ويحن الى الحياة الكريمة القوية النائرة ، حياة التفكير الحر الذى لا يعيقه عائق - فلا عجب - أيها الاخ - اذا أنا أحسست بعد قراءة كتابك الاغر وكان شيئا من ثقل ذلك الحمل الذى كان

يتكأءدنى قد أزيح عن كاهلى . فالى الامام - أيها الصديق الى الامام ، وانى لا أشك فى اخلاص السيد زين العابدين السنوسى وتقديره لمثل هذا المشروع وقدرته على ادارته واجتياز كل العقبات التى تعترض طريقه - ولكن ٠٠ هل سيكتب لهاته المجلة الدوام ؟ وهل تلاقى من العناية والتعزيد ما يقويها ويبلغ بها الى نهاية أهدافها ؟ هذا هو الذى نتساءل عنه ولنترك الجواب عنه للمستقبل ولنحدث الآن عن شىء آخر .

شكوت أيها الاخ من كثرة العمل واضطراارك لاتيانه والنفس كارهة وعظم عليك أن تكون كل مطالعاتك فى كتب القانون وكل أوقاتك ملأى بالعمل فى دائرته ومتعلقاته . وأنا أشكو لك مثل هذه الشكوى واقول لك انى مرغم أيضا على الانكباب على كتب الترجمة والاندماج فى حماقاتها المضنية فكل مطالعاتى كادت تكون فى كتب النحو العربى الذى يدرس - ويا للفرابة - بالفرنسية وتكتب كل أبوابه بمصطلحات فرنسية معقدة فانت تعلم انى عزمت على الترشح لامتحان الترجمة فى هذا العام وليس لى من عدة له الا العزيمة على مواصلة الدرس والانقطاع عن كل عمل أدبى فى شهرى أفريل وماى على الاقل وما أظن حماقاتى الاصطلاحية تقصر عن حماقات قانونك الذى تصابحه وتماسيه . فان تساوت حماقات وتعادلت كفة السخافات فانا أرجحك بالوسط الذى أعيش فيه . هذا الوسط المعرق فى البساطة والسداجة والمفرى بالحمول والموت العاطفى والفكرى على أن هذا لا يعنى انى نكثت عهدى وأخلفت مواعيدى . فقد أتممت الكتابة عن « تولستوى » وأترقب صدور القطعة الاولى لأرسل لك الثانية بعد تبييضها . وفى عزمى أن اكتب بعد هذه الكلمة الثانية عن كتابك نزولا عند ارادتك واقتناعا برأيك . وقد كنت ترجمت شيئا من قصيدة « الصلاة » التى كنت حدثتك عنها ثم نظمتها شعرا فلما لم يرقنى النظم ولا الترجمة تركتها وشأنها ولم أعد لها حتى اليوم . على أنى رأيت أن أرسل لك مع هذا أبياتا منها تصرفت فيها بعض التصرف . وبالجملة فان اشتغالى بالتحضير لهذا الامتحان اللعين جعلنى زاهدا فى الكتابة والتحرير . وقد عملت قصيدة فى ذكرى موت والدتى بمناسبة مرور سنتين على وفاتها وسأطالعك عليها متى تقابلنا عساك تتدارك ما فاتنى فيها من الانسجام .

طالعت بمزيد التأثر قصيدة « النبي المجهول » ولم أتمالك من ارسال دمعة
لشقاء ذلك الشاب الذي قدم كأسه المترعة الى شعبه فارق ما فيها من خمرة
الهيئة وحطم الكأس جهلا وضلالة ، وما أجدر ذلك النبي أن يذهب الى الغاب
يتلو أناشيده على الطيور ويموت هنالك غريبا تبكيه مدامع الطل ونحيب السرو
والحور والصفصاف وتوله العواصف والرياح ونوح بنات الهديل . وقد بقيت
كامل يومى أردد مطلعها الملهم وكأنه يفلت ن قلبي مشفوعا بتنهده :

« أيها الشعب ليتنى كنت خطابا فاهوى على الجنوع بغاسى »

بأبى أنت أيها الاخ ما أكبر روحك وما أرق احساسك وأخصب خيالك ؟
وما أعجزنى عن ايفائك حقل من الاكبار والاعجاب - تالله انك لنبيء مجهول
بين شعبك وقومك ولكن التاريخ . . . نعم التاريخ . . . هو الذى سيتكفل
بخلود اسمك والاجيال المقبلة هى التى ستكلك باكليل الغار يوم تكون أنت
وأكون أنا ويكون كل معاصريك الجاحدين رفاتا سحيفا تحت أطباق الثرى -
هكذا كان شأن كل عظيم وتلك هى سخرية القدر .

عزيزى الاخ - هنا أودعك مرغما وأرجو الصفح عما تراه فى هاته الرسالة
من التفكك والاختضاب ولعل عطلة عيد الفصح تجمعنا فى الحاضرة والسلام .
أخوك المخلص .

رسائل الحليوى

فى 15 ماى 1930

أخى الأعز ،

يصلك مع هذا ما كتبته أخيرا عن كتابك (13) نزولا عند ارادتك واعترافا لك بالحجة على ، واقتناعا بترفك عن اعتبار النقد آية العداوة ودليل الحقد والبغضاء . وانى لأبرأ اليك مما جاء فيه من مظنة الخطأ فى الفهم وسوء النية واعترف لك بأنى قلت رأى الذى اعتقده فى كتابك دون نقص أو زيادة . ولى من صراحتك أعظم مثال وفى صداقتك أحصن معقل ولك أن تفعل بهاته الكلمة ما تشاء فانى قصدت بها أولا اطلاعك على رأى فى كتابك الذى لم أتحدث به اليك الا الماما .

وقد قلت فى طالعة هذه الرسالة أن المقال كتب أخيرا وذلك لانى كنت اتلفت ما كتبته عنه فى العام الماضى اثر صدوره واعلمتك به فى وقته . ولم ينج من الائلاف الا الفصل الذى نشرته سالفا فى العالم الادبى . وأعتقد انى قد أطلت المقال بالنسبة لما يطلبه الاخ زين العابدين ولكن ما الحيلة ومجال القول ذو سعة - وكل محاولة اختصار أعدها بترا لرأى الكاتب وتقصيرا فى تناول الكتاب من نوحيه المختلفة . ومع ذلك فانك ستدرك أن كثيرا من النقاط لم تبين بتفصيل وكل الافكار لم يقع التوسع فيها رغبة فى الايجاز .

ولا أطيل عليك فى الكلام عن نفسى وعن كتاباتى فانى أكره ذلك .

لقد قرأت ما كتبه السيد محى الدين القليبي (14) فاذا هو ينسى الكتاب ولم يقل عنه كلمة ويتناول الكلام عن شخصك وهذا هو شأننا دائما نخلط فى النقد بين الاثر والشخص بل ربما نترك الاثر لتتكلم على الشخص . بربك ما شأن الانزواء وشأن من كان سببا فى ابرازك وماذا يعنى بتقسيم أدب أمريكا الى قسمين واقتباسك لطريقة احد هذين القسمين وما شأن « التطويح » والمعلومات . . . الخ ذلك - فما هو رأيك انت فيه ؟

أودعك الآن وأرسل اليك تحيات قلب مفعم بالحب والاخلاص وأشواق نفس تحن الى نفسك وتسعد بقربك .

الرسالة التاسعة

تونس : في 15 جوان 1930

أخى الفاضل الأعز .
تحية وسلاما .

وبعد فاني سأبدأ بنقدك قبل ان أبدأ بتهنئتك ، ولتعذرني على ذلك فان للمودة سورة وثورة قد يحركها أخف البواعث . انت تعلم اننى أكدت عليك العمود على ان نلتقى قبل سفرك ووثقت وأكدت . وتعهدت بذلك وافترقنا عليه ولكنك اخلفت وعدك ونقضت عهدك وما كنت أظنك مخالفا ولا اعهد فيك هاته الحلة .

ستقول ان لك اعذارا ومناوح ولكننى لا اريد أن أسمع هاته المعاذير ولا ان اقيم لها وزنا . وحسبى انك اخلفت والسلام ، وحسبك هذا من لوم الصديق .

وقد علمت عشية امس انك كنت من الفائزين فى امتحانك فاغبتبت وان كنت تنبأت بذلك من قبل، لا لانك صديق يسرنى ادخال السرور على قلبه فقط ولكن لان تلك الشهادة مرحلة اولى من مراحل حياتك الادبية المنتجة . فهى ستدعوك الى ان تدأب على دراسة اللفة الفرنسية واستخراج كنوزها ونشر آياتها الرائعة بين ابناء شعبك الضائعين وهى ستكون دافعا يدفعك الى الاستزادة من مناهل الفن السامى الذى تطمح اليه نفسك المنتجة ومعينا على تكوين ثقافتك كما تبتغى أن تكون . فاهنا يا صديقى بهاته الشهادة وان كانت دون مداركك ومواهبك وأضييق من أن تسع نفسك الكبيرة .

اليوم صباحا جاءنى الاخ زين العابدين السنوسى وناولنى مجلة « العالم الادبى » التى خرجت امس فاذا بها قد انتقلت لطور آخر فى جمال المظهر وحلاوة الشكل واننى لأتعشم لها مستقبلا زاهرا لخير هاته البلاد المسكينة .

وقد سألتنى عن عنوانك ليكاتبك اليه ويطارحك شكره واعجابه بقوة نفسك ورزانة تفكيرك وعمق بحثك وتحليلك . والسلام عليك من أخيك المشتاق اليك المعجب بك .

ابى القاسم الشابي

المرات العاشرة

تونس في جمادى الأولى سنة 1349 (*)

أخي الفاضل وصديقي الأعز .
تحية وسلاما .

وبعد فقد اشتد الضعف على قلبي في هاته المدة الاخيرة بما أوجب معه الطبيب على حرمانى من كل الاعمال الفكرية لا فرق بين مطالعة أو تحضير أو كتابة وقد لبثت على ذلك نحو أربعة عشر يوما كاملة وذلك ما حدا بى الى ان لا أكتبك كل هاته المدة أما الآن وقد أوجب الطبيب على السفر وقد أزمعته غدا : الخميس - فانى أرانى مضطرا الى مكاتبتك رغم كل شىء - .

لا تألم يا صديقى لاختك فان قلبي هو منبع آلامى فى هذا العالم . ومن يدري ؟ لعله سيكون منبعا لمثل هاته الآلام فى عالم آخر . . . ان قلبي يا صديقى هو مصدر آلام هاته النفس التائهة المعذبة وهذا الجسد المعنى المنهوك . وما دمت احمل بين جنبى مثل هذا القلب الكسير وما دامت هاته الحياة تهد منه ولا ترحم ، فانى أشقى أبنائها . هاته حقيقة قد أيقنت من صحتها وآمنت بها يا صديقى فلا تحاول أن تصدنى عنها .

والآن دعنا من حديث الآلام فان نواميس الوجود فراغ لمثل هاته المسخفات . . . ما ذا أقول لك ؟ . . . ان الضجة فى تونس قائمة حول كتاب صديقنا الطاهر الحداد « امرأتنا فى الشريعة » و « المجتمع » ويقال ان النظارة تفكر فى القيام عليه وطلب حجزه كما فعلت مشيخة الازهر فى مصر بطله حسين وكتابه بمعنى انه قدر علينا أن نكون مقلدين لمصر فى كل شىء هذا ما يشاع ، وان كنت لا أومن بصحة هاته الاشاعة .

(*) اكتوبر 1930

ويوم الجمعة ستقام للصديق مؤلف الكتاب حفلة تكريمية كبرى بكازينو بليفدير وستلقى فيها الخطب والقصائد وسينشر الحديث عن هاته الحفلة وكل ما قيل فيها في عدد ممتاز من الصواب لا بد انه سيبلغ اليك نبؤه وقد ابتهجت بهاته الحفلة لانها تدل على أن تكريم التونسي للتونسي قد بدأ قبوله في النفوس ولكنني آسف لانني لا أحضر هاته الحفلة ولا أقول فيها كلمة بأمر من الطبيب الذي هو ككلمات القدر في نظر النفوس الواهنة المرضوضة .

لا أستطيع ان أزيدك في الحديث وان كان المجال رحبا ونفسي تدعوني لذلك لان هذا أول كتاب كتبته رغم أوامر الطبيب وأخشى أن ينجم عن الاطالة ومتابعة هوى النفس ضرر محقق وانما الذي أرجوك أن لا تنسى صديقك في منفاه القصى فانه هناك أحوج الناس الى رسائلك التي تجلو عن نفسه ما يعلوها من صدا الحمول خصوصا في مثل بلاد الجريد والسلام عليك من المخلص :

أبي القاسم الشابي

حاشية :

بلغتني دعوتك الى المقام جوارك وهي سعادة لا أستطيع الآن تحقيقها ولعل أستطيع ذلك فيما بعد والسلام عليك من أخيك .
أزدت أن أوجه اليه رسمى ولكنني لم أجد ظرفا يسعه ولذا فانني سأتركه لك عند الاخ مصطفى خريف وعند قدمك الى الحاضرة تلفيه عنده والسلام عليك .

رسائل الخليوي

بني خلاد في 5 نوفمبر 1930

أخى الأعز وصديقي الكامل •

ماذا عساني أقول لك بعد هذا السكوت الطويل ؟ وبم أعتذر لديك وقد عقلت الصداقة ؟ •

لا اكذب الله - فثوب العذر منخرق كما يقول صاحبنا ابن زريق - على أنه من الهين على أن أرقعه بتلفيق الاعتذار • فأذكر مثلاً ما عانيته وما أعانيه من المتاعب وما لقيته وألقاه من المعاكسات والمشاعبات وأصف لك شيئاً من الصعوبات التي صادفتني في الشهر المنصرم • فقد رجعت الى قريتي هاته السنة منفرداً لا عون لي ولا نصير على شؤون العيش •

نعم كان يمكنني أن أذكر ذلك وأمثاله وأتبسط في شرحه وتفصيله ولكن اى شاغل مهما كان كبيراً ومهما كانت الظروف التي دفعت اليه ، وأى مانع أم أية صعوبة كائنة ما كانت تحول بيني وبين الكتابة اليك وقد علمت بانحراف مزاجك أولاً ثم برحلتك الى الجريد أخيراً •

اللهم ان ثوب العذر منخرق •

ووالله أيها الاخ - ان الظرف الذي سأضع فيه الرسالة الآن قد عنونته باسمك منذ نصف شهر ولم أتمكن في خلال هاته المدة ولا في المدة قبلها من كتابة حرف أو قراءة سطر اللهم الا ما دعت اليه المهنة الشاقة المنهكة ، ولكن دعنا من الشكوى وبسط الاعتذار - انما الود ما تكنه القلوب وتنطوى عليه الجوانح • وحسبى عقاباً - حين أبطيء بالكتابة اليك - ما أجده في نفسى من الضيق والحرج وعدم الرضا عن حياتى •

فساك أيها الاخ أن تلتمس لي عذراً وتصفح عن تكاسلي وتواكلي واستسلامي للحظة التي أنا فيها •

قلت أيها الصديق أنك ستذهب لتوزر وأنك سوف تكون في عزلة عن الحياة الناشطة ورغبت الى الا أنساك في عزلتك - فكأنك لا تعلم أنى هنا أيضاً في

منفى . لا شك أنك في مقامك هنالك واجد من ثبته هموم نفسك وتأنس بمجالسته ومحادثته . أما أنا فاني غريب عن هؤلاء القوم ولو جالستهم وعاشتهم غريب عنهم ولو شاركتهم في أفراحهم وأحزانهم واستمعت لاحاديثهم وتاريخ قريتهم - أنا غريب عنهم ولو أحسست بما يكونه لي من المحبة والتقدير - لان الغربة هي عدم وجود من تبته أحاديث نفسك وتشركه في مسراتها وبلواها . أليس من الغريب اذن أن يطلب المقيم بين أهله وقومه من الغريب عن أهله وبلده الا ينسأه؟ وهل كان الاولي أن تعكس القضية فيطلب هذا الغريب المسكين من ذلك الذي يحيا في بيته بين أهله وعشيرته حياة حقيقية في أرض الواحات والنخيل يصباح مراتع طفولته ومفاني شبابه ويماسى منازل أحيائه ومرابعهم ذلك الذي يملأ نظره من لا نهاية الصحراء ويناجي في ليله قمرها الضاحك الباكي ويتمتع بالحرية الكاملة والانطلاق من قيود « الوظيف » الثقيلة .

بربك من هو أحق بالثناء وأجدر بالعزاء ؟

* * *

ذهبت الى الحاضرة في أول هذا الشهر وتمكنت من رؤية « تونس النوادي » أثر تلك الصاعقة الساحقة التي نزلت على رؤوس أحلاس الجمود وانضاء اللحود فتركتمهم كالمجانين لا يلوون على شيء ولا يفقهون ما يقولون وأحسب أنك اطلمت على ما قالت الصحف التونسية في تلك المسألة وما سودته أغلب الجرائد الرجعية . وقد سكت عن كتاب الحداد كل من كان يرجى منه أن يدافع ويقارع وحسبك أن « الصواب » لم يكتب كلمة ولم أر من انتصر للمؤلف الا جريدة « الهلال » ومجلة العائم الادبي ، ولكن بأسلوب فاتر وعبارات متكلفة . ولا تسأل عن بدءاة راجح ابراهيم في رده الذي نشره بورقة « النديم » ودسائس جريدة « الزهراء » وخلاصة القول ان تونس عبارة عن حزبين حزب قوى عات جبار مهاجم هو حزب الرجعيين المتطرفين وحزب المفكرين المجددين ولكن الجبين والضعف غلب على أفرادهم فهم غير مستعدين للتضحية في سبيل المبدأ كما فعل الحداد . لقد كانت حملة الرجعيين شديدة وبالفة الحد ، وليس هناك غيرهم في الميدان . ولم نسمع صدى لاولئك الذين يفكرون مثل المؤلف ولكنهم يجبنون عن الاصداع بأرائهم والوقوف الى جانب ذلك الرجل المضطهد . وصاحب « الصواب » أحد هؤلاء الذين كنا نعلق عليهم آمالا ولكن خاب الامل وظهرت قيمته هو وحزبه واني لاتساءل كما يتساءل زين العابدين عن التجاني ابن سالم ومحمد الجهلي وغيرهما .

أما رأيي في الكتاب فاني معجب جدا بالقسم الاجتماعي ولا أكاد أفهم كيف يقرأ الانسان تلك الحقائق الناصعة ثم يكابر فيها ويدعى أن المرأة التونسية في بحبوحة السعادة وانها لا تطلب ما نطلبه نها .

أما القسم التشريعي فقد كان فيه الحداد جريئا حقا . وأرى أن تطبيق مذهب « التطور والارتقاء » على الشرائع غير ممكن علميا لان من طبيعة الشريعة الثبوت والدوام مع نوع من التقديس وكان على المؤلف أن يطالب بتشريع جديد يطابق روح العصر أو يقر التشريع الاسلامي على علته مع البحث في المذاهب الفقهية عن أقوال ونظريات تخفف من صرامة المذهب المالكي مثلا . ومما ساءني في الكتاب هو أن جل الابواب التي عقدها للكلام على المرأة أمام الشريعة هي نفس المآخذ التي طالما ساقها أعداء الاسلام للنيل منه . وفي رأبي أن المؤلف قد تعمد الاسلوب الهجومي ليثير الضجة ويجعل أشد أنصاره تحمسا له في حرج من ناحية الدفاع عنه ومؤازرته ولا شك أن قليلا من اللباقة كان كافيا لوضع المشكلة في وضعها الحقيقي الذي كان يجب أن يكون وضعها علميا موضوعيا كما يقال .

هذا ما أراه باختصار في كتاب (امرأتنا في الشريعة والمجتمع) ولعلك لا تبخل على برايك فيه وختاما اليك تحياتي وأشواقي .

الرسالة الهادية عشرة

توزر الجريد في 15 جادى الثانية سنة 1350 (٢)

حضرة الاخ انفاضل المحترم سيدى محمد الحليوى
تحية وسلاما .

وبعد فقد ضمنى مجلس وحضرة الاخ محمد البشروش منذ أيام تجاذبنا فيه
ذكرك وأدبك فقلت له اننى لئن كاتبك الاخ الحليوى لاكاتبنه بصاعقة . . .
وكنت جادا فى حديثى وكان صاحبى يتبسم .

وها قد مرت أيام وأيام وتعاقت بسمات وآلام وما زالت ذكرى ذلك
المجلس وذاك الحديث ترف فى جوانب قلبى بأجنحة من لهيب مورد كالشفق
المخضوب ثم ها أنا أكتب اليك فاذا الصاعقة . . . ما ذا أقول ؟ . . . اذا
الصاعقة صباح صاح تندى نسائه وتتهادى غمائه وليل مقمر يرفرف
حواليه السحر ويفرد « الطائر المستمر » (15) واذا بى أهتف بك من وراء الافق
كأنتى اناجيك :

أذكروننا مثل ذكرنا لكم

رب ذكرى قربت من نزحا

وهكذا تنقلب النعمة رحمة وينقلب اللهب أنامل من سحر كازهار الربيع .
هذا ما استطعت ان أكتبه اليك الآن . وهذا كل ما أملته على الصداقة العذبة
من أساليب العتب والملام ، أما أنت فلست أدرى ماذا انت فاعل من بعد ؟ هل
توقظ قلبك هاته النجوى الضارعة وهذا الهتاف الرقيق ؟ أم انه سيظل مخلدا
الى صمته وأحلامه ؟ قل علمه عند ربى .

(٢) 28 أكتوبر 1931

ما لك يا صاحبي قد اعتصمت بالصمت في هاته السنة وانصرفت الى
السكوت فلم نسمع لادبك صوتا الا تلك الكلمة التي قلتها على «ذكرى جبران»؟
هل انك هجرت الادب - لا قدر الله ؟ أم انك تنشىء في صمت وتخلق في
سكون كما تبدع هاته الطبيعة الصناع جمال الزهرة تحت أطباق الثرى ؟
أين يا صاحبي « المرأة في الادب العربي » و « الشعر في تونس » وغير
عدين من تلك الابحاث القيمة التي وعدتني بالكتابة عنها في بعض سميرنا
بالحاضرة . اني انتظر جوابك لتحي في هاته النفس الموات معاني الادب
واصدقاءه وسلام عليك من أخيك :

بلقاسم بن محمد بن بلقاسم الشابي

حاشية :

كاتبتني طويلا وتحدث الى كثيرا اننى أرجوك وان شئت فاتخذ
موضوعا أدبيا صالحا للحوار نتجاذب فيه أطراف الحديث وفنون
الجدل حتى تظل الصداقة حية ويظل غذاؤها روحيا جميلا .

رسائل الخيوى

بنى خلد فى 4 نوفمبر 1931

• أذى الفاضل

أتانى كتابك فما ذكر منى ناسيا ولا نبه غافلا ولا وصل مبتورا •

ان ذكرك يا أذى - يصاحبنى ويماسينى ، ويباكرنى ويفادينى ، وان صورتك التى فوق مكتبى لتعنفتنى كل يوم على سكوتى وتذكرنى تلك الساعات السعيدة التى قضيناها معا حين كان الشمل جميعا والدار واصلة والمودة متبادلة • ثم نزحت الى بلدك الجريد وعز عليك أن تفارق الحاضرة دون أن تودعنى بكلمة وتبعث لى بصورتك • فماذا كان منى بعد هذا النزوح الذى اضطررت الى مغادرة العاصمة ومجالسها والاوساط الأدبية ونشاطها الى حيث الصحراء وأحلامها والواحات وجمالها ، والقمر المؤتلق فى كبد السماء أو المطل من خلال عراجين النخيل ؟

• اللهم لا شىء •

ثم بلغنى من بعض الاصدقاء انك تزوجت وكان على أن أهنيء وأبارك أو ألومك على اتيان هاته الحماقة ولكنى لم أفعل شيئا من ذلك •

ثم جاء العيد فماذا كان منى فى هاته المناسبة التى تؤكد فيها أواصر الصداقة وتمتن عرى الوداد وتتبادل الدعوات والتمنيات •

• اللهم لا شىء •

أما والله لو أرسلت صاعقتك على راسى لكننت بها جديرا ولشفيت نفسى المعذبة الشاعرة بذنوبها نحوك ولكن ••• اذا كنت قد أصبت بالخرس والشلل فهل ترانى كنت غافلا عن ذكرك •

لا سكن الله قلبا عن ذكركم ••• فلم يطر بجناح الشوق خفاقا

• ذكرك والله عالق بالروح ممتزج مع الدم •

أذكرك حيثما كنت وأينما سرت - أذكرك اذا سئمت نواذى الغثاءة

ومجلس العقول الراكدة والنفوس الحامية - أذكرك كلما امتحنت الاصحاح
فرايت فيهم ما رأى أبو العتاهية فى الدنيا « عدوا فى ثياب صديق » وأذكرك
كلما ضاق باهم صدرى ، وضج من عالم النفاق فكرى ، ومللت هاته الحياة
« الصغيرة » التى تضطر المرء الى أن يحيا حياة مادية سخيقة فى الشغل والاكل
والشواغل العادية وان يعطيها من أوقات عمره ساعات وساعات ولكنه حين
يحاول أن يحيا لنفسه ويستسلم لاحلامه وتأملاته لا يجد الساعة أو الساعتين
الا بعد طول العناء ولله در العقاد حين يقول : (شواغل الحاضر الضئيلة قادرة
على أن تحجب عن بصيرة الانسان جلال الأزل والابد كما تحجب الكف القريبة
من العين اتساع الفضاء الذى لا نهاية له) .

فى خلال هاته المدة التى لم أكتبك فيها ذهبت للحاضرة مرات عديدة
واجتمعت بالاخ مصطفى خريف وكان ذكرك بيننا عطر النفحات ، ذكى النشر
وكان كمالك ومروءتك وصداقتك محل ثنائنا كما كان أدبك الراقى محل
اعجابنا واكبارنا . وطالما شكوت اليه تقصيرى فى مكاتبتك وركونى الى
السكوت وكنت أقول له ان اخبار الشابى انقطعت عنى وانى لوجل منه ولا
أدرى كيف اعتذر له عن تقاعسى فكان يسلينى عن ذلك بأنه هو نفسه مقصر
فى مكاتبتك وأنه يعتبر الود لا فى كثرة الرسائل وانما فى ما عقده الحب
الخاص ونقشته على صفحات القلوب الاخوة الحقمة .

اذا رجعت الى نفسى وحللت مبعث هذا التقاعس وجدت انى أريد أن اكتب
اليك بتطويل وأن أتناول فى رسالتى غرضا أدبيا أو أتحنك بترجمة بعض
انقصائد فأظلم أترصد الفرص لكتابة هاته الرسالة الطويلة فلا أجد منها أو من
فراغ البال ما يكفى . وكثيرا ما أبدأ الكتاب ثم اتركه مضطرا لان واجبا من
واجبات المهنة يدعونى للعمل الاكيد (تحضير دروس - اصلاح موضوعات
الانشاء اصلاح كراسات ٠٠ الخ) وقد ترجمت قصيدتين من ده ميسه
ولامرتين عنوانهما الذكرى وأهديت ترجمتهما اليك وسأقت لى الفرص من
الوقت ما مكننى من الترجمة وكتابة عبارة الاهداء ولم يسمح لى بما يفى
بتبويضهما فاقراً واعجب ؟ ٠٠ أضيف الى هذا أنى كنت فى العام الماضى فى
نكد عائلى وصناعى اذ كنت فى خصام مع مدير المدرسة التونسى الذى أراد أن
يجارى الادارة فى العمل على تنقيص ساعات التعليم العربى بالقسم الاعلى (16)
« قسم الشهادة » ونتج عن ذلك تقارير ومضايقات وتوبيخ ادارى ٠٠ الخ .
كما أنى لم أصطحب من يقوم بشؤونى المنزلية فأصبحت مضطرا لقضاء غالب
الوقت خارج المنزل فرازا من الوحدة التى توحش القلب فى أرض الغربة
(الغربة الروحية والمادية) .

ثم عزمت في الصيف على مراسلتك بانتظام ومطارحتك احاديث الادب
فقيض لى القدر العنيد زميلا جرنى الى هاوية سحيقة كنت اظنها أهون مما
وجدت أعنى التأليف المدرسى - وشرعنا فعلا في العمل لتأليف كتاب في
اللغة والانشاء ابتداء من جويلية . واستولى هذا العمل على كل أوقاتنا حتى
وقت القيلولة ، وما نحن أولاء نجد الى الآن في اتمام هذا الكتاب الذي تعهد
« الامين الكتبى » بطبعه بمصر

ذكرت أنك اطلعت على كلمتى في تأبين جبران (I7) ولكنى لا أدرى ما هو
رأيك في ما ذهبت اليه كما لا أدرى هل أصلحت الغلط المطبعي الذي وقع فيها
فلقد شوهوها في المطبعة وابدلوا كثيرا من كلماتها . والاعطالط المطبعية في
صحفنا التونسية احدى المصائب الكبرى أما كلمتك فقد اثرت في عاطفتي
ولم ترض عقلي وعساك لا تبخل على برأيك في تمرد جبران .

ذكرت في رسالتك انك قابلت البشروش فأين كان ذلك وعهدى به يعمل
في احدى قرى قرقنة فهل انتقل الى توزر (I8) في هذا العام . قابلت الاخ
محمود الباجى مرات عديدة بتونس والقيروان وسألته عن أخبارك فأكد لى أنك
صرت « شيخ طريقة » تحمل في المحفات وتترأس حفلات الاوراد والاحزاب . . .
فما اعتذارك من قول اذا قبلا ؟

هذا وأرجوك أن تقبل معذرتى وتجرد ذيل النسيان على هذا الانقطاع الطويل
فانى كما يقول الشاعر :

أخوك الذى لا ينقض الناي عهده ولا عند صرف الدهر يزود حاجبه

وسلام على أخلاقك الزكية وأدبك الجم وولائك الصادق من نازح الدار
(أخيك . .)

المرآة الثانية عشرة

توزر الجريد في 4 ذى الحجة سنة 1350 (*)

أخى تحية وسلاما .

وماذا بعد هذا ؟ بعده اننى الآن فى عزلة محببة الى نفسى فى الصحراء أو تحت ظلال النخيل ، وليس معنى هذا اننى هجرت المدينة وفررت بنفسى الى أحضان الطبيعة التى أجد فيها من معانى الجمال والعطف والحنان ما لا أجد فى قلوب البشر الذين مللتهم ومللت أحلامهم الصغيرة واحاديثهم السخيفة وضحكاتهم التأفهة وان كانت مخضوبة بالدموع - لا ، فانت تعلم اننى مكبل بقيود من لحم ودم تجبرنى على خوض هاته الحياة البغيضة المستثقلة وتحرمنى من تلك اللذة الوحيدة التى تحن لها أشواقى حيننا صادقا فى هذا العالم . وانا ما زلت بتوزر وما برحت قرىتى الصغيرة (الشابية) وانا أعنى «بعزلى» اننى أصبحت بعيدا عن الناس ابتعادا . وربما يمر على اليوم والثلاثة والاربعة لا أخالط من هؤلاء الناس أحدا الا أهل بيتى فى الليل أو فى أوقات الطعام .

ولم أطالع أثناء هاته العزلة من الصحف غير ما يرد على خاصة منها ولذلك فقد لبثت حيننا لم أطالع قصيدتك (19) بل لم أسمع بها . وكيف لى بذلك والنخيل والصحراء لا يتحدثان بأخبار الصحف . ثم اجتمعت منذ يومين ببعض الناس ومالى لا أقول المثقفين - ولكن بما تحتل هاته البلدة من معانى الثقافة . فحدثنى عن القصائد والحطب والأخبار التى تنشرها النهضة وبلهجة معجبة حدثنى عن قصيدة « الحليوى » وقال : حقا انها للحلوة كاسمه واننى لا أزال كل مساء حينما أفرغ من مشاغلى أنفرد بها ورفيق لى وأناخذ فى تلاوتها بترتيل وانشاد . هكذا حدثنى هذا الرجل فابتسمت ولج بى الشوق اليها ومن الغد ذهبت الى السوق وبحثت عن ذلك العدد الذى نشرت به ومن حسن الحظ اننى وجدته عند بائع الصحف فطالعتها وطالعت معها قصائد أخرى الا قصيدة الاخ حريف فانى لم أجدها . واننى أصارحك اننى أعجبت بها وألفيتها الوحيدة التى تخفق فيها روح بشرية تلح بها الآمال والذكريات والحسرات روح تحس وتتدبر ولا تنسى وهى شاعرة أن تناقش الحساب وتنقد نقدا أليما . وقد صادف اننى التقيت اذ ذاك بالاخ عبد الخالق (20) وقضينا

(*) 10 أفريل 1932

مع بعضنا ساعات جميلة فكان مما قال لي : ما كنت أحسب الاخ الحليوي يجيد الشعر ولكن هاته القصيدة كشفت له عن ناحية من نفسه كانت محجبة .

وسألته عنك سألته كثيرا ، فكان مما قاله لي عنك : انك ناغم ساخط على « العالم الادبي » وانا اشاركك أيضا في السخط عليه . فقالت له : وهل هذا هو السبب في انقطاعه عن الكتابة ؟ فقال : اننى أخشى . . . فقلت ماذا ؟ قل . . . قال : اننى وجدت فى الاخ فتورا عن الادب والحديث واحسست كأنه عازم على هجرانه ، وأخشى أن يكون حب « المأدبة » قد حل من قلب صديقنا محل النزعة الادبية . فشعرت كأننا طعننا بسهم من نار وقلت : ماذا ؟ أينتحر ؟ لا ان هذا المستحيل - قال : وهو يغالب المرارة التى فاض بها قلبه « نعم نعم ، انه ينتحر . . قلها ولا تخف » ولا أزيدك فقد طغت الآلمى ، وشعرت باليأس يتمشى فى قلبى ، ليلتهم ما بقى فيه من زهرات الامل القليلة وقلت : ان تونس ملعونة ولن ينهض الأدب الحى فيها بعد اليوم ، أكذا قضى القدر العاتب الغشوم أن لا ترفع تونس رأسها يوما من حضيض الموت ، أقدر لهاته الجيف المنتنة أن تتكلم وحدها فى هذا الفضاء الجميل ! ان هذا لا يطاق .

كذلك قلت لنفسى وكذلك قلت لذلك الصديق . ولكن انت ماذا عسانى أقول لك ؟ أناشذك الله يا صاحبى أن لا تفعل ، لا تنتحر ، لا تهجر الادب التونسى المريض الذى يحتاج الى اذرعة كذراعك تسنده فى سبيل الحياة الوعر . . . ولئن فعلت بعد هذا النداء بل هاته الضراعة لابتن حبل الصداقة التى بيننا ولو تمزق قلبى ، ولا تذكر بعد اليوم أن لك صديقا نفته صروف الحياة الى حدود الصحراء ، أجل يا صديقى يجب حينئذ أن ندفن تلك الصداقة فى قبر عميق ولا نشيعها حتى بدفعة أو قصيد .

ومالى أكتمك الحقيقة ؟ ان لى معارف كثيرين ولكن خلصائى من بينهم أقل من القليل ولكننى أعطف على هؤلاء الخلصاء ولا أحترم منهم غيرك ، هذه حقيقة يجب أن أقولها ويجب أن تعلمها أنت أيضا . أحترمك لاننى أجد فى أدبك روحا وقوة لا أجدها عند سواك وهاته الروح والقوة هى التى أعلق عليها آمالا ضخاما . لا تخجل يا صديقى فاننى لا أداجى وانما أصارحك فى موقف حاسم ، فى تكوين الادب التونسى الحى الجدير بالخلود وفى تحطيم هاته الاصنام الخشبية التى تحتل مكانا من الأدب ، يجب أن يحتله الاحياء الذين يعرفون كيف ينفخون فى الشعب روح الحياة والذين يعرفون كيف يعلمونه محبة الحق والقوة والجمال . نعم يا صديقى فاننى لا أعلق على غيرك ممن أعرفهم من الأدباء ما أعلقه عليك من احياء الادب ورفع اسم تونس، تونس العريزة،عاليا بين أسماء

الشعوب • ولكنك أنت بهجرانك الادب أو بانتحارك - كما أقول أنا - تقوض كل هاته الآمال وتهدم هذا البناء المشيد ! فانظر أى صنيع تصنع يا صاحبي وانظر أية جريمة أنت تقدم على اجترامها ! ... ان هاته الثورة التي تعصف في جوانب صدري لا تهدأ ضجتها ولا يسكت هديرها ولا يخمد طغيانها العارم المرید وان المعاني لتزدحم وتتصارع في رأسى بصورة مرعبة ، واننى لعاجز عن ان أصور اليك الآن ما يصطفق في قلبى الآن من ثورة وسخط وغضب وحريرة وشك وتساؤل وآلام ، ثورة على القدر وشك في المستقبل وآلام لحظ تونس المنكوس •

ربما عذرتك على عدم كتابتك في « العالم الادبى » ولكن كيف تريد منى عتباك في هجرة الادب والانتطاع عنه ؟ على اننى حين أفكر وارجع الى نفسى لا اعذرك حتى في انتطاعك عن « العالم الادبى » فلتقل ما شئت في خطة الصحيفة وفي صاحبها ولتقل ما شئت في مواضيعها الفثة الباردة المستثقلة المرذولة ولكن الا يحز في قلبك وينغص عليك الحياة أن يقول عنا أبناء العالم : ان هاته الاصوات الميتة والاصداء الخافتة هي كل ما في تونس من صيحات الحياة ؟ اما أنا فاننى حين أفكر في هذا يسود الفضاء المنير أمامى وتتضايق حوالى رقعة هذا الوجود لتتحمل يا صديقى كل شىء في سبيل النهوض بتونس وآدابها ما دمتنا انما نجاهد لاجياء الوطن والرفع من شأنه بين الشعوب ، فان المجاهد يا صديقى ليفترش القش وحتى المزابل اذا اضطره الدهر والنتيجة يا صديقى تبرر الواسطة ، كما يقول المثل •

هذا ما استطيع أن أكتبه اليك الآن واننى في انتظار كلمتك التي أرجو أن تكون بشارة باقلاعك عما عزمت عليه وبرجوعك الى الكتابة في « العالم الادبى » اقتناعا بما ذكرت لك والسلام •

صديقك المخلص : أبو القاسم الشابي

ملحوظة :

ان ثورة نفسى هي التي جعلتنى أكتب اليك بهاته اللهجة وهذا الاسلوب وانها لبادية حتى على خطى السقيم المرتعش ...

حاشية تافهة •

كنت وجهت اليك عقيب عيد الفطر صنيديق « دقلة » ولم تخبرنى عنه فلم أدر ماذا صنع الله به ؟ وصلك أم لا ؟

رسائل الخيوى

فى 13 افريل 1932

أخى المفدى .

هنيئا لك عزلتك ، هنيئا لك انفرادك فى الصحراء حيث تمتلئ النفس بعظمة الكون وتملأ العين من روعته وجماله وتتسع آفاق الحياة فى جوانب القلب البشرى وتترأى للمتأمل حقارة تلك الحيوات الصغيرة التى ليس لها غاية فى هاته الحياة سوى المنازعات التافهة ، والمطامع الحقيرة ، تلك الحيوات التى تفرحها خرقة على الصدر تشتري بالدس والخيانة وينفخ أوداجها تربح على كرسي يوصل اليه بالمسكنة والتزلف ، ويتلخص تاريخ حياتها فى أكلها ونومها وشهوتها . ثم هى بعد ذلك لا يسع الارض والسماء خيلاؤها ، ولا تطيق جلودها القدرة احتمال انتفاخ بطونها زهوا وغرورا .

هنالك فى الصحراء ينسى المتأمل نفسه وشخصه ويتجرد من قيوده المادية ليصير « فكرة » هائمة فى ذلك الوجود الكبير وذرة من الذرات المكونة لهذا « الكل » الشامل ، هنالك تحس الروح السابحة فى الملكوت الاعلى بصلة القرابة ، ومتين النسب بينها وبين ذلك الاثير السابح فى الفضاء ، وذلك النور المبعوث فى عوالم الضياء وذلك النجم المتألق فى اجواز السماء ، وفى تلك انظلمة الطخياء والليلية القمراء والرمال الصفراء وفى كل شىء فى الوجود ومن الوجود .

هنيئا لك أيها الاخ عزلتك وانفرادك بين أحضان الطبيعة حيث ينوى فى آذانك هزيم الرعود وجلجلة العواصف أو يساقط اليك نغم البلابل ونوح الحمام فترسلها قصائد لها دمدمة العناصر الغاضبة او رقة الطيور الشادية .

أما أنا فلا تسأل عنى ولا تبك على اذا انتحرت .

ان نفسى تتصارع كل آن مع عالمى الواقع والخيال ، وتتجاذبها فى كل لحظة عوامل مضطربة متطاحنة فأوى الى مضجعى فى المساء وقد تركت فى ذلك الميدان أشلاء من أحلامها (وقليل ما تترك فيه أشلاء من حقائقها الواقعة) وما ظنك يا صديقى بمن يعيش فى محيط محدود وحياة مكررة . الامس واليوم والغد فيها ككل أمس وكل يوم وكل غد . ما ظنك بمن يضطره القدر العتيد لان يحيا حياة لا يرضى عنها ويزاول مهنة شاقة لم يخلق لها - والله

ان كل ساعة تمر من حياتى تجعلنى أشعر بالضيق فى وسط كل ما فيه
يدعو للخمول والحياة الرتيبة .

كل ما يحيط بى مادي يسد على منافذ النور والهواء . فانا ان حاولت أن أحيا
حياة الاحلام حياة الادب فسرعان ما يحيط بى من العوامل ما ينتزعنى منها
كما تنتزع العواصف الجازفة القصبه الضئيلة . والله أنى لا خجل حقا من قولك
ان الادب التونسى يحتاج الى سواعد كساعدى ، فمن أنا وما هى قوة ساعدى

أظن أن الاخ البشروش أغلظ العصا وبالغ فى التشاؤم . وما أرى الا أنه
انتقم منى وانتصر لنفسه ولست أعجب أن ظهرت له فى مقابلتنا الاخيرة
بمظهر الرجل المادى لاني لم أطرق معه أى حديث جدى ولم أفتح له نفسى
ليقرأ ما فيها من تعلق بالادب ، وحب لحياة الادب يفوق كل حب ، وأذكر أنه
حدثنى عن تأسيس رابطة أدبية ، ولم أبسط له رأى فى ذلك المشروع
ويرجع هذا الفتور فى الحديث الى أسباب منها أنه قدم للقبروان عقب فترة
أتعاب جسدية وفكرية من جراء أقتبال ضيوف كثيرين حلوا بالقبروان وكان
علينا أن نقوم بكل ما فيه راحتهم ومسررتهم ومنها انى لم أتصرف بالاخ
البشروش الا فى ذلك اليوم معرفة تامة . أما قبل ذلك فلم نكد نتقابل الا
دقائق معدودة فى سوق الكتبية بالحاضرة وفى مثل هذه الظروف يكون
الصمت والاحتراز أمرا طبيعيا ومنها أنه كان معنا شخص ثالث لاناقة له فى
الادب ولا جمل ورأيت من باب اللياقة «لا أزعج هذ الصديق بما يكره من
الاحاديث ولا تلمنى على صداقة كهاته لا جدوى من ورائها فانت تعلم قول
بشار « اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى » .

أخى العزيز :

مهما كانت الظروف ومهما تقلبت الايام فانى لا أظنها قادرة على أن تجمل
منى رجلا ماديا أو تنتزع منى شغفى بالادب وان قدرت أن تصرفنى على الكتابة
أو تعوقنى عن الانتاج . ولا تهولنك النخمة التى صدرت بهاته الرسالة
فانها مظهر من مظاهر اليأس التى تجنح اليها النفس فى ساعات الغم والضيق .
على أننى لو أحبيت المادة كما زعمت أو زعم لك البشروش لكان فى ذلك الصنفقة
الجاسرة والتجارة البائرة اذ أن أمثالى من « صفار » المتوظفين اذا انصرفوا
الى المادة لم يربحوا منها شيئا ويخسروا ما تركوه لاجلها . فليحسن ظنك فى
أخيك فما هو من فرسان ذلك الميدان وليس كلفه بالادب مما يسهل ان
يتجرد عنه بين صباح ومساء وتحلله كذلك فى محله دون زيادة أو نقصان

أى أنه شاب يحمل قلبا يخفق لمعاني الجمال والكمال والحياة المثالية والقيم الروحية أما أن تجعله فى مصاف الزعماء وتعلق عليه الآمال الضخام فهذا ما لا قبل له به ، وما لا تسمح له بتحقيقه ظروف عيشه ومهنته .

لست فى مقام الرسميات فاجامل وأرد شكرا بشكر ولكنى أشعر بشيء من الحجل حين أسمع سيد شعراء الشباب يطرى شعرى ويذكر أن لى ادبا . فما هو هذا الادب ؟ وأين طبع ونشر ؟ نعم قلت تلك القصيدة فاعجب بها الناس فى القيروان وغيرها وصرت أينما سرت لا أتلقى الا كلمات الاطراء والاعجاب بل وقد قبل رأسى ليلة قلتها ثلاثة أنفاز أعرف منهم السيد حمودة بوسن ولكن والله لا أدرى لماذا أعجب بها من أعجب ولماذا شكرنى من شكر وقد أحسست - بعد هذا الاجماع - لا بسرور ولا باغتباط ، وانما بشيء يشبه الحمل الثقيل الذى يفرض على أن أجهد لآكون أهلا لهذا الشكر .

أخى العزيز : لى أحاديث كثيرة كنت أود أن احديثك بها وأن أجيبك عن نقاط وزدت فى كتابك الاخير خصوصا فيما يتعلق بتحطيم الاصنام الحشبية ومحادثاتي مع زين العابدين ورأبى فى « العالم الادبى » وأعراضى عن الكتابة فيه وغير ذلك كثير ولكن ما الحيلة وأنا الليلة على نية السفر غدا للقيروان بمناسبة عيد الاضحى والساعة أمامى تشير الآن الى منتصف الليل فافتح منى بهاته الرسالة التى كادت تكون آية فى التفكك والحلطة . واليك سلام أخيك ومودته الدائمة .

حاشية :

أرسل لك مع هذا قصيدة الاخ خريف فى ذكرى القيروان وهى من أبدع ما قيل ومن أمتن ما قرأت له . وقد وصلنى صندوق « الدقلة » واستسلمت لعادتي فى الكسل فلم أعلمك بوصوله فى الوقت المناسب فشكرا لآخوتك الصادقة .

المراتة الثالثة عشرة

تونس في محرم الحرام سنة 1351 (*)

حضرة الاخ الفاضل المحترم سيدى محمد الحليوى
تحية وسلاما

وبعد فاننى اكتب اليك الآن وأنا على فراش المرض بالمستشفى وتحت مراقبة الاطباء وعلاجهم من نحو ستة أيام ، وقد كان دخولى الى المستشفى فجائيا وغير متوقع أصلا لاننى قدمت الى الحاضرة يوم الثلاثاء الماضى لقضاء بعض مآرب وحالتى الصحية على غاية ما يرام فما قضيت يومين بالحاضرة حتى اشتدت على العلة وشدت على بآنيابها فدخلت المستشفى مكرها ، وعلى كل حال فان حالتى الآن خير من يوم الدخول واننى أتوقع قرب خروجى منه ان شاء الله .

وقد كان الدكتور « بروك » لما فحصنى فى الشتاء أمرنى بعدم قضاء المصيف بتوزر فقر قرارى على قضائه بنابل بجوار الصديق محمد البشروش واتفقنا على ذلك أو كدنا ولكن ذلك لا يتم الا بعد العطلة الصيفية التى لم يلبث عليها بالنسبة للاخ البشروش الا نحو أيام 20 . وحيث اننى وشيك الخروج من المستشفى - فيما أظن - فاننى لا ارغب فى قضاء هاته الايام العشرين بالحاضرة ولا بتوزر لان كليهما لا يلائمنى مناخه الآن .

وبودى لو أفضى تلك الايام بجوارك - ولهذا فالمرغوب من اخوتك ان تبذل جهدك فى أن تبحث لى هناك عن « منزل » أستقر فيه هاته المدة القليلة وتعلمنى بمقدار الكراء كما تبحث لى هل من الممكن أن أجد عجوزا يمكننى أن اعتمد عليها فى غسل ثيابى وطبخ طعامى الذى اعتقد أنه سيكون

(*) ماى 1932

على غاية من البساطة والخفة والضببط ولا أحسب الطبيب يخصص لي الا في
أكل الخضر واللبن والقلال فحسب .
هذا ما أرجو منك أن تجيبنى عنه بسرعة وفي انتظار الرد تقبل تحيات
أخيك المخلص .

ابى القاسم الشابى

ملحوظة :

كاتبنى بسرعة بالعنوان التالى :
بلقاسم بن محمد بن بلقاسم الشابى القاطن بالمدرسة
الجالسوسية نهج باش حانية عدد 7 بتونس

رسائل الخيوى

بنى خلاد فى 12 ماى 1932

أخى الفاضل الاعز .

قرأت كتابك بلهفة خصوصا وقد كتبت فى طالعك « على فراش المستشفى » فوالله نكأن هاته الكلمة كتبت بأحرف نارية لدعت فؤادى بحرقتها ولكنى سررت جد السرور بعزمك . وهى أعز أمنية كنت أتمناها على الله فلتأت أيها الاخ . فلتأت سريعا ولا تجرح عواطف أخيك بمثل تلك الاسئلة والاقتراحات فما تقصد بالمنازل والعجائز وأنت تعلم أنى أقيم وحدى فى علوى كالثكنة وليس لى فيه أنيس سوى عجوز تبلغ الستين من العمر - هى عمى -

فلتقدم أيها الاخ على الرحب والسعة ولا تضطرنى للمجىء للحاضرة لاحملك على ذلك اذ أخاف أن تبدل عزمك فى آخر وقت .

أى أمنية كنت أحسبها تتحقق كهاته - عشرون يوما بجوارى ؟ ان هاته الايام لا تحسب من العمر انها أيام سعادة لقلبى وعقلى . حقا لقد أدخلت على سرورا لا يوصف وجعلتنى أعد الساعات . أنا لا أصف لك الحياة هنا لانك أدرى بها . ولا شك عندى أن فصل الربيع فى الاجنة والبساتين ونقاوة الهواء وصفاء الماء سوف يبهج نفسك ويكون له أحسن الاثر فى صحتك وانى أحسب أن الاقامة هنا خير منها فى نابل أو فى دار شعبان من كل الجهات .

وعلى كل فانى منتظر انتظار الارض العطشى الى الديمة المحيية فمسك تحيى هاته الروح الظمأى بقربك وترويبها من معين لطفك وأنسك وأدبك والسلام .

الرملة الرابعة عشرة

تونس في صفر 1351 (*)

أخسى :
تحية وسلاما ،

وبعد فقد أنهيت اليوم علاجي وغدا عشية أقدم نحوك في السيارة الكبرى
إن شاء الله ولكنني لا أستطيع نسوء الحظ أن أمتع النفس بلقياك أكثر من
يومين أو ثلاثة وذلك انني كنت عازما كل العزم على قضاء المصيف بكامله
ببني خلاد - كما اتفقنا ولكن الطبيب أبى ذلك لما عرضته عليه ورغم بياني
له ان الجهة صالحة من كل الوجوه فإنه أصر على رأيه قائلا : ان الزيتون رغم
فوائده ، لا أهمية له بالنسبة الى وإنما المهم في فهو هواء الصنوبر الذي أهواه
من كل قلبي أو هواء « الكلتوس » وايضا فإنه يؤثر في الجهة الجبلية على الجهة
المنبسطة السهلة ولذلك فقد قر قراري على « عين دزاهم » لتوفر شرطي
الطبيب فيها وقد أكثرت فيها محلا بثمن ربما كان باهظا .

وان أسفى يا أخى يا أخى لعظيم جدا والله لحرمانى من متعة حديثك وأدبك
وهى متعة أعذب الى من جمال الطبيعة والحان الوجود الشجية ولكن ماذا
ترانى أصنع ؟ ليس لى الا ان أزورك هاته الزورة القصيرة وأنا غير قانع .
هذه كلمتى الآن اليك وختاما تقبل تحيات وأشواق أخيك :

ابى القاسم الشابى

حاشية :

عفوا يا صديقى ! فقد جاء كتابى بالرغم عنى ممتلئا بالحديث عن
نفسى خاصة وقد كان بودى أن أحادثك فى ما هو أجل وأسمى .
لكن هكذا كان .

ازجو أن أجد عندك المقال « الشمس والقمر فى الادب
العربى (21) » لارجع به .

لا أستطيع ان ازيد فان الساعة الآن نحو نصف الليل وأنا
أكتب على عجل وسلام عليك من أخيك .

(*) جوان 1932

رسائل الحليوى

بنى خلال فى 16 جوان 1932

أخى الاعز ،

ما بالك سكت عنى ؟ لم لم تأت وقد فرغ الصبر وضاق الصدر ؟ هل عاودك المرض أم منعك مانع أم تغير عزمك - لا أدرى . لماذا تركتنى ضحية اليأس والحياة . أترقب عند الزوال كلمة منك تأتى مع البريد . وعند المساء رؤية وجهك وأنت نازل من إحدى السيارات فلا أظفر بهذا ولا بذاك .

عجبا ؟ هل ضننت على بساعات سعادة تقضى بجانبك أم ذهبت الى مكان آخر أطيّب اقامة من هنا فأخلفت وعدك وغفلت عن صديق ينتظرك مع كل سيارة قادمة وبوده لو يطير اليك .

ثق أيها الصديق العزيز أن وعدك بالمجيء ثم حرمانى منه سعادة انتزعتها باختيارك وسلبتها من هذا القلب الذى لا يهتف كل هاته المدة الا باسمك ولا يهفو الا بذكرك ولا شغل له الا التساؤل عن سبب قعودك وسكوتك . وعلى كل حال فانى سوف انتظرك الى يوم الاحد فان لم تأت فسوف أقدم للحاضرة لا تحقق الامر وتزاولنى انشكوك والتخمينات .

والسلام من أخيك المخلص

رسائل الحليوى

القيروان في 24 جويلية 1932

أخي الكامل مضى شهر وأنا امنى النفس بمكاتبتك وأن هذا التمنى لهُو عذاب لنفسي وعقاب لها في آن واحد ولا شك أن رجوعي للقيروان واستسلامي لحياة البطالة والجمعيات فيها هو المسؤول عن ذلك . كما أن سكوتك عنى قد قعد بي نوعا ما فانت لم ترسل لى كلمة ولا عنوانا ولم تعلمنى عن حالتك وحالة عين دراهم وهل راقتك وهل رأيت بها الجمال الذى كنت تصبو اليه وهل ساعدك الطقس هناك . وكيف تدبر حياتك وتشغل أوقاتك .

قدر الله الا نلتقى حتى فى مجلة « العالم الادبى » فانت ساكت كل هاته المدة رغم ما يحيط بك من الدوافع للعمل والقول وأنا ساكت لانى مستسلم الى طقس القيروان المخدر للاعصاب فكل ساعاتى متشابهة : اجتماعات ومباحثات وضحك ونكات وما يتبع ذلك من أسمار ليلية الى ساعة متأخرة من الليل .

متى عزمت على القدوم الى هنا ؟ ان الطقس فى هذا العام رقيق حتى أن الذين تعودوا الذهاب الى شاطيء سوسة قد آثروا الاقامة فى هاته السنة نظرا لاعتدال الطقس ولطفه .

قرأت فى الجرائد التى ذكرت حفلة الموسيقى العربية أن الفنان محمد التريكي وقع على قيثارته قصيد « نحن نمشى » وردد أبياتها محمد (العقربى فياليتنى وباليتمك حضرت لأول مرة شعرا تونسيا يلحن ويفنى فى تونس .

احتفلت القيروان بمولد النبىء هذا العام احتفالا كبيرا ووفد علينا من صفاقس وفد يحمل اطارا ثمينا مطرزا بالذهب كهدية الى مقام أبى زمعة البلوى فرأيت من المناسب أن أنظم أبياتا فى الترحيب بالضيوف وألقىتها فى الحفلة التى أقيمت لتسليم الاطار وقد أخذها صاحب « الوزير » لينشرها فى جريدته كما قدم علينا بمناسبة المولد جمعية النجم التمثيلى ومثلوا روايتين الاولى فتح بيت المقدس بقلم فرح أنطون والثانية تاجر البندقية لشكسبير وكان الاخراج غير موفق نظرا لعدم وجود مسرح حقيقى بل هو مسرح مرتجل لا يساعد على التمثيل والاخراج .

هذا ما عندى من الاخبار وهى أخبار تشبه الوسط الذى أعيش فيه وعساك لا تبخل على بما عندك من الاخبار ولا سيما اخبار صحتك فهل أحسست تحسنا فى حالتك وهل آنست انشراحا وانبساطا فى نفسك والله المسؤول أن يبيك للادب ترفع رايته . وللود تجدد آيته ولاخيك المخلص ...

المرآة الخامسة عشرة

عين دراهم : في ربيع الاول سنة 1351 (*)

أخي الاعز حفظه الله ،

تحية وسلاما ،

وبعد فقد اتصلت برسالتك بعد طول السكوت فلم أدر هل أطرب أم أعتب
تقول يا صديقي انك لم تتصل مني بأى خبر مع اننى بمجرد وصولى الى هنا
أرسلت اليك بمنظر من مناظر « بلد السحر والشعر والاحلام » وفي تلك
الكلمة القصيرة قصة موجزة من اعجابى بهذا البلد وافتتاني بما فيه من فن
وجمال على اننى لا أكتفك اننى فكرت واعتزمت الكتابة اليك عن هذا البلد
الصبوح وغاباته الملفوفة فى الضباب وأوديته البديعة الحضراء وجباله المكللة
بأشجار السنديان وأردت أن أبسط اليك صورا من نفسى وحياتى فى ظلال
الغاب الذى قلت فيه من قصيد لم أتمه :

بيت بنته لى الحياة من الشملى

والظل ، والاضواء ، والانغام

بيت يرف عليه سحر غامض

سأه ، ويخفق فيه روح سام

وان الصور والافكار التى أردت أن أحدثك عنها ما زالت الى الآن تجوب
جوانب نفسى ولكن الكسل أو الملل أو الحمول أو كل ذلك منعى عن الافضاء
بها اليك . تقول اننا لم نلتق حتى فى مجلة « العالم الادبى » وهذا غير
صحيح لاننى أسمعك صوتى فى العدد الاخير وربما كان صحيحا من ناحيتك
أنت لانك ما زلت معتصما بسكوتك الذى لا أحمده رغم ما قطعته على نفسك من
عهود ووعود واننى يا صديقي لآلم كل الالم حينما أنظر اليك فأراك تؤثر
الصمت على التحدث بأفكارك وخطراتك وتستسلم بكليتك الى تيار تلك

(*) جريدة 1932

المجتمعات الزائفة الفارغة « الثرثرة » وبعد هذا فاني أريد أن أتقدم يا صديقي
ان سمحت : لقد قلت انك نظمت قصيدا في الاحتفاء بالوفد الذي جاء من
صفاقس لزيارة أبي زمعة !

أمثلك يا صديقي يسف بمواهبه ونبوغه الى مثل هاته السخافات
والمحقرات ويصبح بين ليلة وضحاها شاعرا مداحا وينشر آثره بجريدة
« الوزير » بعد أن كان فكرا ساميا وروحا قويا ساحرا كنا نرجوه لحياء الادب
الميت والنهوض بروح الشعب الفنية من كبوة طال عليها العهد . اننى اعتقد
انك فى قرارة نفسك تسخر كل انسخر بما أتيت ، لان ما اعرف من أفكارك
وآرائك لا ولن يرضى عن هذا الصنيع . واذن فما الذى دفعك فى هاته السبيل
التي لا تسلكها مختارا ؟ انه الشعب الاحمق المأفون ، وتيار تلك المجتمعات
السخيفة الزائفة قبحها الله . ولقد كنت تحدثنى أنك تأنف من نشر آثارك فى
مجلة «العالم الأدبى» لانك لا ترتضى مشربها المرذول، فما بالك تنزل الى النشر
فى الوزير ؟ هل ان المبادئ شىء والعمل شىء آخر ؟ كلا ! فانك عندى وفى نفس
الحقيقة أرفع من هذا وأجل ولكن هو المجتمع السخيف دفعك الى اقرار
الخطئة الأولى والثانية فكنت آثما مرتين . وانا أرجو يا صديقي أن تكون فوق
بواعث الجماعات الحقيرة وصفائرها ، هاته الجماعات التي هى عندى :

لعب تحركها المطامع واللى

وصفائر الاحقاد والآراب

أود أن أراك أبدا فوق هاته الجماعات الثرثرة لان ذهنا مثل ذهنك لا ينبغي
أن ينساق فى موج هاته الجماعات الصغيرة التي لا تستحق الا العطف
والرئاء أو السخر والاستهزاء هذا نقد شديد يا أخى ولكنه الحب الصادق
والتقدير العميق هو الذى أهل تلك الشدة وما أحسب صدرك الواسع الحليم
الا سيتقبل نقدي بما أعهد فيه من ود واخاء .

أما المعافاة فان سيرها بطيء جدا حتى اننى وانا معوط بعوالم من جمال
وسحر قد ينقبض قلبى وتضيق أمامى رقعة هذا القضاء وتسد على السامة
والقنوط كل مذاهب المتعة والفكر والاحلام فأقتل ضجرى بالنشيد وازجى
ركب الحياة البطيء الكئيب بأنفسام تلهمنى اياها الغابة المصغية
لشدو الطيور .

أما الشعر فقد لبثت نحواً من عشرين يوماً لا يخفق في نفسي شدوه أو
غناؤه ثم أخذتني النوبة وأنا لها كاره فلفتني في مثل العاصفة الهوجاء التي
لا ترحم وملا على صفو الحياة السنة الهواتف التي لا تسكت وتهادت حول قلبي
الصور والأشباح والحواطر والذكر ولم تفارقني في نوم ولا يقظة حتى لقد
اضطرب على النوم في اليومين اللذين استيقظت فيهما روح الشعر الحفيفة
الغامضة وحتى رجوت من الله أن يرحمني وينقذني من هاته الثورة العنيفة
العاصفة وقد فعل .

لقد قلت : « أخذتني النوبة » وهي حقيقة فأنني منذ عام أصبحت البت
الشهر والشهرين لا يتحرك في نفسي صوت ولا صدى ثم تأتي النوبة بمنف
وشدة وتلبث اليوم واليومين والثلاثة تنفص على فيهما الحياة ثم تخبو
وتغيب - وتلك صورة من نفسي فحدثني عن نفسك وآمالك وأفكارك
يا صديقي .

أبو القاسم الشابي

أرجو أن تزورني هنا فإن الإخوان : خريف ومهيدى سيزورونني ولا أخالك
تبخل بالزورة والسلام .

رسائل الخيوى

القيروان فى جويلية 1932

أخى الاعز • شفاك الله وأقر أعيننا بسلامتك •

بعد التحية الاخوية وابداء الاشواق القلبية أقول انى اتصلت بكتيابك الكريم فحل على الرحب والسعة وكان فيه بعض الشفاء لغيل القلب وأشواقه • ووالله انى لارجو أن أكون بقربك وأن يكون ذلك القرب نصيبى عوضا عن اعاشر من عشرات الاصدقاء الذين يصح على بعضهم قول المتنبى (ومن نكد الدنيا على الحر ٠٠٠) •

صوبت نحوى سهام الانتقاد - وأنا لو شئت لاستعملت عبارتك نفسها وخاطبتك بها ثم وجدت لنفسى مخرجا بعد توريطك فى مثل ما ورطتنى فيه • ألم تنشر محاضرتك عن « حياة الرسول » فى تلك الورقة القذرة التى خلقت لستم الاعراض والاحتياى على سلب أموال الناس بطرق دنيئة تترفع عن مثلها الكلاب وأعنى بذلك مجلة ٠٠٠ التى يديرها الجوعان العريان ٠٠٠ والذى أنزه قلمى عن ذكر اسمه لانه دنسه بما ارتكب من الموبقات والمخازى • أما أنا فلم أكن راضيا عن قول الشعر فى أهل صفاقس ولا فى أهل الجنة وإنما الحاح الشيخ صالح سويسى وجماعة من الاخوان هو الذى جعلنى أقبل أن أقول بضعة أبيات لا شأن لها ولا خطر • وقد كان صاحب الوزير حاضرا فى ذلك الحفل فلم يمهلنى أن أرداها لجيبى بل أقبل نحوى قائلا ناولنيها • ناولنيها • • فأعطيته اياها لان موضوعها ومناسبتها مما يليق « بالوزير » أرايت تلك المهزلة التى قام بها زين العابدين فى استفتائه (22) وأنك ، وان كنت تعرف رأى فى شعرائنا فانى سأفصله فى جريدة « النهضة » أو « العالم » • ان كانت هناك حرية للتعبير عن الافكار الحرة فى جرائدنا وأرى أن الاصوات التى

حصلت عليها تجعلك المتفوق عليهم لانهم انتخبوا بالعرائض والتحزبات
وانتخبت أنت بدون تليفيق أو تزوير .

لم تعرفنى متى نويت القدوم للقيروان . أما أنا فالمظنون أننى لن أزورك
لبعد الشقة . وعلى كل حال فالرجاء منك أن تعلمنى عن عزمك وأؤكد لك أن
الطقس هنا رائع جدا ولم نشاهد منذ سنوات صيفا لطيفا كهذا الصيف .

الراجع عندى انى سوف أستمر فى كتابة « الشعر فى تونس » ، اذا نشرت
لى النهضة مقالى الاول الذى ذهبت فيه الى أنه لم يحن الوقت الذى يكون لنا
فيه ثلاثة شعراء كلهم من الطبقة الاولى كما طعننت فى صدق ذلك الانتخاب
وشككت فى نزاهته .

هذا ما أحلك به اليوم والى الملتقى .

حاشية :

لم أتصل بورقة البريد التى قلت أنك ارسلتها الى حين وصولك
لعين الدراهم فلعلك أرسلتها الى بنى خلاد أو لعلها وقعت الى أحد
المسميين باسم مثل اسمى وهم كثيرون بالقيروان .

الرمضان السادسة عشرة

عين دراهم في 9 ربيع الثاني سنة 1351 (*)

حضرة الاخ الاعز
تحية وسلاما

وبعد ، فقد رأيتك في رسالتك تنقم على مجلة « العالم الادبي » ترشيحها
لنشعراء الثلاثة وترى أن ذلك الترشيح لا يخلو من ريبة وشك وبهتان وتعزم
على ابداء رأيك في الموضوع بحرية تامة وعلى اتمام موضوعك الموعود « الشعر
في تونس » .

وقد حمدت لمجلة « العالم الادبي » اغضابك الذي سيثيرك من خمورك ويهز
من نفسك وترا طالما حاولت ايقاظه ثم لبثت أنتظر هذا الموعد المأمول في
النهضة فلم أجد لحد الآن شيئا سوى أخبار مجلة « العالم الادبي » بعزمك ذلك
واعلانها انتظار كلمتك وانني لا أخالك الا جادا في تسطير رأيك أو ربما كنت
قد اتممته وهو الآن بادارة النهضة ينتظر دوره . أليس كذلك ؟

لست أدري وانما ننتظر الجواب منك أو من المستقبل المنظور .

اننا ننتظر ! والسلام عليك من أخيك :

ابي القاسم الشماي

(*) 12 أوت 1932

رسائل الخيوى

القيروان في 16 اوت 1932

أخى الفاضل

تصلك داخل هذا مقالة « الشعر في تونس » (23) وقد حرصت على أن أرسل لك منها نسخة غير مشوهة . ولعل الذى دفعنى الى هذا هو اقامة الدليل على أن أمثال تلك المثبطات مما يفت فى ساعد الاديب بهاته الديار ويزهده فى الكتابة . وهل يوجد ما هو ألم للنفس من رؤية المرء كلامه مشوها مبتورا لا يكاد يفهم أو يقرأ .

لم سكت عنى أيها الاخ وتركت كتابى الاول بدون جواب ؟

هذا ولا بد من القول أن هاته الكلمة التى كتبتها قد جعلتك فيها على حدة . . . فلم تكن حاضرا فى ذهنى حين كتبت ما كتبت وانى لأرجو أن تسمح لى الايام باقامة البرهان على أنه ان كان ولا بد من الشعراء الثلاثة فانك اول من ظهر منهم . على أنك تعرف اعجابى بك وفهمى لروحك وتقديرى لفنك فلا ترمينى بالتطرف اذا أنا سلبت الشاعرية الحق عن شعرائنا ولا ترمينى بالنكران اذا لم أتعرض الى شعرك فمثلى ومثلك كزهير وهرم بن سنان الذى كان يحيى أهل النادى ويستثنى صديقه هرم « عموا صباحا غير هرم وخيركم استثنيت » .

والسلام . عليك ورحمة الله من أخيك المخلص . . .

المرات السابعة عشرة

عين دراهم : فى 18 جمادى الأولى سنة 1351 (٢)

أخى الأعز
تحية وسلاما

وبعد فقد مضى على شهر وأنا بعيد عن عين دراهم بين الحاضرة ومجاز الباب وقد تصرم ذلك الشهر فى لجاج وخصام وأعمال مادية ممضة مؤلمة حتى لقد حسبت انها سيكون لها أثرها السيء فى التأثير على صحتى ولكن الله سلم فان صحتى الآن خير من قبل وقد كان لمقالك « الشعر فى تونس » أثره الهائل وصداه البعيد فى الاوساط الادبية بالحاضرة فقد أثار ضجة عاتية من السخط والنقمة والاعجاب والنقد واننى لشاكرك عليه يا صديقى الا ان لى بعض ملحوظات نقدية تتعلق ببعض الافكار التى تضمنها ربما نشرتها قريبا فى « العالم الادبى » أو الزمان وعلى ذكر « الزمان » فاننى أعلمك ان الاخ « مهيدى » قد قرر تخصيص قسم أدبى به كل أسبوع وان مقالات الاخ عبد الخالق هى البداية فى هذا الصدد ولهذا فاننى اعتقد انك لا بد أن تخرج من صمتك الطويل لتبحث فى الادب الذى اشتاق الى قلمك فان أمامك الآن « الزمان » العالم الادبى ولا عذر لك فى السكوت بعد الآن .

اتصلت عند رجوعى أول أمس - برسالتك الكريمة واننى لاشكرك على ما أظهرت فيها من إخاء غير مجهول وان كنت لا أرى داعيا لمثل هاته التحيزات فيما بيننا علم الله فان صداقتنا خالدة لن تضعف أو تزول وان كنت تحسب أن النقد ربما يعصف بهاته الرابطة السرمدية التى بين قلبينا فانك واهم يا صديقى وقديما قلت لك فى بعض رسائل ان الصداقة شىء وحرية الرأى شىء آخر . واذن فلنكن صديقين ولتكن لنا آراؤنا الحرة فى الحياة ومن بينها انا وأنت .

(٢) 19 سبتمبر 1932

ظهر كتاب جديد تحت عنوان « على السفود » عباس محمود العقاد ولم يذكر عليه اسم مؤلفه وإنما قيل « لأمام من أئمة العربية » وما أحسبه إلا الرافعي - فان مقدمة الكتاب تشتم منها روحه المستثقلة المرذولة وأسلوبه المتكلف الممجوج - تناول فيه العقاد بالنقد شاعرا وكاتباً وفيلسوفاً والحق أقول لك يا صديقي انه قد ترك العقاد بالحق والباطل هيكلًا محطماً وصنماً مسحوقاً وقد ركب العقاد في هذا الكتاب بالدعابة الحبيثة والمجون الاليم والسخرية التي لا تنتهي عند حد ولا تتحرج من غاية مهما سفلت حتى لقد سمي العقاد بـ « المراحيسى » لان العقاد قال في ابن اخته :

مرحاضه أفخر أثوابنا

واخيراً فاني آسف جد الاسف على انك لم تزرني في هاته البلاد ، أما أنا فأننى رغم ذلك لا بد أن أزورك قبل رجوعى الى الجريد .
فالى اللقاء يا صديقي فى رسالتك المنتظرة قبل بنى خلاد وسلام عليك من أخيك :

ابى القاسم الشابى

رسائل الخيوى

بنى خلاد فى 4 اكتوبر 1932

عزيزى الاخ
تحية واشواقا

وبعد فقد شاء الله أن أكتب اليك من بنى خلاد لا من القيروان لان أواخر سبتمبر كانت مليئة بالتحضيرات والاستعداد للسفر وأوائل اكتوبر مشغولة بأعداد البرامج والجداول وتنظيم الدروس والتلاميذ الى غير ذلك من الاعمال الكثيرة فى مثل هذا الوقت .

لقد شوقتنى جدا الى الكتاب الذى ألفه « امام العربية » فى نقد العقاد فأرسلت فى طلبه فلم أجده لأن جميع نسخه نفدت وقيل لى أن طلبات جديدة أرسلت الى مصر ، فان أمكنك أن تعيرنى نسختك وترسلها لى مع البريد فعلت وأكون لك جد ممنون وانى لمنتظر لكلمتك التى وعدت بارسالها الى « الزمان » على أنك لم تترك لى مجالا فى كتابك الاخير أفهم منه الناحية التى تريد أن تلاحظ عليها أو تعارضها . فعساك تفى بوعدك فى القريب .

أطلب من الاخ أن يعلمنى عند حلوله بالعاصمة بمكان اقامته حتى يمكننى ان أوافيك الى هناك ونصطحب معا الى بنى خلاد .

ليس لدى من الانباء ما يهم لانى لم أذهب بعد للحاضرة وقد قرأت العدد الاول من مجلة « العالم » فاذا هو كعقول أصحابه « مجوف نخب هواء » ويظهر انهم أسسوا هاته المجلة لمحاربة « العالم الادبى » فحسب ولكن بأى سلاح ؟ فأولئك الرهط لا يستخدمون الاسلحة الدس والتضليل واتهام كل من لم يكن من ردهمهم بالاحاد والمروق والتجديد ، تلك الكلمات التى ما انفكوا يكتبونها ويلوكونها بكل رقاعة ليستميلوا البسطاء والدهماء . وأن واجبنا الاكيد ازاء هاته الحرقه ، هو السعى لاسقاطها بدعاية منظمة فى صفوف الشباب وتآليب أصحاب الأفكار النيرة وانصار حرية الفكر ضدها .

وختاما تقبل تحيات واشواق أخيك الدائم على العهد .

الرملة الثامنة عشرة

تونس في 17 جمادى الثاني 1951 (*)

حضرة الأخ الأعز
تحية وشوقا

وبعد فقد كنت مع الاخ المهيدى حين اتصل بكتابك وصحبتك مقالك عن الراقعي والعقاد (25) وكم كنت مسرورا وانا أمني النفس بليقياك يوم الاحد كما قلت . ولكن أبى الله على هاته الفرحة الصغيرة الكبيرة في آن واحد فقد قضت على ضرورات الايام القاسية أن أعاد الحاضرة الى مجاز الباب يوم الجمعة وأن لا أرجع منها الا عشية الاحد وبعد سفرك بنحو ساعة ! فوق ذلك فانتى لم أقض المآرب التي غادرت الحاضرة لاجلها ورجعت كما ذهبت بلا شيء . الا حيرة الفكر وعبء العمل التائه .

لقد مللت يا صديقي وطأة هاته الظروف الثقيلة ولكن ما عساني أن أصنع وليس لي من ولى أو نصير في زحمة هاته الدنيا المرهقة .

وأخيرا فانتى سأخفف بليقياك عن النفس بعض ما بها من ممرض الدنيا ونكد الايام ، فانتظرنى مساء الاربعاء بعد غد فانتى قادم نحوك في السيارة الكبرى التي تصلكم مساء . وتقبل تحيات أخيك واشواق قلب أبى القاسم الشابي .

حاشية :

لك التحيات والاشواق من الاخوان : عبد السلام الشابي ، أحمد الشابي ، مهيدى ، خريف .

أبى القاسم الشابي

(*) 18 أكتوبر 1932

المرآة التاسعة عشرة

عين دراهم : في 51/6/2 (*)

أخي الفاضل الأعز • أمتع الله به
تحية وسلاما

وبعد فقد لبثت نفسي تدافعني الى نقدك وأدافعها ردحا من الزمن بعد ما
كاتبتك • ثم اننى كتبت النقد بعد صراع مع النفس عنيف وهو ينحصر فى
نقط ثلاثة :

- 1) حصرك وظيفه الشاعر فى تصويره لعصره ومصره •
- 2) جعلك لبشار شاعر فلسفة وكلام •
- 3) اتخاذك الشهرة مقياسا لعظمة الاديب •

والذى دفعنى الى اشراك القراء فى هذا النقد :

- 1) ما يفهمه الناس من أن النقد والعداء لفظتان مترادفتان •
- 2) سكوتك اذنت طيلة العام الماضى واعتزالك الادب والكتابة •

وقد صرحت بهذا فى نفس المقال • على اننى أحسب أن ما دفعك الى هاته
الآراء التى استغربتها منك انما العجلة فى كتابة مقالك فان عليه طابع السرعة
والتعجل ولكن اذا جاز لنا أن نتعجل يا صديقى فى كتابة رسالتنا الخاصة فانه
لا ينبغى لنا ذلك ونحن نكتب الادب للعموم •

لا أدرى ما سيكون رأيك فيما كتبت ؟

(*) 30 اكتوبر 1932

وصلتني رسالتك أمس وأنا أكتب آخر كلمة من المقال وما أخرجني في كتابته
الى هذا الحد الا شواغل واجتماعات ما كانت في الحساب ، ثم حيرتني بين
الاقدام على النقد والاحجام عنه . ولهذا فأنني لن أوجهه في البريد لانني
سأذهب الى الحاضرة يوم الاحد المقبل ان شاء الله ولهذا فالافضل أن أحمله
بنفسي حتى أقف على تصحيحه ، فان مصيبة الأخطاء المطبعية شنيعة في
هاته البلاد .

لا ادري الى الآن هل أنشره بالزمان أو بالعالم الادبي (24) وحينما أذهب
الى الحاضرة أقرر أحد الرأيين .

رأيت كلمتك عن « العالم » وانا ما كنت أتوقع منها غير ذلك فقد كنت أعلم
أن رئيس تحريره ليس سوى آلة يديرها محي الدين و ٠٠٠ ومن لف لف
هذين من تلك انطائفة المردولة . اذا شئت ان نتلقى بالحاضرة يوم الجمعة المقبل
فانك تجدني بالمدرسة اليوسفية ، يصلك كتاب « على السفود » صحبة هذا -
اننى أعتذر اليك من هاته الحلبطة والحلط والافكار المشوشة والجل البتراء ،
فاننى أشعر بفتور ذهني وملل نفسي وسلامي عليك مضاعف .

أخوك : أبو القاسم الشابي

رسائل الخيوى

بنى خلد فى 25 نوفمبر 1932

أخى الكرىم
تحية واشواقا

وبعد فقد كان فى حسابنى أن اكتب لك بعد رجوعى من زيارة الوالد للمرة الثانية اثر اجراء العملية الجراحية عليه فاذا بى أجد كتابك يسبقنى الى بنى خلد فشكرت لك تلك الاريحية التى لم تزدى بكلماتك خبرا ولا على أخوتك شاعدا .

أعلمك أيها الاخ ان الوالد فى حالة حسنة وقد نجحت العملية نجاحا كبيرا بفضل الله ثم بفضل معجزات علم الطب الحديث وحسبك أن المعدة قد أجرى لها عملية ترقيع بحذف قطعة وزيادة أخرى حيث وجدت بها قروح كبيرة ولكن المعجزة حقا هى تخدير النصف الاسفل فقط فقد حكى لى الوالد أنه كان يسمع صوت المشرط وهو يقدر الجلد وبشعر بىكان المعدة فارغا ويحس بكل « غرزة » دون أن يقع له ألم . فالحمد لله الذى حف هذا الحادث بالطافه الحفية لان ذلك الوالد رغم نحول جسمه ومرضه يحمل عنى كثيرا من الانتقال ويسد دونى أبوابا من الهول ويكفينى مؤونة كثير من الشؤون المادية .

أرجو أيها الاخ أن تكون اقامتك بمسقط الرأس كلها أيام هناء وسعادة وأن يقر عينك بنجليك وأهلك ويحفظك لهم ، وسوف أكاتبك عن قريب بتطويل وسلام عليك من أخيك . . .

المراتة العشرون

توزر « الشابية » في 1 شعبان 1351 (*)

صديقي العزيز ،

تحية وسلاما وبعد فقد اتصلت أمس برسالتك الصغيرة التي كانت بشيرا
أنلج الصدر وسر الفؤاد وأزاح عنه عبئا ثقيلا من المخاوف والاحزان والشكوك
واننى أهنتك بنجاح عملية الوالد وأسأل الله أن يمتعك به ويمتعه بك عمرا
طويلا ودهرا مديدا .

واننى وجهت لك اليوم على طريق البريد صندوق دقلة من ذوات العشرة
كيلوات وفى الحتام تقبل تحيات صديقك المخلص :

أبى القاسم الشابى

حاشية :

لقد كان بودى يا صديقى أن أطيل معك الحديث ولكننى لا أستطيع
الآن فاننى مضطر أن أحرر الساعة تسع رسائل وأكثرها مما
يقتضىنى الاطالة فالتمس عذرك فى هذا الإيجاز المقتضب ولعل
المستقبل يغتفر سوءة الحاضر - والسلام .

(*) 30 نوفمبر 1932

رسائل الخليوى

بنى خلال فى 16 ديسمبر 1932

- حضرة الأخ الأكمل
- تحيات وأشواق حارة

وبعد فبودى أيها الأخ • لو أكتب اليك كل يوم وأشكرك فى ساعات صفوى وكدرى لانى أعلم أنك الصديق الوحيد الذى لم تفجعنى فيه الايام والتجارب ولأنك الاخ الذى ربطتنى به صلة الادب والفكر فكان ذلك الرباط متينا لا يمكن أن يحله الدهر كما يحل الروابط التى تعقد على المنافع المادية والمآرب الوضيعة • ولكن أنى لى بذلك وأنا كما تعلم رهن قيود المهنة وواجباتها ورهن عبوديات أخرى لا تقل عن عبودية الوظيف • فان لم تكن رسائل مطولة فلا أقل من أن أكتب نك مثل الجنود على الحدود أو مثل رسائل المسجونين فى السجون ولا أزيد على ما جد من الاخبار التافهة التى لا تنقع غلة ولا تروى صدى ، وعلى هذا أقول لك ان الوالد خرج منذ اسبوع من المستشفى معافى من ذلك الداء الذى لازمه عشر سنوات ومنعه الراحة والنوم والطعام حتى أصبح مجرد تناول الماء يؤذيه • وام يبق عنده الا قليل من الهزال سوف يزول عن قريب بعد أن صلحت الآلة الهاضمة •

وقد اتصلت بهديتك فشكرا لك - ولو كنا نعيش فى العصر القديم (حقيقة أو مجازا) لجبرت لك رسالة غزل فى محاسن دقلتك فأتى بالتشابه والاستعارات والكنائيات والجناس والطباق ٠٠٠ الخ فى وصف طعمها ونكهتها واتقادها وحمرتها ونكنا لسوء الحظ نشأنا على مقت هاته الدعايات التى نعتبرها مدنسة لقداسة الأدب ، وقد قلت لسوء الحظ لانا حين تركنا هاته البهلوانيات لم نحدث مكانها شيئا يدخل البهجة على النفوس ويكون ريحانة المجالس كما كانت تدخل البهجة على نفوس اجدادنا وخلقائهم اليوم •

هل طالعت ردى على من انتقد مقالتي فى الانتصار للعقاد (26) لقد تصرف فيه الاخ المهيدى تصرفا لم يرقنى وحيث قلت ان ناقدى « ببغاء » • فى كامل الرد - وقع ابدال كلمة ببغاء بأطفال فجاء الانتقاد سخيفا • على اننى ما كتبت ذلك الرد الا قطعاً للسنة أعدائى بالقيروان وعلى رأسهم ٠٠٠ فأولئك الرهط يحسبون أن الناقد لمقال قد « أهلكنى » وأنه قد « أفحمنى » وأنه قد « قضى

على « وعندهم أن انتقد شيء مخيف مثل الموت – ولولا هذا الاعتبار لسكت عنه •
اشتريت روايات شكسبير كلها مترجمة للغة الفرنسية وقد طالعت منها
لحد الآن عطيل وهملت ومكبث فله أي متعة هي – واشتريت كذلك « الكتاب
المن্দس » وقد جمعت فيه التوراة والانجيل ومن كتب التوراة مزامير داود
وسفر أيوب ونشيد الانشاد لسليمان وكذلك سفر الجامعة وكل هاته الاسفار
اشتملت على أزوع الشعر وأعمق الحكمة ويكفيك أن تعرف أن كثيرا من الادب
الاروبي والشعر خاصة مستوحى من هاته الاسفار • ولا شك عندي أن جبران
وجماعة المهجر يتفدون من تلك الكتب • وها أنى أنقل لك بعض كلمات من
الاصحاح الاول من سفر الجامعة ومنه تدرك مقدار العمق في هذا الكتاب •

« كلام الجامعة ابن داود الملك في اورشليم • باطل الاباطين قال الجامعة –
باطل الاباطيل الكل باطل • ما الفائدة للانسان من كل تعب الذي يتبعه تحت
الشمس • دور يمضى ودور يجرى والارض قائمة الى الابد • والشمس تشرق
والشمس تغرب وتسرع الى موضعها حيث تشرق • الريح تذهب الى الجنوب
وتدور الى الشمال ، تذهب دائرة دورانا والى مداراتها ترجع الريح • كل
الانهار تجرى الى البحر ، والبحر ليس بملآن – الى المكان الذي جرت منه الانهار
الى هناك تذهب راجعة – كل الكلام يقصر لا يستطيع الانسان ان يخبر بالكل •
العين لا تشبع من النظر والاذن لا تمتلىء من السمع – ما كان فهو ما يكون –
والذي صنع فهو الذي يصنع فليس تحت الشمس جديد •

أنا الجامعة كنت ملكا على اسرائيل في اورشليم ووجهت قلبي للسؤال
والفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات هو عناء ردى جعلها الله لبني
البشر ليعنوا فيه • رأيت كل الاعمال التي عملت تحت الشمس فاذا الكل
باطل وقبض الريح ••• الخ •

وخلاصة القول ان التوراة كتاب صلوات ودين كما هو كتاب خيال وأشعار
خارجة من قلب الانسانية منذ آلاف السنين لتتحدث عن الالوهية في علاقاتها
مع البشر – ان كنت لم تتطلع على هذا الكتاب فانه يمكنك التحصيل على
نسخة منه عند احد المبشرين البروتستانتيين •

وأخيرا اليك سلامي العطر والى اللقاء القريب فى الرسالة الثانية •

••• اخوك

المرآة الواحدة والمشرون

توزر « الشابية » ، في 51/9/4 (*)

أخى الأعز ،
تحية وسلاما ،

وبعد ، فان الليل الآن صامت ساج ، والطبيعة هادئة ساكنة . والناس
لائذون بالبيوت من برد الظلام ، وأنا والاخ عبد الحالق نتحدث فيما سنفضى
اليك به .

لقد فكرت أنا والاخ عبد الحالق في تأسيس مشروع لا غاية له سوى
النهوض بالادب من كبوته في هاته البلاد المنكودة ، فكرنا في أن نبذر نواة
الحياة الادبية في تونس وذلك بأن يضع كل منا مقدارا من المال باحدى البنوك
أو بعض فروع البريد وما يتجمع من الاصل والفائدة يكون تحت طلب من
يريد طبع كتابه من المؤسسين ، فيطبع منه كتابه كقرض يقترضه ثم يؤديه
بعد ذلك وهكذا دواليك .

وبهذا نكون قد فرجنا أزمة النشر في تونس على بعضنا - في الاقل -
وهاته الفكرة قد كنا تفاوضنا فيها في الصائفة الفائتة وكنت أنت من محبذها
والداعين اليها . وهي لا تحتاج الا للعمل والتنفيذ وتنفيذها سهل للغاية فاننا
اذا وضع كل من ثلاثتنا فرنكات 700 لهذا الغرض أو ألف على الاكثر تكون
المشروع وبرز الى حيز الایجاد . على أننا يمكننا بعد ذلك ادخال عناصر أخرى
معنا ان كان ذلك ميسورا والا فحسبنا اننا عملنا لفائدتنا عملا منتجا مفيدا .
ولهذا فقد عرضنا عليك فكرتنا وفي انتظار الجواب تقبل تحيات أخويك :

أبي القاسم الشابي - محمد البشروش

(*) I جانفي 1933

حاشية :

ورد على فى بحر الأسبوع الماضى العدد الرابع من مجلة « أبولو » المصرية وهى مجلة « لخدمة الشعر الحى » كما يقول محررها . وهذا العدد الرابع خصصته بشوقى وأخباره وآثاره ودراساته بين شعر ونثر بصفتها هى لسان جمعية « أبولو » ولان شوقى أول رئيس لهاته الجمعية ثم ورد على بعد ذلك بيوم من سكرتير الجمعية ورئيس تحرير المجلة الدكتور « أبى شادى » مكتوب قال فيه انه وجه لى العدد المذكور الى « مطبعة العرب » لجهله بعنوانى الخاص وانه يرغب منى امداد المجلة بما يمكن من شعر ونثر . لست أدرى هل وجه مثل هذا الكتاب لغيرى من شعراء تونس وأدبائها واننى سأجيبه وواجهه نه اشتراكى وشيئا من الشعر .

أخوك : أبو القاسم الشمايى

أهنيك بشفاء الوالد وأرجو لك فى ظله حياة سعيدة منتجة .

رسائل الخيوى

بنى خالد فى جانفى 1933

أخى الأكل
الف تحية و الف شوق

وبعد ، فقد ورد على كتابك بعد طول الانتظار فاذا هو موجز كالعادة وعلمت من خلاله أنك كتبت بحضرة الاخ البشروش فليس من العدل اذن أن ألومك على الاقتصار فيه على موضوع واحد .

رأيتك أيها الاخ تحدثنى بالفكرة التى فرغنا من النظر فيها ووقفنا عندها وبقى السعى لاجراجها فاذا هى تعود على بساط المذاكرة متضائلة قمئة فتحسب انها من السهولة بالمكان الذى ظننت وان أزمة النشر تنفرج متى قام ثلاثتنا باعباء ذلك المشروع . وأرى ان هذا لا يمكن لا عمليا ولا نظريا فان قلت أن المشروع يقوم على ثلاثة أفراد فهى محاولة فاشلة ويكفى أن يساعد بعضنا بعضا على النشر دون حاجة الى مشروع . أقول هذا أيها الاخ لتعلم أن المسألة أصعب مما تظن وانه يجب التأمل فيها من جميع الوجوه حتى اذا وضع الأساس كان محكما متينا وكان صالحا لأن يبنى فوقه طبقات أخرى فى المستقبل ، فعلىنا أن ننشر الدعوة أولا ثم نكتب من يظن فيهم الاهتمام بهذا المشروع ومتى حصل لدينا خمسة عشر نفرا يؤمنون بجدوى هذا المشروع أمكن اخرجه الى حيز الوجود .

هذا ولا بد أن أقول لك انى بدأت جوابى هذا بعد صراع عنيف مع نفسى لانى فضلت أن أكتب لك بالسلب وأبدي لك ما عندى من اليأس فى بحث حركة أدبية فى هذا الوقت وبين هاته الامة المسكينة الفقيرة التى شغلها طلب العيش عن الاشتغال بغيره ، فلا آمال الاديب تتحقق ولا أحلامه تدفع بؤسه وهوانه، ولا الشعب مقبل على الادب والكتب وكلما زاد الاديب تملقا بأماله وأحلامه وخيالاته

وانصرفا الى افكاره وآرائه زاده الدهر نكبة ورماء بالبليّة اثر البليّة • نعم
فكرت في ذلك قبل أن أجيبك ولكنى رجعت مرة أخرى الى الاحلام والميادى
وقلت الأديب الحق رسول والرسول يضحى بكل شيء فى سبيل رسالته
ويغفر لشعبه كل شيء بل هو يتحدى الدهر ومعاكساته ولا يسمح لليأس أن
يمتد الى روحه السامى ونفسه اليقظى واذا يئس الاديب وقنع من حياته بالخبيّة
والصمت فمن هو الذى يخرج الشعب من بؤسه ويدله على طريق التقدم
والنهوض •

* * *

سمعت عن مجلة « أبولو » ولم أرها فهل هى راقية • وهل هى تنشر الشعر
فحسب ؟ لم أذهب هاته المدة للعاصمة لأعلم هل وجهت دعوة لبعض أدباء
تونس ، مثل الدعوة التى وجهت اليك • على كل حال لقد تفاءلت خيرا
بالتماس تلك المجلة لشعرك فلعل عبقريتك تظهر فى مصرحين لقيت الغمط
والنكران هنا •

كاتبنى بكل ما عندك من أخبار وعليك السلام من أخيك •••

رسائل الحليوى

فى 19 فيفرى 1933 (*)

حضرة الاخ الاعز
تحية وأشواقا

وبعد فقد طال الانتظار ، وعدم الاصطبار ، وان قلبى ليحدثنى أحاديث كثيرة ، وان نفسى لتنزح بى الى الظن . وربما يكون بعض هذا الظن اثما . ليت شعرى . أيها الاخ ، كيف تقطع أوقات فراغك وهى متسعة على ما أعرف ومن لى بنصف مالك من الحرية والتفرغ حتى أملاً الدنيا رسائل وأملاً الصحف مقالات وأؤلف الكتب وأطالع علم الاولين والآخرين . أنا أعلم أنك محتم ، وأنك آخذ بامر الطيب ، ولكن ذلك على كل حال لا يمنعك عن مكاتبة أخيك الذى يسره ورود مكاتيبك وتحبيه تفحات قلمك ، وتأسره أحاديث قلبك . وهذا الاخ لا يقنعه منك بطاقة معاندة أو كتاب مجاملة أو جواب عن سؤال وهلم جرا . . . هو يطلب منك أهم من ذلك هو يلتمس أن تحدثه حديث نفسك وتشركه فى خواطن فكرك وما دما محرومين من الصحف التى نلتقى فيها وتبادل فوق صفحاتها الآراء فلا أقل ولا ألزم من أن نضمن شيئاً من ذلك فى رسائل متبادلة ولو بصورة مستعجلة وفى كلمات مقتضبة فيحفظ الفكر على الاقل من طغيان الحوادث اليومية التى تشغله عن تمهد نفسه بالنظر واستعراض أفكاره وما أفاده فى حياته العملية من التجارب والمواعظ .

لا أنكر أيها الاخ . أن هاته الحوادث اليومية وهذه القيود العديدة التى أرسف فيها اضطرتنى الى الاستسلام الى الحياة الرتيبة القانعة ولم أعد أشغل أوقات الفراغ ، وهى فى الحقيقة أوقات استراحة من عناء العمل الا بشيء من المطالعة المقتطعة من هنا وهناك - وهى مطالعة لا فائدة فيها ولا غناء لاننى

(*) انظر فى الملحق الرسالة الاولى

ما أحسست انها جددتنى أو أثارت نفسى وما أكاد أطوى الكتاب حتى يذهب كل ما طالته عن الذاكرة ، أما الاقلام والمحابر فلا أبالغ اذا قلت لك أن الاولى أفنى الصدا شباتها وان الثانية قد تبخر حبرها فى الهواء فما تبض بقطرة . قل ما شئت عن هاته الحالة فتلك هى الحقيقة انى يائس من موت الحركة الادبية ، يائس من عدم اهتمام الطبقة المثقفة بالنتاج التونسى ، يائس من صحفنا التى لا نكاد نفرح بظهور الواحدة منها حتى تاخذ فى التراجع الى الوراء وأخيراً تهوى فى الهاوية اليس هذا مما يدعو للياس .

* * *

ماذا تم فى مشروعنا ؟ أقول ماذا تم وأنا أعلم أنك أعددت له قبرا من الفولاذ وذلك من اول رسالة فى هذا الغرض ولم أقل فى تلك الرسالة ما يتشبث العزم ويدل على الفتور بل نصحت بالثبوت والتأمل . وقلت انه لا يقوم على ثلاثة أفراد ان أريد به تفريغ ازمة النشر بتونس كما قلت فى كتابك فلماذا احضرت ايها الاخ : القبر الفولاذى وكانك اتهمتنى ضمنا بانى أرجعت لك المشروع قتيلاً بعد ان ارسلته الى وليدا يفنى أغنية الامل . على اننى قرأت فى « العالم الادبى » وسمعت من كثيرين بتونس أن هناك جمعية للنشر والتأليف، تكونت بتونس ، وسيقدم قانونها الى الحكومة بعد وقوع المناقشة فيه فان خرج هذا المشروع الى الوجود فهى فكرتنا التى نشرتها جريدة الزمان واختمرت فى العقول الآن ، فلا غضاضة علينا ان دخلنا فى هذه الجمعية .

أشترت جميع اعداد « أبولو » وطالعت بعضها ، وهى ، والحق يقال مجلة راقية وسيكون لها أثر عظيم فى توجيه الشعر العربى من النزعة المدرسية الى النزعة الرومنطيقية . وقد أعجبت بها جدا وبلغنى أنها ارسلت الى جميع الشعراء الذين ينشرون فى العالم الادبى طلبا مثل الذى ارسلت لك حسبما قال لى زين العابدين فحسى أن أرى لك فيها شعرا فى العدد الآتى .

* * *

عزمت عزما اكيدا على توجيه بعض الفصول الى « السياسة الاسبوعية »
التي عادت للظهور وما دمنا على فقرنا في الصحف والمجلات ، فيجب أن نولى
وجهنا شطر مصر ولكن علم الله ، أن ذلك يحز في نفوسنا . أظن انك اطلعت
في العدد الاخير من مجلة « العالم الادبي » على المناقشة الحادة التي تدور
بين الرافعى وبعض الكتاب القوميين بمصر فى شأن ظهور العبقريات المصرية
فقد نفى الرافعى العبقرية عن المصريين لان التاريخ لا يحدثهم عن شاعر عظيم
أو زعيم كبير أو قائد فذ أو صاحب مذهب فلسفى . . . الخ وانما حدثتك بامر
هذه المناقشة لاذكرك بما كنا تحدثنا فيه سابقا فى هاته المسألة وأبيت أنت
الا ان تكون بجانب المصريين تحتج لهم وتثبت العبقرية فما قولك فى قول
الرافعى وهو مصرى منهم . . .

هذا وتقبل أيها الاخ عطر سلامى وحاز أشواقى واملى فى أن اقرأ لك رسالة
مطولة فى القريب .

سلامى الى الاخ محمد البشروش .

المرات الثانية والعشرون

توزر في 1351/10/26 (*)

أخى العزيز
تحية وسلاما

وبعد فقد وردت على رسالتك الحبيبة فما ذكرت ناسيا ولا نشرت ما في القبور ، ولكنها عانقت في النفس ذكرا لك حيا وولاء قويا ، فكيف سولت لك نفسك يا صديقي أن تحصب أخاك بظنون آثمة ليس لها من الحق نصيب ، ولكن ما لنا ولهذا ؟ لا تثيرب عليكم اليوم يفر الود لك ما ظننت .

أما كلمة « قبر الفولاذ » التي راسلت بها الاخ البشروش فقد كتبتها اثر ثورة نفسية عصفت في نفسي ومن حوالى ، وأنت تعلم أنني رجل نوبات - وقد كان من أسبابها اننى لم أقتنع بما فى رسالتك الأولى من قول وحجة ، واننى أصارحك بعد أن قرأت رسالتك الاخيرة أنني مقتنع برأيك مؤمن به . واننى أعتذر اليك عما فى تلك الكلمة من قسوة وعنف بشورة النفس وضعف الاقتناع . فهل أنت غافر ؟

واننى على رأيك فى أنه لا غضاضة علينا من الدخول فى جمعية التأليف والنشر المزمع على تأسيسها فى تونس - ان صحت - ولكن على شرط ان لا يكون فى بنودها ما ينافى مبادئنا المقدسة التى كرسنا لها ما لنا من قوة وحياة .

شكوت يا صديقي من جمود الشعب ، وركود الادب وموت أحلام الاديب ، وشكوت من قسوة هاته الحياة التى تجر الواحد منا على أن يحيا حياة السوق والرعاع ، حياة السخافة والجمود ، حياة المادة الصماء الضيقة التى لا ترحم فكرا ولا عاطفة ولا خيالا ، ولا تحيي مثلا من الامثلة العليا أو طيفا من أطياف الحنين الأعظم والشوق الا لا هى النبيل . . . وهى شكاة لا تسمح فى هذا القطر الضائع المغمور ، لانه لا يفهمها الا أفراد قلائل . ولا يحس بها الا الأقل ، ولا يتفنى بها الا بضعة قلوب غريبة هائمة فى مجاهل الاحلام ولكن ما لنا وشكوى الحياة ؟

(*) 22 فيفري 1933

فمن تالم لم ترحم مضاضته ومن تجلد لم تهزا به القمم
لنترك الالم جانبا ، ولنصعد بأقدام ثابتة جبل الدنيا المقدسة جبل الفن
والفكر والاحلام .

فالمجد في القمم الرفيعة ، مالي جبل الحياة بضوئه الخلاب
ولنعرض بأبصارنا عن أشباح الموت وغيلان الظلام السارية في أعماق
الوادي وفي شعاب الجبل ، ولنصرف أسماعنا عن صرخات اليأس واصوات
الأبالسة ، فان في الذروة العليا موسيقى الوجود الحالدة وفجر الحياة
السرمدى .

ولنرتفع يا صديقي باجنحتنا الصغيرة فوق هاته الحيوانات الحقيرة التافهة
ولنحلق في آفاق النور والحق والجمال بكل ما في ايماننا من حماس وبكل ما
في شبابتنا من قوة وحياة طموح .

كذلك يا صديقي أكتب حينما يهيج بقلبي روح الامل وتظني حوالى أمواج
الشباب ولكنني اذا رجعت الى نفسي وثابت الى أشباحي الكثيبة الدامية وقرت
حوالى أمواج الشباب وسكنت السنة الحياة الهاتفة ، اذ ذاك تتراخي أجنحتي
وتفشانى سكرة الموت وأهوى الى لجة اليأس المظلمة هوى « ايسكاروس » الى
أعماق البحار . أجل يا صديقي ، وان في نفسي من مضاعفات اليأس أضعاف
ما أنت فيه : فهذا الداء الذي يخيلني كل يوم وساعة بأكفان القبر وظلام
الرموس ، هو وحده كاف لان يهد عزائم الاقدار .

انه لا يحزنني شيء في هذه الدنيا أكثر مما يحزنني التفكير في اننى أموت
قبل أن أؤدى رسالة الدنيا التي أحس أننى لم أخلق لغيرها في هذا العالم .

رسالة ! أى سخافة وأى جنون ؟ كبرت كلمة ينطق بها فمى ويكتبها قلمى
على صفحة هذ القرطاس . ومن أنا حتى أؤمل هذا الأمل أو انتخب لهاته
الغاية ؟ ان انا الا صدفة مكسورة تضطرب في لجة الزمان وستمسي بدادا في
أكف الرياح المظلمة اليوم أو غدا .

لست أدري يا صديقي كيف كتبت ما كتبت وهى على كل حال ثرثرة سخيفة
أرجو ان تمر عليها ببسمة مشفقة وان شئت فلتكن بسمة الساخر الخنون .

* * *

ثم ماذا عساي أن أحدثك عن حياتي المقفزة ؟ لا شيء فيما أظن ، ولكن آه ،

لقد ذكرت • لقد طلب منى فى هاته الايام طائفة من الشبان ارباع المثقفين أن نسعى لتأسيس ناد أدبى بتوزر فقابلنا عامل الجهة وتحادثنا معه فى هذا الغرض فوجدنا منه نفسا غير نافرة وقد وعد باعانة المشروع بما يستطيعه وقد أحضرت منذ يومين القانون الاساسى وأظن أننا سنقدمه الى المراجع ذات النظر بعد يوم أو يومين ، وقد كان فى الامكان تقديمه اليوم أو أمس ولكن الجو منذ ثلاثة أيام مغير والرياح عاصفة تسفى الرمال على الابصار فتكاد تميمها وتلحس الوجوه ببردها الشديد فتكاد تسلخها ، والناس - أو أنا ان شئت الدقة فى التعبير - لائذون بالبيوت ، بحيث أننى منذ زوال أول أمس لم أغادر منزلى • ثم ماذا ؟ لا أدرى ولكن لأتناول رسالتك على أجد فيها ما يفتح أمامى بابا للحديث ويدحو لى دنيا من التفكير والكتابة •• ، انك تتحدث عن « أبولو » وتقول : « انها مجلة عالية وسيكون لها أثر عظيم فى توجيه الشعر العربى من النزعة المدرسية الى النزعة الرومانتيكية وقد أعجبت بها جدا •• » • وانا أشاركك فى هذا الاعجاب ، ولكننى أرى أن بينها وبين السمو خطوتين الأولى أن يقسو صاحبها فى انتخاب ما يرد عليه فلا ينشر الا ما سمت روحه وشرف أسلوبه حتى أصبح جديرا ولو أقل من « كل الجدارة » أن يصير « فنا » فانى أراه فى كثير من الأحيان ينشر بعض الاشعار السخيفة المتذلة فى روحها أو أسلوبها بالرغم من أنه كثيرا ما يصرح ويصرح له بأنه يجب أن يكون قاسيا لا يعرف مجاملة أو هوادة فى سبيل الحق والفن، ولكنها خطوة أعتقد انه سيخطوها فى مقتبل الايام • الخطوة الثانية مشاركة عظماء مصر فى تحريرها كالققاد والمازنى وطه حسين ومن لف لفهم ، فان الطبقة التى تحررها هاته الايام وخصوصا - فى الناحية الثرية - ليست من القوة فى شىء •

أما علاقتى أنا « بأبولو » فقد حدثتك فى رسالتى السالفة بأننى وجهت لها قصيدتين ومعلوم الاشتراك وطلبت من صاحبها أن يوجه الى الاعداد الأولى منها • وقد ورد على كتاب منه بعد ذلك وطيه معلوم الاشتراك نفسه قائلا انه يستميحنى عذرا فى ارجاعه لأن المجلة توجه الى كهديّة خالصة وصحبته ورقة مطبوعة فى طلب العضوية بجمعية « أبولو » وطلب منى تعميمها وامضاءها وتوجيهها حتى يضمن اسمى فى ثبت أعضائها كما طلب أن أرسل صورتي لتنتشر بالمجلة مع شعري وقد ضمن رسالته ما سمحت به نفسه من ثناء واعجاب ، كما أهدى الى نسخة من ديوان له حديث اسمه « أشعة وظلال » ووجه الى الاعداد الأولى من المجلة ، والى هنا أقف يا صديقى لأسألك ما رأيك فى أخلاق أدباء مصر وصحافيينها الآن ؟ ثم لأقول لك أيضا : ما نسبة أخلاق أدباء تونس وصحافيينها الى هاته الاخلاق النبيلة الفاضلة ؟ لست أدرى ما

سيكون جوابك ، وقد أهديته من « الخيال » نسخة ووجهت ثلاث قصائد
لمجلته وصحبتها مطلب العضوية والصورة ، منذ نحو 3 أيام .

ذكرت لى أن جريدة « السياسة الاسبوعية » عادت الى الظهور ، والذي أعلمه
انها تظهر الآن باسم ملحق السياسة اليومية الاسبوعي . فهل عادت الى اسمها
القديم أيضا ؟

وذكرت أنك تريد أن تكاتب السياسة الاسبوعية وتنشر على صفحاتها
وحى أفكارك . ورأى أنا الذي يجب ان أصارحك به ان كبرياء مصر
وفرعونيتها انما تتمثل فى جريدة السياسة الاسبوعية وجماعتها أكثر من
كل صحيفة وفريق ، واننى أفضل نشرك أبحاثك فى « ابولو » لاسباب .

1) لانها مجلة خلقت لخدمة الادب العربى بقطع النظر عن الفروق الوطنية
والسياسية .

2) لأن جماعتها أقل فرعونية وأدمت أخلاقا من جماعة السياسة الذين على
رأسهم هيكل أول داعٍ للفرعونية ومشيد بها - وقد رأيت من أخلاق جماعة
« أبولو » ذلك المثل الصغير الذى ذكرته لك .

3) أن جماعة « أبولو » ما زالو شبانا لم يبلغوا الكهولة بعد ولم يبلغوا
من الشهرة وشيوع الذكر ما ينفخ فى آناهم نفخة الشيطان بعكس
جماعة السياسة .

ولهذا فان اقتنعت برأى وبدالك النشر فى مجلة « أبولو » فان مما يسر
أخاك ويثلج قلبه أن يكون واسطة التعارف بينك وبين جماعتها وأن ينشر
أدبك وأدبه متناخيين فى سجل واحد ولا تحسب انها لا تنشر الا الشعر فانها
تسر بالإبحاث النثرية وخصوصا اذا كانت حول الشعر العربى الحديث أو
القديم أو الادب الافرنجى .

واننى انتظر بفارغ صبر رسالتك بالإيجاب وبحثك الرائع الجميل الذى
لا أستطيع أن أنظر به ما نشرته المجلة لحد الآن من بحث ونثر . نسيت ان
أذكر لك ان مما طلبه منى أبو شادى فى رسالته الثانية أن أمده من حين
لآخر ببعض الدراسات والابحاث وعلى الخصوص فى الادب الفرنسى (!)
فصاحبنا يعتقد أنى أعرف الادب الاجنبى ولذلك يطلب منى هذا الطلب .

وانه ليحز في قلبي يا صديقي ويذمي نفسي ان أعلم أنني عاجز ، عاجز ،
عاجز ، وأننى لا أستطيع أن أطير فى عالم الادب الا بجناح واحد منتوف .
ففساك اذن تلبى رغبتى ، واننى فى انتظارك .

لقد ظهرت مجلة أسبوعية جديدة تصدر موقتاً نصف شهرية تحت اسم
« الرسالة » يحررها طه حسين وهيكمل والعقاد وعنان واحمد الزيات صاحبها
وغير هؤلاء وهى مجلة قيمة ان دامت على مسلكها هذا وقد ظهر منها لحد الآن
عددان - فيما رأيت - وصاحبها يزعم أنه أصدرها بمشاركة « جماعة
الترجمة والتأليف والنشر » لرفع راية الادب العالى الذى طغت عليه
السياسة وأوراق الادب الوضيع - فهل اطلمت عليها أنها من الزم اللازم
للاديب الذى يريد أن يتصل معنوياً بعظماء مصرفى الوقت الحاضر .

لم أقابل الاخ البشروش من عهد بعيد . وسلام عليك من أخيك المخلص

أبى القاسم الشابى

رسائل الحليوى

بنى خلاد فى فيفرى 1933

حضرة الاخ الاعز
تحية وسلاما

وبعد فقد وصلت رسالتك المنتظرة على الرحب والسعة فخفت اليد لتناولها وهفا القلب عند فتحها وانها والله لمتعة روحية تلك التى يتاح لى فيها مناجاة روحك زمنا لا يقاس بمقاييس الزمن ، زمنا يستغرق فيه الفكر فى مناجاة الفكر ، والروح فى مناجاة الروح ، فلا يشعر بدورة الفلك ولا بدنيا الواقع المحسوس بل ينقلب الزمن الى معنى السرمد ويحيا فى لمحة من لمحاته . وكذلك قرأت كتابك المطول فنقلنى من دنيا الحس الى شبه غيبوبة روحية لم أفق منها الا على صوت تلميذ يقرأ كتابه بصوت مرتفع، وكانى نسيت انى كلفت التلامذة بقراءة كتابهم متوالين قبل أن أشرع فى قراءة رسالتك .

ولقد رأيتك . أيها الاخ - تحمل دعابتي محمل الجد وتظن أن عندى شيئا من المرارة فتطلب منى أن أعتفر لك تلك الكلمة - وأنا - علم الله ما كتبت وما جعلت نفسى داخلية فى ظننها الآثم الا لآحرك منك ساكنا . وربما لادفع ما عساه علق بنفسك ودفعك الى تلك الثورة ، أما أن القلب فيه غير الود الصادق والولاء العميق فكلا وألف كلا .

ولقد جرحت نفسى جرحا أليما حين ذيلت كلمتك التى أعلنت فيها أملك فى المستقبل وايمانك بالحياة بقولك « وهى ثرثرة سخيقة أرجو أن تمر عليها ببسمة مشفقة وان شئت فلتكن بسمة الساخر الحنون » المثلث يقال هذا الكلام ؟ وأنا الذى أول من آمن برسالتك بل وأنا الذى حييت فيك - منذ صدور الخيال الشعري - زعيما جريئا لحركة التجديد الادبى بتونس . ريثما أحببى فيك الرسول الذى أدى رسالة الادب . الا ترى يا صديقى انك قسوت على وأدخلتنى فى زمرة النوكى والحمقى أولئك الذين لم تلمس قلوبهم الجامعة

لفحة من حرارة الايمان فيسخرون منك ويرثون لحالك اذا قلت لهم اننى اسمع فى أعماق قلبى و قدس أقداس نفسى صوتا يهيب بى أن قد خلقت لتبلغ رسالة الحياة الى أبناء الحياة . نعم لقد أدخلتني - ورب الكعبة - فى صفهم وانت أعرف الناس بى وادراهم بما يكنه لك هذا القلب وما تنطوى لك عليه هاته الجوانح .

أهم أن أقول عفا الله عنك فى هاته المرة فيأبأها على القلم ؟

دعوتنى الى الكتابة فى « أبولو » عوض « السياسة الاسبوعية » وحرضت على ذلك وقد فكرت فى ذلك أول الامر ثم عدلت موقتا لاسباب منها أن أبولو لا تنشر الا المباحث المتعلقة بالشعر وهذا أمر يسهل تلافيه أما السبب الاهم فهو ان تلك المجلة تضيق بنشر المقالات المطولة والدراسات الوافية وأنا رجل ينقل على أن أتقيد بالصحف المحددة . فرأيت أن « السياسة الاسبوعية » أرحب صدرا وأوسع ميدانا من أبولو . أما فكرة الفرعونية فلا أراها مسيطرة كل السيطرة على السياسة الاسبوعية .

ناهيك أن ادباء كثيرين من الاقطار العربية يكتبون فيها وصاحبها لا يفتأ يعيد - فى فاتحة كل سنة - انه انشأها لتكون أداة اتصال بين الشعوب العربية ورابطة لتوحيد الثقافة والادب العربى . وعلى كل حال فقد رأيت أن اعمل برأيك وسأوجه لك عن قريب ثلاث مقالات وقصيدة ترسل منها ما تراه صالحا وغير مخيب لوساطتك بينى وبين تلك المجلة .

قرأت فى العدد الخاص بذكرى شوقى من مجلة « أبولو » هاته الكلمة « والمشهور عن شكسبير ان الفرق بينه وبين غيره من الشعراء » ومؤلفى الروايات المسرحية أن كل لفظة ترسم صموءة فما بالك بالسطر « أو بالقصيدة » وقد استوقفتنى هاته الفقرة لانى كنت ذكرت مثل ذلك تماما بالنسبة اليك فى نقد « الخيال الشعري » ولا زلت على هذا الرأى . ولا زال هذا الرأى يتأيد عندى كلما قرأت « لهيجو أو شكسبير شيئا » ماذا أقول لك بعد هاته الخلطة ؟ ألا ترى معى أنه يكون من المفيد لو جعلنا موضوعا نبحت فيه عوض أن نمر فراغ كتبنا بما لا يجدى نفعا أو على الأقل نجعل الصحيفة الأولى من الكتاب والصحيفة الثانية للاخبار الادبية وما يجد من الامور وما ينشر من الكتب .

كأنت الاخ البشروش منذ مدة ولما اتصل منه بشيء . فلعله مشتغل بامتحانه الصناعى الذى وقع يوم الجمعة الفارط . أرجوك أن تبلغ سلامى اليه وسلام من أخيك .

المرآة الثالثة والعشرون

توزر : 1351/10/28 (٢)

أخي العزيز ،

تحية وسلاما

وبعد ، فقد أهداني أخونا مصطفى خريف - أول أمس - ديوانا جديدا للعقاد ، اسمه « وحى الاربعين » وهو يقع في نحو التسعمائة بيت ، في شكل جميل صغير وطبع متقن وورق مختار . وفيه ما شئت من فلسفة ناضجة في الحياة والناس . وغزل مطلول ، ووصف شامل نفاذ ، وسخر لاذع عميق أما أسلوبه فهو أزقى من أسلوب أشعاره الماضية ، ولاغرو فهو شعر العقاد نظمه حوالي عام الاربعين من سنى حياته - وهذا هو وجه التسمية ، واني أرجو ان لا يفوتك اقتناؤه .

لقد مر بي أمس حضرة الاخ البشروش في طريقه الى صفاقس لامضاء امتحان الترسييم وقد سلم الى رسالته اليك وقصيده اللذين يصلانك صحبة هذا وقد رغبت الى أن أقول لك انه يرغب أن نطلع بعضنا على رسائلنا التي نتبادلها حتى تكون هاته الرسائل بمثابة صحف خاصة . بحيث أنني أطلع على رسائلك التي ترد الى ويطلعني كذلك ونطلعك نحن على رسائلنا المتبادلة . وبناء على ذلك سلم الى رسالتك لاطلع عليها . وقد أضف الى قوله المتقدم : انها ربما يأتي عليها اليوم الذي تنشر فيه على الناس كما يفعل ذلك أدباء الغرب في كثير من الاحيان . أما أنا الآن ، ان شئت ان تعرف ذلك ، فان نوبة الشعر تمتلك على عواطفى وأفكارى وان ربة الشعر تعزف على قيثارتها الذهبية أناشيدها بنفس هائل ترتج له أعصابى المرهفة ، ولست أدري متى تسكن « النوبة » وتتوارى ربة الانشاد فى أفقها الغامض البعيد .

لقد كنت حدثتني فى رسالة سابقة عن « مزامير داوود » فان أمكنك توجيهها الى قريبا فافعل ولك الشكر .
لا زلت أنتظر رسالتك فى شأن « أبولو » اننا نريد أن نرفع من رأس « تونس » بما لنا من حول وقوة فكن ثابت العزم قويا على الايام .
سلام عليك وألف شوق وولاء خالد .

أخوك المخلص
أبو القاسم الشهابي

(٢) 24 فيفري 1933

رسائل الخليوي

بني خلاد في 27 فيفري 1933

أيها الأخ الأعز

بعد كتابة ما تقدم اتصلت بكلمتك الرقيقة وكتاب الاخ البشروش الممتع
وسأجيبه عن ذلك المشكل الذي فتحه للبحث .

أما وحي الاربعين فقد أخبرني بوروده الاخ المهيدى منذ مدة طويلة . وبحثت
عنه في كل المكتبات فلم أجده . أما مجلة «الرسالة» فقد بحثت عن أعدادها
السالفة فلم أجدها أيضا وقنعت بشراء العدد الاخير منها وأوصيت على بقية
الاعداد كما فتحت لي فيها اشتراكا عند الثميني . لم يعجبني حجم المجلة ولا
طريقة طبعا أما المحررون فلا حاجة للتنبؤ بهم فهم نخبة الكتاب في الوقت
الحاضر .

وهن الكتب التي صدرت أخيرا ضحي الاسلام لاحمد أمين وهو تابع لفجر
الاسلام وفي حجمه وعلى غرازه . ومنها ديوان ابن زيدون نشره كامل كيلاني
وقد أطراه لي الشيخ العربي الكبادي وبالغ في الثناء عليه . وسوف أقتنيه .
ولا شك أن مصر ستردنا بكتبها ومجلاتها فلا نعود نجد مكانا نتنفس فيه
الهواء أو يدخل لنا منه النور . أما تونس فهي باقية على همودها وخمودها حتى
يقضى الله أمرا كان مفعولا .

مزامير داود هو ضمن الكتاب المقدس وليس من الهين ارساله لانه في حجم
« المنجد » وسأنقل لك منه قطعا ريثما أتمكن من شرائه لك اذا ذهبت
للحاضرة .

لا زلت على ما تحب من قوة العزم والرغبة في الخروج من ذلك اليأس الذي
حدثك عنه في الكتاب الماضي وما رأيك لو أكتب في مذاهب الادب الفرنسي
الحديث الفنية بالنظريات المفيدة وتكون سلسلة الدراسات شاملة ، مثلا :
للمذهب الرومانتيكي والمذهب الطبيعي والمذهب الرمزي والمذهب البرناسي
ونظرية « الفن للفن » . . . الخ .

وهاته المذاهب أو المدارس هي خلاصة ما ظهر من الاتجاهات الادبية خلال
المائة سنة الاخيرة أي من سنة 1830 الى اليوم . هذا زيادة عن الموضوعات التي
يظهر لي أن أكتب فيها دون تقييد بوحدة الفكرة أو وحدة الموضوع .
وأخيرا تقبل سلام أخيك على الدوام . . .

رسائل الحليوى

بنى خلاد فى 22 مارس 1933 (*)

أخى المفدى :

اتصلت الساعة بكلمة الاخ البشروش وأبياته الرقيقة وقد عجبت لعدم اتصالك بالعددين السادس والسابع من « أبولو » ، وقد قرأت العدد السادس منذ شهر واتصلت أول الامس بالعدد السابع وقد عجبت لعدم وجود قصائدك فيه ، ولعل ذلك راجع الى وفرة المواد لديهم أو سوء الادارة . وقد قرأت فى باب النقد كلمة عن « الحيال الشعرى » كتبها أديب اسمه مختار الوكيل وقد شكر فيها الكتاب شكرا حسنا اذا راعينا عنجھية المصريين ولكنها أقل مما يجب بالنسبة لقيمة الكتاب ومحتواه . ويظهر لى أن الناقد لم يفهم ما تريد بالخيال الشعرى حق الفهم ولذلك صادمك بأبيات البحترى فى الربيع وأبيات شاعر آخر فى وصف نافورة وحسب أنه ألزمك الحجة وأقام البرهان على غلوك وأنت من دعاة الطفرة . وقد أدركت ان هذا العدد السابع يمتاز عن سابقه برجعية محسوسة . فانظر ما كتب عن العقاد وديوانه وحى الاربعين فالمناقشة تدور حول الألفاظ وأن منها الصالح للشعر وغير الصالح مما يرجعنا الى عهد ابن الاثير وانظر فى باب الفكاهة أبيات مهداة الى مجهول ولا شك انها موجهة الى العقاد وخصومته لأبى شادى فهو يصفه « بالحمار الفيسوف ! » .

وعلى كل فيكفى أن تعلمنى برغبتك لارسل لك هذا العدد سريعا . وسوف أوجه لك يوم الاثنين بثلاث مقالات .

ولدى مقال رابع تركته حتى أعلم مصير هاته الثلاث . لا أدرى هل يفهمون الخط التونسى وهل نرى فى ما ينشر مأساة الاغلاط المطبعية نتيجة لسوء قراءة الخط . سلامى اليك أخيرا أخوك . . .

(*) انظر فى الملحق الرسالة رقم 2

المراتة الرابعة والعشرون

توزد الجريد الشاية 1351/12/3 (*)

أخى الأعز ،

أحييك ، وأهنيك على نجاحك فى دراسة رومانتيكية الادب الفرنساوى ، أقول أهنيك بالنظر لما أنارت فى نفسى من لذة واعجاب ولما أدركت فيه من دقة واستيعاب . والا فأننى لا أعرف الادب الفرنساوى - كما تعلم - حتى أقول لك أنك وفقت كل التوفيق فى الاحاطة والدرس والاستنتاج ، وان كنت أشعر انك كذلك فان ما طالعت من دراسات عن هذا الادب يسمح بأن أقول هذا انقول . أما كلمتك عن ابن رشيق ورأيه فى الشعر والشاعر فهى كلمة موفقة كل التوفيق سديدة كل السداد ، وانبنى لا أشك أن أبا شادى سيراسلك معجبا طالبا امداد المجتة بدراساتك القيمة ، اما أنا فأننى لا أريد منك أن تكف عن العمل منتظرا ما ستكون النتيجة مع « أبولو » وانما أريد منك أن تتابع دراساتك عن الادب الفرنساوى وغيره وانما ألاحظ لك اننى أود ان تضيف الى الدراسة العامة عن أطوار الادب الفرنساوى ، دراسة خاصة أثناء ذلك عن اعلام كل طور حتى تكون الدراسة وافية شاملة لها شواهدا وآياتها .

اليوم وجهت دراساتك الى « أبولو » ومعها ثلاث قصائد لى : I قلب الام
2 الأبد الصغير 3 فى ظل وادى الموت .

ولاحظت له عن الاخيرة أنها نشرت من قبل حتى يكون على بينة . كما أرسلت كلمة رد على الاديب مختار الوكيل وقد لاحظت أن يكون الرد وادعا زقيقا واننى أصارحك اننى لما طالعت « أبولو » فكرت فى الرد عليه حتى

(*) 30 مارس 1933

جاءتني رسالتك السابقة فأيدت عزمي . وقد قدمتك الى أبي شادي ولا أكتفك
أن التقديم كان أقل مما يجب لأنى خفت أن اتهم بالصدائة وعواطفها ان فعلت
كما أعتقد . وعلى كل فشىء خير من شىء .

زارنى أمس الاخ البشروش فى طريقه الى بلده ليستريح مدة عشرة أيام أو
نصف شهر لأنه يشعر بتعب كلى فى بدنه أرهقه واستيقظت علته (الضعف
العصبي) فاتعبته جدا شفاه الله ، وهو يحييك معجبا بأدبك وان كان لم يطلع
على دراساتك هاته فقد اتصلت بها بعد سفره بساعة . تقبل تحيات أخيك
المخلص لك :

ابى القاسم الشابي

ملاحظة :

كان مجموع دراستيك وقصائدى الموجه الى « أبولو » ظرفا ضخما
يستطيع وحده أن يقوم بعبه مجلة شهرية ! ! ولهذا فاننى أعتقد أنه
لو يوفق عزمان قويان الى التآلف لاستطاعا ان يخرججا الى العالم
العربى مجلة شهرية قيمة تجعل لتونس الحقيرة مكانا رفيعا فى
عالم الأدب الحى . ولعل الزمن يسمح بذلك يوما ! ومن يدرى ! لا
تتوان عن مراسلتى أيها الاخ .

رسائل الخيوى

بنى خلاد فى 12 ابريل 1933 (16 فى الهبة 1351)

أخى العزيز .

أهنيك بالعيد وأتمنى لك ما يتمناه الاخ لآخيه والصديق الصادق لمن اصطفاه وجعله فى السويداء من القلب .

لقد قضيت يا أخى هذا الاسبوع بين حل ومرتحل فلم أتمكن من مكاتبتك فى الوقت المناسب وأنا حريص اذ اكاتبك ، أن أقول لك شيئاً آخر غير عبارات المجاملة وصيغ النفاق الاجتماعى . ولكن أنى لى بالوقت فاقنع منى بهاته الكلمة المتأخرة عن وقتها اضطرارا .

انى سأرجع غدا الى القيروان مرة أخرى لقضاء عطلة « عيد الفصح » حيث أمكث هناك أحد عشر يوماً (الى 23 أفريل) وقد اصطحبت فى عطلتي الأولى وحى الاربعين وطالعتنه متصفحاً ورأيت المختصر فيه هو أنه يعجب الفكر ويدعو الى التأمل والتفكير ولكنه لا يثير العاطفة أو يحرك الشعور . وقد ساءنى حرص العقاد على نشر كل شعره حتى الضعيف منه وحتى البيتين والثلاثة . فقد تخطر لاحدنا خواطر يمكنه أن يضمها بيتين من الشعر ولكنه يأنف من ذلك . ويأبى ان يكون نفسه قليل الامتداد والحق أن العقاد « أراد » أن يكون شاعراً فكأنه « بالازادة » لا بالاندفاع النفسى الذى لا يقهر الى قول الشعر . فالشعر الحق يجب ان ينبع من النفس كما يتفجر الماء من المنبع رغم ارادة الصخور المعترضة .

انظر الى القصيدة التى نظم فيها أسطورة « ايكاريوس » وقارنها بما كتب عنها فى ساعات بين الكتب تجد انها فى نشره أجمل منها فى شعره . ولو تناول تلك الاسطورة شاعر عاطفى مثل ناجى لآخرج منها آية رائعة .

أرجو ألا تنقاد الى دجل « المعهد الصحبى » فيما يتعلق باصطيفاك ، فقد رأيت كيف وافقك مناخ بنى خلاد فى اقامتك القصيرة هنا حبذا لو أمكنك المجئ الى القيروان واغتنام هاته الفرصة .

الى اللقاء وفى انتظار ردك تقبل تحيات واشواق أخيك الدائم المعهد .

المرآة الخامسة والعشرون

توزر الجريد الشابية 1351/12/21 (*)

سلام على حضرة الاخ الفاضل العزيز

وبعد ، فقد طالعت في « أبولو » الاخير (27) كلمة كتبها بعض نكرات مصر عن ديوان العقاد علمت فيها أن العقاد قد استدل على مكانة شعره في نفوس العالم العربي - فيما استدل به - بكلمتك التي كتبتها في الرد على « امام العربية » المزيف وفي الاشادة بالعقاد . وقد سررتني هذا الخبر حقا ودلني على أن صوت تونس في الادب لم يعد خافتا ولا مجهولا . وفي ذلك ما يهون على النفس بعض أشجانها . أما ذلك الكاتب الذي قال عنك أنك « نكرة » فانه يحق لنا أن نتساءل : وای المعارف هو ؟ أما أنا فلا أراه والله الا نكرة النكرات

وقد كنا نتحدث - أنا والبشروش - حول هذا الموضوع حينما وردت على رسالتك الاخيرة وفيها رأيك عن « وحى الأربعين » واذا كان لي أن أنكر عليك من هذا الرأي فهو زرايتك على العقاد نظمه البيت والبيتين وقولك ان النفس تأنف من ذلك وتأبى أن يكون نفسها غير ممتد !

فالعبرة يا صديقي عندي انما هي بنوع الشيء وعلو عنصره وكرم معدنه لا بكميته وكثرته وكم من مطولات ممدودة النفس لا يعثر فيها المرء على ما يسكر القلب أو يغذى الفكر . ثم ألا ترى معي أن قولك أن النفس تأبى الا أن تكون ممتدة النفس هو ضرب من « تحكم الارادة » الذي تنعاه على العقاد في شعره ؟

أما أنا فلا أفهم من الشعر الا أنه : فيض الحياة في أيقظ ساعاتها وأحفلها بنوازع الفكر والشعور ، وكما ان السحابة العابرة قد تسيل السيول وقد تسكب القطرات ، كذلك نفس الشاعر .

أما الاخ البشروش حينما اطلع على رأيك فقد قال مداعبا : ان الاخ الحليوي قد أشاد بشعر العقاد حينما رد على « امام العربية » وقد ساقه العقاد حجة على أثر شعره في العالم العربي . وأنكر على ان أجعل من العقاد شاعر « الاختيار » وها هو ذا ينفي عليه اليوم الشاعرية الصادقة الحرة ! فبأى آرائه نأخذ ؟ ما أرى الا أن ننشر رأيه هذا الاخير ليطلع عليه العقاد وتكون له كلمة حوله ! . . .

(*) 17 أبريل 1933

وافترقنا بعد ذلك واذا به يسجل دعابته تلك في أبياته التي تصلك صحبة
هذا • ولست أدري ما قولك في قوله هذا •

بودى أن اطلع على كلمة العقاد التي استدل فيها بكلامك فان وقعت عليها
فأرجو أن ترسلها الى •

ما زلت أفكر في أمر المصيف وسأعلمك بما أرسى عليه – سلام عليك من
أخيك المخلص :

أبي القاسم الشابي

حاشية :

أعازني الاخ البشروش ديوان ابن زيدون الذي طبع حديثا ولا
أدري هل اطلعت عليه أم لا – واننى الى الآن لم أقرأه وربما تحدثت
اليك عنه برأبي بعد قراءته – أما رأى العقاد فى شعر ابن زيدون فلا
أخالك الا على علم منه •

أبو القاسم الشابي

رسائل الحليوى

القيروان في 24 افريل 1933

أخى

شكرا لكما على رسالتكما وألف شكر على تلك الآبة الرائعة التي توجت بها مجلة « أبولو » وطهرت بروحانيتها أدران نفوسنا التي انغمست بحكم العادة وأوضاع المجتمع في غواية اللحم فلم تعد ترى في كل غادية ورائحة الا ذلك الجمال الذى يوزن بالرطل ويقاس بالمتر . فذكرتنا بما نظمت أن الحب شىء غير اللذة وأن الجمال لا يعبر عنه بسواد المقل ، وتورد الحدود واستدارة السوق وبروز النهود ، بل هو « صلوات في هيكل الحب » ومصدر الهام للشاعر ، وهو نور قدسى ونشوة روحية وهو موسيقى رفيعة في سمفونية الحياة .
كل شىء موقع فيك حتى لفظة الجيد واهتزاز النهود

وقلت لنا ذلك في شعر سماوى ما أجدره أن يكون مزموور كل محب راكع في الهيكل .

أما قصيدة « السعادة » فاني ربما خالفتك بعض الخلاف في خاتمتها ، سلمت أن السعادة أحلام معرودة وسلمت أن المرء مضطور لان يأخذ الحياة كما جاءتة سواء حملت اليه الاشواك أو الورود ، ولكنى لا أسلم أن الرجوع الى الضباب يخلص من الآلام لانه لا خلاص منها الا بالموت أو الجنون وربما كانت في الموت خيالات مطيفة وآلام من نوع آخر كما توقع ذلك ذهن كذهن شكسبير (28) أو عقل كعقل المعري (29) .

أما تعريض « الخولى » بمقال الزمان فقد فهمت منه ما فهمت وأرسلت الى الاخ خريف أرجوه أن يبحث لى عن هذا العدد من جريدة « الجهاد » ومتى وصلنى شىء بعثت به اليك . ولم أعجب لقوله أنى نكرة فما انا الا كذلك في مصر الفرعونية ولكنه هو الآخر نكرة فى تونس المفتونة بكل كويتب فى مصر والتي لا يغيب عنها ما فى مصر من نكرات وانصاف نكرات . والمعجيب أنه يقول عن العقاد « لولا دعايته لأدبه فى الجرائد لكان نكرة النكرات » نكلته أمه من معرفة فى المعارف .

أما رأيى فى شعور العقاد فما كنت معجبا به على الاطلاق ولا زال اعجابى بالعقاد الكاتب غير اعجابى بالعقاد الشاعر وليس هذا الرأى جديدا فانا كنت

اعتقد أن المازني أشعر من العقاد . وأذكر أننا تحدثنا يوماً عن الشعراء المعاصرين وبأيهم نعجب دون احتراز واستعرضنا معظمهم فلم نتفق الا على أبي ماضي ، ولهذا معناه . فاننا لم نذكر العقاد لاننا نشرفه كثيراً بهذا الإعجاب وتكون النتيجة أنه أكتب كاتب وأشعر شاعر في العربية في العصر الحاضر - وهذا حيف كبير - وأنا حين كتبت عنه في « الزمان » لم اكتب الا عن قيمته الادبية وفضله على الادب العربي المعاصر ، وعرضت لشعره عرضاً . فان استشهد العقاد حقاً بما كتبت عن أدبه لشعره خاصة فليس الذنب ذنبى . ولئن اعتقدت أن الشعر عاطفة وخيال قبل كل شيء فلأنه علمنى هكذا وما بالى أعطيه ما أباه هو على الزهاوى . فهل نترك عقولنا جانباً لنحكم بما يمليه علينا الإعجاب المطلق أو التعصب الأعمى ؟

أما قول الاخ البشروش أنى نفيت عنه الشاعرية الصادقة الحرة فهو غير صحيح . قلت ان العقاد يفكر في شعره ولا يكتب الشعر في حالات شعور ثائر بل هو يهتدى الى « الفكرة » أو يوحىها له كتاب أو قصيدة فيويده أن ينظمها شعراً وتتم له أرادته وإذا قرأت أنا ذلك الشعر أعجبنى موضوعه وتمنيت لو تناوله شاعر عاطفى حتى يحملنا على أجنحة الخيال او يهز مشاعرنا هزا . اقرأ مثلاً قصيدته القائية تره ينصح أو يطلب من حبيبه الا يعطيه كل ما عنده من العطف والمحبة لانه « يبقى القليل وراء الاستنزاف » ثم اقرأ بعد ذلك قول ابن الرومى :

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها فهل بعد العناق تداني

فالبيت الاول يستوقف ذهنك والبيت الثانى يرف له قلبك رفيفاً . أما قولك أيها الاخ ان السحابة تسيل السيول كما تسكب القطرات فأقول فيه انها على كل حال لا تروى ظمأ الارض ولا يحسب لها حسابها فى الرى أو يطمع منها بالخصب والنماء .

ماذا أقول لك عن القبروان فى هاته الظروف الحرجة التى تمتحن فيها الأمة فى جنسيتها وتساوق الى الموت سوماً ويخونها علماؤها وحملة الشريعة فيها ، وأية مصيبة أعظم من المصائب التى نزلت بنا فى هاته الظروف . لقد سرنى نمو الشعور القومى بالعاصمة وبغيرها من المدن ويظهر لى أن القبروان تتململ وتريد أن تتحرك وتنضم لحركة الاحتجاجات والمظاهرات واطهار الاستياء بالاضراب واغلاق الحوانيت . ولكن طفيان السلط المحلية هو الذى جعل القوم فى حالة اضطراب وحيرة . تصلك مع هذا أبيات مداعبة أرجو أن ترسلها الى الاخ البشروش وتبلغه سلامى وتهانى بنجاحه فى الامتحان الصناعى .

رسائل الخيوى

سوسة 16 أوت 1933

أيها الاخ الأكرم

علمت أنك غير راض عن سكوتى وأدركت ذلك من الكلمة التى ذيلت بها رسالة الاخ البشروش وما كنت ملوما الا لانى لم أجبك عن ورقتك البريدية ولم أف بالوعد الذى وعدت وأنا أقول اننى غير راض عن عدم رضاك لانك لم تكتب الى بعد وصولك الى المشروحة الا كلمة يكتبها كل من وقع بينه وبين رجل آخر تعازف ساعة - وهى كلمة مجاملة « رسمية » تحمل كسوة التشريفات موشحة بالاوسمة والنياشين - ثم انك بعد سكوت طويل كتبت الى البشروش تطالبه بالوفاء بالوعد(*) ولم تكتب الى بشىء فلم أحمد هاته الوساطة وان كان الوسيط أحد الاصدقاء الاعزاء ولم أحمد تلك الكلمة التشريفية وان كنت قادرا على اجابتك عليها بكلمة مثلها لتتم « المراسم » ولكنى لم أشأ ان أزاحم مدير التشريفات فى وظيفته .

واخيرا أقول لك شكرا يا صديقى العزيز

أرجو أن تكون اقامتك بالمشروحة اقامة حميدة وان كنت لا اعلم كيف تشغل اوقاتك ولا ما هى حالة البلدة من حيث المرافق كما لا اعلم من زارك من الاصحاب . ولعل الورقة البريدية لتى تفضلت بارسالها تجيبنى عن كل ذلك متى وضعت فوقها جانبا من الرمل وضربت عليها خط « الدقازين »

انى منذ مدة مقيم بسوسة وأنوى الاقامة هناك الى آخر العطلة المدرسية هربا من حر القيروان وحياتها الراكدة الجامدة ولا أكتمك - أيها الاخ - انى مسرور باقامتى هنا بقدر ما كنت ساخطا على الاقامة بالقيروان ففى سوسة حيث الحركة والنشاط وحيث البحر والآفاق التى لا تحد ، يجد الفكر

(*) انظر فى الملحق الرسالة رقم 4

مجالا للتأمل والنظر كما يجد الجسم شيئا من حرية التصرف التي لا يجدها
فى الاوساط الوقورة المتزمته . فلو رأيتنى على الشاطئ وانا فى لباس البحر ،
أغدو وأروح على الساحل تحت أشعة الشمس أو بين أمواج البحر استمع
الى صرخات الحسان عندما يلامس جسدهن شىء مفاجىء من ماء بارد أو
غشاء يلقيه عليهن عبيث ماجن أو لدغة من بعض دواب البحر وربما تلهيت
وقتا طويلا برؤية الامواج وهى تنكسر على الشاطئ أو تعبت باجسام
الحسان البضة .

ويخيل الى أن البحر الذى يفتح صدره للعبثين والعاثات يقول
للجميع : اضحكوا ما شئتم والعبوا فان أيام الشيخوخة تنتظركم ريثما يأتى
على الكل الفناء . . . لقد شاهدت اجيالا واجيالا مثلكم أدركوا كنه الحياة
فاحبوا ما شاءوا وتمتعوا ما شاءوا فلم يكن لهم من ايام حياتهم الا تلك
الساعات الصاخبة التى قضوها بجانبى . ولو فكروا فى منتهى أمرهم ما
ضحكوا ولا لعبوا لانهم ذاهبون وأنا باق ولانهم فانون وأنا خالد . هكنا ألقى
الصيف - أيها الاخ - فى لهو برىء وتأمل لا أفتح كتابا ولا اكتب رسائل
فان غفرت لى سكوتى غفرت لك ورقتك - وسلام عليك من اخيك الذى لا
ينساك وان تناسيته .

المرات السادسة والعشرون

توزر الجريد 1933/11/12

عزيزى الاخ محمد الحليوى
سلاما وتحية

وبعد فانه تصلك مع هذا رسالة من هيئة « أبولو » وجهوها صحبة رسالة
لجھلهم بعنوانك «الخاص » وانى لم اتصل بهاته الرسالة الا أمس عند
قدومى الى توزر . فقد وجهوها الى مصطفى « المشروحة » وفرع البريد هناك
أرسلها الى توزر ، وأهلى تسلموها وأبقوها عندهم فلم اتصل بها الا عند
مقدمى اليهم . وأغرب ما فى الامر وأدعاه الى خجلى العميق أن الرسالة الموجهة
الى قد طلب الى فيها أبو شادى كتابة تصدير لديوانه « الينبوع » الذى يباشر
طبعه الآن ووجه الى ثلاث كراسات وهى ما طبع من ديوانه لحد كتابة رسالته
الى ، وقد ذكر فيها أنه يوافينى بكل ما يطبع من الديوان للاطلاع عليه اذا
قبلت كتابة التصدير ، ولعله قد أيقن الآن أننى أبيت ما طلب الى واننى غبى
سئء الطبع للرجة أن أرفض طلبه الرقيق الرفيق بهاته الصورة المخلة بكرامة
الادب وذويه ولا أقابل عواطفه الا بهذا الاعراض والسكوت المرذول ! قد
يكون ظنه مثل ذلك الآن فانه لا يمكنه ادراك ما ذكرته لك آنفا . وقد لا يكون
ظنه ذاك . ولكننى على كل حال كتبت له اليوم رسالة اعتذرت فيها بصورة
الواقع .

وقد طلب الى فى الرسالة أعلامه بعنوانك الخاص حتى يوجه اليك « أبولو »
وقد فعلت ولعلك أنت من طرفك تعيد كتابة القسم الضائع من دراستك
القيمة عن « الرومانيسم » وتكتب اليهم غيره من الدراسات والابحاث
وتوافيهم بعنوانك أيضا . وان كنت قد قمت بهذا الواجب الاخير .

لعلك رأيت فى الصحف أننى قررت العزم على طبع ديوانى وفتحت باب

الاشتراك . وأنتى لمذنب كل الذنب اذ لم أكتب اليك بهذا العزم قبل أن يعلم به الناس . وعساك لا تكون قد أضمرت لى شيئا من التائب عن ذلك فلا يكون هو الذى دعاك الى السكوت عن مراسلتى كل هاته المدة كان قلبينا لا يخفان بأصدق عواطف الاخاء الصادق .

يصلك مع هذا ، المقتطع به عدد عشرة وصلات أرجو أن تستعين أنت والاخ سيدى الطيب السكيك والاخ الدبابى على ترويجها بين منزل بوزلفى وبنى خلاد ونيانو . ولكم الشكر . واحسب أن ترويج مثل هذا المقدار فى هاته الجهات الثلاث لا يكلفكم عناء كبيرا . وتصلك مع هذا رسالة الى الاخ السكيك وأخرى الى الاخ الدبابى أرجوك تسليمهما اليهما .

كاتبنى سريعا بما عندك من أخبار وأعمال أدبية وبما قررته مع « أبولو » فى القسم الضائع وغيره وبجواب الاخوين فيما يتعلق بالاعانة على التشريك وبمناسبة ضياع قسم دراستك أذكر لك أنه ضاع لهم أيضا قصيد لى عنوانه: « من أغانى الرعاة » والغريب أنه ليس لى منه نظير صحيح وأنه هو القصيد الوحيد الذى وجهته اليهم قبل ان آخذ منه نسخة صحيحة .
وأخيرا سلامى اليك . أخوك .

ابو القاسم الشابى

حاشية :

الاخ البشروش كلفنى بأن اقرئك سلامه وان أقول لك أنه يطلب اليك أن توجه اليه رسالته حول أدب الاطفال لانه بحاجة اليها . واحسب أنه سيكتب اليك قريبا .

أما الآن فانه غريق فى عمل يعمله - وسلام عليك .

ابو القاسم الشابى

رسائل الخيوى

السبت فى 18 نوفمبر 1933

حضرة الاخ الاعز ، السلام عليك ورحمة الله

وبعد فلا أدري هل اتصلت بكتابى ام أهمله من كلفته بإيداعه صندوق البريد - وانى لارجو أن يهمله أو يضيعه لانى كتبته تحت تاثير عوامل متداخلة وأنت المسؤول عن ايجاد هاته العوامل التى أملت على ما كتبت .

وها أنذا اتصلت أول الامر بكتابك فشكرا لك على كل حال وتعجبت حين ارسلت الى مقتطعا واحد ترووجه بين القرى الثلاث كانك ترفق بى وتوفر على اسباب التعب اذا أنا بذلت جهدا خارج هاته القرى . وعلى هذا فانا أرجوك أن تعلمنى هل ارسلت الى القيروان مقتطعا فان كان ذلك والا فارسل لى مقتطعا أوجهه الى الاخ الشاذلى عطاء الله وآخر الى مدرسة ترشيح المعلمين ثم آخر لبنى خلاد ونيانو ، أما الذى وجهته لى فقد سلمته الى الاخ الطيب السكيك مع كلمتك وأظن أنه يروج فيها بسهولة . اذن فانا اترقب ان توجه لى 3 مقتطعات أخرى ليقع ارسالها الى أين ذكر .

أما ما يتعلق « بأبولو » فانى لحسن الحظ وجدت مسودة المقال الضائع وان كان الاصل أدق وأتم وسأحاول تنقيحه على كل حال ، لقد عملت بإشارتك فعزمت على أن أزدف كل مذهب بدراسة عن زعمائه وبدأت بـ « لامرتين » فتجمع عندى من الكتابة عنه عشر صحائف وسأبيضها وأرسلها للمجلة مع المقال الضائع ثم اشتغل بعد ذلك ببقية الشعراء وهم « هيجو » « وده فينى » « وده موسيه » .

هذا وقد كتبت هاته الرسالة قبيل مجىء البريد ولم أطلها ولم افصل لك فيها كل ما عندى خوفا من رجوع الساعى فتبقى الرسالة الى يوم الاثنين والسلام . أخوك .

المراسلة السابعة والعشرون

توزر الشابية 1352/8/4 (*)

أخي العزيز ،
تحية وسلاما ،

وبعد ، فقد اتصلت برسالتك وانه ليسرني ما ذكرت فيها من انك ستتبع
دراستك عن الرومانتيسم بتحليل أعلامه وزعمائه ، واننا لما تكتب لمنتظرون .
وأظن انني سأوجه اليوم أو غدا المقدمة لديوان « الينبوع » وهي في نحو
خمس عشرة صحيفة من الحجم الكبير . وقد تناولت فيها البحث في الأدب
العربي المعاصر ثم تناولت شعر أبي شادى بكلمة صغيرة تحريرت فيها الصدق
والحق بدون تحيز له أو عليه .
كما أني سأوجه لأبولو معها قصيدين لي ودراسة عن الخيام وقطعة من
الشعر المنثور للاخ البشروش .

ويصلك مع هذا مقتطعان احدهما به تسعة وصولات والآخر به عشرة لبنى
خلاد ومدرسة الترشيح - اما القيروان فقد كلفت فيها ثلاثة أفراد هم :
سى التابعى الاحمر وسى ابراهيم بن سالم وسى الشاذلي عطاء الله وكلفت
كلا منهم بمقتطع ذي عشرة وصولات وقد أنجز الاخ عطاء الله المقتطع الموجه
اليه وارسله الى صحبة رسالة فياضة بأدبه الرائع وخلقه الكريم - ولا
أكتفك يا صديقي أننى ندمت على تكليفه بترويج المقتطع فقد جشم نفسه
فى سبيل ذلك أن جعل لنفسه أربعة اشتراكات ووزع ستة على بقية رفاقه
وهو عمل وان دل على طيب عنصر واخلاص متناه ، الا اننى لا يسرني أن

(*) 22 نوفمبر 1933

يتجشم اخواني كل ذلك فى سبيل معاضدتى وتشجيعى - ليس لى لى ما
أكتبه لك الآن - وقد كتبت هذا على عجل فكان خلطا لا غير - أرجوك ان
تحببى عنى الصديق السكيب والسيد الدبابى وكل من لاذ بكم من اخوان .
وسلام عليك .

أبو القاسم الشابى

ملاحظة :

اتصلت برسالتك الاولى أيضا ، ووجهت لك اثرها « أبو شادى
فى الميزان » ولاحظت لك عنها فى كلمة مع الكتاب فاعله وصلك .
ولعلك ستوجه صورتك مع دراساتك الى « أبولو » فقد طلبوها
منك . راسلنى ما استطعت - فما أعظم شوقى الى حديثك .

أخوك

الشابى

رسائل الحليوى

بنى خلال فى 10 ديسمبر 1933

حضرة الاخ الاعز لا عدتمه

وبعد ، فقد اتصلت برسالتيك الكريمتين وبطى الاولى كتاب « أبو شادى فى الميزان » وفى الثانية مقتطعات الاشتراك فى الديوان . وقد وزعتها الى أماكنها ومتى تم ترويجها أوجه لك ما تجمع من المال . وقد لقيت بعض الصعوبة فى ترويج الاشتراكات لان الثمن المحدد للديوان كان مرتفعا فى نظر المشتركين وهذا غير مستغرب من قوم تعودوا الا يعطوا المال الا اذا عوضتهم عنه بجوقة طرب أو حفلة راقصة . اما الاشتراك فى الكتب والمساهمة فى المشروعات الادبية او الخيرية فمما لا يدخل فى حسابهم ولا يجودون له الا بقدر ما تجود أم الحطيئة بالبول على الناز اذا استنبح الاضياف كلب قومها .

نعم هذا هو الشعب الذى تحرق نفسك بخورا له ، وتضحى بشبابك من أجله . ولا تسأل عن مقدار سخطى وثورة نفسى حين أعلمنى السيد على بن حميدة المكتبى أنه لم يتصل لحد الآن باشتراك واحد من شخص واحد فأى عجب أعجب من هذا . فى تونس عاصمة الادب والعلم لا تشتري « أغانى الحياة » حقا بخمسة عشر فرنكا حقيرة . ولست أدري أيها الاخ هل لقيت لحد الآن مشجعات من نوع تشجيع الاخ عطاء الله أم لا زالت الايام تريك العجائب فى هذا البلد فوق ما تعرف وما تحملت فى الماضى . لست أدري كذلك كم هى الكمية التى عولت على طبعها وفى أى مطبعة سيكون الطبع ومتى يبدأ به الى آخر ما عندك فى هاته المسألة التى لم تعلمنى بشيء عن مجراها فى كتابك الاخير ، فان رأيت أن تشركنى فى متاعبك وخواطرك فانما تشرك معك أخا يهमे أن تنجح على طول الخط وتنتصر على كل المصاعب اذ فى نجاحك نجاح

جيلنا كله ونجاح مستقبل الادب في هاته الديار التي لا يسمع فيها الا صوت
الرجعيين والحمقى .

كما انك لم تحدثني عن كتابتك لمقدمة « ديوان أبي شادي » والمذهب الذي
ذهبت في الكلام عن الادب المعاصر ولا ما قلت في ادب أبي شادي بصفة عامة .
والحق أن كتابك الاخير بل وكتبتك الاخيرة على غاية الاختصار ولا شك عندي
أن أبا شادي سيتخطى كل ما كتبتك عن الادب المعاصر ليرى ما كتبتك عنه لان
الرجل لا يقنع بما دون التأليه . وانها لسنة سيئة في مصر في هذا الزمن فلا
يكاد يكون لاحدهم بعض الشهرة او بعض العمل في سبيل الادب حتى تنتفخ
أوداجه ويتعمل قعدة الزعماء ويحيط نفسه بأذنان ينفخون في ابواق وفي
كل الجهات : هذا زعيم مدرسة كذا . وهذا شاعرنا الاكبر الذي يتلقى وحيه
من السماء . . . هذا شكسبير العصر . . . هذا . . . هذا الى آخر ما هنالك .

ما هذا الـ « أبو شادي في الميزان » الذي ارسلت لي منه بنسخة ؟ وكيف
يرضى أبو شادي به ويدافع عن مؤلفه في مجلته ؟ ما هذه الحماقات ؟ ما هذا
الحرف والمهاترة ؟ هل هانت العظمة الى تلك الدركة ؟ وهل يصبح الاديب عظيما
بمقدار ما يكون له من الحيلة في نشر الدعاية لادبه وتضخيم ابواق الصاخبة ؟
ما هذا الكلام الذي يلقي جزافا من مختار الوكيل الذي كتب عن خيالك
الشعري ما كتب . فوالله لكتابك ذاك في نظري يفوق ادب أبي شادي كله .
يقولون ان عصرنا هو عصر السرعة فهل هو عصر السرعة أيضا في اكتساب
الخلود ؟ وهل يريد غواة الشعر في مصر - في هذا العصر - أن ينعتوا
بالخالدين باييات قد تجد فيها ومضة الذكاء بين ظلمات من الغباوة والعماية .

قلت لك سادفا اني ذهبت الى العاصمة ولم اشتر هاته المرة من الكتب الا
كتاب « نسمات وزواجع » لنقولا يوسف وهو الذي كتب مرات عديدة في
السياسة الاسبوعية . ولا ادري هل سبق لك ان قرأت له شيئا ، انه كاتب
جميل الاسلوب ، مهجري النزعة والموضوعات . أما الكتاب فحسبك أنه طبع
بالمطبعة «العصرية ذات الصور الفنية والرمزية البديعة . وقد رأيت أيضا
ديوان الرصافي مطبوعا طبعا جميلا ومزدانا بكثير من الصور الرمزية وقد

أضيفت إليه كل قصائد الرصافي التي لم تنشر في الطبعة الأولى وهي كثيرة . كما اقتنيت « مجلة العالمين » الفرنسية الشهيرة ولم أكن لهذا الوقت اطلمت على اعداد منها فوجدتها دسمة لا يقوى على مطالعتها الا كل ذى صبر وجلد . وقد وجدت في هاته المجلة نص الرسائل التي تبودلت بين « لامرتين » و « سانت بييف » الناقد الرومنتيكي الشهير من أول تعارفهما الى حين القطيعة . وفيها اعجاب « سانت بييف » « بلامرتين » اعجابا مطلقا ثم صداقته له ثم هودته ثم اخوته الى الوقت الذي انصرف فيه « لامرتين » عن الادب الى السياسة وهنا كانت القطيعة بفصل يقول فيه « سانت بييف » عن « لامرتين » « انه يجهل كل شيء ولا يعرف الا قلبه » وقد أشركتك بهاته الكلمة في تلك المتعة الفكرية التي شعرت بها عند تلاوة هاته الرسائل لاني رأيت فيها صورة مطابقة لما بيننا من تبادل الوداد وتبادل الآمال في المستقبل . وكنت حين المطالعة أحس وكان صوتا صادرا من نفسي يقول : أنت في هاته الرسائل تشبه « سانت بييف » وصديقك يشبه « لامرتين » . ولكن صوت العقل يرجعني الى الواقع وان كان يقنعني فيما يخصك بانك « لامرتين » الادب العربي واني لأرجو ان تظل صداقتنا الى الابد بلا قطيعة أو جفاء والسلام .

من أخيك

المراتة الثامنة والعشرون

توزر : الشايبة 33/12/8

اخى ،
تحية وسلاما ،

وبعد فقد طال انتظاري لرسالة منك تجلو عن النفس ما بها من ملال
وتخفف عن القلب بعض ما ينوء به من تكاليف الحياة المتعاقبة فى غير
انقطاع فما موجب هذا يا صديقى وعلام تضن على أخيك بما يسره ولا يكلفك
عناء أو حربا .

لعلك قد شغلك عنا ما أنت قائم به من تحرير دراسة المذهب الرومى
وزعمائه اذا كان ذلك فانى ليثلج صدرى مثل هذا العمل الجليل الذى أنت
قائم به ولكنى أحسب ان كتابة كلمة من أجاديت نفسك وتوجيهها الى من
حين لآخر لا يكلفك جهدا ولا يأخذ من وقتك كثيرا لو عذمت .

وجهت لك اليوم صندوقا من الدقلة على طريق البريد فتقبله هنيئا مريئا
ولا تنس ان تعرفنى بوصوله حتى اطمئن .

أقول « حتى اطمئن » لان القدر هاته السنة - فيما أرى - لا يريد ان
يسلك معى الا سياسة المعاكسة والعدا وكيف يكون يا صديقى حال من
يتعمد القدر معاكسته ؟ .. ذلك انى قد ضاع لى « باقاج » اتيت به من
الحاضرة قيمته تزيد على سبعمائة فرنك . ونسيت كتبا بالحاضرة من بينها
ديوانى الشعرى . أى نعم ، ديوانى الشعرى ! فأرسلت فى طلب توجيه ما ذكر
من نحو شهر ولكن القدر قد أبى ذلك رغم ما بذلت من جهد والحاح فى المطالبة
بالتوجيه .

واخيرا خبرت منذ ايام تسعة انه وجه الى على طريق البريد مضمون
الوصول . ولكن رغم ذلك فقد مضت تسعة ايام ولم اتصل بأى خبر عنه .
فاعجب يا صديقى او لا تعجب لهاته الاعاجيب المتعاقبة ، ولو حدثت عن كل

ما يملأ نفسي وما يطيف بي من هاته الماكسات فى توزر هنا وفى مجاز
(الباب) وفى الحاضرة وغيرها ملأت صفحات . ولكنى أكتفى بأن أقول انه لم يمر
على مثل هذا العام فى كثرة الهموم والشواغل التى لا تعقب الا الالم والعذاب
ووفرة الغم والكمد .

لست أدرى هل أحسنت صنعا أو أسأتة حين كتبت اليك ما كتبت مما
يمض نفسي ويرض قلبى ولكنى أدرى أنها نفثة نفتتها وان كانت لا تصف
لك من سخرية القدر بى الا جزءا من مائة جزء . وأخيرا ؟ لا أدرى ما أكتب
اليك بعد هذا الخلط المتدافع وانما اختصر وأقول سلام عليك من اخيك الذى
ينتظر ان ينسى فى أحاديث نفسك بعض صوم الحياة

أبو القاسم الشابي

على الهامش :

لا أدرى هل يصل اليك الكتاب والصندوق أم لا ؟ فقد اصبحت
لكثرة ما لقيت من عناد الايام اعتقد ان كل ما يصدر عنى أو يرد
الى مقضى عليه بالضياح . والا فهل تمت ما أغرب من ضياح
الديوان وهو مضمون الوصول . ثم ضياحه فى هاته المدة التى
أوزع فيها اشتراكاته ؟؟ أسأل الله ان لا يضيع . والا فقد ضاع
من حياتى جانبها الحى الذى احب

رسائل الخيوى

بنى خلاد فى 13 ديسمبر 1933

أخى المفدى ،

فى اليوم الذى وضعت فيه رسالتى التى وصلت فى البريد اتصلت بكتابك ثم من الغد بصندوقك فشكرا لك على هاته الايادى التى أتقلت بها كاهلى وقيدت لسانى .

أخى ، ساءنى والله أن تكون غرض الخطوب وطلبة الدهر العنيد ، ولكن هون عليك ! وما أنا ممن يشاركك فى ذلك التشاؤم . ولا شك أن ضياع الادبаш مما يعرض لكل الناس ، وما دام فى يدك وصل هاته الادباش فالشركة مرغمة على تعويضها طال الزمان أو قصر . وانما يكفى الحزم واتيان الامور من أبوابها القانونية . وأما الديوان فاننى أتتحقق أنه وصلك الآن اذا كان حقا مضمون الوصول لان التهاون بالطرود المضمونة لا يكون البتة فى ادارة البريد . وانى لأؤمك على حمل ديوانك فى سفرك لان ذلك الديوان - كما قلت - هو الجانب الحى المحبوب من حياتك وأى جانب هو ! انه لصحيفة عالية من صحف الآداب العالية وجيل كامل من أجيال الأدب العربى وانى أقتصر على هذا لانك لا تريد الزيادة وتغضب لحديثى عن رأيى فى ديوانك ، وانى لأرجىء هذا الرأى فيه الى أوان صدوره حيث لا يكون لك على سلطان .

هذا ورجائى اليك أن تعلمنى بوضوئه حال اتصالك به - كما أن رجائى اليك - أيها الاخ - هو أن تترك الافكار السوداء والاعتقاد الملح بأن الدهر يعاكسك فكفك ما أنت فيه من سوء الصحة وشواغل الحياة حتى تضيف الى ذلك مرارة الاحساس بالألم والعذاب والغم والكمد . وانى لأفضل أن تكون كالملاح الذى يصارع البحر وهو يرى أنه لا شىء أمام عظمتة وجبروته وينتصر على الموت بلوحة يتعلق بها وهو يرى شبح الموت أقرب اليه من جبل الوريد - هذا حظنا فى هاته الحياة يا أخى : رمانا الله على هاته الارض وسلط علينا عناصر الوجود المهلكة المبيدة ، الظاهرة والحفية . على أن القوى غير متوازية والحصمين غير متكافئين، ومع ذلك فالانهزام عاز على بنى الانسان، والاستسلام ضعف واستخذاء . ولو شاء الله لخلق عالمه كاملا لا موضع فيه للألم والعذاب .

قدمت لك رأيا فى أبى شادى ولا أدرى ما رأيك فى رأيى . على أننى لم أشرح رأيى تماما فى أدبه وانما غضبت لكرامة النبوغ . ولا أدرى لماذا كان

اعجابي فاترا بأبي شادى وأدبه ولا يعجبني منه الا نشاطه وطيبة قلبه وتوفره على كثير من المشروعات . وانه لعجيب حقا أن يجد ذلك الرجل متمسعا من الوقت للقيام بمهنته الطبية ومهنته الصحفية وشركاته التجارية ثم يكظ سوق الادب بدواوين شعره واني لأخاف أن أكون على خطأ في فهم الرجل وتقديره . وربما كان كثير من الناس مثلي لانه يشكو كثيرا في آثاره من خذلان قومه له وعدم تقديرهم لمواهبه . وانا لاحدى اثنتين - فما انه كما قلت لا يقنع بما دون التآليه أو أنه حقا منتقص مضمور . على أن الذين تعرضوا لهاته الحاصية في أدبه لم يلاحظوا كما لاحظت أن شكوى الخذلان والجهود هي شكوى عادية لشاعر عادى وليست البتة شكوى أديب ممتاز يدخل فيها من العناصر ما يرتفع بها عن مستواها الحقيير الذى لا يعدو البكاء أو البغض والحفيظة . فانت مثلا في قصيد « النبىء المجهول » تعلن رجوعك للطبيعة ولا تلوم الاحساسية نفسك فليس في هاته المرارة الا الارتفاع والعلو الى العوالم التى هي فوق الجماعات وسخافتهم الموروثة وجحودهم لاصحاب الافكار الممتازة وحبهم المشى فى الظلمات .

وعلى كل فعل كلمتى تلك لا تسوء الى رأيك فى الرجل الذى كتبت عنه معجبا . وما يدريك أنى سأكون مضطرا ذات يوم الى المجاملة فأكتب لابي شادى فى الكتب الخصوصية خلاف ما أعتقد وما حيلة من يغمرك بالتقاريط والالقاب وهو يرجو - على ما أظن - ان تغمره بمثل تلك الالقاب والتقاريط التى لا تنبعث من النفس بسماحة . قلت انى اشتغل ببحثى عن « الرومانتيسم » والحقيقة انى أفكر وأهضم مطالعاتى ولم أبدأ الا أمس فى الكتابة عن « ده فينى »، وان كنت ترى انى قائم « بعمل جليل » فأنا أرى انى أقوم به من غير حماس لانى لا أعدم فى الغد من يعيرنى بأننى مترجم كما غير العقاد بذلك من قبل . فانا افضل ان اشتغل بموضوعات يظهر فيها المجهود الحاص بصورة اجلى واقوى ، بل انى والله أفضل أن أكتب فى تلك الموضوعات خيرا من الكتابة فى الادب الفرنسى لانك لا تتصور مقدار العناء الذى يعاينه الكاتب للخروج بزبدة مطالعاته وتلخيصها والامام فيها بمذهب الرجل الماما واضحا شاملا مع اضطراب كتب الدراسات واختلافها فى تقدير آثار الرجل المتحدث عنه وصعوبة التحصيل على ما يسهل المهمة من المراجع الادبية فى هاته القرية . ولكنى من جهة أخرى مقتنع بانى أسد ثلثة فى تاريخ نهضتنا (كما يقول الاخ البشروش) (*) لاننا ونحن أشد الناس اتصالا بالفرنسيين لما نحسن الى اليوم الاستفادة من أدبهم الفنى

(*) انظر فى الملحق الرسالة رقم : 9

الجميل بل كان كل همنا الاقبال على آثار المصريين والتأثر بمناحي تفكيرهم وهو كما تعلم أضعف وأقل جدوى بالنسبة للادب والتفكير الفرنسي .

وقبل أن أختتم هاته الرسالة أريد أن استشيرك في صعوبة عرضت لي في الكتابة عن «دى فينى» ذلك أن الرجل لا يحجم عن نسبة الجور الى الله ويصرح بالوعيد واللعنة في كثير من المواضع وخصوصا في يومياته التي هي أهم مصادر الكتابة عنه وهي مفتاح أدبه وشخصيته ولا مندوحة من التعرض لكل ذلك والاستشهاد بشيء منه فكيف العمل ؟ كما أنني أنتمت قصيدة « ثورة العقل » فكانت في خمسين بيتا ولكني تخرجت من كلمة لم أجد مندوحة عنها حسب سياق المعنى وذلك في قولى عن الشاعر :

**ورماه في ذى الحياة ضعيفا اعزلا بين كل ذى سلطان
حاملا كلاله قلبا كبيرا فيه ما في الوجود من اكوان**

فالخرج في التشبيه ، كما أنى لم اعتد لوصف القلب الا بكلمة كبير مع أنها لم ترق لي فهل لك أن تبدل لي هاته الكلمة بأخرى وتريني رأيك في ما استشرتك فيه وسلام عليك من أخيك الشاكر المخلص أبدا .

حاشية :

فاتنى أن أعلمك بأنى اتصلت من ادارة « أبولو » بأعداد المجلة كهدية ومعها كتاب « أبو شادى في الميزان » ومحاضرة ل احمد محرم .

الرسالة التاسعة والعشرون

توزر : الشابية 33/12/19

أخى

تحية وشوقا

وبعد ، فقد اتصلت برسالتيك ، وانها لسعادة روحية تلك التى استمتع فيها بنجوى روحك وعقلك معا . وانى لا ستزيدك من هاته السعادة وأسألك ان لا تحرم أخاك منها من حين لآخر فانى فى كثير من الاحيان حينما تطفى على نفسى كآبة الملل المبهم فأصدف عن الكتب والناس ويوصد قلبى عن جمال الوجود - كثيرا ما أرجع الى مجموعة رسائلك أتلوها فأجد فيها من صور نفسك الحية الواعية ما يذهب عنى سامة القلب وينسينى جمود الأسى .

أكثرت يا صديقى فى رسالتك من اطرائى والاعجاب بمواهبى التى لا أراها قد خلقت شيئا مذكورا - وانى أسألك ان تعفينى من مثل ذلك فانى لانوء بحمله وان سكوتك عن هذا لا ينقص شيئا من هاته الحقيقة الخالدة وهى اننا قلبان متجاوبان بالمحبة والعطف والاعجاب والمطامح . وان كنت لا أنكر أن رسائلك تلك كثيرا ما شحذت من قريحتى وخففت من نقمتى على نفسى وسخطى عليها سخطا يؤدى بى أحيانا الى ان اعتزم هجرة الادب والشعر اللذين لا أراى بلغت فيهما ما تطمح أشواقى اليه .

* * *

أما « دى فينى » فاذا أردت ان تكون مخلصا للحق والفن والتاريخ فاكذب عنه كما برأه الله الذى ينقم هو عليه ويلعنه لا كما تريد هاته الحشرات الآدمية التى بلينا فى تونس ان نحسب حسابها فى كل شىء بدل أن ندوسها بأقدامنا ونمضى الى غاياتنا البعيدة فى قمم الجبال .

نعم أكتب عنه كما هو غير حاسب لغير الحقيقة حسابا واذا كانت نفس « دى فينى » نائرة متمردة ساخطة نائمة من الله ما فى وجوده هذا من بؤس وألم وعذاب واضطراب ، فهل تكتب عنها كأنها روح صوفية متعبدة مستغرقة فى تملى جمال العالم والاندماج بروح الله السارية فيه ؟ أم هل تظهره للناس فى مظهر من يولى الحياة ظهره غير مقبل الا على لذة نفسه ومتعة قلبه لا يسأل

نفسه عن سر الوجود ولا غايته ولا ما قبله ولا ما وراءه ؟ أم في أى صورة أخرى من صور النفس تريد ان تظهره ارضاء لهاته الطائفة الغبية العمياء التي تمشى في هذا العالم الحى المغررى على التفكير والاحساس وكأنها تمشى في جب مظلم لا حس فيه ولا حياة ؟ • اكتب الحق خالصا لوجه الحق والى اعماق الجحيم بهاته الانصاب البشرية الزائفة ؟ •

ومثل هذا أقول لك عن بيتك الجميل الرائع :

حاملا كلاله قلبا كبيرا فيه ما فى الوجود من اكوان

ان الفنان يا صديقى لا ينبغي ان يصنى لغير ذلك الصوت القوى العميق الداوى فى أعماق قلبه - اما اذا أصغى الى الناس وما يقولون وسار فى هاته الدنيا بأقدامهم ورآها بأبصارهم واصغى اليها بأذانهم فقد كفر بالفن وخان رسالة الحياة •

ولو شئت ان اسوق لك الابيات التى لى غرار بيتك هذا فى التشبيه بالالاه والآلهة لا كثرت وخرج بى القلم عن غايته ولكنك سترى ذلك فى الديوان ان شاء الله • واننى لاعمق ايماننا بالله من كل أحد حينما أعبر بهاته التعابير الكافرة فى نظر اولئك الناس • فالالوهية وما تصرف منها هى رمز للمثل العليا التى نصبو اليها بأرواحنا ونشخص اليها بأبصارنا فى هاته الحياة ولذلك فاذا أردنا ان نعبر عن معنى نحس له بجلال المثل الأعلى وسموه فانما سبيلنا فى ذلك ان نفرغ عليه رداء الالوهية التى هى ما تتصوره الانسانية من جمال المثل الاعلى وجلاله • وهذا كلام قد لا يفهمه أولئك الناس ، اما انه كفر فى نظرهم فهذا ما لا يقبل شكاً ولا ريباً • ولكن الى الجحيم بهم ! - كما قلت - ولنعمل لفننا باخلاص ولنمثل دورنا فى رواية الحياة غير حافلين بافواج النظارة فان المثل اذا وضع باله اليهم لخلق ان يضطرب عليه دوره وينخرس فنه • وبعد هذا فانى لا أريد ان اکتتمك اعجابى ببيتك ذلك وما فيه من قوة ادراك وعمق نظر وسمو تفكير ، وأضيف الى هذا انك ببيتك هذا قد عبرت عن معنى حاولت انا ان اعبر عن بعضه فى سبعة ابيات من قصيدة تحدثت فيها عن قلب الشاعر بلسان « مجنون » فلم أوفق الى ما وفقت اليه من الدقة والقوة والسمو واليك الابيات السخيفة التى كثيرا ما حاولت تمزيقها أو حرقها ولعل لا أتردد بعد الآن فى تمزيقها وبقية القصيد والقائها للرياح العابرة :

نام او حام على هذا الوجود
وينابيع ، وانحسان تميد

كل ما هب وما دب وما
من طيور وزهور وشذى

وبجـار وصحـار وذرى	وبـراكـين ووديان وبيد
وثـلوج وضباب عابر	واعـامير وامطار تجود
وفصول تملأ الدنيا سنا	وظلالا وحياة وهمود
واحاسيس ودين ورؤى	وتعاليم ولهو ونشيد
كلها تـجـيا بـقـلبـى حـرة	غـضـة السـحـر كاطفال الخلود

لا أرى فى بيتك ما يوجب الاصلاح فان « كبيرا » تؤدى المعنى تماما وان كنت لا أنكر انها أقل مما يشعرك المعنى من رحابة الافق واتساعه ولعل وصف القلب هنا بـ رحيب « أليق قليلا وان كنت لا أجزم بهذا الترجيح . نسيت ان اذكر لك انى اتصلت بالديوان وقد تبين انه ملقى بفرع البريد من نحو ثلاثة عشر يوما وانا أتعذب أثناءها أمر العذاب وأحره ، والغريب انى كامل تلك المدة أسأل فرع البريد فلا أجاب بغير النفي المطلق .

ولكنى على كل حال قد ربحت فى تلك الازمة النفسية التى مرت بى قصيدا هو « نشيد الجبار » فانى فى ليلة من ليالى هاته الازمة النفسية المرهقة ولعلها ليلة كتبت لك رسالتى الاخيرة نمت معذب النفس مهموم القلب ثم استيقظت نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فلجحت بى الآلام وضربت بى فى كل سبيل حتى لقد كاد رأسى ينفجر وأحسست أنى لا بد مشف على الجنون لو دام بى ذلك الحال الى الصباح وتطورت نفسى فى غمرة الالم فبعد ان كانت معذبة باكية فى ظلمة احزانها تكاد تجن من الاسى انقلبت نائرة هائجة واثقة من نفسها ساخرة بالقدر والداء والاعداء وكل آلام الحياة . وتحت تأثير هاته الحالة النفسية نظمت « نشيد الجبار » فذابت آلام نفسى وشعرت بالحرية والانطلاق كأنما ألقيت عن منكبى عبئا ثقيلا يهد القوى وقد نظمتها فى تلك الليلة ولكن نفسى لم تنهض لكتابة ولو كلمة منها . وفى نحو الفجر نمت مرتاح النفس مطمئنا وأفقت من الغد فلم اجدنى قد نسيت منها كلمة واحدة فكتبتها ولم ازد عليها الا نحو بيت أو بيتين وبعض تنقيحات رأيتها لا بد منها وبهاته المناسبة فانى أقول لك انى لا زلت كالماضى اشعر فى صميم نفسى بان الاقدار تحاربنى وهى ستخافة على كل حال . . ولكننى أومن فى قرارة نفسى بها وانما الفرق بينى وبين نفسى الاولى انى كنت اتقبل آلام الحياة واتحسس أشواكها بنفس ضارعة وقلب دامج باك ، أما الآن فانى القاهها ببسمة الساخر ونظرة الحالم المنتشى بجمال الوجود . وقد أحسست ببداية هذا التطور لما اصطلقت بعين دراهم ، ولعل جمال الطبيعة هناك قد كان له الاثر الاكبر فى تلوين نفسى بهذا اللون الجديد ، كما ان مصيفى هذا العام

وما رأيت فيه من صور الطبيعة الرائعة قد اكمل هذا التطور ونماه . اما الآن فاني اشعر بانقلاب عميق قوى في نفسي كل القوة ، وستدرك هذا التطور في نفسي حينما تطلع على قصائدي الجديدة وقد عبرت عن هذا الانقلاب الروحي بقصيد « الصباح الجديد » الذي ارسلته الى « أبو لو » وقصيد « نشيد الجبار » هو صورة صادقة لنفسي في طورها الحاضر الجديد .

أما أبو شادي فيما كتبت عنه فقد حاولت ان أكون صادقا جهدي لا اداريه ولا اغمطه وقد تحدثت عن اسلوبه باعظم ما يمكنني من الصراحة في مقدمة تكتب لديوانه - وستطلع عليها فترى انني لم أجامل ولم أدار وانما انصفت حسب ما يقتضى المقام ولست أدري من أين لك « انني كتبت عنه معجبا » ؟ والحقيقة أنني كنت لا استطيع أن أتم قصيدا لابي شادي ولكنني رضت نفسي على أن أتابعه حتى الفته فتبين لي أن الرجل في صميمه شاعر حساس يمتاز بروحانية صوفية في نظره الى الوجود ، ولكن انذى اسقط من قيمة ادبه شيخان :

I) انه متعجل مكثار لا يصبر على التجويد الذي هو عمل لا بد منه للفنان المتسامي .

2) ان صورته الشعرية لا تبدو واضحة كاملة في شعره بحيث ترغمك على تذوقها واستمتاعها وذكرها بل انها لتبدو ملتانة غائمة سريعة كل السرعة كأنها صور شريط سينمائي يدار بسرعة جنونية ، وهذا السبب الذي ينأى بالناس عن تذوق شعره وادراك ما فيه من صور شعرية واحساسات عميقة تدل على نفس حية واعية ، ولذلك فشعره يبدو فاترا - في كثير من الاحيان - لا يسيطر عليك ويرغمك على ان تتبعه مسحورا دهشا . وما أشبه شعره في نظري بتلك المرأة الجميلة التي يعجبك جمالها ولكن لا تستفرك انوثتها القاهرة وسحرها الغالب ولعلك لو رضت نفسك على تلاوة شعره لادركت منه ما ادركت . ذلك مجمل رأيي في الرجل وانك لتدرك بالبداهة انه لا يمكنني ان اقول هذا القول وبهاته الطريقة في مقدمة تكتب لديوانه .

* * *

استعرت من بعض الرفقاء بالحاضرة رواية روسية اسمها « ابن الطبيعة » ترجمها المازني وهي رواية عالية واني ارى المازني قد تأثر بها في ابراهيم الكاتب تأثرا واضحا عظيما تتفق فيه في كثير من الاحيان الحوادث والصور وحتى التعابير ايضا .

وقد عجبت لقولك انك سترجي كلمتك عن شعري الى ما بعد صدور
الديوان ؟ فهل نسيت اننا اتفقنا على ان تترك كتابة مقدمته لك ؟ اما انا فاني
لم انس ذلك وقد سئلت في تونس وغيرها عن سيكتب المقدمة فأعلمتهم بان
كاتبها سيكون الحلوي واني حينما أتم نسخ الديوان سأوجهه اليك لتكتب
مقدمته . اما الآن فاني أنتخب القصائد التي سأنشرها فيه وأجمع تواريخها
لارتبها على حسبها وان قسما كبيرا مما نشر لي لا أريد نشره لانني اراه لا
أهمية له؛ اما في زوجه أو في اسلوبه، ولانني أرى فيه سداجة كسداجة الاطفال
أبتسم لها الآن وأعجب لنفسى كيف سولت لي نشره في حينه . ولكن هي
الايام ...

- ودم لاخيك المخلص الذي لا ينساك
- ولك تحيات البشروش

ابو القاسم الشابي

رسائل الخليوي

بني خلاد في ديسمبر 1933 (*)

حضرة الأخ العزيز .
السلام عليك ورحمة الله .

وبعد فاني اكتب اليك الآن ونفسي منقبضة كئيبة رازحة تحت كل من
السامة لا ادري مصدره ولا اعرف مآته ولو رايتني وهذا القلم في يدي وكأنه
غريب عنى لشدة زهدى في كل شىء وفتور نفسى حتى عن التفكير عن سبب
هاته السوداء واني لأشعر شعورا مبهما بسخافة الحياة واتساءل لماذا خلقت
هاته الحشرات الآدمية المتحركة الذاهبة الجائية الصاخبة المجلبة المتشاجرة وكم
اعذر من ينتحر في مثل هاته الحالة النفسية .

فمعدرة ايها الاخ اذا انا لم اكتب اليك اليوم كما اشتهى وانما ابادر بتسطير
هاته الكلمة الموجزة لأقول لك ما لا بد من قوله .

1) الكلمة التي سألتني عنها لا شك انها اللأواء وهي في المنجد الشدة
والمحنة واظن ان الذى اوقعك في الوهم فقديم الهمزة على اللام ولهذا لم تجدها
في كتب اللغة في مادة « الو » .

2) مقدمة ديوانك من الحير الا اكتبها انا بعد ان عرض عليك أبو شادى
ان تكتب مقدمة ديوانه فمن اللائق من جميع الوجوه أن يكتبها أبو شادى وانت
في حل من وعدك الذى وعدت . وان كان ولا بد من كتابة شىء فليكن تعقيبا او
تمهيدا او تصديرا لا مقدمة اتناول فيها الحديث عن كل شعر الديوان ، واني
لأتهيب الحديث عن شعرك اذ النهر لا يدرك المحيط . هذا هو رأيى دون تواضع
او تمنع . فلا تفضب .

3) لعلك اطلعت على كلمة زين العابدين في عدد « أبو لو » الاخير (30)

(*) انظر في الملحق الرسالة رقم : 6

فقد رددت عليه فى نفس اليوم الذى قرأت فيه مقاله ذلك المقال الذى لا يخلو من خبث ودس وان تظاهر بالصدائة وفى ردى عليه لم انبزه او اخشن العصا له وانما اتهمته فى آخر المقال بالرجعية ونكران ماضيه ، وانه ان اراد ان تدخل العواطف القومية فى نقد القدماء فلا شك اننا سنرجع القهقرى . وقد تحصل عندى من نقده عشر صفحات ولم اشاء التطويل حتى لا اثقل على المجلة وسأرسل اليوم أو غدا هذا الرد مع بعض ما كتبتة للمجلة خاصة . وبهاته المناسبة أقول انك اخجلتني باطرائك لبيتي الذى استشرتك فيه فرحت تقارنه بادبك وتصفه بالعمق والسمو مع انه عالة على قصيدتك « الأبد الصغير » الذى هدتنى البديهة اليه وان لم يكن قصيدك ذاك فى ذهنى ساعة النظم فكان التشبيه خرج وحده مما يمسونه العقل الواعى الذى يختزن الصور الشعرية المشاهدة او المقروءة .

ماذا أقول لك بعد هذا سوى انى فى آخر الكتاب سرى عنى بعض الانقباض والوحشة فلك الشكر على ان كنت صاحب هاته اليد .
وسلام عليك من أخيك الدائم العهد ...

رسائل الحليوى

بنى خلاد فى 7 جانفى 1934 (*) (23 رمضان 1352)

أخى الاعز

أرسلت اليك منذ نصف شهر كتابا وكلفت رجلا مجهولا بالقائه فى صندوق بريد منزل أبى زلقى حتى لا يتأخر هنا 24 ساعة كما هو الشأن فى هاته القرية ولكنى لم اتصل منك لحد الآن بكلمة فهل وصلك الكتاب؟ وان وصل فلماذا سكت على أخيك كل هاته المدة وشجون الحديث كثيرة - لوددت أن تطير اليك ورقاء روى كل يوم فتتطهر ساعة من الادران التى تعلق بها فى عيشها الكئيب الصامت - أنا لا أطلب منك أيها الاخ أن تحرر لى صحفاً طويلة مسهبة لانى أعلم شوغلك وأتعابك وحالات نفسك التى لا تسمح لك بذلك ولكن أليس القليل الدائم خيرا من الكثير المنقطع فاكتب الى ولو لتقول لى : لا شىء عندى • والا فلا تطالبنى بالمكاتبة حتى لا أعذب بمرارة الانتظار •

وسلام عليك من أخيك المخلص

(*) انظر فى الملحق الرسالة رقم 10

رسائل الخيوى

بنى خلاد فى 27 جانفى 1934 (*)

أخى
أعلمنى أخ الجميع البشروش ان حالتك اخذت تتحسن ، وقد كنت فى انتظار كتابه لا أتصبر وان كنت اعلم ان شبابك وحيوية عقلك ستتغلب على المرض وترد من سطوته بالارادة القوية ما يضطره للتقهقر والانهمزام فالذى يقول :

ساعيش رغم الداء والاعداء كالتسر فوق القمة السماء

قد تحصل على نصف الانتصار وبقي النصف الآخر للاطباء والحمية وما يتبع ذلك - فعش أيها الاخ - رغم الداء ورغم العداء من ظهر منهم ومن بطن ولا تجعل للاوهام سبيلا الى نفسك متعنا الله بعافيتك وسلامتك وابقاك ذخرا لبلادك وقره عين لاهلك واخوانك .

اعلمنى البشروش بطرف من اخبارك وكم يلذ لى الحديث عنها ولكن الاخ البشروش لا يطيل الحديث ولا يشفى الغليل انه يوجز الكلام ايجازا ويقتضبه اقتضابا - وهكذا علمت ان ابا شادى يقدم لك مساعدته لكى يطبع الديوان فى مصر خصوصا اذا كان فى مطبعة « أبولو » ولا ارى بأسا فى هذا اذا كان الورق صقيلا فمطبعة « أبولو » جميلة الحروف فى الشعر وعندهم المصورون البارعون ولكنى لم افهم ما يعنى البشروش بنفقات التصدير الباهظة وعلى كل فاننا مدين له بكتاب مطول لانه عرض على مسائل كثيرة لا اجد بدا من الجواب عنها والمشاركة بالرأى فيها وسوف اسأله عنك واطلب منه المزيد من اخبارك وسلام حار واشواق ملتبهة .

(*) انظر فى الملحق الرسالة رقم II والرسالة رقم 12

رسائل الخيوى

بنى خلاد فى 16 فيفري 1934 (*)

أخى المفدى •
تحية وسلاما •

كنتبت بالامس الى الاخ البشروش اطلب منه طرفا من اخبارك واساله هل من اللائق ان احديثك احاديث الادب ؟ ولكنى اليوم اتصلت بكلمة منك فطار فؤادى لرؤية رسالتك حين ناولنيها موزع البريد ولله ما كان اثقل كلامه الذى شغلنى عن المبادرة بفضها ولكن قلبى كان يخفق ابتهاجا واذنى لا تكاد تسمع حديثه السخيف فالفكر كله منصرف اليك والى الرسالة التى فى يدي • ثم قرأتها فاذا بك تصف لى ما لقيت من برحاء ذلك الداء ولكن الى الآن لا ادري على التحقيق هل هو مرض فى القلب أو غيره وما قال الطبيب عنه وما عزمت فى أمر اقامتك بتوزر؟ فقد تبين انها لا تلائمك البتة • كل هاته اسئلة تنخر قلبى ولم أجد من يجيبنى عنها ويشفى غليلي بتفصيل امرها والبشروش على هذره بخيل بالتفصيل على قلبى العليل • اما وقد زالت عنك شدة ذلك المرض فالحمد للذى امرض وعافى والضراعة اليه ان يشفى ويكف • لقد أرانا حوله وطوله فليرنا سلمه وحلمه •

وددت ايها الاخ لو حدثتنى تلك الاحاديث التى اشترت اليها ، فما اسوأ حظى اذ حرمتها وكم لى انا الآخر من احاديث اود ان افضى بها اليك ولكن هل تكفى لذلك رسالة او رسائل ؟ فالذى احب ان افضى به اليك : هو كل خاطرة تخطر فى فكرى وكل ثورة تحتلم فى صدرى ، وكل يأس يتسرب الى نفسى ، وكل وميض من الامل يضىء حياتى وبمباراة اشمل كل ما يمر بى من فكر وعاطفة فى مختلف حالات نفسى وأطوارها • وليس عندى من افضى اليه بكل ذلك سواك وسوى يوميتى، ولكنى لا استطيع ان ارضى احدكما كما اشتهى، لان قيود الحياة والمهنة استهلكت كل اوقاتي وعاونت على الاسراع بالفتور لمشاعرى وعلى هذا فانى اکتفى فى هاته الرسالة بالتحدث قليلا عن « ديوان الينبوع » وقبل الحديث عنه اشكرك على المامتك الموقفة فانها تحتوى وحدها على مادة كتاب ولو كنا فى مهادة مع صروف الزمن لاشترکنا فى تأليفه فهنالک المجال متسع

(*) انظر فى الملحق الرسالة رقم 13

لذكر الثقافات المختلفة التي تأثر بها الادب العربي ومدى ما أخذ من كل ثقافة وذكر هذا بتفصيل يستغرق ما يزيد على مائة صحيفة ثم يأتي بعد ذلك الكلام على النزعات الادبية التي عدتها ووصفت كل واحدة منها باختصار يتطلب هو أيضا التحليل والتمثيل لكل نزعة بشعر يظهر تلك المميزات ٠٠٠ واخيرا تأتي كلمتك على الشاعر ومكانته في عصره وفي ذلك كلام طويل وقد فتحت لي المامتك آفاقا جديدة من التفكير والبحث ولو دعيت يوما للقيام بمسامرة لبعثت كلمتك برنامجا أحثديه ٠٠٠ اما تقديرك لابي شادى فهو معتدل وقد وفقت فى بعض جمل لوصفه ووصف شعره لما لم يوفق اليه كثيرون ممن القوا المحاضرات عنه ولكنى لا ارى ما هو الجديد الذى طلع به أبو شادى على الناس فانكروه وقد طالعت الديوان متصفحا وكلما تركته لم اجد الرغبة اكيده ولا حافزة للرجوع اليه واقول لا متعصبا لو كنت أبا شادى لاشتريت قصيدة « خليج استانلى » للعقاد بنصف ما فى « ديوان الينبوع » من شعر وسوف احدثك مرة اخرى عن الديوان متى طالعته كنه اى أزدت نفسى على مطالعته . وعلى كل فسأرسل الى أبا شادى كلمة اشكره فيها على هديته وأطريه طبعا (٢٠٠٠٠٠)

واخيرا ارجو المعذرة فالساعة تشير الى منتصف الليل وقد كنت احرق قبل هاته الرسالة مقالا الى مجلة التعليم العربى لانهم امطروني بالرسائل فى طلب هذا المقال . ودم معافى لاختيك الذى يفديك .

رسائل الخيوى

بنى خالد نعمة مارس 1934

أخى

ما أسعدك بجلال وما أسعدك بمحمد أسعد الله أيامهما بك وأقربهما عينيك
وجعلهما من الرجال الذين يكتبون تاريخ الوطن بأعمالهم المجيدة •

واياك والاعتزاز بما ينمقه البشروش من الأقوال فى اعتبار زواجك جريمة
كما صرح لى بذلك فى رسالته •

فهل تمتد يد هذا الادب اللعين الى انتزاع كل شىء منا حتى سعادة
الاسرة • أما تكفى التضحيات التى قدمناها فى سبيله حتى يزين لنا أن نضحى
بهاته السعادة الصغيرة - وان صح ان الزواج حماقة فان الابناء سعادة لانهم
« أنا » نا العارية المجردة التى ندرس من خلالها ذاتنا المعقدة المتخفية •

فهل لك أن تخلد من القصائد فى ابنيك ما خلد « هيجو » فى أحفاده فان
ديوانه « فن الابوة » الذى كتبه فى ذلك لم يستطع أن ينكر عليه النقاد صدقه
وحرارة عاطفته فى حين انهم أنكروا عليه ذلك فى بقية دواوينه •

انى فى أشغال شاغلة عن الكتابة - لم اكتب الى الآن الكلمة التى أشرت
اليها فى رسالتى السالفة الى أبى شادى ولم أبيض قصيدى الذى سأرسله
الى « أبولو » ولم اشرع فى الكتابة عن « ده فينى » ولا أدرى ما هى النهاية ؟
أحوالى ليست على ما يرام فى هاته السنة وخصوصا فى هاته الايام - وبودى
لو اكتب اليك كل يوم عسانى اخفف عنك بهنرى نصيبا من السامة •
سأذهب غدا التاريخ الى العاصمة ومتى رأيت جديدا كتبت به اليك

اشواقى وتحياتى الحارة وأهنيك أخيرا •

الرسالة الثلاثون

الشايبة 34/3/4 (٢)

- أخى العزيز
- تحية وسلاما

وبعد ، فقد كنت اود ان اتحدث اليك عن مقالك الذى كتبته عن « لامرتين (31) » ذلك المقال الساحر الجميل الذى قد كنت فيه شاعرا يتكلم عن الشعر فى اعلى معانيه واسمى آفاقه واجمل تصاويره والذى قد زادنى اعجابا بمواهبك السامية وحبا لقلبك الحى ونفسك الحساسة الواعية . واننا فى انتظار الحديث عن بقية الاعلام الرومانتيكيين . نعم كنت اود ان اتحدث اليك عن هذا ولكن ورد على وانا افكر فى ذلك من السيد بليغث الدبابى مكتوب اخبرنى فيه أسفا مندهشا : انه اتصل من اخيه بما يفيد أنه وقعت نقلتك الى قرية . وقد استغربت هذا الحادث المفاجيء الذى لم تكن تتوقعه ولعلك انت ايضا ما كنت تتوقعه أو تنهيا له والا لآخبرتنا به من قبل ، فما موجب هاته النقلة ؟ وهل هى بطلب منك ؟ وهل انت مسرورا بها ؟ وما هى حالتك النفسية ازاء هذا ؟ اننى فى لهفة وتشوف الى الاتصال بجوابك فان كانت تسرك زال عنى ما أشعر به من ألم وما يخالجنى من هواجس وشكوك .

اليوم اخبر البشروش بهذا لانه لم يعلم بهذا الخبر فقد كان عندى يوم الجمعة الفائتة. ولم يحدثنى عن هذا الشأن مع ان ذكراك كانت معنا واعتذر اليك اذا لم اكاتيك من قبل فانى ما زلت مريضا وان كانت شدة المرض قد زائلتني اما ضعفى ففى منتهاه وقد زادنى ضعفا ملازمتى للمنزل وعدم مفارقتى اياه الى الخارج لفساد الطقس فى الجريد فى هذا العام فقد اشتدت فيه البرودة لدرجة لم تكن تتوقع .

أما مرضى فهو مرضى المهود والسبب الذى ادى الى انتفاضه على هو انى اصبت ببرد شديد وانا بالغابة اقوم باتمام بعض الشؤون اما الطبيب فلم اعرض عليه نفسى ولا قابلته أصلا لان طبيب هاته الناحية جاهل جدا وقد خشيت ان تكون معالجته سببا فى زيادة الداء .

وانى احيانا افكر فى الذهاب الى الحاضرة ولكنى الآن أرجو أن أتصافى ولا احتاج الى ذلك وتحمل عناء السفر فى هذا البرد الشديد الذى كان سببا فى اطالة المرض . والسلام .

(٢) انظر فى الملحق الرسالة رقم 15

رسائل الخليوي

قربة في 11 مارس 1934

أخي العزيز

وصلتني رسالتك التي بعثتها على طريق المنزل وقد وقع ما وقع مما علمت
وخرجت من بنى خلاد مرغما كما يخرج المرء من احب مكان له فاني كما
قال ابو الطيب :

خلقت ألوبا لو رجعت الى الصبا لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

نعم لقد الفت هاته القرية الصغيرة التي لي فيها من المذكرات العذاب
والساعات الجميلة ما يؤلف قطعة هامة من حياتي وكان لي من المكانة والمحبة
في قلوب أهل القرية وفي قلوب تلاميذي أطهر وانقى ما يتحصل عليه امرؤ
بصفاء سريره وخلوص نيته وحسن معاشرته ووفائه . لقد انست نفسي
بتلك النفوس الطيبة والفت تلك الوجوه التي لا تعرف نفاقا او تصعييرا واحب
قلبي اولئك التلامذة حبا صادقا . لقد كنت سعيدا في قريتي فقد احطت
هناك بمحبة خالصة نقية من الصغير والكبير لانها لم تكتسب بوسائل التسلسل
والارهاب او المنافع المادية ولانها منبعثة من قلوب ساذجة لا تضمر حقدًا
او ضغينة .

ولا تسلم كيف تلقيت خبر نقلتي الى قربة وكيف نزل على نزول الصاعقة
لاني لم اكن اتوقع ولا علم لي به .

دخلت يوم الجمعة ثاني مارس كمادتي الى المدرسة فوجدت المدير الفرنسي
ينتظرني وما ان رأني حتى اقبل على وسلمني امر التنقل الى قربة « قربة »
وأخذ يتعجب من هاته المفاجأة ويسليني والتفت الى ناحية فوجدت الذي
سيخلفني مقبلا نحوي . . . فظننت نفسي احلم . . . وأخذت اكيل للمدير
التهم قائلانك دسست لي ولا شك بعض الدسائس ، وذهبت توا الى العاصمة
وقابلت المتفقد الذي دبر المظلمة فزعم ان طبيعة العمل تقتضى ذلك وان قربة
وقع تحوير بمدرستها استدعى وجود معلم باللسانين وحذف معلم بالعربية
فقط ولم يغنني احتجاجي بانه كان على الادارة ان تنتظر الى آخر السنة
المدرسية وهو ليس ببعيد . وكان عليها ان تحترم اقدمية سبع سنوات في بنى
خلاد سوف تضيع عنى نتائجها . وكان عليها ان تفكر في كرامة رجل يقتلع

اقتلعا من مركز وظيفه دون طلب او استشارة او اعلام ٠٠٠ الخ . ولست في حاجة الى ان اصف لك ثورة نفسي وسخطي على حياتي التي القيت زمامها في يد « الوظيف » يقودها كيف شاء ويسخرها تسخيرا ٠٠٠٠ واخيرا ذهبت الى قربة وها انذا اكتب اليك منها وقد مضى على اسبوع فيها وانا متردد محتار هل ارحل عنها عند تمام السنة ام القى فيها رحلي من جديد وابني حياة جديدة هنا ، اذا نظرت الى اهلها وما قوبلت به من الحفاوة قلت ابقي واذا نظرت الى حالة مدرستها وسوء تربية تلامذتها وفساد اخلاقهم وكبر سنهم وعدم اقبالهم بجد على التعلم يضاف الى ذلك عدم وجود محل لائق للسكنى قلت ارحل ٠٠٠ ولكن الى اين ٠٠٠ ومن الذي يضمن لي مكانا يناسبني ويرد على هنائي المسلوب وسعادة نفسي .

وهكذا مر على اسبوع من اشد ما يمر على الانسان في حياته فمن ثورات نفسية اذا فكرت في القهر والظلم الذي كنت فريسته الى حسرات وتأثرات عند خروجي من بني خلاد ووداع الناس لي وبكائهم كبيرا وصغيرا لفراقي الى صعوبات الانتقال والارتحال والاستقرار في مكان جديد لم آلفه بعد ولم يألّفني الى خيبة ويأس في قابلية المدرسة للاصلاح والتلامذة والتعلم والآباء للعناية بامر تعليم ابنائهم مما لم اشهد له نظيرا . نعم لقد تقوضت صروح سعادتي ببني خلاد وها انذا واقف على اطلال تلك الصروح اندبها وسوف يمر زمن طويل قبل ان ابني صروحا اخرى من الهناء والاطمئنان حجرا حجرا .

لقد كنت سعيدا في بني خلاد فهي التي اتاحت لي ان اتفرغ الى الحياة الهادئة حياة التأمل والتفكير وحياة المطالعة والدرس ، وكل شبر فيها لي فيه ذكريات تترجم وتاريخ يتكلم .

فبالله ما اعجب شأن الانسان في تعلقه بواطن شبابه ٠٠٠٠

أخى شكرت مقالى عن لامرتين وقللت فيه ما سولت لك نفسك من الثناء ولكنني اقسم لك اني لست راضيا عنه واظن انني لن ارضى عن آثارى الا متى كانت من النوع الذي يطلق فيها المرء العنان لنفسه لتعبر عما يمليه عليها القلب اما الموضوعات التي يتقيد فيها المرء بقيد الحقيقة التاريخية ومراعاة الوثائق والوقائع، فليست بشيء الى جانب ذلك الكنز الغزير والمادة الثرة، اعني عواطف النفس . أنا احس من نفسي خفوقا واهتزازا كلما صادفتني أمر عاطفي وقلبي يحدثنني بانى لو طرقت هذا الباب الموصل لانفتح على عوالم لم اسمرها لحد الآن ، وان كنت اشعر بوجودها فلعل المستقبل يمكنني من الاتفاق

من ذلك الكنز الغنى •

ولكن هل تسمح لي ان اتحدث اليك عن قصيدك « الصباح الجديد » فما
اظن أنى اذهب الى القبر ناسيا مطلعته الذى بقى يرن فى اذنى وكأنه صيغ
من نفاذ النور وخفة الهواء وخيوطه القلب النابضة •

اسكتى يا جراح واسكنى يا شجون مات عهد النواح وزمان الجنون واطلل الصباح من وراء القرون

يا الله ما ازوع وابدع وما اجمل وانبل • وانى لأحیی بهذا القصيد طوراً
جديدا دخل فيه شعرك فبعد التشاؤم القاتم حل المرح والابتهاج وبعد الليل
والظلمة الطخياء أطل الصباح الجديد فانت فى طريقك الى التسامى الى قمة
الفن السامقة لان التشاؤم الصادق ينتهى فى الغالب بالفرح الصوفى والبهجة
الروحية • وسوف تقرأ هذا المعنى تماما فى دراستى من « ده فينى » فهنيئاً
لك هذا الطور الجديد وما اسعدك بنبوغك الذى هداك الى ما اهتدى اليه
كبار المتشائمين •

وعلى ذكر دراستى « لده فينى » ، اقول لك انه قد حيل بينى وبين اتمام
الحديث عن اعلام الرومانتيكية الشعراء لاني زيادة عن اضطراب الفكر قد
تركت كل كتبي واوراقي بينى خلاد مودعة صناديق مسمرة ولن تفتح الا
فى العام المقبل ولم احمل معى من الكتب الى قربة الا « آلام فرتر » لاني ما قرأته
بعد قراءة تأمل وتلذذ وكتاب « المهزلة الالهية » لدنتى وكتاب « الامير »
لكيفافى وبعض روايات عصرية للتسلى وقد كنت عزمتم على تببيض قصيدى
المطول « الى المعرى » وارساله الى « أبولو » مع كلمة التقريظ لأبى شادى
ولكنى بعد خروجى من بنى خلاد لم اعزم على شىء • أودعك الآن لاكتب
رسالة للبشروش فانه امطرنى بالرسائل ولم اجبه الا بكلمات مقتضبة
والسلام •

الرسالة الواحدة والتلاوتون

حامة توزر 34/4/24

- عزيزى الأخر
- تحية عاطرة

ما أشوقنى ياأخي اليك والى أحاديثك والى خطرات قلبك وأصوات نفسك .
ولكنك قد أردت ان تحرمنى حتى هاته المتعة الصغيرة التى هى كل ما سمح
به القدر لى من متع الحياة .

لا أعتقد انك نسيت اخاك وما احسب الا ظلال الحمول والسامة هى التى
صرفتك عن مراسلة أخيك وصدفت بك عن تذكار أخوانك الذين لا تفارقهم
ذكراك .

سامحك الله يا صديقى وغفر لك . وذلك كل ما أقوله لك كيفما كانت
نفسك وخواطرك فى هاته الساعة ، وعساك لا تضن على بعد الآن بما انا
اليه جد مشوق .

انى الآن من نحو شهر أقيم بالحامة بقصد تبديل الهواء والاستشفاء واشعر
الآن اننى احسن قليلا من قبل . ولست أدري ما سيكون المستقبل معى .
وتحياتى اليك .

ابو القاسم الشابى

رسائل الخليوي

قربة في افريل 1934

أخى المفدى .

تلقيت كلمتك العاتبة فى رسالتك المختصرة الموجزة المحبوبة على كل حال المليئة بالعطف على هذا الاخ الذى كان عليه أن يمطرك بالرسائل كل يوم سائلا عن عافيتك . متطلعا الى أخبارك فاذا تعذر ارسال الكتب المطولة والرسائل المفصلة فلا أقل من كلمة قصيرة وسلام وتحية ولكنك تعرف انى لا أحب كلمات المجاملة ولا أظن أنك ترضى بها منى . ان رغبتى فى أن أحدثك بكل شىء وافضى اليك بكل شىء أى بكل جميل يستوقف نظرى فى مشاهداتى أو مطالعاتى وكل مؤلم يعترض حياتى فى مهنتى أو فى نشاطى الاجتماعى أو أوقات فراغى . أقول ان رغبتى تلك هى التى أبت على أن أكتبك موجزا كما أبت على أن أكتبك بكل شىء لان المشاغل أو حالات النفس لا تسمح بذلك . قلت لى فى رسالتك « وما أحسب الا ظلال الحمول والسامة هى التى صرفتك » وأقول لك الآن ما هى بظلال الحمول والسامة ولكن هى نوع من العزوف عن كل شىء والزهد فى كل شىء والانصراف الى البحث عما ينسينى حياتى اليومية الرتيبة وقد اكتشفت سما عجيبا أداوى به هاته الحالة النفسية العجيبة الا وهو مطالعة « الروايات البوليسية » التى ليس لها مثيل فى اقتلاع الانسان من دنياه الحاضرة الى دنيا غريبة من المشاكل والاشتباكات تنسيه آلام نفسه بعض الوقت وقد اشرت الى هذا السم العجيب فى أرجوزه بعثت بها الى البشروش فقلت :

وهكذا سلطت عن حياتى سما زعافا يقتل الساعات
عل الاسى يذيبه الكتاب اذ عجز المقدور والصحاب
ان فؤادى لاينى يسحقنى عدته ان لم اسئه ساءنى

* * *

أخى العزيز .

اغترفى سكوتى الطويل . ولتكن وانقا انك شريك خواطرى وأن المتعة الفكرية او الروحية التى لا تقاسمونها هى متعة ناقصة بتراء - فمثلا اذقتيت

اخيرا كتابا ضخما عن حياة بيرون الشاعر الانجليزي المعاصر للامرتين من تأليف الكاتب الناقد اندرى موروا يتحدث فيه حديثا مفصلا عن حياة وآثار ذلك الشاعر وما كدت أقرأ صفحاته الاولى حتى تمنيت لو كنت معى لنتنوق سويا هذا الكتاب الممتع الجميل ولو كانت لى أوقات فارغة لترجمت لك مواضع جميلة منه وقل هكذا فى كل كتاب أو أغنية أو قصة وقد قلت لك آنفا انى أصبحت مفرما بالقصة وعلى الاخص القصة البوليسية التى يروقنى منها انها تيسنى وجودى وتفرقنى فى العالم الذى تجرى حوادثها فيه . فله ما أجمل ان يشعر الانسان انه غير موجود ولله ما أبدع ! وما أرحم !

أخى الأعز - ان كتبت لأبى شادى فأرجوك ان تعلمه بانى أرسلت الى مجلة « أبولو » ردى عن مقال زين العابدين ودراستى عن « ده فىنى » وقصيدتى « ثورة العقل » وقد شككت فى وصولها الى المجلة لان العدد السابع لا يحوى شيئا منها ولعلمهم اضاعوها كما اضاعوا من قبل أشياء بعثناها لهم فهل الفوضى سائدة عندهم أيضا ؟

عجبا أيها الاخ لم تعد تذكر لى كلمة عن علاقاتك بمصر وعن طبع الديوان ونسخه وعن مشروعاتك الادبية ولولا الاخ البشروش الذى يعلمنى ببعض أمرك لكنت خالى الذهن تماما .

ارسل اليك طى هذا الكلمة التى كتبها عنك البشروش فى مجلة « أفريقيا الادبية والفنية » بالفرنسية وقد بلغنى ان السيد صالح رضا الاحمر سينشر فى مجلة « التطور التونسى » دراسة عن شعرك بالفرنسية أيضا . وسوف أرسل لك المجلة وترجمة المقال متى اتصلت بذلك لانى مشترك فيها .

ارجو أن تكون حالتك الآن تتحسن كل يوم بفضل تبديل الهواء ولملك تقدم الى تونس فى أوائل جوان وتزورنى هنا الى قربة فان الهواء فيها لطيف والمناظر الطبيعية لا تخلو من جمال وانى أرى البحر من نافذتى فى كل وقت وأحبيه على حالاته وتغييراته والى الرسالة القريبة .
أخوك

رسائل الحليوى

نابل في جوان 1934

أخى العزيز : أكتب اليك الآن من نابل حيث جمع الله الشمل بالآخ
البشروش وكان ذكرك بيننا أطيب ما نشقناه وتجاوزنا اطرافه وقد أخبرني
الأخ البشروش ان صحتك تحسنت نوعا ما ولكنك تقاسى فى مستشفىك آلام
الغربة الروحية تلك الغربية التى لا تطيب معها اقامة ولا تعذب حياة فهل لك يا
أخى ان تعد العدة لتقدم الى القيروان فى اوائل جويلية وتصطاف هناك فتجزل
الهبه الى اخيك وتسدى لصحتك اجمل شىء تسديه، لا تظن ان القيروان حارة
الطقس بالصورة التى اتسمع عنها ، ففى ساعات الهجير حين يشتد الحر
يلتجىء اغلب الناس الى الاسواق المغطاة ، ولتجىء نحن المعلمين والادباء الى
سوق العطارين حيث البرودة منعشة اما الاصباح والامساء فهى لطيفة جدا وعلى
غاية ما يرام ولا يكلفك الامر مشقة غير القدوم وان شئت السكنى خارج
المدينة فانا نستطيع ان نحصل لك من جمعية الاوقاف على العلوى الكائن
بالزاوية الصحابية والذى هو معد للزوار وإما مسالة اللوازم الأخرى فأخوك
يتشرف ان تفوض اليه امر تنظيمها بدون كلفة أو أدنى تعب يلحقه منها .

هل لك ان تقول نعم . اننى انتظر جوابك . اننى انتظره على احر من الجمر .

تعليق على هاته الرسالة بخط البشروش :

اعتقد ان رجاء الاخ الحليوى يجب ان ينفذ ، فتأتى الى القيروان
وتقضى به هذا الصيف وارىد ان لا تنظر الى اى اعتبار غير صحتك
فكل ما تراه عقبات و«مرهقات» لأصدقائك هو خلاف الذى ترى وتظن
فكلنا يا أخى نعتقد ان من ابسط الواجبات علينا ان نوفر لك راحتك
ونساعد فى شفائك الذى كلنا رجاء وابتهاال لتحقيقه فاليوم لا مانع
ولا مبرر لبقائك هناك فى تلك البلاد النائبة الضائعة التى ترهقها
الغربة وترهقها الحرارة والهجير .

وانتهينا الآن من الرجاء • فأى حديث بعد الرجاء •؟

كنا نتجاذب اطراف الحديث عن الادب فصارحت الاخ الحليوى
بنقمتى على الادب وعلى كل عمل نأتبه لنادب وهى نقمة كنت صارحتك
بها واصارح بها كل صديق وتعاب على • ولكن نفسى تأبى الا ان
تنقم ••• فماذا استفدنا من الادب وبماذا أبنا من الكتب ؟

الارهاق والبلاء ، والتعب والعناء •

أبدا نكد ونسعى وابدا عن آفاق الادب نضل وننأى فلتنكسر الاقلام
ولتحطم ولنفز بالراحة والهناء ايه ، وما اظماً نفوسنا الى الراحة وما
اشوق قلوبنا الى الهناء •

أنقضى هذا الشباب بين الكتب ونخضعه للنعنة الدهر والحياة
فلنشفق على نفوسنا ولنقنع من الدنيا بالعجز والخيبة : فما نصنع
والاجنحة متكسرة ؟

مع شوقى اليك تقبل سلامى : محمد البشروش

تعليق للحليوى على كلمة البشروش :

ها انت قد انتهيت من قراءة ما كتبه اليك « السيد » محمد
البشروش واقول « السيد » لأن هذا الرجل اصبح باعترافه اجنبيا
عنا ليس لنا به من علاقة الا علاقة المجالسة والحديث عن حالة الطقس
واسعار البطاطس والبذنجان ، ها هو قد كتب صك انتحاره بيده
وياالله ما الذ هذا الانتقام ، اننى عرفت الآن اننى من الدهاة فقد
استدرجته حتى كتب هذا وهو الذى كتب اليك فى الماضى اثر زيارته
الى القيروان باننى انتحر ودافعت عن نفسى ودفعت دعواه •

ماذا اقول لك بعد هذا سوى انه كتب ما كتب بعد ان كان يتغزل فى
عجوز تبلغ والله الستين من عمرها ويدنس شعر العقاد بانشاده
فيها وفى ثوبها الازرق (العجوز هى صاحبة المقهى) ما هذا ؟ هل

نرسل الى بلدكم النبغاء الممتلئين حياة ونشاطا وأمالا عظاما فتردونهم
الينا ماديين يغبطون اصحاب القصور والسيارات ويتغزلون في
العجائز الدرايبيس ؟ ! اللهم لطفًا ورحمة !

تعليق البشروش على هاته الكلمة :

ما كنت اعلم . لما أخذت على الحليوى انتحاره الادبى انه قد انتهى
اذ ذاك الى القمة التى ينتهى اليها الاديب . وياخذ على نعمتى فى الوقت
الذى يشاطرنى فيها فى صميمه ، وانتقد على ان انظر الى نصف عجوز فى
الوقت الذى يؤمن فيه أن العجائز من يسرهن التغزل فى محاسنهن ولا
يزهدن فى الرجال

الكلمة اليك ايها الصديق الحكيم .

تعليق الحليوى على هاته الكلمة :

لا يصلح العطار ما افسد الدهر ،
ولا الحواشى والتعاليق صكوك الانتحار

المرآة الثانية والثلاثون

حامة الجريد : عل طريق دقاش فى جوان 1934

عزيزى الأخ الحبيب •

أحييك واعتذر اليك ، فاننى والله لم يقعد بى عن الكتابة اليك فتور فى الود أو ضعف فى الادكار ولكنه خمول الحياة السائمة وملل الصحة الواهية وحرارة الجو التى لا تزيد هذين الا فسادا • ولعمرك انه لا يمر على يوم الا وقد اعتزمت فيه الكتابة اليك ثم نفضت يدى من ذلك العزم واخلدت للخمول الاليم •

هنا عمل واحد اقوم به مساء كل يوم ذلك العمل هو نسخ الديوان بصورة واضحة لاقدمه الى الطبع فى مصر ! ولكن لا تعجب يا صديقى فاننى لم يدفعنى الى القيام بهذا العمل ومولاته الا صديق هنا وجدت منه عوناً الى فى العمل ودافعا ملحا اليه ، ولولا انه يقدم الى كل مساء ليملى على ما أنسخ ولولا أن فى قدومه كل مساء من مكان غير قريب جبرا الى على العمل لما استطعت ان اعمل شيئا ولظلت الايام تنمو وتندوى وتتلاشى حوالى وانا أمنى النفس بالعمل ولا اعمل •

وقد صادف اننى اتصلت برسالة « الحوار » التى حررتها انت والاخ البشروش - وان كنت تريد ان تدعوه « السيد » - وانا اعلم فى الديوان فحركت من نفسى شجوناً لم تكن ساكنة وايقظت خواطر ما كانت نائمة ، ولكن ما عسى ان يصنع الطائر الذى نفته صروف الحياة عن سره الحبيب ؟ يبكى ويسخط ثم يستسلم راضياً أو ناقماً لارادة الاقدار وكذلك كانت نفسى اذ ذاك يا صديقى •

أما مصيفى بالقيروان فهو غاية ما أصبو اليه ولكنى أظننى لا أستطيع تنفيذه فاننى الآن شبه معتزم الاصطياف هنا ولكننى فى كثير من الاحيان

أفكر في زيارة الحاضرة في منتصف أو أواخر جويلية خصوصا وقد بلغتني انه
ورد عليها طبيب ايطالى اخصائى فى امراض القلب . وعلى كل فاننى لا بد
ان أزورك اذا ما ذهبت الى الحاضرة .

* * *

وعلى ذكر « الديوان » فاننى أقول لك اننى نادى كل الندم على اعلاني عن
طبعه وتكوين الاشتراكات فيه ، فقد خبت كل الحية من هاته الناحية ولم
يجبني من اصدقائى ومعارفى الذين كلفتهم بالترويج للاشتراكات الا القليل
النادر والاقل الاندر هو الذى أخرج بعض التواصيل وأرجع البعض . نعم
يا صديقى فقد ندمت كثيرا ولكن ماذا اصنع بعد ان وعدت الناس بطبعه
وقبضت بعض الاشتراكات ؟ لا أستطيع ان ارجع فى وعدى فتحق على كلمة
« كاذب » وهى شر ما يوصف به المرء ، فلم يبق الا ان اضحى واننى
الآن يا صديقى اضحى فى سبيل نسخ الديوان بما بقى من صحتى الواهية
وسأطبع الديوان من مالى الخاص وأرهق نفسى فى سبيل ذلك ما لا أستطيع
وما لو انفقته على صحتى لعاد على بعض الفائدة . أجل سأضحى بذلك ايضا
بعد ان ضحيت بالصحة ضحيت من قبل بمتع الشباب وراحة العقل وهدوء
الاعصاب وبذلك تكمل التضحية ويتم ثالوثها الاقدس المخضب بالدماء .

وبعد فما عسانى أقول اليك ؟ ان فكرى متعب واعصابى مكدودة ونفسى
ملولة ضجرة وحرارة الجو المختنق تزيد النفس والاعصاب سامة وارهاقا
ولعلك تدرك هذا من كتابتى المتخاذلة وانشائى هذا الفاتر السخيف، ولكن رغم
ذلك ما عسانى أقوله لك ؟ اننى أريد ان أتحدث اليك فى أمر أكيد نسيته -
فما هو ؟ سأترك القلم لحظة لأمسح جبينى المندى بالعرق وأوقظ ذاكرتى بتلى
جمال الصحراء الذى يمتد أمامى ، انه جمال ساهم محموم ، ولقد يخيل الى
أحيانا أنه يفكر فى ما وراء هذا العالم الصاحب المواز . . . فى معانى الفناء
والموت والظلام . . . ولقد يبلغ بى الوهم احيانا ان احسبه نفسا شاعرة
مسلولة ، تناجى فى حى السقام أحلامها الحزينة الصامتة الموشحة باردية
الموت . . . ما هذا ؟ ثرثرة متعبة وهذيان أليم .

والآن لقد تذكرت : فانى أريد ان قول لك اذا اتممت نسخ الديوان فهل ارسله اليك لتكتب مقدمته ام لا ؟ لقد كنت تعهدت بهذا وطلبتة الى فى العام الماضى والذى قبله ، وحاولت التخلص أو اظهار التخلص منه فى هذا العام - فما هو رأيك الاخير الصريح الآن ؟ . ودعنا ببرك من تواضع الشرييين واحاديثهم التتريقاتية . اما رأيى أنا فانى أؤثر كلمة منك على ما يكتبه عنى أبو شادى ، لانك تعرف عن نفسى وعاداتى واطوارى النفسية والجسمية ما لا يعرفه ، وبذلك تكون موقفا فى فهمى وفهم شعرى اكثر منه ، هذا بقطع النظر عن اسلوبك وأدبك الذى تعرف رأيى فيه .

واننى انتظر جوابك بصراحة تامة عن هاته النقطة بالخصوص وقد راسلت أبا شادى بعد ان عينت له مقدار ما سيكون فى الديوان من الشعر ، وبعد ان ذكرت له اننى أريد ان يكون ورقه من نوع ورق « ذكرى جوت » للعقاد وطلبت منه بيان السعر وها انا اذا لا زلت انتظر الجواب . لم اتصل « بالينبوع » ولست اعلم ما موجب هذا وكذلك لم اتصل بعدد ماى من « ابولو » ولذا فرجائى اليك ان توجه الى النسخة التى جاءتك من « الينبوع » وبادر بارسالها الى الحامة .

اما المقتطعات التى كنت ارسلتها اليك وكلفت بها بعض معارفك فاذا تؤمل زيادة الرواج فيها فأبقها عند اصحابها الى حين ، واذا كان لا أمل لك فى زيادته فأرجعها الى الحامة ايضا والمجنون من يحرق نفسه بخورا أمام هذا الاله الفبى الجاهل الذى يسمى : الشعب التونسى ، وانا ذلك المجنون يا صديقى . حسبى ما كتبت وان كنت أود المزيد والى اللقاء شخصيا أو كتابيا واننى انتظر جوابك السريع وديوان الينبوع وسلام عليك من اخيك المخلص :

أبو القاسم الشابي

رسائل الحليوي

قربة في 28 جوان 1934 (*)

أخي الفاضل .

وأخيرا وصلني كتابك بعد طول الانتظار ونفاد آخر زاد من الصبر وملل الشك في وصول كتابي الأخير اليك - أنت تعلم أنني لا ألومك على الإيجاز أو تأخير الرد إنما ألومك على السكوت الطويل . وعلى كل فاني أتمنى لك شفاء يرد عليك صحتك ويردك الى واجبك نحو اخوانك الاصفياء .

لقد أسفت جد الاسف لعدم استطاعتك الاصطياف بالقيروان كما عرضت عليك ذلك ، ولعلك تفي بوعدك عند قدومك لتونس فتزورني على الاقل هناك وربما تصادف حفلة زفاني ان ارغمت عليه في أواخر جويلية . . .

أما ندمك على الاعلان عن طبع ديوانك فغاية ما في الامر أنك أخطأت فهم الظروف الحاضرة والنفسية السائدة في الطبقات التي يمكن ان يطلب منها الاشتراك في انكتب المزمع طبعها . انهم يقولون : عندما تعرض عليهم الاشتراك في كتاب ما : « لقد تعودنا الوعود الكاذبة وكثيرا ما دفعنا ثمن الكتب المعروضة علينا، وتمر الشهور بل الاعوام ولا نتصل بتلك الكتب » وهكذا تكون عندهم رأى مضر وهو أن الاشتراك في الكتب قبل الطبع أصبح وسيلة من وسائل الارتزاق والخروج من الضائقات المالية والناس لا يفرقون بين زيد المحتال الكاذب ، وعمرو الصادق الامين . فالى هذا أعزو ضالة الاقبال على الاشتراك ولكنني على يقين من أن الديوان بعد الطبع سيلاقي رواجاً وأن اخوانك الذين عجزوا عن ترويج الاشتراكات سوف يستطيعون بيع الكتاب . فاشدد عزمك وأقبل على عملك ، واعلم أن الزمن المستقبل سيشار لك من الزمن الحاضر .

أما مقدمة الديوان فاني لن اكتبها لاني اكره المقدمات وكرهها لك وخير للديوان أن ينزل الى « الحياة » أعزل بسيطا غير محاط بسياج من التعاليق والشروح والتعقيبات على طريقة أبي شادي . فليفهم شعرك ونفسك كل واحد كما تبدو له من الديوان واترك لي حرية فهمها والكتابة عنها خارج الديوان ، وأما حديثك عن الصراحة فما كنت اعتقد اني كنت أوارب أو أنافق أو أظهار

(*) انظر في الملحق الرسالة رقم 16

بغير ما فى نفسى ، فما بال كلمة « الصراحة » و « والتشريفات » يسجلها
قلبك وتساق الى ؟

ما كنت احسب انى أقوم بوظيف تشريفاتى فى كتبى التى عبرت فيها عن
اعجابى بأدبك لقد كنت دائما تحت تأثير فكرة اعتقدتها وهى أنه لا ضير على
قلبين متحابين أن يتبادلا عبارات الاعجاب والتقدير فى الوقت الذى يبخل
بها شعب نائم وأصدقاء يحسدون المجيد ويحتقرون المتخلف وصحافة يستولى
عليها الرعيون . ثم انك تعرف ان اعجابى بأدبك لم يكن عن رغبة أو رهبة، فما
بالك تصفه بالتشريفاتى . هل قضى على الاديب فى هاته الارض ان يلاقى
الجهود حتى من أصحابه والا يجد صدى لادبه فى قلوب الذين يفهمونه؟ لقد كان
جديرا بك - أيها الصديق ان تحمل ما كتبت به اليك محملا آخر وتعرف
اننى - وأنا فى غربتى الروحية - لا أجد من أفضى اليه بتأثرى أو اعجابى بما
قرأت غير من اكاتبهم وأفضى لهم بكل ما فى قلبى ساعة الكتابة . وعلى كل
حال فلن تجد فى رسائل المقابلة كلمة تشريفاتية يجرم قائلها أو كاتبها .

فهذا هو جوابى « بصراحة تامة عن هاته النقطة بالخصوص » .

* * *

أما ديوان « الينبوع » فانى أعرته للبشروش وهو الذى اعلمنى بأنك لما
تصل به فحرضته على ارساله لك وسأرسل لك فى اوائل جويلية من القيروان
جميع ما تجمع لدى من مال الاشتراكات التى وزعتها بنى خلاد ومنزل أبى
زلفة والترشيح .

ليس لدى ما أزيده على ما كتبت سوى اننى أنتظر يوم الخلاص أى بعد
يومين لاخرج بلا رجعة من هاته القرية التى احتويتها ، وأجمع أفكارى فى بلدى
وأنسى المتاعب والحوادث التى مرت بها فى هاته السنة المملوءة بالملل
والسامة والقنوط والثورة . وسلام من أخيك الذى لا ينساك .

حاشية :

أرسل اليك طى هذا : الكلمة التى كتبها عنك صالح الاحمر
بالفرنسية فى جريدة « أفريقيا الأدبية » وقد قال لى البشروش أنه
ترجمها لك .

المراتة الثالثة والتلاتون

حامة الجريد : « عل طريق دقاشى » 34/7

عزيزى الاخ الحليوى حفظه الله .

تحية وشوقا .

وبعد ، فلعل لسالتى هاته تصل اليك وأنت تعد العدة لاتمام زفافك الميمون والذى يؤلم قلبى ان تصدنى الاقدار عن حضور حفلته بعد اعتزامى ذلك . فقد كنت من قبل مجمعا أمرى على زيارة العاصمة فى العشر الاواخر من هذا الشهر . وجاءتنى رسالتك مبشرة بقرب زفافك فأيقنت اننى لا بد أن اشاركك فى حضور حفلة أنسك كماشاركتك من قبل فى تذوق آلام نفسك . ولكن القدر الذى يابى الا أن يكون لى عدوا حرذا قد أبى على هاته وقدر ما لم يكن فى الحساب فقد اصيبت زوجتى بمرض أنسانى مرضى الذى كنت افكر فى علاجه واننى الآن مهموم النفس موزع اللب مستطار الشعور مقسم القلب بين دائى القديم ونصفى السقيم ، ولست ادرى ماذا وراء غدى المحجوب من ويلات الخطوب وبذلك أجلت سفرى مكرها ولست أدرى متى اعتزمه .

عفوا يا صديقى اذا كنت أحدثك بآلامى فى رسالة بدئت بالحديث عن زفافك المنظور ؟ اندفعت الى ذلك عن غير وعى ولا تفكير ولكنها حاجة القلب المترع الى التنفيس عنه .

اما الاخ البشروش فانه اعلمنى بأنه ايضا قد كتب له عقد النكاح فى هاته المدة الفارطة فعساه يكون عليه سعيدا .

وقد راسلت أبا شادى فى شأن قصيدك ومقالك وفى شأن قصيدى « نشيد

الجبار ، وثلاث قطع شعرية اخرى وفي طلب بيان تقدير قيمة طبع الديوان
ولكننى لم اتصل منه بشىء رغم انه قد مضى على ذلك أكثر من شهر وعشرة
ايام ! كما اننى لم اتصل بالعدد التاسع والعاشر من هاته السنة . ولم افهم
موجبا لهذا . وقد اعدت اليه المراسلة فى شأن طبع الديوان وتقدير ثمنه فى
مكتوب مضمون الوصول دفعا لوهم الضياع . وها انذا لا زلت منتظرا جوابه .

ارجوك ان تراسلنى يا صديقى فان نفسى مترعة بالامها مقفلة عن مسليات
الحياة موصدة حتى عن تذوق جمال هذا الوجود فراسلنى وعرفنى عن الوقت
الذى ستعقد فيه حفلة زفافك فأقاسمك سرورك على البعد اذا أبت الايام ان
يكون ذلك على القرب .

وسلامى اليك والى الاخ الفاضل الاديب السيد الشاذلى عطاء الله وسائر
لاخوان الفضلاء .

أخوك : أبو القاسم الشاذلى

(قد اتصلت بالينبوع فشكرا) .

رسائل الحليوى

القبروان في جويلية 1934

حضرة الأخ الأعز وقاه الله .

السلام عليك والاشواق التي لا تحد لرؤيتك تلك التي سهرني قربها وانتظرت كل هاته الايام حلول موعدها - فلك الله أيها الاخ - من عناد الدهر ، ومعاكسة الايام - فانه بأقل مما زمنتك به لتتوء قوى الصعبة اولى القوة . فكيف بك وأنت تصارعها وحيدا بلا ناصر وتضطلع بواجبات الاسرة وشؤونها بدون معين - ولقد ساءني والله أن تكون في كدر وتعب من جراء مرض زوجك . فهل اخذ الدهر على نفسه عهدا الا يهادنك ويرحم شبابك ؟

أخى تدرع بالصبر وأعمل الرأى فى الخروج من تلك البلاد التي اتضح أن طقسها لا يناسبك ولا يناسب زوجك - وارحل الى بلدة فيها المرافق الحيوية والادوية والطبيب والمناخ المعتدل - وعسى كتابى هذا يصلك وقد انفرج الكرب وانجابت الغمة .

اعلم - أيها الاخ - انى أخرت زفانى الى الربيع لاني سأنتقل الى رادس ترضية لى عن نقلتى المفاجئة الى قرية - هذا ما عرضته على الادارة وقد قبلته واني أنتظر كتاب التسمية الرسمى - ولا شك أن هذا التغيير الجديد فى سير حياتى يستدعى تحضيرات ومفاجآت لم أشأ أن أتهيأ لها وأنا متزوج .

وقد هنأت البشروش بعقد زواجه ويظهر أن الاخ مبتهج باختياره وبأصهاره من أسرة - عبد النبىء - المعروفة بنايل وقد اجتمعت بأحدهم فاذا الادب الجم والاخلاق النبيلة فعساه يجد فى زوجته مثله الاعلى الذى رسمه لنفسه .

وفى خصوص « أبولو » فان العدد العاشر لما يأت بعد الى تونس والعدد التاسع لا يحوى شيئا من نظمك - أما طبع الديوان فأرى أن تطبعه فى مطبعة « الرسالة » المسماة بمطبعة « لجنة التأليف والترجمة والنشر » فهي جميلة جدا وفيها الشكلات وحسبك أن ترجع الى الاعداد الاخيرة من « الرسالة » لترى جمال حروفها واترك عنك مطبعة « أبولو » فهي أقل بكثير من مطبعة « الرسالة » وربما لا تجد من يعنى بتصحيح ديوانك كما تحب - فاكتب من الآن الى صاحب المطبعة واطلب من الزيات المساعدة فانه طيب القلب .

أرجو أن تعلمنى بأحوالك واحوال الزوجة المصونة ولا تبطىء بالرد كالعادة والسلام من أخيك الدائم العهد . . .

الرسالة الرابعة والثلاثون

حامة البريد 34/8/12

أخى

تحية عاطرة

وبعد ، فقد سررنى انك نقلت الى مركز « رادس » ذلك المركز الجميل الذى كنت اسمع منك ان آمالك انتهت عنده ، وانك لا تعتزم الا ان تسمح لك الايام بأن تبني فيه منزلك وتستقر فكان الزمان قد أخذ يركن الى المهادنة ويتيح الفرص فما عليك الا أن تهتبل الفرص السانحة .

وانى أهنيك واسأل الله أن يجعله عليك مركزا ميمونا مباركا على روحك وقلبك وصحتك الغالية . واننى اذا كنت اعتذر لك بينى وبين نفسى عن خمول الامس بسأم الوحدة وجمود القرى فاننى لا اجد لك عذرا بعد اليوم وأنت فى رادس ذات الجمال الساحر والمركز الذى لا ينقطع رواده والعاصمة منك قاب قوسين ورمى السهم .

اما انا فاننى اليوم - بحول الله - افارق الحامة راجعا الى توزر التى طال عنها غيابى من نحو ما يزيد على اربعة اشهر . واننى لاحمد الله أنى أتيت منها سقيما متعبا موهون القوى لا أملك فى نفسى عضوا تعينى الخطوات اليسيرة وارجع اليها معافى بعض العافية .

واحسب ان قديمى على الحاضرة سيكون فى أواخر هذا الشهر « أوت » وقد كتب الى الاخ البشروش أنه انتقل أيضا الى مركز الكريب وهو مركز لا أعرفه ولكن البشروش مسرور به لقربه من العاصمة ولانه سيكون هو الوحيد بالمكتب الذى يوجد به مسكن للمعلم الوحيد .

ليس لدى الآن ما اكتبه اليك غير هذا أو لعل ذهني لا يستطيع ان يملئ
غير هذا وهو مشغول بأمر السفر ومعداته .

والسلام عليك . أخوك :

ابو القاسم الشابي

ملاحظة :

كنت في أوائل الشتاء الفارط راسلت السيد ابراهيم بن سالم
وأرسلت له مقتطعا طالبا منه ترويح ما امكن منه وقد قدم في الشتاء
ووعدني بأن يعمل بعد رجوعه . كما كتبت السيد بمقتطع
ايضا ولكنه لم يجيني اذ ذاك بحرف وبما انني الآن أجمع الحساب
لتقديم الديوان الى الطبع فقد راسلتها طالبا منهما الجواب ولكن
عبثا كان ذلك - ولذا فالرجاء ان تقابلهما وتستطلع منهما طلعة الأمر
فان كان هناك شيء فليراسلاني به والا فتسلم المقتطعين وأرسلهما
الى وعرفني بجوابهما . والسلام .

أخوك : الشابي

رسائل الخليوى

القيروان في 19 اوت 1934

أخى العزيز :

شكرا لك على تهنئتك الجميلة كالقلب الذى خرجت منه وحمدا لله الذى اخرجنى الى النور اخرجنى من تلك القرية التى ضقت بها وضقت بى وعرفت فيها معنى البؤس والغربة والموت ولو قدر لى ان أبقى هناك اكثر مما مكثت لكنت ولا ريب اشقى الناس ولعلك تقول ان الاهمية التى اعلقها على العالم الخارجى لا تليق برجل يمكنه أن يخلق داخل نفسه عالما جميلا يعيش فيه ولا يعنيه ذلك ما فى عالمه الخارجى . نعم ربما كان ذلك صحيحا ايها الاخ ، ولكن الحواس التى تتصل بالعالم الخارجى هي فى الوقت نفسه باب العالم الداخلى وكثيرا ما يتلاقى العالمان فيتصادمان ويتدافعان وتكون نتيجة ذلك السامة أو الثورة النفسية وما شئت من هاته الصوافف العنيفة التى تسيير حياتنا . لا أنكر ايها الاخ ان العالم الخارجى اى الحياة الواقعية قد يتيح للاديب فرصا طيبة لدراسة اخلاق الطبقات الشعبية ومعرفة الطبائع الانسانية على حقيقتها خصوصا فى القرى يكون اغلب الناس فيها على الفطرة الساذجة ولكن هاته الدراسة لا تتم ولا تكمل الا اذا تنازل الانسان عن كل شىء عن استقلال نفسه وعن عاداته وطباعه ليندمج فى نفوس تلك الطبقات ويحيا حياتهم وفى ذلك صعوبة يجب ان يروض المرء نفسه عليها فى ساعات صفوه .

أخى ! لقد سررت جد السرور بمعافاتك وتلك هي أمنيتي التى كنت ابتهل الى الله بتحقيقها فعش واسلم فداك الروح . وقد لاحظت انك لم تخبرنى عن حالة زوجك المصونة فلعلها الآن بخير اما الاخ البشروش فان المراسلة بيننا منتظمة بعض الانتظام وقد علمت نبأ نقلته الى « الكريب » من العاصمة قبل ان يعلمنى به لأنى ذهبت لتونس فى اوائل اوت ومررت برادس مرورا سريعا فأعجبتنى وابتهجت بانتقالى اليها .

وقد قابلت كما طلبت السيد ت . . . فزعم انه كتب اليك الى الحامة ورجع اليه المکتوب وانه لم يبع لا هو ولا السيد ابراهيم بن سالم ولا وصلا واحدا حيث وقع الاتفاق بينهما وبين الاخ الشاذلى عطاء الله فى ان يشتركا فى بيع مقطوع واحد وهو القدر الممكن ترويجه بالقيروان .

ليس لدى ما اعلمك به الآن سوى اننى اترقب مجيئك الى القيروان لزيارتى بفارغ الصبر : وربما بعد الفراغ من الزيارة رجعنا معا الى تونس فلا تبخل بالزيارة وعجل بالقدوم والى الملتقى .

أخوك على الدوام . . .

الملحق الأول :

رسائل البشروية

المرآة الاولى

نظرة في فيفري 1933

أخي الأعز سيدي محمد الحليوي .

لقد وصلتني رسالتك حين كنت أفكر في صمتك عن رقعتي . وقلت أنت رجل قد انعزلت عن الادب ، وانعزلت عن كل من ينتسب اليه . فقطعت حبالك من حبالهم واخترت العيش هناك بين الاقراء والاشتغال بمحن الحياة وكوارثها . وأفتح رسالتك وأقرأها فإذا أنا مخطيء واذا كل ظنوني تذهب هباء . فأنت ما زلت ذلك الشغوف بما في الكتب والاوراق ، والكلف بالادب وأبحاثه ، والصديق الذي سمعت عنه والاخ الذي أعرفه ، واني لأسرع يا صديقي بطلب المعذرة والعفو عن ظني الآثم .

ولنخرج الآن عن « مقام الرسميات » حيث وجب الخروج ، ولاحدثك في أولى رسائلني عن « مشروعنا » الذي كنت أنا والاخ الشابى حدثناك عنه فاجبته برسالة كتب لي الصديق عنها يقول « انه ليس تأسيس المشروع سهلا كما يبدو بل لا أقل من أن يلتف حوله خمسة عشر أديبا يدفعون سنويا ما قدره فرنكات 300 » وزاد « وعليه فليدفن المشروع في قبر من الفولاذ » .

وقرأت هذا وتأملته فقلت في نفسي : لن يدفن المشروع . وكنت أنوي مكاتبتك وكان تقاعسي انتظار ردك عن رقعتي . وكان الرد ، فإذا هناك في الحاضرة جماعة يعملون للفكرة نفسها وليس هذا المشروع بأول المشاريع التي أسست في هاته البلاد . ومع هذا فليس في تونس مشروع واحد . فأين هي ؟ لقد ماتت وعصفت بها عواصف الدهر .

وتستطيع أن تبحث عن العلة ، وأن تنفذ الى الداء فإذا هو الثرثرة . انما تونس يا صديقي ، بلاد لها كما يقول الطاهر الحداد في قصيدة له لم تنشر :

« في الصدر موت وفي الافواه زوبعة »

وقد تبدو هناك غرابة بين الثرثرة وحياة المشاريع وما في ذلك غرابة .

- فحياة المشروع فى الايمان به • وليس فى الثرثرة ايمان •
- وهكذا تداعت مشاريعنا وانهارت لاننا ما عرفنا الايمان •
- ان للثرثرة قصورا عتيدة تولد للموت وتقوم للانهايار •
- ونريد ان نؤسس مشروعا •
- فهل آمنة بهذا المشروع ؟

اسمح لى يا صديقى ان اقول لك ان مشروعا يضم مثل ٠٠٠ • ومن كان على غراره هو مشروع ولد ليقبر • فان الذى عجز عن ادارة مجلة ٠٠٠ • وعجز عن القيام بمشروع واحد ، ودفعه الى انطريق الذى يجب ان يسير فيه هو عاجز أيضا ان يعمل لحياة « مشروعا » •

وليس هذا بسببة له - كلا - وانما تلك حقيقة يجب ان يعترف بها هو أيضا وقد صارحته بها وألقيتها له كما يجب ان تلقى فى غير تمويه • وقد يكون هناك من القائمين غيره من فطروا على الايمان وخلقوا للعمل الجدى فانا معهم ، اساندهم واقاسمهم الواجب فى كل وقت •

ولكن من هم ؟ اريد ان اعرفهم قبل كل شىء بعد تبين الافراد يتبين موقفى •

وموقفى الذى اعنيه ليس موقفى نحو المشروع ولكنه موقفى نحو الافراد أما الجمعية ففى كل الحالات يجب ان توجد كلفت ما كلفت • ويجب ان نعمل لتأسيسها بدون ملل أو فتور •

وإذا أسست جمعية كان يجب ان لا تكون منها فعليا ان تؤسس جمعية من جهتنا • ولا يضير جمعية ان يكون أفرادها ثلاثة وأن يقوم كل واحد من الثلاثة بقسط اثنين أو ثلاثة فى الدفع •

وتخدم مصالح الثلاثة فقط ؟

لا شك فى ذلك أو تخدم حتى مصالح غيرهم متى كانت الضمانات جافظة للحقوق ان شئت ذلك • وسيكون عملها تافها زهيدا • ولكن خير لجمعية ان تخدم مصالح القليل وأن تعمل العمل الزهيد المتتابع من أن لا تخدم مصلحة واحد وهي كبيرة بالثرثرة •

القوة فى الثبات يا صديقى •

وأودعك الآن لانتظر ردك • والى اللقاء قريبا فى الاسبوع الآتى برسالتى الثانية وتقبل سلام أخيك •

محمد البشروشى

الرملة الثانية

نقطة في 17 مارس 1933

عزيزى الاخ

كنت أقرأ قصة «سالمبو» . فأعجبت بها اعجابا . وقد كنت قرأتها منذ ثلاث سنوات ولكنى زدت لها فهما فى هاته المرة ، وبها شعورا وزدت فهما وادراكا « لجوستاف فلوبيير » (Gustave Flaubert) ولفنه ودقته وصبره واخلاصه . ولا تتسع ظروف الساعة لان أحدثك عن فلوبيير وعن قصته الرائعة ، ولو اتسعت لكان حديثى لك عنها هذرا ولفوا حيث انك قرأتها فى السنة الماضية . وأكتفى بأن أحدثك عن شخصية هى أقوى شخصيات هاته القصة وأعنى بها شخصية « عملكرض » فهاته الشخصية تأبى عليها هممتها وعظمتها الا أن تثور حين يكون كل شىء مدعاة الى الاستسلام وترهقتها عواصف الظروف وتتضاعف غياب الياأس حولها . فمن انقسام بالجمهورية ، الى عداوة الرومان والى الحروب البونيقية الى ثورة المستأجرين وعددهم لا يقل عن الثلاثمائة ألف الى ضعف الجند الذى يقوده ، الى مخصصة ومجاعة فى الجيش . ولا يياأس ويظل ثابتا فى الميدان يقارع ويكافح ينتظر انبجاس النصر فينبجس وتنتصر قرطاج :

عملكرض ما انت سوى منقذ اتى

لانقاذ قرطاج التى تالم

مشيت ... احاطت بالبلاد مصائب

اجيير ورومان ، وشعب مقسم

مشيت ... جبال في الرقاب تمكنت
فاين النجاة ...؟ والنجاة توهم

تألمت الدنيا عليك سفاهة	ولا فجر غير الليل فالليل أدهم
وهل يستطيع البطل الا مكافحا	دعوه يلاقي الويل، للويل يبسم
مشيت ... وانت بالخلاص مبشر	قلوبا ، وللاغلال كنت تحطم
وما أنت الا نفحة قدسية	رسول فخار للمواطن تخدم
ترنمت والآفاق ليل دجنة	فكان سلام النفس ذاك الترجم
مشيت وقدمت الثمار لذيدة	ونشرت عزا ، فالبلاد تبسم

وقرأت هذا . فما كان حديثا عن « عملكرض » ولكنه تحية وكلمة اعجاب
فلاعجاب هو حديثي ، والاعجاب هو كل ما أستطيع ، وهو دليل قيمتي أنا
المغبون . ويزيدني عبئا اني لا أستطيع حتى كلمة الاعجاب .

محمد البشروش

كنت أحسب اني أكتب اليك هاته الكلمة قبل هاته الساعة . وكان تقاعسى
اصابتي بزكام واضطراب فى حياتي التى أحيها عذرا وأرسل اليك هذا وقد
اتصلت أمس بكلمتك عن اللصوصية فى الشعر وسأجيبك عنها قريبا جدا .
فالى اللقاء يا صديقى .

تعليق بخط الشابي :

أخى أحييك وأستحدثك على اتمام ما وعدت فاني أنتظر .
لم يأتني العدد السادس والسابع من « أبولو » ولا أدرى ما موجب
ذلك وأظن اني سأكتبهم اليوم . تحياتي وأشواقى اليك .

أبو القاسم الشابي

المراتة الثالثة

دار شعبان في 8 جوان 1933

آلمنى جدا أن تكون رسالتى قاسية وهى قساوة ما كنت أقصدها أو أنتبه اليها . وقد آلمتك قبل الساعة بصمتى ، وآلمتك الآن برسالتى فليتسع حلمك وليتتابع صفحك وعفوك . ولتعلم انى منلك نفضت يدى من كل صديق واعتقدت أن صداقتكما أنت والشابى هى من نعم السماء التى لا توجد بها كل حين . فأيقن أن لا عزيز عندى غير هاته الصداقة . وانى لا أحرص على شىء حرصى على وفائكما وأخوتكما .

وسيكون الشابى فى الحاضرة قريبا جدا . وسيكاتبنى منها كما أعلمتك وسنزورك لا لأنك تريد أن نزورك وانما لاننا قررنا زيارتك قبل كتابة رسالتك بشهور . وقلت لك أننا سنمر بك وكنت أعنى أننا سنقيم عندك فألمتك نمر وآلمتنى غباوتى .

وسنزابل بنى خلاد الى دار شعبان وكنت تظن أننا نزايلها وحيدين ؟ لقد أخطأت الظن اذا . ولتعقد أن يوما مع الشابى فى غيابك هو يوم مبتور الصفو مبتور الهناء . وكنا نشعر بهذا النقص ونحن فى صميم الصحراء فتآلم ويزيد اليوم ألمنا أن نكون وحيدين ، وأنت على خطوات منا . سترافقنا ويكون الهناء والصفو تاما .

سأعلمك اذا كاتبنى الشابى لتعلم متى نقدم اليك . أما الآن فانى أناشدك باسم الصداقة ان تطرد من نفسك كل ما خطر بها وأن تعتقد فى شوقى اليك واعجابى بك .

يجب أن نستأنف مراسلتنا الادبية . ما رأيك ؟ سأكتب اليك قريبا . اقتنيت من تونس أخيرا الكتب الآتية : قصة « هرمن ودروتية » تأليف جوت وترجمة عوض مؤلفات « فرجيل » ومنتخبات « فرلان » (Verlaine) الشاعر الساحر . صدر أخيرا كتاب عن « بيسرون » (Byron) تأليف (A. Maurois) ويظهر أنه كتاب ساحر . تحياتى .

محمد البشروش

الرمانة الرابعة

19 جويلية 1933

أخي .

نحن في الصيف . والصيف للنوم والمجتمعات . فلنعطل كل حديث عن
الادب . ولنكن في عطلة . هذا ما تريد . فليكن ما أردت . وأكتب لك الآن
لا لأحدثك عن الادب وانما لأقول لك ان الاخ بلقاسم كتب الى يذكرني بالوعد
« 32 » ، فجئت أذكرك بالوعد . والرجاء منك اعلامي اذا كنت على رأيك الاول
في الميعاد الذي ضربناه وهو الثالث من أوت .

اذا كان ذلك فالمرجو الكتابة الى من الآن حتى أتولى مكاتبة الاخ الكعك
واعلامه بما قر عليه رأينا ثم اعلام الشابي ليكون على بينة وعلم .

اكتب الى من الآن . . . من الآن . . . كلمة واحدة . سلامي

محمد البشروش

المراسلة الخامسة

نقطة في 13 نوفمبر 1933

صديقي الأخ .

لقد انتهت العطلة منذ أمد بعيد وعاد الاخ الشابى الى بلده . فهل ترى أن نستأنف « المراسلة الادبية » اذا كان ذلك فنحن ننتظر منك الرسالة التى تفتح بها البحث .

وأرجوك أن ترسل لى الكلمة التى كنت بعثتها اليك عن أدب الطفولة فانى أنوى نشرها فى مجلة « المدرسة »

لقد أرسلت لك مجلة « أبولو » رسالة سيوافيك بها الاخ بلقاسم ولعله قد فعل لقد ألح على الصديق الشابى بأن أسلمه شيئا للنشر فى مجلة « أبولو » وما زلت أتردد نظرا لسخافة ما أكتب وعقم الذى أسطر . قرأت مقالك عن « الرومنتيسم فى الادب الفرنسى » « 33 » وارجوك أن تدأب فى سبيلك وتمضى حتى تكون لنا سلسلة كاملة عن تاريخ الادب الفرنسى .

هذا كل ما خطر الى الآن وأنا أكتب اليك بفكر كليل وعقل فاتر . سلامى .

محمد البشروشى

المرآة السادسة

بدون تاريخ (*)

• سيدي الأخ •

وصلتني رسالتك وقرأت قولك :

« انى كثيرا ما سطرت على احدى الورقات عنوانات الكتب التى أنوى تأليفها فى المستقبل وكثيرا ما بدلت فيها وغيرت ولا تطمح فى أن أقول لك ما هى البرامج التى انتهيت اليها والمشاريع الادبية التى اشترعتها لنفسى فانها ترغم على الضحك وتدعو الى الشفقة • وما دام الامل يباع فى الدنيا بلا ثمن فانى بنيت من هذا الامل أبنية من الوهم ووكلت الى الدهر ان يقوم على حفظها »

ومن منا يا صديقى لم يأمل ولم يشترع لنفسه مشاريع عديدة لا تستطيعها الجماعات • وقد يكون هذا « الاشتراع » يرغم على الضحك ويدعو الى الشفقة ولكنه اشتراع اذا تدبرته هو ضياء الحياة وفجرها ، وهو محض الخير والصلاح أليس الاشتراع دليل اليقظة والحياة ؟ أليس الامل والتمنى هو يقظة الحس وفجر النهضة ؟ أليس هو خير من الموت والنمود ؟ فالنؤمل اذن ولنشترع فكله يوجب الاحترام ويفرض التقدير •

ولتطمئن ، فما بنيت من هذا الامل أبنية من الوهم ، ولتطمئن فستقوم الحياة على حفظ الذى أملت وتحقيق الذى أردت وتمنيت •

سيأتى النهار اذا كان لم يأت • فتدرب بالصبر وتدرب بالثبات فما النهار الا لمن صبر وتجلد فى الجهاد ، لم تنه عواصف الليالى او يقعه ما فى الطريق من عقبات •

انى معك لصابر يا صديقى • وعرفت طريقك ولكنى لما أعرف طريقى •

(*) حوالى نوفمبر 1933

قلت ان سبيلى القصة ولكنى لا أطمئن الى هذا السبيل كل الاطمئنان وتدرك
حيرتى • آه يا أخى انها لحيرة تصاحبتى فى المدرسة والاندية والبيت فى
اليقظة والنمام وترافقنى بعد أنى سرت ومضيت •

الصبر وحده كفيلا باختيار السبيل •

فلنصبر •

هذه كلمتى اليك وقد أبطأت بها • غدا أذهب لزيارة الشابى • تحياتى

محمد البشروشى

ملاحظة :

زرت اليوم الصديق الشابى فأطلعنى على « أبولو » وقرأت مقال
زين العابدين السنوسى وعجبت لما فيه من روح التهكم والتشفى
ولست أدرى ما بينكما من السخائم فان ما أظهره فى مقاله لا يدل على
الدرس الخالص من كل شائبة وغرض ••• وعلى كل فانى
أتشوف لمعرفة الموقف الذى ستقفه ولعلك تبسط لى ذلك
فى رسالتك الآتية •

الرسالة السابعة

بمدون تارديخ (*)

سيدي الأخ .

أنتظر عبثا رسالتك التي رجوت أن تسرع بها . وأكتب اليك الآن لأعيد الرجاء وأخلو لك بالحديث عن عمل فاتحت الأخ الشسابي به فاستحسنه وشجعني على المضي اليه ، وأعني بهذا العمل ترجمة كتاب الافارقة (34) الى العربية وهو كتاب جدير بالترجمة صور فيه مؤلفه الحياة الفكرية الافريقية في العهد اللتينى أصدق تصوير . ولست أعلم اذا كنت قد اطلعت عليه ولكنى اعلم أنه عار أن يزهد كل تونسى يحسن الفرنسية في الاط ٧ ع عليه . واذا كنت أحمد شيئا للكعاك فانما حثه لى على مطالعة هذا الكتاب

وقد كنت أستطيع من الآن البدء فى هذا العمل لولا حقوق المؤلف المحفوظة وخطر لى أن أكتب الى المؤلف أفاتحه بنيتى فأقعدنى جهلى لعنوانه وهو جهلى يجب أن يتقشع . وفى هذا أنا أفكر . فهل تكتب الى برأيك ؟

هو عمل شاق وأواجهه ولكنها مشاق يجب أن تذلل بمرور الايام . ولنصبر لعل الصبر يمكننى من اسداء شىء يفيد هذا الادب الفقير .

ما كاتبتنى برأيك فى كلمة زين العابدين الى هاته الساعة . على انه يجب أن أقول لك ؛ انه أثناء ذهابى الى قفصة لحضور المحاضرة الصناعية ، وكان ذلك قبل صدور كلمة زين العابدين فى « أبولو » ، اجتمعت بالأديب محمود وكان الحديث يدور عن مقالك فى « ابن رشيق » فأبدى استنكارا

(*) حوالى نوفمبر 1933

لكلمتك التي تروم الذهب بمفخرة تونس ، وربما تناول الموضوع
بقلمه ٠٠٠ الافخاريسى .

أكانت كلمتك ابن رشيق فى العمدة اعلانا بحرب ؟

يجب أن تتدبر وتثبت فى الميدان .

وصلتنى البارحة مجلة « الاخبار الادبية » (Les Nouvelles Littéraires)
فقرأت فيها أن ضمن برنامجها لسنة 34 عناية أكبر بدراسة الشعر والشعراء
فى العالم سواء كانوا أمريكيين أو مصريين أو سوريين أو لبنانيين أو من
البلاد العربية ولست أعلم اذا كانت تعنى أن تونس من البلاد العربية .

وأين الادب التونسى حتى يبلقها صدهاه ؟

آلنى ركود سوق الادب فى هاته البلاد .

فكرت فى مكاتبة « الزمان » ومدته بالمواضيع الادبية ما رأيك ؟

ما تجاوز الامر حد التفكير .

أودعك الآن على أمل أن أفرأك فى القريب .

وسلام من أخيك : محمد البشروش

بدون تاريخ (*)

أخي الأعز .

لقد زرت الأخ الشابي مساء الامس، ومكثت بجانبه ما يقرب من الساعة فاذا هو يتدرج في العافية والله الحمد . فان « النزف الدموي » بعد أن بلغ عنده مبلغا لم يعهده ، أخذ يقل وأخذت حالته ترجع الى المعتاد وهو الى الآن ملازم للفراش لشدة ما يوجد من البرد في هاته الايام .

وحدثته عنك فأعلمني بأنه اتصل برسالتك الاولى ثم الثانية وما منعه من الكتابة اليك الا العجز . وحدثته عن مقدمة الديوان وأيدت رأيك في أنه يجب أن يعرض على أبي شادي كتابتها فأبى وركب رأسه وصرح بأنه يستحيل أن يكتب أبا شادي ويرجوه هذا الرجاء .

والغريب أنه ينوي بل يلح في أن أكتب له مقدمة أنا أيضا العاجز المسكين ولست أعلم أكان الشابي يستخف بشعره الى هاته الدرجة أم يستخف بقرائه فان كتابة مقدمة عبء لا ينوء بحمله الا الأقوياء الذين ينفذون الى الصميم وكيف أستطيع القيام بهذا العبء . وأنت ألا تستطيع ؟

لقد أعلمتني في رسالتك الاخيرة أنك كتبت ردك على زين العابدين وأناى أنتظر من « أبولو » نشره بفارغ الصبر وأشكرك على ثباتك في الميدان فتقدم اذن ولا رهبة تعروك وقد تقدمت فكنت جديرا بالشكر وجديرا بالثناء .

والافارقة ؟ عندما تطلع عليه يجب أن تكتب لى برأيك فيه . أما ترجمته فكأننى عدلت عنها . ولكنى سأعمل برأيك ان شاء الله في ترجمة بعض الفصول فاتخلص من حقوق المؤلف وتقل نفقات اخراجه للناس .

على أن هناك كتابا آخر يتناول الادب التونسي قبل الفتح الاسلامى وهذا الكتاب هو الجزء الثالث من كتاب (Stéphane Gell) المسمى « أفريقيا الشمالية منذ القديم » . وسأطلبه من المكتبة قريبا .

(*) حوالى نوفمبر 1933

وإذا كنت أجهل اللاتينية لا يمكنني دراسة « الافارقة » مباشرة فستكون دراستي له عن الافرنسية وستكون كتابتي هي نقل عما كتب عن هذا الادب في الفرنسية ، وستكون وظيفتي أنا وظيفة « حمال » ، وهي وظيفة يجب أن يؤديها مخلوق من مخلوقات الله .

والزمان ؟ قد عزمت على الكتابة فيه ولذا أرجوك أن ترسل الى كلمتي عن « الادب القرطاجني » وسأكتب له قريبا . أما ما أحضرته الى حد هاته الساعة للنشر فهو :

- 1) كلمة عن قصة صلامبو « لفلوبير » .
 - 2) كلمة عن النحت والتصوير عند العرب .
 - 3) كلمة عن أندري شنيبي شاعر الثورة الفرنسية .
 - 4) كلمة عن الادب التونسي .
 - 5) كلمة عن الادب البربري .
 - 6) قصة الاعتراف مترجمة عن « جي ده موبسان » .
- وأريد أن أقول لك انه مما يدفعني الى الكتابة في « الزمان » ضرب من الحمول أراه أخذ ينفذ ويتطرق الى .

أودعك الآن يا أخي فاني أريد الذهاب لزيارة الشابي ولم يبق لسفر السيارة الا خمسة عشر دقيقة واني لاكتب اليك هذا صباح الاحد بكرة وقد استيقظت متأخرا فاعذرني واعذر هذا الاسلوب المشوش واعذر أخيرا ما في الرسالة من اضطراب ، وأرجوك أخيرا أن تتقبل أشواقي وتحياتي .

محمد البشروش

المرآة التاسعة

نقطة في 7 ديسمبر 1933

سيدي الأخ .

طال انتظارك للمرد ولا شك . وما كنت لاطيله لولا الحوادث والمفاجآت التي تتابعت في هاته الفترة القصيرة . فقد عزمت على الكتابة اليك حين تحتم السفر الى قفصة لحضور المحاضرة الصناعية فأرجأت الكتابة .

ورجعت الى نقطة فاذا بأخي يزورني مع نفر من البلد واذا بي أرجىء الكتابة اليك ثانية . وأتناول القلم في هاته الساعة لأرجو العذر . فهل تبينت العذر فتعذر ؟

لقد سرني عزمك عى متابعة دراستك للادب الفرنسي والكتابة عنه لان أدبنا لا يعرف دراسة تامة لهذا الادب وعملك يسد ثلثة ونقصا وسيبتهج به جماعة « أبولو » ويتلقونه منك بكل امتنان .

وتريد أن تعلم ماذا أرسل الشابي من آثارى الى مصر ؟ وأنى لاجل أن أقول آثارى فانى ناغم على كل ما أكتبه من الهذر وانى لاراه عبثا يجب أن يمزق أو يحرق ، وأن أكف أنا عن الكتابة واشتغل بغير الادب ، لان مثل ما خلق للادب ولا للكتابة وان آفاق الادب أسمى من أن يلجها سخييف مثلى .

وتنقم على نقمتى كما كان ذلك في رسالتك فلك ذلك . ولكن ما العمل ونقمتى راسية ثابتة متفلغلة في نفسى متمكنة منها لا تفزعها نقماتك ولا نقمات أحد فاعلم ذلك يا صديقى .

واذا كان الشابي قد ارسل كلمة عن الخيام مع أخرى فانما لانه ركب راسه وأبى على الذى أردت . والشابي عنود لا أستطيع معه غير الضعف وقد كنت ضعيفا وتبتسم من هذا الضعف . فلتكن ابتسامة أبدية ان شئت . ولست أدري الآن وقد أرسلها . اذا كانت ستنشر بين صفحات « أبولو » ؟

وتعلم لماذا أنا لست أدري . آه يا صديقى . لقد كرهت كل شىء منى .

ويكفى أن أذكره حتى أتالم . وما يكفى نفسى أن تؤلمها الحياة بشؤونها

وعقباتها حتى أزيد أنا في ايلامها وويح للانسان . أما يكفيه ألمه حتى يسعى الى الألم ويخطب ؟

ما تراه قد غنم ؟

الأشواك يا صديقي .

والآن لا أرجو من الله الا أن يريح كلمتي من الضياء

ويريحني أنا أيضا .

هكذا أشكو من عجزى وأنقم على عجزى يا صديقي .

والنقمة تطلع الى الفن وما بال هذا الفن يزيد تمقدا وغموضا كلما زدنا له فهما وادراكا . لقد كنت أعجب بكلمات كتبتها منذ سنوات فاذا بي اليوم أبتسم من ذلك العهد وتلك الكلمات . وكنت لا أعرف النقمة على الذي أكتب فاذا بي اليوم نقمة على الذي أكتب .

أهذه هي نعمة فهم الفن وادراكه ؟

لقد استهوتنا طريق ما كنا نعرف غايتها ولا منتهاها وتصبتنا آفاق ما كنا نعرف أعماقها ولا مداها . وما كدنا نلجها ونتبينها حتى زادت تحرفا وزادت نفورا وحاسبت نفسي ماذا غنمت فانحدر دمعى وأجابت نفسي : الأشواك .

وما الدمع بضعف . انما الضعف كل الضعف أن نزائل طريقا سلكتها ونتحاشى آفاقا مضينا اليها . فلنمض ولننتالم ولننتطلع الى السماوات ولنكيف هذا التطلع بصورة الانتاج . فلننتج ولنبك على الذي ننتج ولننقم . فكله محمود ما دامت نقمة لا يتطرق اليها اليأس ولا تقعد الهمة ولا العزم .

وأريد أن تحمد لي نعمتي . فهل تحمدها ؟

صديقي :

ان من أشغالى تتبع دروس « المدرسة العالمية » بالمراسلة (l'Ecole Universelle) والقسم الذى أزاوله هو القسم الثالث والدروس لا تتجاوز اللغة الفرنسية التى يتحتم أن نسعى فى حذقها وفهمها .

أرسل اليك كلمتك عن « السرقات الشعرية » وأرجو أن اترجع لي كلمتي أيضا . ان زيارتى لابي القاسم أسبوعية وهو بخير ، وغدا أذهب اليه . سلامى اليك .

المراتة العاشرة

نقطة في 28 رمضان 1352 (*)

حضرة الأخ الأعز لا عدتمته

وصلتني رسالتك أخيرا . وقد طال انتظاري لها . وأعلمتني بأنك كاتب
الشبابي منذ أمد بعيد ولم تتصل منه برد . وقد كان ذلك لاني علمت أمس أن
الشبابي مريض مرضا شديدا حتى أن عائلته فكرت في الذهاب به الى مستشفى
المتلوى ولكنه الآن يتدرج في مدارج العافية .

هذا هو سبب تقاعسه في الكتابة اليك .

وان تعجب فاعجب لي كيف لم أتمكن من معرفة هذا الخبر المشؤوم الا بعد
أمد طويل في حين أني على قرب منه .

لقد زرت الشبابي في أوائل رمضان وفارقتة على أنه متألم قليلا كتألمه دائما
وكان رمضان بنظامه وما فيه من أتعاب هو الذي أقعدني عن الزيارة الاسبوعية
فوقع الذي وقع ولم يفكر أحد من عائلته وأحبابه الذين حوله في اعلامي ، وانني
لاكتب اليك هذا وأنا مشوش الفكر مضطرب الفؤاد لا يطيب لي أكل ولا شيء
في الحياة .

أي والله يا صديقي ، لقد ألمني مرض الشبابي كثيرا وكثيرا ولولا
أعمال الحكومية لكنت الآن بجانبه ، فهو في مرضه أشد ظمأ الى عطف الاصدقاء

(*) جانفي 1934

والاخلاء ، ولعنة الله على هاته الدنيا ما اجدها وما اضمنها بالسعادة على الذين يعرفون لها «السعادة» ، وانى لارجوك أن تكتب اليه من الآن ، لعل كلمة منك تذهب عنه قليلا من التعب والعناء • فهو غريب ومريض ففكر فى اطراد غربته ان كنت تعجز عن اطراد دائه ومرضه •

آه يا صديقى ؟ لقد كان يتلو فى آخر زيارتى له قصيدا نظمه اثر الازمة النفسية التى بسطها لك فى رسالة مضت فاذا هو بديع ، وقوى ، ورائع ، وجيليل وقل ما شئت من الاوصاف وهو (نشيد الجبار) بحق • هذا مطلع

سأعيشى وغم الداء والادواء • غم العدا ••••••••

ولكن الداء أبدا يهدده ويرهقه •

لقد ذكرت لى فى رسالة مضت ان الشابى كاتبك بخوفه من عراقيل تمنعه من أداء رسالته فى الحياة • والشابى رسالة وأى رسالة فى هذا البلد الجاحد وهذا الوطن الكنود • فلندع له من الله بالشفاء العاجل والصحة الطيبة عساه يمضى فى سبيله ويسخر من العراقيل •

صديقى :

أريد الكتابة اليك بتطويل كما ترجو وتريد - ولكن التلامذة الآن على وشك الخروج من القسم وأنا على وشك امتطاء السيارة لزيارة الصديق فعذرا وسأكتب اليك من الغد بحالته •
كن مطمئنا •••••••• أشواقى •

الرسالة الحادية عشرة

بدون تاريخ (*)

سيدي الأخ .

أبطات بالكتابة اليك وذلك لخلاف بيني وبين فرع البريد هنا ، لا فائدة لك في ذكر تفاصيله فاشتغلت بالكتابة والرد وأرجأت الكتابة . وأكتب اليك الآن لآحدثك عن الزيارة الاخيرة لأبي القاسم . فاعلم قبل كل شيء أن حاله يتحسن من آن لآن . وقد حدثته وحدثني عنك طويلا وأطلعني على رسالة لأبي شادي يقول له فيها انه مستعد لبذل معونته اذا ما أراد طبع ديوانه بمصر . كما أنه مستعد لبذل كل مساعدة اذا ما أراد طبع الديوان في مطبعة « أبولو » ولكنه لاحظ له شيئا وهو كثرة نفقات التصدير خصوصا في هاته الأوقات التي كسدت فيها سوق الأدب في مصر ، وأنه - يعني الدكتور - ليطلع كتبه فلا تعود لجيبه حتى النفقات .

وعلى كل سواء أراد الشابي طبع ديوانه بمصر أم بغيرها من الاقطار العربية فان أبا شادي يعرض عليه كتابة مقدمة « لاغاني الحياة » وهذا ما تطرب له ولا شك . وأطرب له أنا أيضا فقد تطوع دون طلب أو رجاء . ويرى الشابي أن لا مانع من أن يشفع مقدمة أبي شادي بأخرى له .

فالي العمل اذن يا صديقي فاني لا أرى مانعا أنا أيضا .

وستطالع بعدد « يونيو » من « أبولو » اعلانا عن اغاني الحياة .

وكانت أحاديثي مع الشابي هي أحاديثي في كل وقت وآن رددنا الحسرة على ركود الادب في هاته البلاد أسفنا لمصائب الدهر ومصائب الحياة . ذكرنا الاصدقاء وذكرنا كل شيء نذكره والسلام .

وفارقتة على ان ارجع اليه يوم 21 يوليو - ولكني لم ارجع للاسباب التي

(*) حوالجانفي 1934 - ويذكر خلال الرسالة :

(1) 21 يوليو لزيارة الشابي .

(2) تاريخ نشر الاعلان عن ديوان الشابي بعدد يوليو من أبولو - ولا شك أن البشروش يعني يناير - وبالرجوع الى مجموعة أبولو وجدت الاعلان المتحدث عنه في عدد يناير 1934 .

أرجأت الكتابة اليك لاجلها وسأزوره يوم الجمعة أو يوم الأحد أن شاء الله .

وماذا ترانى محدثك بعد هذا .

لقد رجوتك أن ترسل الى كلمتى عن « الادب القرطاجنى » ولما تفعل وانى الآن بصدد الكتابة الى « الزمان » ولست أعلم اذا كان يتسع لما أكتب فان نشر محاضرة العبيدى ثم المرساوى ربما لا يترك له متسعاً يهبه . . . يهبه أى نعم يا صديقى - ليس أكرم عند الاديب من أن تمنحه صحيفة فضاء للكتابة والتحرير . . . أهاته بلاد للاديب ؟ وا أسفاه على بلاد يقدم فيها الاديب عصارة فكره ومهجة نفسه ولا يجد فيها فضاء للتقديم الا بضمن الشكر و . . .

والإفارقة ؟ هل قرأته ؟ سأعمل برأيك فى ترجمة بعض فصوله . وانى لارجو أن تحدثنى عنه عند الانتهاء من مطالعته وما عساها تصلح ترجمة بعض فصوله اذا هى لا تنتشر وتذاع فى الناس . انما الأدب التونسى اذا عمل فانما لارضاء وأزواء ظمأ الى العمل والسلام .

لقت انتهيت قبل العيد من ترجمة خطاب عن الاسلوب للعالم الفرنسى « بيغون » وارسلت الى الاخ الشابى أول جزء منه وسأرسل اليه تتمته قريباً وهو خطاب لا يمتاز بأسلوبه فاسلوبه علمى لا حياة فيه ولكنه يمتاز بحقائق ويمتاز بفهم واستعراض صادق للاساس الذى يجب أن يشاد عليه أسلوب الاديب فى الكتابة وربما أرسلت لك شيئاً منه ؟ وأنت قد طالعت فى الفرنسية ولا شك ، ويكفى أن أقول لك يا صديقى : ان هذا الخطاب كان قرآن «فلوبير» ذلك الجبار العتيد .

وابن الطبيعة ؟ هى رواية ترجمها عن الروسية ابراهيم عبد القادر المازنى . هل قرأتها . هى رواية بديعة حقاً . وبديعة الى حد بعيد . واذا كنت لم تقرأها فبادر الى اقتنائها والاطلاع عليها فانها من الأدب العالى الذى لا يقرأه كل الناس . وقد كنا نقرأ منذ أيام والشابى بعض فصولها والشابى معجب بها كثيراً .

وبعد مطالعتك لها تتبين كم كان المازنى متأثراً بروحها وهو يكتب قصته ابراهيم الكاتب وتقرأها وتشكر للمؤلف روحه وللمازنى أسلوبه الشعري الرائع . اى نعم فان أسلوب المازنى رائع بقوته ورقته ودقته .
صديقى :

أودعك الآن . عقارب الساعة جاوزت الحادية عشرة من الليل وجسمى مرهق . وانى ما كتبت لك هذا الا بعقل فاتر وذهن كليل فدعنى أنام .

تحياتى : محمد البشروشى

المرحلة الثانية عشرة

نقطة في 15 فيفري 1934

أخي الأعز ،

وصلتني رسالتك منذ أربعة عشرة يوما ، وانتظرت رسالتك المطولة التي وعدت بها فلم تأتي . ولم يقعدني انتظارها فقط عن الكتابة اليك بل ان ما يحيط بي من دواعي السأم والملالة وما يوجد عندي من الاعمال وما أعانيه من داء سوء الهضم هذه كلها أسباب أقعدتني عن الكتابة اليك وكتابة رسالة أمر حين لا تعب فيه ولا ارهاق ولكني مثلك لست أدري لماذا كلما اردت أخذ القلم ضعفت وزهدت في القلم . أضعفت عن كتابة رسالة ؟ بلى . هذا أنا يا صديقي . واكتب اليك الآن لان واجب الصداقة يفرض على ذلك فرضا ولولا هذا الواجب لاثرت الراحة ، أي نعم الراحة . وای مكدود لا يتطلب الراحة . ولكنه حين على الانسان من أجل صديق مثلك ان يطرد الراحة ويطلقها .

وما تراني محدثك به ؟

لقد زرت أبا القاسم يوم الاحد الماضي فاذا هو ما زال يعاني ولما يفارق بيته وسريره وأعلمني أنه كتب لك كلمة لا تروى ظمأى لانها قصيرة مختزلة ولكنك تعذره فانه ما كان يستطيع الكتابة لغيرك وأعلمني أيضا بأنه كتب الى أبي شادي وأرسل له نشيد الجبار - وجوابا على رسالة ثانية من أبي شادي يشكو له فيها ما يلقاه في مصر من الجحود ومن مقاومة الصحافة لأبولو ، ويستفسره فيها أيضا عما قر عليه رأيه في مسألة طبع ديوان « من أغاني الحياة » فاجابه بأنه عزم على طبع ديوانه بمطبعة « أبولو » وبأن مرضه الشديد أقعده عن نسخه فانه - أي الشابى - متى استرجع قواه عمل لنسخه وارساله اليه يعنى الى أبي شادي لطبعه .

وكتبت اليك في رسالة ماضية أن أبا شادي يلاحظ أن نفقات الطباعة في مصر باهظة ، خصوصا نفقات التصدير ولم تفهم ما أعني بكلمة التصدير فالتصدير معناه التوريد ونفقات التصدير هي نفقات نقل الكتب من بلاد الى أخرى أعني من مصر الى تونس، وأجابه الشابى انه ما اختار سبيل الادب الا وقد هانت عنده كل تضحية وإرتخص عنده كل غال .

وهكذا يخدم الأدب في هاته البلاد المصفدة الذليلة .

شيء آخر .

اتصل الشابى برسالة من دار الهلال ترجوه أن يوافيها بقصائد له قصد النشر بمجلة « الهلال » وسيرسل لها ذلك قريبا

اتصل الشابى برسالة من دار الهلال ترجوه أن يوافيها بقصائد له قصد النشر بمجلة « الهلال » وسيرسل لها ذلك قريبا .

وفى رسالة الشابى الاخيرة اليك - هل حدثك عن جلال ؟ اذا كان لم يحدثك وكنت لا تعرف من هذا جلال « فاعلم أنه ابن له جديد ولد في هاته الايام الاخيرة فالشابى الآن اب لعائلة . قلت له يوماً ان زواجه جنائية فتنهد وقال : وكيف لا يكون جنائية ؟ ولكن اذا علمت ما يحيط به وهو فى قريته من عادات جائرة علمت أنها جنائية الوسط اكثر مما هى جنائية الشابى . واذا كان للشابى ذنب فهو ضعفه واستسلامه لهذا الوسط القبى . فبقدر ما تمهده فيه من تمرد ونزوع الى الاستقلال بقدر ما تراه منكشأ خاضعا يأتى أمره يصادم «نفسية القرية» واذا فر مما فى هاته النفسية من بلاء فانما يفر الى الغاب والغاب على خطوات منه او الى الصحراء والصحراء تحيط به وتشمله :

واذبت الأسى فى جمال الوجود ودحوت الفواد واحة للنشيد

هكذا يذيب اساه فى الغاب والصحراء وجمال الوجود . وأبولو - عدد يناير - لقد قرأت فيه باعجاب مقالاتك الثانية عن الرومانتيسم فى الادب الفرنسى وانى لا ستزيدك واستزيدك من أسلوبك العذب اى أسلوبك العذب يا أخى . فقوتك فى العربية تنمو وتشتد مع الايام واحمدك هاته العناية التى تبذلها لصقل الاسلوب . فالمثال أو أى أثر هو عندى روح وموسيقى واسلوب ، فهاته الاجزاء الثلاثة يجب أن تكون وحدة تمشى فى تناسق وتمضى الى نفس القارى لتنفذ اليها وتمتلكها ، وقد وفقت أنت الى هاته الوحدة فهنيئا .

وفلوبيير ؟ لست اريد أن أجادلك الآن . فكتاب كهذا لا يتسع للكلام عن فلوبيير . ولكن لتنتظر فانى ربما كتبت عنه فى « الزمان » .

غدا اكتب الى الزمان « بكلمة عن القصة والتجرد بها » .

أودعك الآن منتظرا رسالتك فالمرجو ان لا تطيل انتظارى .

المراتة الثالثة عشرة

نظرة في 25 فيفري 1934

سيدي الأخي .

تسألني في رسالتك الاخيرة اذا كان الشابي يستطيع القراءة لتكتب اليه .
وعجيب أن تسألني مثل هذا السؤال فقد كنت أعلمتك بأنه يجب عليك .
وأنت صديقه الوفي الذي لا يجد الانسان أمثاله كل حين . أن تكتب اليه
عساك تخفف ما يلقاه من ألم بالغبرة الروحية . وتقاعست عن الكتابة اذا
فلتسمح لي أن ألومك على هذا التقاعس .

لقد قصرت ويجب أن تعترف بذلك وعساك تتدارك ما فات فاكذب اليه .
فرسالة منك اليه هي هزة تنسيه ما يجده من هاته الحياة الجاحدة ، الضنينة .
وما يعانيه من أيامه المتشابهة المملة .

وتتطلع الى أخباره فاعلم أنه لا جديد عنده . وان حالته هي هي كما أعلمتك
بها في رسالتي الماضية . وقد علمت أخيرا بأنه عازم على الذهاب الى الحمامة
وهي أعذب مناخا وأنفعه من بلاد الجريد . وقد كتبت اليه ليعلمني متى عزم على
الانتقال فلما يجب . واعلم أن ما يعانيه هو السبب في هذا السكوت
فاعذره . وسأكتب اليه هاته الليلة وسأكتب له ما وجدت وقتا للكتابة .

ومضت على مدة الآن ثم أزره خلالها لاني كنت طيلة هاته المدة كالذي حكم
عليه بالاشغال الشاقة . مكدود البدن . مرهق الاعصاب لا أتذوق شيئا أو

تهتز نفسي لكل ما يجرى حولي ويطيب بي في هذه الحياة واعترف أنه تقصير
عن واجب الصداقة ولست أدري اذا كنت أستطيع الاعتذار عن هذا التقصير ؟

ان كتاب « ابن الطبيعة » الذي رجوتني ارساله اليك لا أملكه وهو عند
الاخ الشابي استعاره من أحد أصدقائه . وقد أعلمته برغبتك فاذا كان لم
يرسله اليك فانما ذلك لانه لا يستطيع مزايلة الفراش والذهاب الى
ادارة البريد .

واعلمتني بأن مقال « الأدب التونسي » لم تجده بين أوراقك ولم تتذكر
أين وضعته فاعلم أن لي مسودا منه وان كان مشوها وسأعمل لتلقيحه فلا
تتعب نفسك اذن في التفتيش عنه .

قلت : قرأت في « الزمان » مقالك عن النحت والتصوير فلم يقنعني ما
ذهبت اليه من النظريات لان الزركشة العربية لها شخصية على كل حال ؟ ولم
أنكر أنا هاته الشخصية أو أنكرت جمالها . وعلى كل فالمرجو أن توضح الى
رأيك في هاته المسألة في رسالة اذا شئت أو بين أعمدة « الزمان » ولدى
رسالة من الصديق بلقاسم منذ السنة الفارطة حاورني فيها عن النحت
والتصوير وبسط لي رأيه فيها وسأستأذنه في نشرها .

أعمل الآن لترجمة بعض فصول من كتاب الافارقة وبدأت بأعصر الادب
التونسي قبل الاسلام .

تحياتي وأشواقى . المخلص : محمد البشروش

سأزور الصديق الشابي يوم الجمعة الآتية ان شاء الله .

المرحلة الرابعة عشرة

نقطة في 4 مارس 1934

• سيدى الأخ

عدت الشابى فى صباح يوم الجمعة الماضية كما أعلمتك بذلك فى رسالتى الماضية وقضيت معه ما ينيف عن الخمس ساعات وهو لما يزابل بيته • يشكو الآن من ضعفه من المشى حتى أنه لا يقدر أن تتجاوز خطواته السبعة أو الثمانية دون أن يتعب •

هل كتبت اليه ؟

لما يتصل منك برسالة الى حد هاته الساعة بل أعلمنى بأنه اتصل بواحدة موجزة • لم يتصل بأبولو فبراير ولا بديوان الينبوع الى الآن هذه هى حالته وهذا كل ما عنده من الاخبار •

تحياتى اليك : محمد البشروش

ملاحظة :

- كلفنى الشابى بأن أبلغك اعتذاره عن عجزه عن الكتابة اليك •
لا جديد عندى كل شىء متشابه انتظر رسالتك •
- كلفنى بأن أرسل للدكتور الطاهر الحميرى كتاب الخيال الشعري ومنتخبات من شعره وسأفعل ذلك غدا ان شاء الله ، اليوم يوم أحد
• ادارة البريد موصودة الابواب •

محمد البشروش

الرسالة الخامسة عشرة

قصة الجمعة في 9 مارس 1934

عزيزى الاخ .

علمت من بعض الزملاء هنا أنك انتقلت الى بلد قربة وأتساءل الآن ما الداعي الى هذا التنقل الفجائي الذى ما كان فى الحسبان وعلى كل فلست أعلم اذا كنت تسر الآن بهذا التنقل أما ما يخصنى فانى مسرور به لانه سيتيح لك الآن زيارتى متى كنت بدار شعبان وهى « زيارات » لا تكلفك أكثر من القاء عصا التسيار حيناً وأنت فى طريقك الى القيروان .

وأحدثك وبماذا أحدثك ؟ نعمتى ستكون الحديث فقد ملات نفسى وسدت أمام عيشى كل فج ؛ فصحتى متقهقرة ، وسعادتى مدبرة وسأصبح بعد حين رمزاً للشقاء والالم ، وربما كانت الجهة التى أنا بها الآن هى مصدر الشر ومنبع البلاء . ولست أطلب من الله الا ان ينقلنى منها وقريباً يا صديقى . آه مما القاه وما أعانيه . وويح هذا القلب مما يعترضه من العقبات والصدمات ويظل يحيا ويظل يدفع ويقاوم .

أشكو ، والشكاية ضعف ؟ أليس الاولى والواجب أن نتابع السير صامتين فى الطريق الذى اختارته الحياة . واذا كانت قد اختارت لنا العذاب أليس الاولى أن نتقبل هذا العذاب . كم يعجبني قول فينى .

Crier, gémir, pleurer est également lâche

نعم الشكاية والبكاء مزرية بالرجولة ، مزرية بالإنسان فلنتألم كما تريد الحياة .

هذه وظيفتنا فى الحياة يا صديقى . ولنعلم أن الالم نعمة لا تجود بها السماء على كل أحد . بالا لم نلج آفاقاً ما كنا نلجها ، ونفهم الحياة كما يجب أن نفهمها ونحاسب نفوسنا ، ماذا أفادنا الالم فاذا فى نفوسنا قوة وصلابة واذا بنا نظرى الالم ونثنى عليه .

وأطريه أنا المعنى المكدود وأتألم وأصبر . . . لست عن الصبر منثنياً أبداً . . .

هذه كلمتى اليك، خطرت وأنا بمقهى، كتبتك لك وسط الضجيج وهى بخطها تنبئك عما اجتازه فى هاته الساعة من أزمة نفسية متمكنة من الفؤاد .
فلتغض النظر عما فيها من عيب ولتتجاوز عما بها من نقص قبيح .

سلامى : محمد البشروش

حالة الشابى كما أعلمتك بها فى الرسالة الاخيرة .

المرحلة السادسة عشرة

أخى :

هل قرأت « فى الصيف » كنت أقلب صفحاته وأقرأ منه فصولا فى غير تسلسل ولا نظام ورأيت من خلال ما قرأت روحا تحيا فى فرنسا وفى باريس ، روحا تلتذ وتنعم وتجد فى تلك البلاد ما تتطلبه من ضروب الرغبات وتباين الشهوات . وهى روح ليست ككل روح . روح حساسة مرهفة تتحرك منها الاوتار لآخى زنين وأبعد صوت . وانى لاحمد يا صديقى لطفه حسين هذا الاسلوب الطيع السهل الذى يمضى مع العواطف حرا طليقا . حادا تارة ومديدا مستسلما أخرى . وكنت فى أيام ماضية . أنا والصديق الشابى نتحدث عن أسلوب طه حسين فقال الصديق انه - أى طه حسين - منذ زایل التدريس أخذت شخصيته تظهر يوما بعد يوم . فهو رجل خلق للصحافة والأدب ، رجل خلق للاحساس والشعور ، لا للتفكير والتعليم . وصدق الصديق . فانك اذ تقرأه « فى الصيف » أو تقرأه فى فصوله التى تنشرها الرسالة ، تقرأ رجلا ضربت بين أمسه ويومه الحجب والاسداف ، وتقرأه الآن وكلك شعور لذيذ وتقرأه فتمضى معه بنفسك وكل شىء يتحرك منك .

هذه خاطرة سطرتها لك . فماذا بعدها !

أرسلت اليك الى قرينة صحيفة « تونس الادبية والفنية » فالمرجو قراءتها ثم ارسالها الى الصديق الشابى . والكتابة عن أدبائنا التونسيين ؟ تسألنى لماذا لا اكتب عنهم وبينهم من يستحق الاهتمام ؟ وسأكتب عنهم يا صديقى فى مجلة « أبولو » ان شاء الله - فقد طلب أبو شادى ذلك من الشابى وكلفنى الشابى بالقيام بها . والقيام بها عبء . فلست ادرى اذا كان لنا أدباء جديرون بالدرس والكتابة ؟ واذا كنت سأكتب فسأكتب لانهم يعتبرون خطوات الادب التونسى نحو الكمال ، لا لانهم أدباء جديرون بالدرس والفهم . ولو أنهم كانوا جديرين بذلك فهى جدارة يفرضها الاحساس القومى ولا تتجاوز الادب التونسى والكتابة عنهم فى « أبولو » بالعربية . وربما كتبت عنهم بالفرنسية اما الى حد هاته الساعة فانى أترك عبء القيام بها لك فهل أنت فاعل ؟ لست ادرى ولكنى منتظر .

وعدتني بالكتابة الى في سوسة والمدن التي تزورها . وانتظرت عبثا . أين الوعد؟ إسراف في المواعيد؟ ما لنفوسنا تسرف؟ هذه آخر رسالة كتبها لك من نابل - في هاته العطلة . وهي الثالثة لقد أمطرتك أليس كذلك؟ ما لغيثك محتبس هيه « كل أوقات الفراغ مملوءة بالاصحاب والاحاديث . . . والضحك المتواصل » هكذا تقول وهذا كله سبب حبس غيثك أناني أنت بلي(36) وأنانية تتحدى كل أنانية . ولا يسعني الا ان أعطف على هاته الانانية لانها بلسم لروحك التي ازهقتها الحوادث واتعبتها المشاغبات . واعلم انك بحاجة اليها . فلتتحدث مع اصحابك ولتواصل الضحك ما تشاء أرجوك في الرسالة الآتية ان تحدثني عما رأيته وشاهدته في هاته الرحلة وما هي الاشياء التي استرعت فؤادك واستلقتت نظرك . أمسك القلم الآن على أمل اللقاء في القريب . سلامي .

محمد البشروشي

ملاحظة :

هاته أيام جميلة آمنة ودبعة تقضت بموطني : عطف كريم لا ينضب أو يجحد . وأراني من الغد أرجع الى العمل (37) واقطع جبل الساعات الحبيبة واستقبل اياما ما فكرت فيها الا واسفت واستقبلها صبورا، وماذا استطيع تلقاءها غير الصبر؟ آه ياخي هكذا الحياة . . . فلننزل على أمر الحياة .

الرمانة السابعة عشرة

نابل في 19 جويلية 1934

صديقي الأخ

ان الكسل الذي استعبد نفسي منذ بداية جويلية هو الذي أقعدني عن الكتابة اليك . وأقعدني عن الكتابة اليك . وأقعدني عن نسخ كلمتي في لصوصية الشعر « للزمان » ولست أدري اذا كان سيمتد هذا الاستعباد فهو مؤلم ككل استعباد . واني لاشعر في هاته المدة التي ابتعدت فيها عن الكتب والدفاتر اني أنأى وأبتعد عن حياة مشوقة تفيض بالضياء رغم ما بها من التعب والعناء .

وكتبت الى الشابى منذ يومين بعد أن صمت عنه زمنا مديدا واعتذرت له عن هذا العقوق ولعلك انت عاق مثلى تعتذر لصديقك فاني لا أشك في أن الكسل وانفتور وحياة القيروان - وبالله من حياة القيروان - هي فناء لنفسك واستعباد .

وتتطلع الى معرفة حياتي في هذا الصيف . اذا فاعلم اني أقضى صباحي بنابل والقيلولة والمساء بالشاطيء والليل بدار شعبان أرافق الاصحاب ولا أحاديث الا فيما لا يتصل بالادب أو يمت اليه .

واكتب لك هذا لآكر راجعا الى زمن الادب واخولك محادثا عن الادب واخباره . وأبدأ بكلمتي عن « الادب التونسي » فقد نشرتها جريدة « الزمان » وعلق عليها الاستاذ بيرم . واتطلع الى معرفة موقفك وهل أنت تشارك وتساهم في بسط رأيك في هاته المسألة الهامة التي يجب أن تتصافر أقلام على بحثها ومناقشتها وأرجو أن تهادن الكسل فتكتب وتساهم وترضى المنتظرين وهم كثيرون يا صديقي . الينبوع قد أرسلته الى أبي القاسم .

في عزمي الآن كتابة دراسة عن الشاعر البانس سكليزي . واكتبها للظلام أنت تعلم السبب . وهل لآثارنا غير الظلام . العقيد الذي كنت حدثتك عنه ونحن على الشاطيء قد تم . وتهنئني فاشكر لك احساسك الاخوى . تحياتي الآن وتحيات والدى .

محمد البشروش

الرسالة الثامنة عشرة

نابل في 30 جويلية 1934

عزيزى الأخ

وصاتنى رسالتك وعلمت انك كنت تقاسم فى التحدث عن الادب التونسى بترجمة كلمة لجورج ديهميل ، لولا الحرارة التى تضاعفت فى هاته الايام بصورة لم تعهد . وآه من الحر وقساوة الطقس فى هاته الايام يا أخى ، فلقد أرهقنى ، فما صرت أنام الليل وارهق جسمى المكدود وصحتى المتداعية .

والعجب مع هذا ، انى لا انى عن الاشتغال بالادب ولا استطيع ان افعد عن الكتابة فلقد اتممت دراسة عن الشاعر التونسى سكاليزى ولما انته بعد من تنقيح اسلوبها وكتبتها كعادتى فى كتابة كل شىء للدياجير والظلام (39) واسائل نفسى ما فائدة الكتابة والتعلق بالادب وقد أبت منه بالحياة والافلاس ، ورجعت بالعناء فاعلم انى اكتب لأرضى ظمأ . لا استطيع معه الا الضعف يا صديقى وكنت ضعيفا وهو ضعف اودى بصحتى وقضى على سعادتى فاصبحت شابا لا يعزف فيه النور او يرقص حواليه الضياء ، شابا قاتما مديدا ، اناخ بكلكلى على نفسى فارهقها وامعن فى الارهاق

وترانى اليوم اجتاز من العواطف بين النعمة والاستسلام فلا اجتاز العناء فكان العناء يابى مهادنتى وهو عناء ينزل على فؤاد كل أديب

يا كتنى اشكو ولا اغضب ما انت من يسمع او يعتب
يا كتنى أورثتنى حسرة هيهات لا تنسى ولا تذهب

وسأصبر كما يصبر كل أديب ، وسأتابع الكتابة فى الزمان وقد نشرت رسالتى عن « لصوصية الشعر » وارجو أن تكون قد ارسلت رسالتك التى سأتابعها بكلمتى عنها .

اما رسالة الصديق الشابى فقد وعدنى بارسالها فلننتظر . وحسبى الآن ما كتبت اليك فالى رسالة اخرى والسلام اليك من والدى ومن أخيك .

محمد البشروش

المراتة التاسعة عشرة

نابل يوم الجمعة في 10 أوت 1934

أخي الأعز

أكتب اليك الآن وقد استرحت قليلا من أعمال كثيرة . فلقد قاربت الدار
الانتهاء وهذا ما أحمد الله عليه سبحانه وتعالى . فبعد ثلاثة أو أربعة أيام نكون
قد انتهينا من البناء . وتكون الدار مستعدة كل الاستعداد للاسكان .
اعلمك بأني لن أرجع الآن الى الجريد حيث اعلمتني الادارة بنقلتي الى
الكريب Krib وهو مكان قريب من بلد تبرسق ويبعد عن الحاضرة
مسير ساعتين . وتعلم اني لا أكون سعيدا كل السعادة بهذا المركز ولكن ماذا
تريد القناعة تحتهم . وتسميتي بهذا المركز كمكلف بادارة المدرسة التي تضم
أكثر من قسم واحد وتبين من هذا أن السكنى ستكون بالمدرسة . وهذا ما
يخفف وقع هاته التسمية .

أهنيك بتسميتك في بلد رادس . فالآن قد تحققت أمنيتك ويمكنك أن
تتفرغ الآن الى الاحلام والشعر والادب . كما سأتفرغ أنا للواجب والبلاد .
وأبشرك بأن لك زميلا برادس هو من زعماء الادب الفرنسي بافريقيا ، أعني
به (Louis Groisard) الشاعر المحبوب وصاحب ديوان « الالحان الافريقية »
(Harmonies Africaines) وقصة القبلة على العيون (Le baiser sur les yeux)
وصاحب المقالات والتأليف العديدة . فمدرسة رادس تضم الآن - أديبين
كبيرين - أحدهما للادب التونسي العربي والآخر للادب التونسي الفرنسي .
أهنيكما ببعضكما واهني المدرسة بكما . وبرادس أيضا أديب كبير أحرز منذ
ثلاث سنوات جائزة غونكور (Goncourt) وشغل كتابة النوادي الافرنسية
حينا والصحافة أيضا وأثنى عليه كبار كتاب فرانسأ ثناء لا اقتصاد فيه
ولا اسراف . . . هذا الاديب هو (Henri Fauconnier) وكتابه هو (Malaisie)
اذا قرأته قرأت صفحات من اللذاعة والشعر .

لقد كتب الى الشابي وأرسل الى بمقاله عن السرقات الشعرية صحته
تتحسن . زوجته بالملوى تتداوى وهو ينوي القدوم الى الحاضرة في أواخر أوت .
وصلني «أبولو» وقرأت قصيد أغنية «الجبار» أو هكذا غنى «برميسوس» .
ما رأيك ؟ قصيد بديع قوى . قل ما شئت من الصفات . لن تبالغ أبدا .
أف الآن لأودعك . بلغ سلامي الى والدك والى من يلوذ بك .

تحياتي : محمد البشروشي

ملاحظة :

لقد رجوتني « بكتم السر » في رسالتك الماضية . . . ما فهمت
هذا السر الذي تشير اليه . على كل أنا محتفظ لنفسي فقط بكل ما
في رسائلك . أرجو كشف هذا السر .

المرآة العسرون

بدون تاريخ . عقب وفاة الشابي
حمدا لله وان زمانا بما يلجج القلوب

يا عزيزى

لا أستطيع ان اصف لك ما استولى على من الكمد والاسى عندما قرأت بجريدة « الزهرة » نعى صديق روى وأخى أبى القاسم الشابي لقد والله انطلقت عيني دموعا تترى وتتابع ، وكنت فى جمع من الناس شاهدوا الدمع ينساب على خدى ومنديلى يبتل فسألونى الخبر فقلت قد مات صديقى من الاصدقاء الذين لا يظفر بهم الانسان كل حين . مات نابغة من الذين لا يوجد (يتكرم بهم الدهر الا بعد الاجيال ، فعزوني وجدير أنا بالتعزية يا أخى ودموعى الآن وأنا أكتب اليك هذا تتابع منحدره الى خدى لأنى احدثك عن فجيرة قلبى ولان ذكر الشابي يملأ فجاج روى . أى دموعى يا أخى هاته الدموع التى عهدتها عصية هى الآن تنحدر فى صمت صاغرة طيبة ، فالحطب جلل والفجيرة لا يتحملها الفؤاد . . . فلنبك فالبكاء كل ما أستطيع وأنا منفى هنا فى هاته القرية الضائعة بين الجبال . . .

أيموت صديقى ، ويموت أخى ولا أستطيع حتى أن امشى خلف نعشه وان أودعه الى مقره الاخير ؟ أيا أبى القاسم ؟ روحك السمحة تعلم ان ليس بى جحود لصداقتك واخوتك ، فكل شىء هو هين عندى وانى لآتى كل شىء من اجلك ولكن هى الحياة هاته الحياة التى صرعتك واقتصتك عن قلوبنا هى التى تصدنى عن اداء واجب محترم لصديق مثلك . ففى ذمة الله الآن يا أخى ، اختارك الله لجواره فما تركت الا قلوبا مكلومة وافئدة مقروحة ونفوسا وآلهة ، ولتثق روحك بان تعلقنا بك ، وان ذكراك فى قلوبنا ستظل باقية الى ان يجمعنا الله عنده فكلنا بك لاحقون ، ونذكرك فى هاته الحياة فنذكر الرجولة ونذكر المروءة ، ونذكر النبوغ والفضيلة ، ونبكىك لأن فراغا فى نفوسنا اليما تركته وما يسده غيرك .

أى عزيزى محمد :

زرته وأنا فى طريقى الى الكريب فقضيت معه برهة قصيرة وما سمح لى بالانصراف الا بعد ان وعدته بزيارته فى أوائل أكتوبر ، وكنت استعد

للذهاب اليه فاذا بي افاجا ويالهول المصاب كذلك يقضى ببيت من
المستشفى بعيدا عن كل قلب يخفق له بالمحبة والمطف كذلك يشقى
صديقى فى حياته وحتى فى آخر لحظة من حياته ؟

ومن لأمه يا صديقى ؟ ومن لمحمد ومن لجلال واني لا اذكر هذين الطفلين
الا والنار تشتعل بداخلي ، كان بالامس يقول : متعة الحياة الدنيا تبتدىء مع
الاطفال وكنا ليلة ، وولده الصادق يعبت بشعرى وثيابى ويصفع وجهى من
آن لآن فنظر اليه نظرة عميقة خالصة الكتابة وقال ما عساه يخبىء لك الغد يا
ولدى ، اشقاء كشقاء أبيك ؟ ومن لأخوته ومن لأخته ومن لزوجه ؟ الله يا أخى :

ويشاء القدر ان يفجمنى فى الشبابى فى الوقت الذى تكون فيه جدتى تعانى
من الداء امره فهمى ما زالت تعانى وأنا فى هذا المنفى أعانى ايضا
ويقول والدى انها قد بلغ بها الضعف الى درجة لا تكاد تلحظها وهى فى
فراشها ، كذلك المصائب تتتابع وتترى الا رحمة لقلبي ؟

ففى هاته السنة المدرسية استقبل العمل كليل ، وترانى الى حد هاته الساعة
وما عملت عملا غير الدخول الى القسم والخروج امشى غائب الذهن شارد
الخاطر ، وهذا هو الذى أقعدنى عن الكتابة حتى اليك فالقلم وكل
شئ حولى هو يزيد فى المي ويدكى عنائى :

وستقام حفلة تأبين للصديق سأعمل كل جهدى لحضورها ، هذا وفى نيتى
كتابة رسالة عن الصديق ارجو ان نتقاسم العمل لابرازها علنا نؤدى
واجب الصداقة المحترمة

محمد البشروشى

السنة الأخيرة من حياة الشابي

رجع الشابي الى توزر في أواخر نوفمبر من سنة 1933 فوجد في انتظاره مکتوبا من الدكتور أبي شادي يرجوه ان يكتب تصديرا لديوانه (الينبوع) فكتب التصدير وارسله اليه وطلع علينا بعد ذلك (ينبوع) أبي شادي مصدرا بقلم أبي القاسم وهو تصدير بديع يطالعنا بفهم الشابي للشعر ونظرة الشابي لشعر أبي شادي .

وقد اشتد على الصديق اثناء شهر رمضان من هاته السنة مرضه حتى الزمه الفراش واعجزه على السير فظل ما يقرب من الاربعتين يوما لا يفادر سريره . وكنت كثير التردد عليه في هاته الايام وكان رغم تعب لا يفتأ ، يتطلع الى اخبار اصدقائه ولا يفتأ يتحدث عن الادب وحرركه بتونس وعن آمال كنا نبنيها ونشيد صروحها فتهدم وكان يزيد في آلام مرضه انه لا يستطيع ان يزائل البيت الى الغاب القريب ، فمال الى ذات يوم وكنت اهون عليه الأمر واسليه ، مال الى وقال بمرارة :

حرمت حتى عطف الطبيعة وحنوها يا صديقي .

وما كاد يحس وطأة الألم حتى ذهب الى بلد الحامة (حامة توزر) لاعتماد طقسه وخفته بالنسبة لطقس بلاد الجريد وكتب الى منها يوم 34/4/24 :

« وبعد فان ذكراك يا صديقي أبدا حية في نفسي واقسم اني لم انسك » .
« منذ حللت الحامة . الى اليوم ، وفي كل يوم اعتزم الكتابة اليك ثم يصدني الكسل والحمول » .

ونفهم اسباب هذا الكسل وهذا الحمول ، فان صحته بعد المرض كانت احوج الى الزهد في كل شيء والى الراحة المطلقة . وقد زهد الشابي في كل شيء واقبل على الراحة المطلقة يقول :

« ليس لي من عمل الآن سوى لعب الكارطة والاستماع والمشاركة في الاحاديث التي اكثرها فارغ لا يجدي . وقد كنت وعدتني بالزيارة ولم تفعل

وفوت فرصا كثيرة ، لذلك وبقيت انتظر بلا جدوى . فوت فرصة « الباك »
وفوت عطلة يوم الاحد الاخيرة وقد وليته عطلة عاشوراء » .

وزرته بعد ذلك بأيام وكان نظام يومه فى الحامة ان يستيقظ بكرة ويخرج الى الغاب القريب حتى الضحى فيرجع الى القرية ويقضى أوقاته فى الأحاديث واللعب بالاوراق وفى المساء يجتمع مع معلمى المدرسة واعيان البلد ممن ينتسبون الى العلم ويمر الوقت فى الأحاديث والممازحة أحيانا وألاحظ ان هذا النوع من الحياة كان يمقته الشبابى ولكن العناية بصحته باغفال جميع الاعمال الفكرية هو الذى دفعه اليه .

وقد كان لاقامته بالحامة اثر طيب على صحته يقول فى الرسالة التى سبق ذكرها :

« أما أنا فصحتى اذا نظرت الى حالتى عند مرضى الاخير وعندما فارقتك
فهى احسن ولكنها ما زالت اقل مما كنت عليه قبل المرض ، وما زلت لا احتمل
السير ولا استطيعه الا على هون وراحة تتخلله » .

ورغم هذا كله فقد كان يفكر فى طبع ديوانه تفكيراً جدياً واراد جمع ما وقع
ترويجه من الاشتراكات فكتب الى يوم 1934/5/24 يقول :

« اننى الآن اريد ان اعرف ما وقع ترويجه من الاشتراكات حتى اقدم
الديوان للطبع » .

وكان ينوى طبع ديوانه بمصر لاتقان الطباعة فى مصر اتقانا يضمن له
اخراجة للناس فى المظهر الذى يناسبه . فكتب الى الدكتور أبى شادى فى
هذا الصدد واعلمنى بمكتوب مؤرخ فى 1934/7/24 بما يلى :

« الآن قاربت انجاز نسخ الديوان واننى انتظر الجواب من مصر . ولكن
بقيت بعض قصائد لم تنجز ونفسى الآن موصدة لا تتحرك بها اطياف الخيال
ولست ادرى ما سيكون الحال » .

ومن القصائد التى لم تنجز اذ ذاك قصيد (الغاب) انجزها على كل حال
قبل موته وترك لنا ديوانه وما اختار جمعه من اشعاره كاملاً غير منقوص ولم
يقع اقبال على الاشتراك فى الديوان وهذا نعلمه مما جاء فى مكتوبه هذا قال :

« لاحظت ان الصديق القرقرنى لم يجبك وهذا عين ما وقع لى مع اكثر
اصدقائى الذين طلبت منهم معاضدتى فى توزيع الاشتراك . بل ان كثيراً

منهم كاتبهم مرتين طالبا اعلامى بالنتيجة فلم يجيبونى ولو بحرف ، وهذا بعض انواع الذل والهوان التى يلقاها المؤلف التونسى فى هذا الشعب « ...

وثناء هاته المدة تحسنت صحته نوعا ما :

« صحتى الآن خير مما تركنتى عليه وقد عدلت عن مباشرة « الرياضة » ، واستعضت عنها بالاستحمام الشمسى واطن اننى ساقضى بالحامة شهرا آخر من الآن » .

الا انه اذا كانت صحته قد تحسنت فى اوائل هذا الصيف فقد اتعبه مرض زوجته وابنه الاصغر جلال :

« ان افكارى مبلبلة مضطربة . فان زوجتى مريضة من زمان وهى الآن تحت المعالجة كما ان جلالا مريض بعينيه مرضا اتعبه ولا ادري متى تهادننا احداث الزمان » ...

وقد وقعت معالجة زوجته وولده ببلد المتلوى وكان يقضى اوقاته : بين الحامة والمتلوى اين تعالج زوجتى الآن بمستشفاه هى وجلال « ابنى » ...

وكتب الى بتاريخ 1934/8/4 يقول :

« ان الحالة الصحية الآن خير من قبل واطن اننى افارق الحامة الى توزر بجملة العائلة بعد اسبوع » .

وكتب الى بتاريخ 1934/8/12 :

« اننى اليوم سأرجع الى توزر بعد غيبتى الطويلة عنها واحمد الله اننى ، ارجع اليها أحسن مما فارقتها وفى نيتى ان أزور العاصمة فى أواخر هذا الشهر أوت . ولا بد ان اعلمك بيوم زيارتى الى العاصمة » .

ولم يعلمنى بيوم قدومه الى العاصمة كما وعد ، ولكنى كنت مارا بالحاضرة فى يوم 27 سبتمبر من السنة نفسها فبلغنى ان مرضه اشتد عليه يوم قدومه فنصح له الطبيب بالاقامة فى اريانة ، وزرته فى مساء اليوم نفسه ودخلت عليه فوجدته يعانى الامرين رحمه الله وعلى صدره الثلج كما امر الطبيب .

واعلمنى انه كتب الى ولكن مكتوبه وصل الى نابل بعد ان غادرتها . والمسكن
الذى أقام به باريانة عدد 95 من بناية (فريوه) رقم 23 طريق جعفر .

وفارقتة بعد ان وعدته بالرجوع اليه قريبا ، ولكنه زاد اشتداد المرض
عليه بعدى فدخل المستشفى الافرنسى (I) ويموت اليوم التاسع من أكتوبر على
الساعة الرابعة صباحا ويبلغنى نعيه فى وقت كنت انوى السفر لزيارته
وهكذا انتهى اكبر شاعر عرفناه لتونس فى جميع عصورها . وهكذا انتهى
الشاعر الذى يخاطبه أبو شادى راثيا :

أبا القاسم الشابي ، أبا القاسم الشابي مكانك فى الأخرى مكانة أرباب

ودفن أبو القاسم الشابي فى مقبرة اسلافه على تخوم الصحراء التى كانت
تلذه ويضيق بها ذرعا .

محمد البشروش

الحمامات

(نشر بجريدة « الزمان » فى 16/II/1938)

(1) الصواب ان الشابي مات بالمستشفى الايطالى ، الذى دعى بعد الحرب الثانية باسم « مستشفى
التحرير » ، وسمى بعد الاستقلال باسم « مستشفى الدكتور نامر » . (الناشر) .

تطبيقات

- 1 - «فكرة تختمر» هذا هو العنوان الذي نشرت به جريدة النهضة في صفحتها الأولى الصادرة في 14 أبريل 1929 المقال الذي وجهته لها بعنوان دعوة الى تأسيس جمعية للشبان المسلمين بتونس . وكان لهذا المقال صدىه البعيد وكان موضوع تأييد من مختلف جهات القطر وفي الخارج وعلى اثره تأسست جمعية الشبان المسلمين بتونس وبقيت قائمة الذات مدة طويلة .
- 2 - الرسالة القيروانية - فيما أذكر - هي رسالة بعث بها المرجوم الشيخ العربي القروي الذي كان مبعدا اذذاك بالقيروان الى بعض الجرائد وهاجم فيها خصومه الزيتونيين من أبناء القيروان وقد زد عليه أحدهم ردودا عنيفة بجريدة النهضة ولما رفضت هاته الجريدة أن تنشر جواب الشيخ العربي على تلك الردود أصدر رسالة مطبوعة بمطبعة العرب بتونس سنة 1348 بعنوان « بيان للناس » . فكان لهاته الرسائل والردود رجة في الأوساط القيروانية .
- 3 - الكتاب هو الحيال الشعري عند العرب وهو في الأصل محاضرة ألقاها الشابي بالحدونية في فيفري 1929 ثم نشرها في كتاب مستقل (I) .
- 4 - أعمال الامتحان وهو امتحان الحقوق التونسية .
- 5 - المتعوب : هكذا وردت في نص الرسالة المطبوعة التي نشرت بمجلة « الأفكار » في عددها الأول الصادر في نوفمبر 1936 .
وليس لدى أصل هاته الرسالة لأراجعها عليه لأن صاحب امتياز مجلة الأفكار المسمى « حمودة قوجه » وعدني بارجاع الأصل الذي سلمته له ولكنه لم يرجعه لي رغم طلبي المكرر . ويحسن التنبيه هنا أن الرسالة المنشورة بمجلة الأفكار هي جزء من رسالة الشابي وقد نشرناها هنا كاملة .

(1) طبعت المحاضرة بكتاب مستقل في نفس السنة. وأعيد طبعها عام 1961 - كما هي - (الناسر).

- 6 - يلاحظ أن الرسالة مؤرخة من تونس بينما مضمون الكتاب يفيد أنه كتبها من توزر . ولاعجب في ذلك فالشابي كثير السهو وغير مدقق في التواريخ .
- 7 - الكلمات الواصلة لك صحيحة هذا : هو مقال « العبقرية » الذي نشر بالعدد الأول من مجلة العالم الصادر في جانفي 1930 .
- 8 - كلمتي في الكتاب . أي نقد كتاب الخيال الشعري عند العرب .
- 9 - هو الكلمة الأولى في نقد الخيال الشعري عند العرب وقد عرضت فيها لمذاهب الأدب الفرنسي وبالأخص للمذهب الرومانتيكي الذي يعده الشابي أرقى المذاهب الأدبية نشرت في العالم الأدبي السنة الأولى 1930 وفي كتاب « مع الشابي » ص : 6 .
- 10 - نبذة عن تولستوى نشرت بمجلة « العالم الأدبي » السنة الأولى 1930 .
- 11 - تكتب عن كتابي : يعني المقال الثاني الذي يشمل نقد الكتاب بالذات بعد أن وقع بسط مذاهب الأدب في المقال الأول نشر في العالم الأدبي السنة الأولى 1930 وفي كتاب « مع الشابي » ص : 19 .
- 12 - عن تولستوى : يعني القطعة الثانية من المقال وقد نشرت في مجلة العالم الأدبي السنة الأولى 1930 .
- 13 - ما كتبه أخيرا عن كتابك : هي القطعة الثانية في نقد كتاب الخيال الشعري وقد أشرنا إليها سابقا .
- 14 - ما كتبه محي الدين القليبي عن كتاب الخيال الشعري . انظر مجلة العالم الأدبي السنة الأولى 1930 .
- 15 - « الطائر المستمر » : لا أدري ما يعنى الشابي بهاته العبارة التي وضعها في الأصل بين الشناتر .
- 16 - تنقيص ساعات العربية : كانت ادارة المعارف - في نظام الحماية - تحتال لتنقيص أوقات تعليم اللغة العربية . فيبعد أن جعلت حصة العربية تسع ساعات أسبوعية أباحت لمديري المدارس أن يجعلوا هاته الحصة في القسم الأعلى خمس ساعات فقط .

- 17 - تأبين جبران : نشر في جريدة الزمان نوفمبر 1931 •
- 18 - البشروش كان يعمل بمليته (قرقره) وانتقل الى نفطة ابتداء من أكتوبر 1931 وبقي فيها الى ماى 1934 ثم الى الكريب ابتداء من أكتوبر 1934 •
- 19 - هي قصيدة ذكرى القيروان التى نشرت لأول مرة بجريدة « النهضة » (أبريل 1932) مع القصائد والخطب التى قيلت فى ذكرى القيروان وهى احتفال بهيج نظمتها الجمعية الحلدونية سنة 1350 هـ (مارس 1932) احتفاء بمرور ثلاثة عشر قرنا على تسييس مدينة القيروان وشارك فيه كل الشعراء والكتاب التونسيين والنخبة المثقفة ولكن السلطة المحلية منعت اقامة الحفلة العمومية فأقيمت فى دار أحد المواطنين القيروانيين .
ومما يذكر أن فى جملة من حضر هذا الحفل فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة والدكتور الماطرى وكانا يمثلان جريدة « صوت التونسي » التى كتبت وصفا لهاته الحفلة فى افتتاحية عددها الصادر فى 29 مارس 1932 بامضاء ابن الجزائر كما كتبت عن هاته الحفلة كل الجرائد والمجلات التونسية •
- 20 - عبد الخالق هو الاسم الذى كان يمضى به البشروش مقالاته فى أول اشتغاله بالأدب •
- 21 - مقال : « الشمس والقمر فى الشعر العربى » نشر بمجلة العالم الأدبى السنة الرابعة العدد 4 الصادر فى فيفري 1935 (بعد وفاة الشابى) •
- 22 - استفتاء مجلة « العالم الأدبى » عن الشعراء الثلاثة انظره فى مجلة العالم الأدبى السنة الثالثة العدد 21 الصادر فى 8 أوت 1932 •
- 23 - مقال الشعر فى تونس نشر فى مجلة العالم الأدبى السنة الثالثة العدد 22 الصادر فى 15 أوت 1932 كما نشر فى كتابنا : « مع الشابى » ص 35 •
- 24 - انتقاد الشابى لمقال الشعر فى تونس نشر فى جريدة الزمان أكتوبر 1932 كما نشر فى كتابنا « مع الشابى » ص 46 •
- 25 - مقال : « سفود من الرصاص » الذى انتصرت فيه للعقاد نشر بجريدة الزمان وقد كان له صدهاء فى تونس ومصر فقد رد على من أجله بعض الأدباء التونسيين ردا عنيفا واستشهد به العقاد فى مقال له مشهور

- نشره بجريدة « الجهاد » بعنوان « سماسرة الأدب » . وانظر في هائه
 الخصومة كتاب : « حياة الرافعي » لمحمد سعيد العريان ص : 203 .
 وفيه الإشارة الى المقال المذكور .
- 26 - الانتقاد على مقال : « سفود من رصاص » كتبه جلول ادريس ونشر في
 جريدة الزمان نوفمبر 1932 .
- 27 - راجع في « أبولو » مقال محمود الحولى بعنوان : « سماسرة الأدب »
 السنة الأولى العدد 8 أفريل 1933 .
- 28 - ذهن كذهن شكسبير : يقول شكسبير على لسان هملت :
 « الموت نوم ثم لا شيء » . نوم تستقر به من آلام القلب وآلاف
 الخطوب . . . الموت رقاد ، رقاد وقد تكون به أحلام . آها هذه عقدة
 المسألة . انما الخوف من تلك الأحلام التي قد تتخلل رقاد الموت بعد
 النجاة من آفات الحياة . . . الخ .
- هملت (الفصل الثاني) تعريب خليل مطران
- 29 - عقل كعقل المعرى : يذكر أبو العلاء الموت فيثمنه ولكنه يخشى ألا تكون
 فيه الراحة والطمأنينة اللتان أخطأهما في الحياة فيقول :
- ان كان نقلي عن الدنيا يكون الى خير وأرحب فانقلني على عجل
 وان علمت مآلي عند آخرتي شرا وأضيق . فانسا رب في الأجل**
- 30 - مقال زين العابدين السنوسي في الرد على مقال المنشور « بأولو »
 بعنوان « ابن رشيق : رأيه في الشعر والشاعر » نشر بالعدد الرابع
 من « أبولو » (سنة ثانية : ديسمبر 1933) .
- 31 - مقال « لامرتين » نشر « بأولو » السنة الثانية العدد 6 (فبراير 1934) .
- 32 - الوعد : هو زيارة الشابي بمصطافه بالمشروحة صيف 1933 .
- 33 - الرومنتسم في الأدب الفرنسي دراسة مطولة نشر الجزء الأول منها في
 « أبولو » السنة الثانية العدد 2 (أكتوبر 1933) والجزء الثاني بنفس
 السنة عدد 5 (يناير 1934) .
- 34 - الأفارقة هو كتاب « الأفارقة والوثنيون » لبول مونصو .
 (L. Monceaux : Les Africains, Les Païens).
- 35 - رسالة الشابي المشار اليها نشرها البشروش في العدد الأول من
 مجلته : « المباحث » (مارس 1938) .

- 36 - بلي : يستعمل البشروش هذا الحرف دون أن تكون الجملة الاستفهامية مسبوقة بنفى فيشتبه المعنى المراد : هل هو يقصد الايجاب أم النفي ؟ وللبشروش أوهام كثيرة في استعمال بعض الكلمات وصيغ المفردات ضربنا صفحا عن التنبيه عليها .
- 37 - الظاهر أن البشروش كان في اجازة قضاها ببلده دار شعبان بسبب المرض .
- 38 - كلمة البشروش عن الأدب التونسي المشار إليها نشرت بجريدة « الزمان » صيف 1934 . وهو جواب عن سؤال وجهته له هذا نصه : « هل ترى أنه يمكننا نحن التونسيين أن نرجع الى الأدب القرطاجنى لنفتش فيه عن روح جديدة لأدبنا التونسي الذى بقى يتعثر فى أذبال الأدب العربى دون أن يأتى بشىء يفوقه أو يقارنه . وهل هذا الأدب القرطاجنى القديم من القوة وبروز الشخصية الى الدرجة التى تجعله قادرا على تغذيتنا وامدادنا بالموضوعات الهامة كما استمد الغربيون نفحات من آدابهم وأساطيرهم القديمة وهل يمكننا أن نتز به كما يعتز المصريون بأدب الفراعنة . »
- وانظر دراساته عن الأدب التونسي قبل الإسلام بمجلة « العالم الادبى » السنة الرابعة .
- 39 - دراسة البشروش عن سكاليزى نشرت « بالعالم الأدبى » بعنوان : « سكاليزى المتشائم » بالعدد 3 الصادر فى 14 جانفى 1935 (السنة الرابعة) .



نثر الشَّابِي
ومواقف من عصره

نثر الشابي ومواقف من عصره

إعداد وتقديم
أبو القاسم محمد كرو

مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود
الباطين للإبداع الشعري



مؤسّسة جائزة عبد العزيز سعود
البايطين للإبداع الشعري

الطبعة الأولى، 1994

© جميع الحقوق محفوظة

لدار المغرب العربي - تونس

مقدمة

عرف أبو القاسم الشابي .. أول ما عرف بشعره الوجداني واشتهر عربياً وعالمياً كشاعر رومنسي عبقرى .. كما خلّب وأمتع نفوس وألباب القراء والنقاد بروائعه الخالدات .. من أمثال «إذا الشعب يوماً أراد الحياة» و «صلوات في هيكل الحب» و «نشيد الجبار» و «الصباح الجديد» .

أما الشابي الناثر والكاتب .. فلا يكاد يعرفه إلا قلة من النقاد والدارسين لأدبه والباحثين المختصين في دراسة إنتاجه وحياته .

وأكثر ما يعرف هؤلاء أيضاً .. كتابين له هما «الخيال الشعري عند العرب» و «مذكراته أو يومياته» .. وربما عدداً من رسائله وخاصة تلك المجموعة التي تبادلها مع صديقه وحميمه المرحوم محمد الحليوي .. وقد كان لنا شرف التقديم لها وطبعها ونشرها لأول مرة عام 1966 ولثاني مرة عام 1994 مع مجموعة أعماله الأخرى .

ومع أن هذه الآثار الثرية تمثل جانباً هاماً من أدبه الثري وكمية من الصفحات تعادل صفحات ديوانه بل وتزيد عليها . فإن الشابي لم يشتهر ولم يعرف على المستوى الأدبي العام ولدى عامة القراء والشباب إلا بكونه شاعراً رفيع الفن والمواهب الشعرية .

والغريب في أمر النقاد والدارسين - وأنا واحد منهم - أنهم أهملوا أو تغافلوا عن هذا الجانب المهم والكبير بل والأساسي من أدبه ، وتركزت كل دراساتهم - تقريباً - على شعره وديوانه الوحيد «أغاني الحياة» ولولا قلة نادرة تناولت آراءه في الخيال الشعري وبعض مواقفه الأدبية والوطنية في

رسائله ويوميته.. لما كان لثره من صدى أو مكانة عند معاصريه والأجيال التالية لهم.

ولعلّي من القلائل الذين خصوا بعض آثاره الثرية بمقالات أو محاضرات في مناسبات مختلفة، إذ كتبت بحثاً (محاضرة) عام 1966 عن «الشابي من خلال رسائله» نشر في تونس وطرابلس وبغداد بين سنوات 1968 و 1971.

كذلك كتبت أبحاثاً قصيرة عن مواقفه الوطنية ومناصرته للحركة النقابية الوطنية عام 1925 بزعامة الشهيد محمد علي الحامي (1894 - 1928) ولحركة تحرير المرأة التي قادها الشهيد الطاهر الحداد (1899 - 1935) ولموقفه من حركة التجديد الأدبي في تونس والبلاد العربية واعتباره الأدب العامي (الشعبي) أقوى وأصدق تعبيراً عن واقع الشعوب العربية من كثير من أدب الفصحاء الغارقين في الذاتية والسلفية والهاريين من قضايا الشعب وكفاحه وطموحه.

واليوم، وبهذه المناسبة الفريدة التي تحل فيها الذكرى الستون على وفاته (1934 - 1994).. ويُعاد النظر في ترتيب آثاره وجمعها وتقديمها من جديد.. فإنني لسعيد بأن أضيف جهداً آخر وعملاً جديداً من أعماله الأدبية العديدة عن الشابي وأدبه.. فأتشرف بأن أقدم للقراء وللدارسين بالخصوص معظم أعماله الثرية التي لم يسبق قط نشرها مجموعة في كتاب.. وإن سبق نشر بعض منها في فترات متباعدة بداية من عام 1928 حيث نشر هو نفسه قليلاً منها، ونهاية بالثمانينات حيث كانت الخمسينية مناسبة جديدة لنشر بعض آخر. ومع ذلك فإن جمع ما سبق نشره وإضافة ما لم ينشر - وهو كثير - في كتاب.. إنما يحدث لأول مرة بهذا الكتاب الذي اعتمدنا فيه - أساساً - على خزانة وثائقنا الخاصة أولاً، وعلى ما نشره الشابي في حياته ثانياً، وعلى أماكن النشر الأولى ثالثاً.. ثم أضفنا له نصوصاً عديدة لم يسبق نشرها قط أو نشرت ناقصة غير مستوفية.. ومن

ذلك مثلاً:

- (1) محاضراته عن شعراء المغرب .
- (2) محاضراته عن الهجرة النبوية⁽¹⁾.
- (3) رسالته للشاعر السوري الدكتور علي الناصر⁽²⁾.
- (4) رسالته للمرحوم محمد صالح المهدي .
- (5) رسالته في تكريم الطاهر الحداد⁽³⁾.
- (6) رسالته لصديقه المرحوم زين العابدين السنوسي ، التي كتبها عام 1927 مقدماً بها ترجمة لحياته اعتمد بعضها السنوسي في كتابه (الأدب التونسي في القرن 14 هـ)⁽⁴⁾.

هذا فضلاً عن جمع ما تناثر وتشتت من أدبه الثري في مختلف الصحف والمجلات على مدى سبعين عاماً ومعظمها، إن لم يكن جميعها، يعسر جداً أن يتوفر جميعه لأي باحث أو ناقد أو مؤرخ فضلاً عن عامة الأدباء وكافة القراء .

وهذه الظروف الخاصة المحيطة بنثر الشابي، وما كاد يتلاشى ويضيع منه.. هي التي تحدد أبعاد هذا الكتاب وأهميته ومدى الجهد المبذول فيه والنتائج الأدبية والنقدية التي سيصل إليها المتابعون له والمعتدون عليه مستقبلاً .

(1) نشرنا صفحة منها عام 1984 بمناسبة خمسينية الشابي.. ولكنها كاملة في هذا الكتاب .

(2) هذه المحاضرة حاول الشابي نشرها في حياته، فنشر صديقه سعيد أبو بكر ثلاثة أقسام منها في مجلتين مختلفتين وضاع باقيها، وكان الصديق الأستاذ توفيق بكار نشر فقط القسمين الأول والثاني، وأضافنا في هذا الكتاب ما فاته منها .

(3) نُشرت في حياة الشابي عام 1930 في نشرة تكريمية متداولة وهي تعاد لأول مرة في هذا الكتاب .

(4) كنا أول من نشرها في الملحق الثقافي بجريدة العمل عدد 1971/5/28 مع تقديم وتعليقات عليها . وهي هنا أيضاً وبخطه .

ونظراً للعلاقة الوثيقة بين جهودنا الجزئية السابقة في نشرنا ودراستنا
لنثر الشابي وبين هذا الكتاب؛ فقد أضفنا في القسم الثاني منه تلك
الأعمال باعتبارها توضيحاً وإنارة لكثير من أدب الشابي عامة ونثره بوجه
خاص، وإن اقتصرنا فيها على ما يتصل بمواقفه من قضايا الأدب والوطن
والحرية في عصره ووطنه.

ومن يتابع فهرس الكتاب سيتأكد من منهجنا في تبويه ومن اختياراتنا
وتوجهاتنا الأدبية والوطنية والقومية في تنسيقه وتقديم أقسامه ودراسة
مواقف الشابي المختلفة والإشادة بنضاله الوطني والاجتماعي والأدبي.

تونس في 1994/8/3

أبو القاسم محمد كرو

أبو القاسم الشابي

1934 - 1909

أبو القاسم محمد كرو

أبو القاسم الشابي: شاعر تونسي، ولد وتعلم ونبغ واشتهر وألف عديد الأشعار والدراسات الأدبية ثم مات ولما يبلغ 26 سنة.

يعزى نبوغ الشابي المبكر وكذلك نزوعه الواضح، في أشعاره وكتابات الأدبية، إلى التجريد والتعلق بالمثل والقيم المطلقة كتقديس المرأة والطبيعة والدفاع عن الشعب والوطن. . . وعن الإنسان عموماً. . . يعزى كل ذلك إلى تكوينه العائلي ومحصوله الثقافي وإلى ظروف حياته الصحية والاجتماعية والأدبية. . .

ولد الشابي في عائلة محافظة تغلب عليها الثقافة الدينية. . . ولها ارتباط تاريخي وثيق بالتصوف والوظائف الدينية.

ولكنها مع ذلك - أو بسبب ذلك - لعبت دوراً سياسياً وعسكرياً في تاريخ تونس قبل أكثر من 400 سنة. . . وبالتحديد أيام الصراع البحري بين العثمانيين والإسبان حول سواحل تونس وباقي بلاد الشمال الإفريقي.

كان جده الأعلى عرفة الشابي (توفي بالقيروان سنة 1542) زعيماً صوفياً وقائداً عسكرياً وحاكماً لأمانة عاصمتها القيروان. . . وقد حارب هو وآخرون من أخوته وأحفاده جيوش الأتراك التي حلت محل الإسبان ودولة الحفصيين المنقرضة.

وعندما قضى الجيش التركي نهائياً على إمارة الشابين في القرن الموالي (1631) تشتت الشابين في أنحاء عديدة وتوزعوا بين المدن التونسية والجزائرية (شمالاً وجنوباً). . فاستقر فسرغ منهم في ضواحي مدينة توزر (عاصمة الواحات التونسية) على أبواب الصحراء وقريباً من الحدود الجزائرية الحالية.

في توزر استقر الشابين منذ ثلاثة قرون، وأنشأوا لأنفسهم بلدة مستقلة عرفت باسمهم (الشَّابِيَة).

في هذه القرية ولد أبو القاسم يوم 24/2/1909 وكان الولد البكر لأبويه.

أحب الوالد ابنه حباً مميّزاً عن أخوته الذين توالوا بعده، بين بنات وبنين؛ لأنه كان البكر، ولأن الوالد تفاعل به إذ عين قاضياً بعد سنة من ولادة أبي القاسم، ولما ظهر من نبوغ خاص على طفولة الشاعر.

ينتمي الوالد إلى جماعات الإصلاح الدينية السلفية، وكان المثقف التونسي الوحيد الذي تتلمذ على الإمام محمد عبده مباشرة في الجامعة الأزهرية بالقاهرة، حيث هاجر خصيصاً لهذه الغاية.

ومعروف أن الإمام عبده (1849 - 1905) كان واحداً من أبرز قادة التجديد والأحياء في الفكر الإسلامي الحديث. كما زار تونس مرتين، كانت الثانية عام 1903. وكانت له ولجمعية «العروة الوثقى» علاقات قوية مع رجال الإصلاح والتنوير التونسيين. وقد تتلمذ الشابي على عدد منهم وأبرزهم العلامة الإمام محمد الطاهر بن عاشور.

ولا شك أن الوالد - الذي عني عناية خاصة وفائقة بتربية أبي القاسم، وفتح له خزائن كتبه وهو ما يزال طفلاً دون العاشرة - قد غذى ابنه بالأفكار الإصلاحية والتجديدية التي نجد آثارها واضحة في كتابات الشاعر؛ لا سيما محاضراته الاجتماعية والأدبية، وفي رسائله ويوميّاته.

إذن... حصل الشابي على إرث عرقي وفكري من والده... زادهما
ذكاؤه الحاد ثراء وتنوعاً... وأنضجتهما ثقافته الأدبية الواسعة والعميقة،
ذات الأبعاد العالمية.

وعلى الرغم من أن تقاليد العائلة لم تكن تسمح بأن يتلقى الشابي أي
تعليم خارج المدارس الدينية التقليدية، فإن الشابي قد فتح لعقله وقلبه
نوافذ على كل أدب طريف وفكر حديث مهما كان مصدر ذلك ومبدعه.

عندما انتقل الشابي وهو في الحادية عشر من عمره إلى مدينة
تونس (العاصمة) ليلتحق بالمعهد الزيتوني ذي المناهج الدينية التقليدية،
ويعيش في بيئات جديدة... تختلف عن الريف والوسط المحافظ
المنغلق... وجد فرصة حياته الذهبية حيث الكتب الجديدة والمكتبات
الحديثة للمطالعة... والنشاط الأدبي والاجتماعي؛ وحيث توجد مدينة
وحضارة أوربية متقدمة ومتطورة إلى جانب المدينة والحضارة العربية
المحافظة.

كانت البلاد التونسية في عام 1920 تحت الاحتلال الفرنسي الذي
فرض عليها عسكرياً وسياسياً منذ [1881] وكان الحضور الفرنسي
والأوربي كثيفاً.

يقابل ذلك بداية نهضة فكرية وسياسية يقودها دعاة وزعماء وطنيون
متحمسون.

وفي العاصمة كان هناك مسرح وجمعيات مسرحية عربية وأجنبية،
ونواد أدبية وفنية ورياضية، واختلاط بين الجماعات (المرأة الأوروبية
بوجه خاص) إلى غير ذلك من مظاهر الحياة والتقدم في عاصمة مزدوجة
الثقافة والسكان.

يضاف إلى كل هذا وجود أحزاب سياسية ومنظمات عمالية

واجتماعية وصحافة وطنية وعربية وافدة من المشرق بما تزخر به من تجديد في الأدب والفكر... .

وقد عايش الشابي كل ذلك بذكاء واستيعاب ومشاركة وجدانية وفكرية، وأحياناً بالعمل في عديد النوادي والصحف والجمعيات.

كان مثابراً على دروسه في الزيتونة بين 1920 - 1928 ثم في معهد الحقوق 28 - 1930⁽¹⁾ وقد تخرج فيهما على التوالي، ولأنه لم يكن يعرف أية لغة أجنبية. - بما في ذلك الفرنسية - فإنه انهمك في المطالعة يلتهم كل كتاب في مكتبة ابن خلدون العمومية، وخاصة عيون التراث العربي والعالمى المترجم... وبينها آثار كبار الشعراء والعرب والغربيين كالمعري وأبي العتاهية والمنتبي... ولامرتین وکیتس وغوته.

كما استوعب بشغف خاص جميع ما أنتجته أقلام الأدباء العرب في المهجر الأمريكي، لما تميز به أدب المهجر - وخاصة جبران ونعيمة، ونسيب عريضة و«أبو ماضي» من جاذبية وسهولة في أسلوبه وتجديد وثورة في أفكاره ومعانيه.

وهكذا تكاملت العناصر الفعالة في تكوين شخصية الشابي الأدبية وجمعت بين تراث حي ومتجدد وبين أدب عربي وعالمي معاصر.

وهنا نلاحظ أن الشابي كان شديد التأثر والإعجاب بالأدب المهجري وبالآداب الغربية المترجمة إلى حد المغالاة والتجاوز⁽²⁾.

ولئن كان معظم الذين تأثر بهم الشابي ينتمون إلى المدرسة الرومنطيقية؛ فإن تراث الشابي وظروف مجتمعه قد مزجت أدبه بواقعية اجتماعية وإنسانية حية... رغم ميلها إلى التجريد والخيال غير المحدود.

(1) كانت الدراسة فيه باللغة العربية فقط، ومدتها سنتان.

(2) تمثل ذلك في آرائه بكتابه «الخيال الشعري عند العرب».

وهنا تتدخل الأحداث الطارئة والحاسمة؛ لتحول الشاعر عن مسيرته المنتظرة؛ مسيرة الشاعر القائد والأديب المتزعم لثورة التجديد والإصلاح، في الأدب والمجتمع - لتذهب به بعيداً عن أهم طموحات الشعر والشباب والوطن الموعودة للشابي.

فبين سنة 1928 حيث تخرج في المعهد الزيتوني وعام 1930 حين تخرج في معهد الحقوق حدثت أخطر عناصر التغيير في حياة الشاعر.

- عام 1928 بدأت طلائع المرض ترهق الشاعر الفتى.. وكانت كامنة غير واضحة عليه يغالبها شبابه المندفع ونموه المتواصل.. فإذا الأحداث تأتي لتحول الحيوية إلى خمود وتبدأ في إطفاء الشعلة المتوهجة.. إنه مرض القلب وتضخمه وعدم قدرته على القيام بوظيفته لشاعر ضعيف البنية، طويل القامة، أسمر اللون، حاد الذكاء، شديد الحساسية.

«والشقي.. الشقي من كان مثلي

في حساسيتي ورقة نفسي!»

فلا عجب أن كانت قصائد الشابي في السنوات الموالية طافحة بالألم والحزن والتوجع من قلبه الكسير العليل:

«ما لآفاقك يا قلبي سودا.. حالكات؟

ولاوردك بين الشوك صفراً.. ذاويات؟

ولاطيارك لا تلغو؟ فأين النغمات؟

مالمزمارك لا يشدو بغير الشهقات؟

ولأوتارك لا تخفق إلا شاقيات؟»

«صلّ يا قلبي إلى الله فإن الموت آت!

صل! فالنازع لا تبقى له غير الصلاة!»

- في 1929 توفي والده بين يديه بعد مرض مزعج استمر أكثر من شهر - وكان أعز عليه من نفسه . . فهدم موت الوالد كل آمال الشاعر في حياته ومستقبله . وتحول بوفاة والده يوم 8 - 9 - 1929 إلى شاعر مريض حزين يتغنى بالموت والأبد ويقبله الجريح مترقباً في شوق ومنادياً في حرارة صباحه الجديد . .

- ولسبب ما أقبل الشابي على الزواج سنة 1930 من ابنة عمه المخطوبة له في حياة والده، وذلك رغم نصيحة الأطباء له بعدم الزواج! فهل كان الشاعر يائساً في أي مستقبل صحي سليم؟ ففضل أن يموت بالزواج؟!!

أم أن الوفاء والحب لوالده حمله على ما فعل؟ مضحياً بحياة لا أمل في طولها واستمرارها؟!!

مهما كان الموقف . . فقد تعكرت صحته منذ زواجه . . واستمرت تتحسن وتتعكر، رغم العلاج المستمر والعيش في المناطق الطبيعية والصحية التي أشار بها الأطباء . . إلى أن حُمل إلى المستشفى حيث توفي، بعد أسبوع، فجر يوم 9/10/1934 مخلفاً ولدين من زوجته التي ما تزال على قيد الحياة (هما محمد وجلال) ومخلفاً آثاراً أدبية ومتنوعة . . عريضة ازدادت مع الأيام انتشاراً وارتفاعاً؛ ليصبح في «الذكرى الستون» لوفاته أحد أفذاذ الشعراء الكبار في العالم .

لقد ترجمت بعض قصائده إلى كثير من اللغات الحية . . وخاصة الفرنسية والإيطالية والإنكليزية والألمانية والروسية .

أهم إبداعات الشابي، بدون شك . هي إشعاره، وديوانه الوحيد نسقه بنفسه وسماه «أغاني الحياة» وقد طبع عام 1955 متضمناً 92 قصيدة ومقطوعة . ثم أعيد طبعه مرات مع إضافة قصائد وأشعار لم تكن من اختيار الشاعر .

وفي شعر الشابي تبرز عبقريته ومأساته في وقت واحد.

وإذا كانت عبقريته واضحة في كل قصيدة وبيت من شعره، فإن مأساته تتلخص في أنه لم يعيش أكثر مما تعيش الأزهار والأطيبار... وأنه لم يتغن شاعر بالحياة والفرح وبالآلم والموت كما تغنى الشابي. وأياً كان منهج الناقد وميل القارئ... فإن قراءة قصيدة واحدة من شعر الشابي تحمله على الإعجاب بالشاعر والتجاوب معه والإحساس القوي بأن خلف الكلمات والصور عوالم سحرية مثيرة وموسيقى فريدة من نوعها في الشعر العربي..

في شعر الشابي، بالإضافة إلى كل ذلك، استجابة لأقوى وأصدق المشاعر والميول الإنسانية:

فيه غناء رائع بالكون والطبيعة، وإجلال وتقديس للمرأة والطفولة، وللحب والجمال، وللحق والحرية والعدل، وللشباب والفنون (الرسم والموسيقى بوجه خاص) وكل المثل العليا للإنسان في أي عصر أو شعب أو مكان.

أما نثره فيشمل مجموعة من أعماله المتعددة:

- 1 - محاضرات ومقالات أدبية ونقدية.
 - 2 - رسائل أدبية مع معاصريه في تونس والمشرق (مصر - سوريا).
 - 3 - يوميات، كتبها بشكل يومي لا تزيد عن نيف وثلاثين يوماً.
 - 4 - خواطر أدبية واجتماعية... يقترب في بعضها من أسلوب القصة، ولكنه يبقى فيها، كما في آثاره النثرية الأخرى، من حيث لغته وخياله، شاعراً أنيق الألفاظ، جميل العبارة ممتع الأسلوب.
- أهم أعماله الأدبية بعد الديوان، بحثه أو محاضرته عن «الخيال في الشعر العربي».

ولئن كان فيه شديد القسوة والمغالاة والإجحاف في أحكامه على الشعر العربي القديم، فإنه كان - بلا ريب - مجدداً في منهج البحث وأسلوب النقد الحديث.. ورائداً لحركة النقد الأدبي في تونس..

ويبدو أنه كان واعياً لكل ذلك، وأنه تعمد عن قصد لتحريك البيئة الأدبية الراكدة في بلده إلى حد النوم والجمود.. فبدون هزة عنيفة وقوية.. ما كان أحد من مواطنيه ليسمعه أو يحاوره!

على أنه ينبغي أن لا ننسى أن الشابي عندما كتب بحثه وألقاه محاضرة يوم 1929/2/1 كان في العشرين من عمره أي في الذروة من حماسة الشباب وثورته.

وليس أدل على ذلك من أن الشابي في رسائله ومقالاته ومحاضراته القصيرة الأخرى يبدو مختلفاً تماماً عما هو في «الخيال الشعري» ففي آثاره هذه يظهر هادئاً متزناً رغم ميوله التجديدية ومناداته بالإصلاح والتغيير.

وفي هذه الآثار نلتقي أيضاً مع صفحات تكمل فهمنا لحياته وأدبه وآرائه في مشاكل عصره ومجتمعه الأدبية والاجتماعية.. وفي كثير من الأدباء المعاصرين له في بلاده وخارجها.

لقد عُني أكثر من باحث و مترجم بدراسة أشعار الشابي.. ومقارنته بشعراء آخرين، عرباً وغربيين، وخاصة بالشاعر الإنكليزي جون كيتس (1795/ 1821).

لعل أسبق المترجمين لأشعار الشابي هو صديقه محمد البشروش (1911- 1944) ثم المستشرق الانكليزي آرثر اربري - (ARTHUR ARBERRY) الذي ترجم قطعتين من شعر الشابي إلى الانكليزية عام 1950 وهما «أنا أبكيك للحب» و «إلى طغاة العالم».

لقد مضى على مقارنته بكيثس ستون سنة، وعلى ترجمة ابري
أكثر من أربعين سنة تطور فيها الاهتمام بالشابي وترجمة أشعاره إلى
معظم اللغات العالمية.. حتى أصبح الشابي بحق شاعراً عالمياً وإنسانياً
من طراز فذ وخاص!!

وهو لهذا كله، ولما سبق، جدير بأن يترجم إلى كل لغة، وأن
يقراه محبو الشعر في كل زمان ومكان.

**القسم الأول
نثر الشابي**

**دراسات
و
محاضرات**

إِلْمَامَةٌ

الأدب العربي في العصر الحاضر

ليس غرضي وأنا أكتب هاته الإلمامة لديوان «الينبوع» تقديم أبي شادي إلى قرائه، فما كان أبو شادي بحاجة إلى التقدمة، ولعلّ الكثير من قرائه يعرف عنه أكثر مما أعرف، ولا الإشادة بسجاجة خلقه وسماحة نفسه وطيبة قلبه، فتلك صفات يستطيع أن يدركها كل من يطالع آثاره، فيلمس فيها صوفيته العميقة التي تعاطف العالم وتشمل كل شيء فيه بفيض من العطف والحنان، ولا التنويه بجهوده العظيمة المتعددة التي ينوء بحمل أعبائها فريق من الناس أولي العزم، فقد عرف الناس له هاته المزية، وأمنوا بها في شيء من العجب غير قليل.

أجل، فأنا لا أريد أن أعرض لكل ذلك. بل ولا أريد أن أعرض لشعر أبي شادي أيضاً ببحث مفصّل ونظرة مستوعبة، فقد فاجأ أبو شادي الناس في شعره بروح جديدة ونزعة مستحدثة، وأسلوب طريف، وطريقة لم يعهدوها من قبل، فقابلوه بشيء من الاستنكار غير قليل. ثم أخذ الزمان يعمل عمله، فاستساغه فريق من الناس وألفه، وأخذت فئات أخرى تشيد به وتنضح عنه، وظلت طائفة من الناس على رأيها الأول ونفرتها القديمة لا تتحلل عنها أو تميل، فاختلف الناس فيه وما زالوا، ولا يزالون مختلفين فيه إلى ما شاء الله، وأعتقد أن كلمتي لا تنقص من

هذا الخلاف قليلاً ولا كثيراً. ولهذا فقد آثرتُ أن أتحدث حديثاً أعم من ذلك وأشمل، وأن أتخذ موضوع هذا الحديث «الأدب العربي في العصر الحاضر» ثم لا أتحدث عن شعر أبي شادي إلا كظاهرة من ظواهر هذا الأدب، لها وجهها الخاص ولونها الذي تُعرف به.

* * *

أعتقد أنني لا أكون غالباً في شيء إذا قلت إن عصرنا الحاضر يمتاز عن كل ما سبقه من العصور بامتزاج الثقافات فيه امتزاجاً عظيماً لا نظير له، وأن الأدب العربي الحديث قد اختلط بآداب العالم اختلاطاً لم تعرفه تواريخُ الآداب في عهودها السالفة.

ففي أطوار الانقلابات الكبرى، التي يريد فيها التاريخ أن يدور دورته المحتومة الخالدة، تأخذ نفسيات الشعوب التي ستولد مرة ثانية في التطور والتحول والاستحالة، فتستيقظ أحلامها النائمة، وتتوهج أشواقها الخامدة، وتصبح نفسها شعلة متأججة بنار الحنين، وينقسم قلبها الثائر إلى شطرين: شطر ملول، متبرم بالحاضر وما فيه، وشطر مشوق، طامح إلى المجهول وما فيه، وفي مثل هاته الحالة النفسية المعقدة التي تصبح فيها روح الأمة مشبوبة بحمى الحياة، يندفع الناس في لهفة اليقظة الطامحة إلى ثقافات العالم وفنونه وآدابه يطفنون بها ما في أعماق نفوسهم من جوع وطمأ إلى الحياة، فتتلاقح ثقافات، وتتمازج آداب، وتصطفق آراء وأفكار، وينتج من هذا المزيج ثقافة جديدة وأدب طريف لهما سحر وفتنة وجمال. كان ذلك في الروح اليونانية، حينما انتصرت على الفرس، واتصلت بروح الشرق في فارس وأشور ومصر. وكان ذلك في الروح الرومانية حينما مكن الله لها من اليونان فانتهبت ما لها من علم وأدب وفن. وكان ذلك في الروح العربية في العصر العباسي وما يليه، حينما اطلع العرب على ما لفارس والهند واليونان والرومان من حكمة

وأدب وعلم وفلسفة وتشريع، وكان ذلك في الروح الأوروبية منذ عصر «النهضة» حينما اتخذت مثلها الأعلى في الأدب والفن ما لليونان والرومان من فن وأدب، وأخيراً كان ذلك أيضاً في الروح العربية الحاضرة بعد يقظتها من سباتِ الدهور. ولكن امتزاج الأدب العربي الحاضر بغيره من الآداب قد كان على صورة من القوة والشمول لم يُعهد لها مثيل في جميع العصور والأجيال. ولعل ذلك يرجع إلى «المطبعة» التي أعطت للحركة الثقافية هذا المظهر القوي الساطع، كما يرجع إلى طبيعة حضارة اليوم التي تمتاز بالسرعة والحركة والاتصال، فإن الأدب العربي في العصر العباسي وما يليه لم يتأثر إلا قليلاً بأدب الفرس والهند وما لهما من حكمة وأمثال، وبقليل من أساطير اليهودية والمسيحية وبشيءٍ من الفلسفة اليونانية وبعض المذاهب والنحل الشائعة إذ ذاك، وبنزر مشوّه من أدب الرومان، فهو لم يتأثر تأثراً قوياً بأدب هاته الأمم، ولا حاول أن يتصل اتصالاً وثيقاً بما لها من تاريخ ودين وأساطير، بل تأثر بها تأثراً بسيطاً لعله لم يكن مقصوداً ولا مَعْنِيّاً به، ولكنه على كل حال قد أحدث نتيجة المنتظرة، فاستُحدثت معان وأخيلة وأساليب وطرائق من البيان لم يعدها العرب من قبل ولا أَلْفُوها. والأدب الأوروبي لم يتصل في عصر «النهضة» بغير الأدب اليوناني والروماني، ثم بقليل من الأدب العربي في صقلية والأندلس، ثم إنه عاد بعد ذلك إلى تاريخه يستلهم ما فيه من أقاصيص الفروسية وسير الأبطال، ثم رجع إلى دينه فأخذ يستوحي الأساطير المسيحية ويتخذ منها غذاءً لروحه وأحلامه، ثم أنه عثر على كنزه المفقود فأخذ يستمد من الروح الأوروبية نفسها مادة حياته التي لا تنفذ، فكانت ثورته الرومانتيكية الحاسمة التي تبحث أمامه آفاقاً جديدة، ووقفت به على حدود المجهول الذي لا تنتهي صورته وأشكاله. . .، وعلمته كيف يستلهم الحياة نفسها ويستوحي جمال الوجود، بعد أن كان يتخذ الوقائع والأحداث مادةً وحيه

وخياله، والتي ما زالت - فيما أرى - حيةً في صميمها وإن اختلفت فيها الأسماء والحدود.

ذلك كل تأثر الأدب الأوروبي بغيره، أما الأدب العربي الحديث فإنه لا يريد أن يتصل ببعض آداب العالم دون بعض. كلاً، وإنما هو يتصل بجميع آداب العالم، لا يستثني منها واحداً، سواء في ذلك القديم والجديد والقريب والبعيد: فهو يتصل بالأدب الفرنسي والإنكليزي والألماني والإيطالي والبروسي والإسباني والأسكاندينأوي والأمريكي، بل وحتى الروماني واليوناني القديمين، وهو لا يريد أن يمرَّ بهاته الآداب مرَّ الجانب بل يريد أن يتصل بروحها اتصالاً وثيقاً وأن يتأثر بهذا الروح ويستوحيه، وهو لا يكتفي بهذا بل يستلهم هاته الأمم والشعوب وما لها من أساطير وخرافات. ثم هو يأبى إلا أن يستغلَّ في استلهامه ما لها من فن وفلسفة وعلم. ثم هو لا ينسى أن يستوحي مع ذلك ما في أدب اللغة العربية وتاريخها وأساطيرها من صور الفن وآيات الجمال، ثم هو يضيف إلى كل ذلك ما في حياة الأمة العربية الحاضرة من أحاسيس مختلفة، وأحلام مشبوبة، وأطوار تشبكب فيها الحقيقة بالخيال - كل ذلك يتخذ من الأدب العربي المعاصر مادة لروحه، وغذاء لقلبه، وشراباً لأشواقه الجامحة.

وقلَّ بين أدباء العربية الآن من كانت ثقافته مقصورة على العربية وحدها، بل إن الكثير منهم ليدين في إنتاجه إلى أكثر من ثقافتين وثلاث. والحق أنه قد أصبح من العسير جداً على الأديب العربي المعاصر أن يعصم نفسه من التأثر بالروح الأجنبية، فهو لا بد أن يتأثر بهذا الروح ولو تأثراً لا شعورياً، مهما كانت ثقافته خالصة في عروبته ومهما كان غالباً في التشيع لأنصار القديم، وما ذلك إلا لشيوع الترجمة والنقل عن الآداب الأجنبية شيوعاً لم يعرفه تاريخ الآداب في عصر من عصوره.

وقد كان لاتصال الأدب العربي بغيره من آداب العالم هذا الاتصال القوي أن اكتسب الأدب ثروة ضخمة في الصور والمعاني والأخيلة والأساليب بصورة لم تعرفها الآداب العربية من قبل، وإن أفادت اللغة العربية مرونة ودقة أصبح بهما الأديبُ الشاعرُ يستطيع أن يعبر عن أخفى العواطف المستسرة، وأدق الأحاسيس الغامضة، وأعقد الحالات النفسية التي كان أديبُ الأمس لا يستطيع تصوّرها وإدراكها، فضلاً عن التعبير عنها ونفخ الحياة فيها وإعطائها ما يلائمها من أضواء وظلال. ولكن ذلك الاتصال الوثيق كما أنتج تينك النتيجتين الجميلتين أنتج نتيجة أخرى لا ندري على التدقيق ما سيكون أثرها في الأدب العربي الحاضر، فقد أدّى إلى بلبلة في فهم الشعر وضبط مقياسه وموضوعه وغايته، لا نحسب أن تواريخ الأدب في العالم قد سجلت مثلها، حتى لقد كاد يصبح لكل أديب مقياسه في فهم الشعر وتقديره، وأصبح النقد فوضى لا تضبط لها حدود ولا تقوم على أساس محترم من الجميع.

فهنالك المدرسة القديمة، وشعراؤها ونقادها، وآراؤها عن الشعر وما يجب أن يكون عليه، وهناك المدرسة الحديثة بما فيها من شعراء ونقّدة على اختلاف نزعاتهم وثقافتهم وأطوارهم النفسية، ومن خلفهم طوائف المتأدبين الذين لهم أحكامهم الخاصة على الشعر والشعراء والنقد والناقدين والتأليف والمؤلفين، والذين لا تضنّ عليهم الصحافة ولا المطبعة بنشر ما يرتأون من رأي وحوار، ومن وراء كل ذلك جماهير القارئين في مختلف جهات العالم العربي بأرائهم المتقلبة التي تبنيها الغدوّ وتهدمها الآصال، ويعبث بها جزر الحوادث ومدّها في خضمّ الزمان.

وإنه ليعي المرء - مهما حاول - إحصاء هاته المذاهب، أو النزعات إذا تحرّينا دقة التعبير، التي تضطرب في رؤوس الشعراء والنقاد

والمتأدبين، والتي تتقاذف الأدب العربي المعاصر أخذاً وردّاً وجزراً ومدّاً، ولكن سنحاول أن نتحدث بإيجاز عن أظهر هاته النزعات في محاورات اليوم وأقواها أثراً في نفوس الأدباء.

فمن هاته النزعات النزعة «الخيالية»، وهي نزعة لا تعتبر الشاعر شاعراً إلا إذا كان شعره عالماً سحرياً، لا تنته أطيافه وخيالاته ولا أضواؤه وظلماته، وتشعر فيه نفس القارئ أنها قد ارتفعت إلى ما وراء الغيوم وما خلف النجوم... ومنها النزعة «الرمزية»، وهي نزعة لا تريد من الشاعر إلا أن يتحدث للناس من وراء السحاب أو ملفوفاً في مثل الضباب، ولا تتطلب منه إلا كلاماً مبهماً لذيذاً، شبيهاً بالموسيقى في لغتها الغامضة التي كلما أصغى لها السامع حركت في نفسه ضروباً من الحسن والتصور والخيال غير ما حركت من قبل، وعبرت له في كل لحظة تعبيراً جديداً لا تنتهي ألوان المتعة والطرافة فيه. ومنها النزعة «الفلسفية» وهي نزعة لا تفهم الشاعر إلا أن يكون فيلسوفاً له فلسفة مضبوطة محكمة لا تضطرب مقدماتها ولا تختل نتائجها ولا تتناقض أجزاؤها بتناقض حالات الشاعر النفسية واضطرابها بين الشك والإيمان والثورة والسكون واللذة والألم. ومنها النزعة «الثورية»، وهي نزعة لا تعترف للشاعر بالشاعرية إذا لم تكن له في آثاره قوة العاصفة الداوية والبراكين الطاغية، ينطق فتنتلق كلماته مجلجلة جامحة ترج الحياة في أعماقهم رجاً وتزلزل هدوء الأحلام، ويتكلم فيندلع اللهب من كلماته المتوهجة بنار الحياة. ومنها النزعة «المتعمقة» وهي نزعة تأبى على الشاعر إلا أن يكون عميقاً كالليل، لا يناجي أبناء الإنسان بهاته المعاني الواضحة البادية التي تستوعبها اللمحة الخاطفة والنظرة الطائرة في الفضاء، وإنما تريد منه أن يناجيهم بما في أعماق الحياة والموت والوجود والعدم وما في خفايا ذلك العالم المجهول الذي يحمله قلب الإنسان من عبودية عريقة للحياة وثورة على نواميسها العاتية. ومنها

النزعة «التاريخية» وهي نزعة تنكر على الشاعر كل شيء إلا أن يكون ظلاً واضحاً لهاته الحياة العابرة، يستطيع المؤرخ أن يجد في آثاره صورة حية من عقائد الشعب وعاداته وأطواره وتقلباته وأحلامه وخرافاته. ومنها النزعة «السياسية»، وهي نزعة لا تريد من الشاعر إلا أن يكون زعيم قوم يدعوهم إلى النهضة والحياة ويهيب بهم إلى الضرب في سبيل الزمان الذي لا تنتهي تعاريفه وعقباته. ومنها النزعة «الصحافية»، وهي نزعة تريد من الشاعر أن ينظم في أحداث اليوم ومشاكل الساعة ويقدم للناس صحفاً منظومة يسجل فيها حوادث العالم في السياسة والاقتصاد وكل شيء آخر، وعلى الإحساس والفكر والعاطفة رحمة الله... ومنها النزعة «الغزلية»، وهي نزعة لا ترضى عن الشاعر إلا إذ قدم حياته قرباناً للمرأة وأحرق مواهبه بخوراً تحت قدميها الجميلتين ولم يتكلم بغير لغة الحب والدموع، أما بقية لغات النفس وعواطفها الأخرى فعليها لعنة الشعر والحياة... ثم لعنة حضرات السادة الغزليين...

وهناك نزعات كثيرة أخرى، ولكنها ضعيفة تافهة، ليس لها من قوة الأثر ما يحملنا على تدوينها في كلمتنا هاته: نزعات غريبة، وأخرى ذابلة، وأخرى ميتة بالية، فلندعها تختلج اختلاجة الموت في أدمغة بعض غلاة القديم وبعض متطرفي الجديد. ولندعها تقضي ساعة الموت في سكون الظلام فهي ذاهبة لا محالة إلى هوة الفناء المحتوم...

ولكن هناك نزعة غريبة يدين بها بعض الناس ممن يحملون التجديد على غير محمله ويفهمونه على غير المراد منه، فهم يحسبون التجديد أن يأتي الشاعر في أسلوبه ومعناه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشيء، وأن يخلق آثاره من عدم، ويأتي بها غير مسبوقة بصورة أو مثال! وهي فكرة غريبة لا نفهم كيف يستطيع اعتقادها فريق من الناس، ولكننا نسوق إليهم هاته الكلمة الصغيرة:

إن الحياة نفسها ليست إلا حرية ترسّف في القيود وسلسلة يتصل فيها الطريف بالتليد، وإننا حين نطالب الشاعر بالتجديد لا نطالبه بأكثر من أن يترسم خطى الحياة في فنّها، فالزهرة وهي فنٌّ من فنون الحياة ليست إلا بعض ما في التراب والماء والسماء من روح الحياة، ولكنها مع ذلك فنٌّ منها جديد يخيل إلينا أنه بعيد عنا جدّ بعيد. ونحن، أبناء الإنسان، ننحدر إلى هاته الدنيا وفيها مشابه من آبائنا الأولين في الملامح والميول والأطوار؛ ولكن لكل منا روحه الخاصة وطابعه الممتاز. وكذلك تتدفق الكائنات من قلب الحياة الأزلي الذي لا ينضب، وكأنها صورٌ ممتازةٌ متباينةٌ رغم ما بينها من وشائج الرحم والقربى، ولولا ذلك التباين الحكيم لأصبح عمل الحياة عبثاً متواصلًا وعناءً معاداً لا جدوى وراءه ولا متاع.

كذلك يصنع الشاعر الفنان، وكذلك ينبغي أن يصنع، فهو لا يستطيع أن يخرج عن نفسه التي بين جنبيه وما في هذا العالم من سحرٍ ولذة وألم، وما خلفته الإنسانية من فن ورأي ودين، ولكنه حين يتحدث إلينا بذلك في آثاره لا يتحدث به إلا بعد أن يحيا في قلبه ويتوهج في حياته ويتضجّ بأضواء نفسه المشرقة، فتبرز آثاره للدنيا موسومة بوسمه ومطبوعة بطابعه الذي لا يزول. وذلك هو التجديد بمعناه الواضح الصحيح.

* * *

والشاعر؟ ماذا يصنع بين هاته السبل المتعرجة، وفي لجة هاته الأصوات التي تهيب به من كل ناحية ومكان؟

أما إذا كان ضعيف النفس خوَار العزيمة فإن مواهبه وألحانه تضمحل وتفنى في هذا الأفق الدّاوي بالأضواء، وتذهب حياته أبديداً في

مهات هاته الرياح، وأما إذا كان موثق العزم قوي الإيمان برسالته فهو يسلك سبيله في عزم وقوة غير آبه لتلك الأصوات الكثيرة المتباينة، وهو يمضي قُدماً، صامتاً سمعه إلا عن صوت «الحياة» المتردد في أعماق قلبه المتدفق في جوانب نفسه تدفق أمواج البحار، مطبقاً بصره إلا عن نور السماء المشرق في آفاق روحه الحاملة وفي أعماق الوجود. وهو يمشي وعلى شفثيه بسمه مشفقة ساخرة بكل هاته الأصوات التي تريد أن تحصر روح الشاعر في قفص مطبق محدود الجوانب، لأنه يعلم أن روح الشاعر روح حرة لا تطمئن إلى القيد ولا تسكن إليه، حرة كالطائر في السماء والموجة في البحر، والنشيد الهائم في آفاق الفضاء، حرة فسيحة لانهائية لا تحدها نزعة واحدة ولا مذهب محدود وإن كانت لا تضيق بكل هاتيك النزعات ومجالات نفس الشاعر ولا تتقيد بصورة أو مثال.

والحق أننا نخطيء كثيراً إذا حاولنا أن نفرض على الشاعر آراءنا ومذاهبنا وأحلامنا فرضاً، ولن نجني من وراء ذلك إلا تضليل المواهب الجديدة الناشئة وسخرية المواهب الكبرى السائرة إلى النور، وأنه ليس لنا أن نطالب الشاعر في شعره بغير «الحياة» وإذا جاز لنا أن نطالبه بأكثر من هذا فلنطالبه بأن تكون هذه «الحياة» رقيقة سامية تتكافأ مع ما للشعر من قدسية الفن وجلاله، ففي الحياة كثير من الحماقات والدنايا يتعالى الفن عن التدلي إليها من سمائه العالية.

فإذا قرأنا شعر الشاعر فوجدنا فيه إنساناً من لحم ودم، يحيا ويتنفس، ويشعر ويفكر، ويجاوبنا بالعطف والحنّ والخيال، وينسينا لحظة وجودنا المحسوس بما يخلعه علينا من جمال الفن وصوره، ويرتفع بمشاعرنا فوق دنايا هذا العالم ومحقراته، إذا وجدنا هذا الشاعر فلنقرأه في ثقة وإيمان بأنه الشاعر حقاً، وليس عليه بعد هذا أن يكون رمزياً أو رومانتيكياً أو غير هذا وذاك. فما تلك في الحقيقة إلا أطوار نفسية يتشكل الشعر بما لها من ألوان وظلال وأضواء وليست هي الشعر

نفسه فإن لباب الشعر «الحياة».

ولقد قلت مرة عن الفن بمعناه الواسع: إنه «حياةً موسيقيةً مصطفاه»، سواءً كان قطعةً تنشد، أو لحناً يعزف، أو صورةً ترسم، أو تمثالاً ينحت، فهو «حياة»، لأن الفن في صميمه إنما هو صورة من تلك الحياة التي يحيا بها الفنّان في هذا الكون الزاخر الرحيب، أو في دنيا خياله وأحلامه، كيفما كانت تلك الصورة في اللون والشكل والعرض، وهو حياة «موسيقية»، لأن الفن في جميع صورته وألوانه إنما هو مجموعةٌ نسبٍ موسيقية، يُوازِنُ الفنّانُ بينها موازنةً حكيمةً مُلهمةً، يحسُّ بها في قرارة نفسه ويأتيها، وربما لا يفهمها كل الفهم أو بعضه: فالشاعر العظيم هو الذي يوفِّق في فنه إلى المعادلة بين نسبِ العاطفة والفكر والخيال والأسلوب والوزن، بحيث يحصل بينها التجاوبُ الموسيقيُّ الذي ينسجم في القصيد انسجامَ النور والعطر والماء والهواء في الزهرة الجميلة البانعة. والرسام العظيم هو الذي يوفِّق في الصورة إلى الموازنة الموسيقية بين الألوان والأضواء والظلال والروح الفنيّة الشائعة في كل ذلك شيوعَ الضياء في السماء، وليقل مثل ذلك في بقية ضروب الفن وأصنافه.

وهو حياة موسيقية «مصطفاه»، لأن الفنّان المخلص لفنه لا يعبرُ أو هو مكرهٌ على أن لا يعبر بفنه إلا عن أرفع صور الحياة وأسمائها، وعلى هذا فإن الشعر الرفيع حياة موسيقية مختارة تعبر عن نفسها في فنٍّ من الكلام. والموسيقى حياة موسيقية مختارة ترفرف بألحان مجنّحة في جو منغم موزون. وكذلك يقال في سائر أنواع الفن.

* * *

وقد تحدّثتُ عن المدرسة القديمة والمدرسة الجديدة في الشعر العربي الحديث. فما هي حدود كل من المدرستين وما هي غاياتهما؟

أما المدرسةُ القديمةُ فهي تزعم أن اللغة العربية مزاجاً خاصاً لا يسبغ إلا ضروباً محدودة من التفكير والحسّ والخيال، وهي تنقم على المدرسة الحديثة أنها تستحدث في الأدب العربي فنوناً من البيان مشبعة بما في الروح الأجنبية وآدابها من طرائف التفكير والخيال والإحساس، وهي تدّعي أن ذلك لا يلائم طبيعة اللغة العربية ولا ينسجم على ما تسميه: الأسلوب العربي الصميم.

وأما المدرسة الحديثة فهي تدعو إلى كل ما تكفر به المدرسةُ القديمةُ بدون تحرز ولا استثناء، هي تدعو إلى أن يجدد الشاعر ما شاء في أسلوبه وطريقته في التفكير والعاطفة والخيال، وإلى أن يستلهم ما شاء من كل هذا التراث المعنوي العظيم الذي يشمل كلّ ما أدخرته الإنسانية من فنٍّ وفلسفةٍ ورأيٍ ودينٍ، لا فرق في ذلك بين ما كان منه عربياً أو أجنبياً، وبالجملة فهي تدعو إلى حرية الفن من كل قيد يمنعه الحركة والحياة، وهي في كل ذلك لا تكاد تتفق مع المدرسة القديمة إلا في احترام قواعد اللغة وأصولها. بل إن فريقاً من متطرفي المدرسة الحديثة لا يعدل بحرية الفن شيئاً، ولا يحفل في سبيل ذلك حتى بقواعد اللغة وأصولها، غير أن صدى هاته الطائفة قد أخذ يخفت ويضمحلّ ولا شك أنه سيفنى مع الزمان، فهو ليس إلا طفرة جامحة لكل الطفرات التي تصحب كل انقلابٍ في حماسة الدعاية الأولى.

ولكن، ما غايةُ هاته المدرسة الحديثة وما حدودُها؟

أما إذا أردت يا صاحبي أن تجعل لهاته المدرسة حدوداً مضبوطة فاصلة على النحو الذي كان عليه المذهب الرومانتيكي أو الرمزي أو البرناسي أو الواقعي أو غير هاته المذاهب التي سيرت الأدب الفرنسي في طرق خاصة وأملت عليه من روحها القويّ الثابت، أقول إذا أردت ذلك فإنك غير واجده. فالمدرسة الحديثة لم تصبح بعد مذهباً واضح الحدود

والمعالم، ولكنها ما زالت ثورة مشبوبة هائجة وإيماناً قوياً عميقاً، ثورة في سبيل حرية الشعر وكماله وإيماناً بسمو الغاية وجلال المبدأ. أجل، هي ثورة ما زالت تختلط فيها المطامحُ والميولُ. وتضطرب فيها أصول المذاهب اضطراب البذور في حميل السيل، وآية هذا ما أسلفت من اختلاف في المقاييس الأدبية والأساليب والنزعات. وذلك سرّ هاته الحيرة العميقة الغائمة التي تعانق أرواح أغلب شعراء هاته المدرسة، فكل واحد منهم واقف بشعره على تخوم عالم مجهول، لا يعرف له مبدأ ولا غاية، تستفز نفسه أصوات وأنغام، وتستهوِي خياله أشواق وأحلام، وتسحر طرفه أشعة وأطياف، ولكنها لا تأسر نفسه حتى تتوارى وراء السحب البعيدة النائية، ثم تضمحل وتفنى في سكون الفضاء. وما أشبه حال شعراء هاته المدرسة اليوم بحال «البحار وجنية البحر» فيما تقصّه الأساطير. ولذلك فكل شاعر من شعراء هاته المدرسة يكاد يمثل في نفسه مدرسة مستقلة لها مذهبها الخاص وطابعها الممتاز، ولها وجهتها في فهم الشعر وإنشائه.

على أنك تستطيع أن تلمس في آثارهم رغم ذلك روحاً قوية متأججة مشرقة كالصباح، متوهجة كاللهيب: هاته الروح هي طلاقة الحياة والحنين إلى المجهول...، فالحيأة الحرة المطلقة، والأشواقُ التائهة المبهمة، أو «الطموح» بأشمل معانيه، هو الروح الغالبة البادية في آثار هاته المدرسة التي تجاهد في سبيل الكمال الفني المنشود.

وأبو شادي كشاعر من شعراء هاته المدرسة المجدّدة له مذهب، وأسلوبه، وروحه الخاصة الممتازة.

أما مذهب الشعري - فيما أرى - فهو أن يحرص الشاعرُ كلّ الحرص على التعبير عما يدوي في أعماق نفسه من أصداء الحياة وما يخالجه من وحي هذا الوجود، وعلى أن لا يضيع من ذلك شيئاً ما

استطاع إليه سبيلاً. ولعله يؤمن بأن كل تقصير في ذلك يُعدّ خيانة لأمانة الفن، فالشاعر لم يوجد إلا ليؤدي رسالة هذا الكون الذي لا تسكت ألسنة الهواتف فيه، وكلما قصر الشاعر في أداء هاته الرسالة كان خائناً لرسالته وغير مخلص لفنّه، وهذا هو السرُّ في وفرة إنتاج أبي شادي بالنسبة لغيره من الشعراء.

فهو إذاً صاحبُ مذهب جديد في الشعر، وأنا أعتقد أن مذهبه هذا يرجع إلى طبعه أكثر من كل شيء آخر، فهو ذو طبع عملي ممتليءٌ بالعزم والحياة لا تكاد تولد الفكرة في أعماق نفسه حتى تحوّلها طبيعته العملية إلى كائن موجود، ولذلك فهو لا يستطيع أن يحسّ إحساساً لا يعبر عنه، ولذلك فهو يعجب كيف يُؤثر الشاعر وأدّ عواطفه على بعثها حيّة في شعره تتنفس بروح الحياة؟! وكيف يقتل الكسل والاستسلام روح الخلق في الفتان الذي لم يوجد إلا ليخلق؟! وهو يعبر عن مذهبه هذا في كثير من نثره وشعره، ولكنه يعبر عنه بحرارة وإيمان في قصيدة الجميل الرائع: «التجدد» - صفحة 18 من هذا الديوان.

وأما أسلوبه فهو يمتاز بجمال الطبع والسهولة والبساطة الحرة الواضحة التي لا تحبّ التكلف ولا تسعى إليه، وهو يرسله إرسالاً كما قال: «مثل الأتيّ ومثل الجدول الجاري» لا يتأنق فيه ولا يتعمل، ولا يحرص على ما يحرص عليه بعض الشعراء من ظهور آثارهم بمظهر المترف الأنيق، ولكنه يحرص كل الحرص على أن يكون صادقاً دقيقاً في التعبير عن ذات نفسه ولو أدّى به ذلك إلى الغموض أحياناً.

أما بعضُ الناقدين الذين يجردون أسلوب أبي شادي من الجمال فإنهم يظلمون الرجل ويتحاملون عليه، فإن أسلوبه لا يفقد الجمال ولكنه يفقد الأناقة، وشتان بين الأناقة والجمال، والحق أن الشاعر إما أن يضيع غير قليل من أحاسيسه وأصوات قلبه في سبيل الأناقة والاندفاع مع الرنين

الموسيقي، وأما أن يضيع غير قليل من هاته الأناقة في سبيل التعبير عن ذات نفسه بدقة وأمانة، وأبو شادي لا يؤثر التضحية بمذهبه الذي يدعو إليه ويؤمن في سبيل التزييق والتنويق.

وأما الرُّوحُ التي يمتاز بها شعر أبي شادي فهي روحانية عميقة، وصوفية بعيدة المدى، وإحساسٌ مُرَهَفٌ مشبوبٌ، وخيالٌ متنقِّلٌ سريعٌ. وبهاته الروح المركّبة ينظر أبو شادي إلى هذا الوجود فلا يرى فيه إلا أحياءً جديرةً بالمحبة والعطف، يعاطفها وتعاطفه وتشاركه الأنس والحياة، وبهاته الروح يهتف قائلاً من أعماق قلبه:

وكم في الظلّ والأنوارِ أحلامٌ أناديها!

تونس:

أبو القاسم الشابي⁽¹⁾

(1) ديوان «الينبوع» نظم الدكتور أحمد زكي أبو شادي - القاهرة. طبعة أولى (يناير 1934) كتبها الشابي مقدمة للديوان ص: (س - ذ).

شعراء المغرب الأقصى

«محاضرة بقلم الشابي وبخطه»
تنشر لأول مرة»

تمهيد وتقديم

عرفت الشيخ العلامة عبدالله كنون عام 1962 عندما زرت طنجة للمرة الثانية. . فسعيت إليه في منزله، وكان لقاءنا الأول مفعماً بالود والمكارم التي حُص بها فقيدنا الكبير. وقد أهديت إليه بعض كتيبي. . وتفضل بإهدائي مجموعة هامة من نوادر وبواكير كتبه. . متوجة كلها بإهدائه وأريحيته.

وتواصلت بيننا في العقود اللاحقة المراسلات والكتب. . وكان من تواضعه ومظاهر تعاونه العلمي أن قبل الدعوة في ديسمبر 1972 للمشاركة في الملتقى الثاني لابن منظور الإفريقي الذي كنت من مؤسسيه ومشرفاً على تنظيمه من عام 1971 إلى دورته السابعة وهو مقبل على دورته التاسعة حيث ينعقد مرة كل ثلاث سنوات بمسقط رأسي مدينة قفصة كبرى مدن الجنوب الغربي التونسي.

وآخر مرة حظيت فيها بمصاحبته والاستفادة من علمه وسعة معارفه كانت مؤتمر المجمع بالقاهرة عام 1987 ولم أذهب لمؤتمر 1988 كما أنه لم يحضر مؤتمر 1989 إذ يبدو أن المرض كان قد أثقل عليه. . وكان في عام 87 حيث أقمنا معاً في فندق البرج تظهر عليه بوضوح متاعب الصحة المنهكة. ومن طريف الحديث الذي دار بيننا عامئذ في إحدى جلسات الغداء. . أنه ذكرني بأبياته الثلاث التي كان قد ارتجلها عام 1972 عندما صاحبه إلى مدينة توزر حيث زار ضريح أبي القاسم الشابي

وترحم عليه وأنشد مرتجلاً:

أبا قاسم ها أنا قد أتيت أرد تحيتك العطره
ذكرنا ابن منظور في قفصة وزرتك في توزر تذكره
فإنكما وحياتكما لمغربنا العربي مفخره

إن قوله مخاطباً الشابي: «أرد تحيتك العطرة» إشارة واضحة لما كان الشابي قد كتبه عنه عام 1930 والذي تحدثتُ به إليه في ذلك العام ونحن في طريقنا إلى توزر مسقط ومدفن الشابي. ولم يكن - في تلك الرحلة - نص كلام الشابي عنه في حوزتي وكنت اعترم إطلاعه عليه في مءتمر فجمعنا لعام 1989 لكنه لم يحضرو ولم أسعد أنا بنشره في حياته، فعسى أن يكون إظهاره اليوم وفي هذه المناسبة الخاصة به وفي هذا الملأ الكريم تحية له وتكريماً وإشادة وتنويهاً⁽¹⁾.

إن أهمية هذا النص أو قل هذه الوثيقة تكمن في كونها صادرة عن الشابي وبخطه، وفي علاقتها المباشرة بعدد من شعراء المغرب الشباب في عام 1930.. وفي الآراء النقدية التي دونها الشابي عن هؤلاء الشعراء، وكذلك في الظروف والملابسات التي حفت بهذه الوثيقة.. فجعلتها لا تنشر في الصحافة أو في كتاب.. ولا تلقى بين جمهورها المرتقب منذ ستين عاماً. وهي التي كتبت لتلقى محاضرة في موعد محدد.

سنبداً بالظروف والملابسات التي تعود بنا إلى منتصف العشرينات حين أعلن الكاتب والصحفي التونسي المجدد زين العابدين السنوسي عن مشروعه الضخم المتمثل في إعداد ونشر كتاب عن الأدب التونسي وتاريخه وأعلامه منذ العهد البربري والفينيقي إلى العصر الحاضر. وحدد

(1) المناسبة كانت «أيام دراسية» نظمت في طنجة (1990) عقب وفاته بشهور تكريماً له وإشادة بنضاله الوطني وجهوده العلمية الزاهرة.

أجزائه بعشرين مجلداً منها أربعة تتعلق بشعراء عصره .

ولئن بقي المشروع في أبعاده التاريخية حتماً لم يتحقق فإن مجلدين كبيرين قد صدرا عامي 1928/27 عن شعراء تونس الأحياء يومئذ . وكان بينهم كبيرهم سنأ محمد الشاذلي خزنة دار وأصغرهم سنأ أبو القاسم الشابي ومصطفى خريف . وقد كان الشابي مفخرة الكتاب ومفاجأته الكبرى . . إذ كان - على علو شعره وقوة نبوغه - لم يتجاوز السابعة عشر من عمره .

ويبدو أن كتاب السنوسي قد حرك الهمم وأثار حماسة الأدباء في القطرين الشقيقين : الجزائر والمغرب إذ سرعان ما ظهر في الجزائر كتاب مماثل ، وفي جزئين كذلك ، أعده ونشره أديب جزائري هو محمد الهادي الزاهري⁽¹⁾ .

ولم يتأخر المغرب عن تقديم مساهمته في هذا المشروع الأدبي فعرف بشعرائه وترجم لهم وزكى ذلك بمختارات من أشعارهم فجاء كل ذلك كتاباً من جزئين أيضاً أحدهما - وهو الأول - خاص بشيوخ الشعر ، والثاني خصص لشعراء الشباب . . . وكان بين هؤلاء صديقنا وفقيدنا العظيم الشاب عبدالله كنون ، ولم يكن بعد قد بلغ العشرين من عمره .

وضع هذا الكتاب - كما هو معلوم - الأديب الأستاذ محمد بن العباس القباج وصدر في عام 1930 . وكان مشابهاً في مضمونه ومنهجه كتاب السنوسي التونسي ، ولم يختلف عنه إلا في جعل شعراء الشباب في جزء مستقل بينما السنوسي لم يفرق بين شعرائه من حيث الأعمار .

وقد حظي الكتاب فور وصوله إلى تونس باهتمام خاص فكتب عنه

(1) ربما كان كتاب الزاهري أسبق بعام أو بضعة شهور .

وعرف به بعض الأدباء⁽¹⁾. ولكن النادي الأدبي لجمعية قدماء الصادقية، الذي كان الشابي من مؤسسيه وأبرز وأنشط أعضائه قرر عقد جلستين أدبيتين حول الكتاب، على أن يتحدث الشابي في الأولى حول الجزء الثاني أي عن شعراء الشباب، ويتحدث الزين السنوسي في الجلسة الثانية عن الجزء الأول. وهذه الأولوية للحديث عن شعراء الشباب، ليست قراراً من النادي، كما أشرت، بقدر ما هي رغبة من الشابي وزملائه في النادي، الذين كان معظمهم شباباً أتراباً للشابي.

وتم الإعلان في الصحافة عن موعد الحديث عن هؤلاء الشعراء، وأن الشابي سيتحدث أو يحاضر في خصوصهم وخصوص شعرهم. وكان التاريخ لذلك هو يوم الاثنين 13/1/1930 ولكن المفاجأة كانت تنتظر الشابي ومحاضرتة إذ لم يحضر أحد من الناس لسماع المحاضرة؟! وكان معه في القاعة شخصان فقط هما صديقه زين العابدين السنوسي ومصطفى خريف اللذان حضرا بصحبته ولم يسبقاه. وجلس الثلاثة يتحدثون حول قصة أدبية للسنوسي في انتظار الجمهور الذي لم يأت ولن يأتي! والغريب أن الشابي سجل هذا الحدث في مساء اليوم نفسه بمذكراته أو كما يسميها يومياته، دون أن يعلق عليه بشيء؟! غير أنه في يومية الأسبوع الموالي علق بما يفسر المفاجأة ويؤرخ لها. ففي يومية الثالث عشر من الشهر - أي في مساء اليوم نفسه - كتب الشابي ما يلي:

«ذهبت أنا والأخ زين العابدين⁽²⁾ والأخ مصطفى خريف⁽³⁾ مساء اليوم إلى النادي الأدبي لإلقاء محاضرتي عن كتاب «الأدب العربي في المغرب الأقصى» الذي طلب مني النادي الأدبي أن أبسط لهم رأي فيه.

(1) منهم إبراهيم بورقة في مجلة الصادرات والواردات.

(2) زين العابدين السنوسي أديب مجدد وباعث لعديد الصحف ومشاريع التجديد والنشر بتونس توفي عام 1965.

(3) شاعر كبير من جيل الشابي توفي عام 1967.

ولكننا لم نجد أحداً هناك، فجلسنا...»⁽¹⁾.

والسؤال المثير هنا.. لماذا لم يأت جمهور النادي؟. وقد كان يقبل بالعشرات وأحياناً بالمئات على محاضراته وندواته، بما في ذلك محاضرة الشابي نفسه في العام السابق عن «الخيال الشعري عند العرب»؟ وكيف قاطع النادي والمحاضرة رغم الإعلان عنها مسبقاً في الصحافة؟ هل هذه المقاطعة الجماعية موقف أم صدفة؟ وهل هي خاصة بالشابي أم موقف كامل من النادي برمته؟

الجواب يلخصه الشابي نفسه في يومية أخرى كتبها بعد أسبوع واحد أي يوم الاثنين 1930/1/20 حيث سجل ما يلي:

«... اصطحبت الأخ المهدي والأخ خريف بعد أن اعتذر الأخ الزين عن الذهاب معنا إلى النادي الأدبي بتراكم الأعمال عليه.

«ولما وصلنا إليه ألفيناه مغلقاً، مع أن موعد الاجتماع قد مر عليه نحو العشرة دقائق. وبعد أن قرعت الباب قرعاً عنيفاً بدون جدوى، رجعنا وفي أنفسنا حسرة وأسى على المشاريع التونسية المسكينة التي لا تجد من أبناء تونس من يخلص لها حتى النهاية.

«فقد حاولنا في العام المنصرم أن ننظم سيره ببرنامج معين عيناه رغم المعارضة الكبيرة من أنصار الأساليب القديمة، فأنجج نتاجاً حسناً كان فوق ما يؤمل منه. ثم قامت ضجة «الأب سلام»⁽²⁾ إثر مسامرة امرئ القيس التي أنكر فيها الأخ المهدي⁽³⁾ وجود امرئ القيس،

(1) المذكرات ط 1966 ص 51.

(2) هو مبشر مسيحي (من مواليد مصر) استقر سنوات بتونس يعمل في نطاق مؤسسة «الآباء البيض» التبشيرية.

(3) هو محمد الصالح المهدي (1902 - 1969) صديق الشابي ومن دعاة التجديد والإصلاح.

«مسامرة الخيال الشعري عند العربي» التي جاهرت فيها بآراء لم تسفها أفكار بعض أدعياء الأدب، وعدوها ثورة على الآداب العربية وجحوداً لمزايا العرب. وتطورت هاته الفكرة في نفس الناس، والتفت حولها الأراجيف والإشاعات الكاذبة، حتى عدها بعض الجهلة زندقة وكفراً!⁽¹⁾

«قامت تلك الضجة حول المسامرات الثلاثة وحول مسامرة «سلام» بالأخص، فاحتبلها بعض المغرضين فرصة لتشويه سمعة النادي ورميه بالزيف والإلحاد إلى آخر تلك السهام التي تعلم المفسدون تسديدها إلى كل عمل راموا إحباطه في البلاد الإسلامية. فكانت تلك الحملات الكبيرة المنظمة قاضية على حركات النادي قضاء ما كنت أنصوره. فقد فتت تلك الحملات في أعضاء الأكثرية من أعضائه، ورمت في قلوبهم الرعب والهلع والجبن، فانقطعوا عن المجيء إليه إلا واحداً أو اثنين كانت لهما عزيمة صادقة وشجاعة أدبية تحترق صيحات الحروب وتهزأ بسهام المغرضين. ولكنهما عرضا عن الذهاب إليه. وما الفائدة منهما وكل أعضائه غائبون؟!»

«وهكذا كانت خاتمة العام الماضي محزنة كابية. ثم جاءت السنة الحالية فاقترح الأخ عثمان الكعاك⁽²⁾ أن تكون طريقة النادي إنما هي إثارة المواضيع لدراستها، ومن كانت له دراسة عرضها على النادي لتلقى مسامرة عامة أيام الجمع. وقررت الأغلبية هذا ولكن لم يمض على الاتفاق شهر ونصف قام خلالها كل مني والأخ عثمان الكعاك بمحاضرة: واحدة منهما تعرضت لنقد كتاب «الأدب العرب في المغرب الأقصى»،

(1) يشير بالخصوص إلى جريدة «النديم» التونسية وصاحبها الذي أعلن الحرب على الشابي أولاً وعلى الحداد ثانياً.

(2) هو العالم البحاث الكبير (1903 - 1976) كان من أعضاء النادي النشيطين راجع رسالة ممتازة له عن الشابي في كتابنا «رسائل حول الشابي».

والأخرى تعرضت لطريقة البحث في الثقافة الشرقية عند المشرقيين وعند المسلمين في الوقت الحاضر. وقد أغضبت كل منهما طائفة من الناس⁽¹⁾.

«أقول لم يمض على فتح النادي شهر ونصف حتى أخذت علائم الهرم تدب فيه. وبدأ الانحلال يأخذ منه. وتلك هي مصيبة المشاريع التونسية، يندفع القائمون بها في العمل اندفاعاً كله شغف وشوق وإخلاص، ولكنه لا يدوم. فإنه لا يلبث إلا قليلاً حتى يخبو أواره، وتركد ربحه، وينصدع شمل الجميع. تلك هي مصيبة المشاريع التونسية»⁽²⁾.

من هذه البيانات التي سجلها الشابي في يومياته ندرك بأن النادي الأدبي وأدباءه المجددين كانوا يعانون العزلة بل المقاطعة التامة من طرف الجمهور، لأنهم متهمون في دينهم ومناهج تفكيرهم بالإلحاد والزندقة. كما أن الشابي يثير في اليومية الثانية مشكلة أخرى حول هذه المحاضرة.. فهو صريح في يوميته الأولى بأنها لم تلق في موعدها المحدد بسبب غياب جمهور النادي.. ولكنه يزعم في اليومية الثانية بأنها أقيمت وأثارت ضجة؟! مع أن المدة بين اليومتين هي أسبوع واحد فقط. وقد أكد زميله وصديقه المهدي بأنها لم تلق ولم تنشر⁽³⁾. ولعل الشابي كان يفكر في محاضراته عن الخيال الشعري عندما كتب يوميته الثانية. ومما يؤكد هذا التفسير أن نص المحاضرة وصلنا في نسخته

(1) هذا يفيد أن الشابي ألقى المحاضرة ولكن أصدقاءه ومعاصريه وبينهم خريف والكعك يؤكدون عدم إلقائها، كما أشار هو نفسه في مذكراته ليوم 13/1/1930 ولعله يقصد أنه تم إعدادها والإعلان عن إلقائها.

(2) المرجع نفسه ص 64 - 65.

(3) الواقع أن المهدي مضطرب بدوره في كون المحاضرة أقيمت أم لا. مع أنه كان من الملازمين للشابي ولل قضية ذاتها.

الأصلية (أي المسودة) وأن محاضرتة عن الخيال الشعري ومحاضرات النادي في عام 1929 قد دارت حولها معارك طاحنة في الصحافة التونسية وكان نصيب الشابي من تلك المعارك ومن سهام أنصار الأدب القديم نصيب الأسد - كما يقال - فقد أنكر هو أن يكون للشعر العربي في عصوره المختلفة خيال شعري يرقى به إلى مستوى الآداب العالمية، وخاصة الآداب الأوروبية. وأعلن أن السبب في ذلك هو الروح المادية وسطحية الشعور المسيطرة عليه.. وقد تأثر الشابي في هذا الاتجاه بالعقاد ومدرسة الديوان.. ومن أقطابها العقاد.. لا سيما ما جاء في دراسته عن ابن الرومي. كما أنكر زميله محمد صالح المهدي وجود شاعر جاهلي يسمى امرؤ القيس مقتنياً في هذا الادعاء خطى طه حسين في الشعر الجاهلي... وكانت الضجة حول كتاب طه في مصر وتونس ما تزال قوية صارخة. وزاد الناس نفوراً من النادي الأدبي واتهاماً لشبابه بالمروق والتجديف.. محاضرة عن «منهج ديكرارت وطه حسين» ألقاها راهب مصري أقام مدة في تونس يدعى الأب يوسف سلام⁽¹⁾.

ومهما تكن الملابس والظروف المحيطة بمحاضرة الشابي عن شعراء المغرب، فإن ما يعنينا اليوم هو موقفه في هذه المحاضرة حول شعر فقدينا عبدالله كنون وشاعريته في زمن الشباب وبواكيره الأدبية. وكذلك بقية شعراء الشباب عامئذ.

الوثيقة النادرة

تقع الوثيقة، أي محاضرة الشابي في أربعة عشر صفحة بخطه وقد قدم لها بخطه أيضاً صديقه محمد صالح المهدي، الذي كان يعترم

(1) راجع عنه وعن نشاطه بتونس كتاب «الحركة الأدبية والفكرية في تونس» للشيخ محمد الفاضل ابن عاشور. وبحثنا عن «تونس وطه حسين».

نشرها في جريدة الزمان عقب الموعد المحدد لإلقائها فقال:

«... إن هذا الموضوع تقاسم البحث فيه هو [أي الشابي] وزميلنا الأستاذ [زين العابدين] السنوسي مدير مجلة العالم الأدبي ودار العرب بتونس. على أن يتناول الأول (الشابي) الشعراء الشبان، والثاني (السنوسي) الشعراء الشيوخ.

«وبحث هذا الموضوع من الأهمية بمكان، حيث إنه يقوي الرابطة التي يسعى لها سكان الشمال الإفريقي ويحقق ذلك الغرض الشريف الذي خصصنا له باباً بجريدتنا لخدمته»⁽¹⁾.

أي خدمة الوحدة بين شعوب المغرب العربي.

يستهل الشابي حديثه ببيان المنهج الذي توخاه في نقد الجزء الثاني من كتاب القباج، مصرحاً بأنه لن يتحدث بشيء عن مؤلف الكتاب، ولا عن طريقته في تأليفه وهل كانت طريقة أو منهجاً صحيحاً في بحثه وتقديمه وتراجمه أم كان عكس ذلك تماماً؟

كما أشار الشابي إلى أنه مقتصر في حديثه عن الشعراء الشباب لأنهم أصدق تعبيراً عن خوالج الشعب ورغباته وطموحه، وأنهم أقرب إلى نفسه ومنازعه الأدبية. . لكنه، بعد ذلك، يصدر حكماً شديداً قاسياً على معظم الشعراء الشباب، ولا يستثنى سوى أربعة، هم علال الفاسي والمختار السوسي وعبدالله كنون ومحمد القري. وقد استبد بإعجابه وتقديره بين هؤلاء الأربعة علال الفاسي. . الذي نوه به وأطال معه الحديث والأمثلة من شعره.

(1) كان المهدي عامئذ المحرر الأول بجريدة الزمان.

ومعلوم أن الجزء الثاني من كتاب القباج قد ترجم وعرف بأحد عشر شاعراً. على أن الشابي نوه في غير مجال الشعر بمعارف ومواهب الأديب محمد المكي الناصري. . وتوقع له مستقبلاً علمياً مرموقاً.

أما بقية الشعراء الستة الآخرين فإنهم - في نظره ومقياسه النقدي - غير جديرين بالعناية والدرس، فشعرهم ليس فيه، كما يقول حرفياً «ما يلفت النظر أو يثير الشعور، زيادة على ما في شعرهم من مآخذ لغوية ونحوية وعروضية»؟!

ونعود إلى تمهيد الشابي الذي استهل به بحثه أو محاضرتة. . لنرى كيف انطلق في الحديث عن هؤلاء الشعراء ثم كيف حكم على أكثرهم حكماً قاسياً وشديداً، رغم كونه محقاً فيه. . ولماذا حظي عنده شاعر واحد فقط هو علال الفاسي، ثم اختار إلى جانبه وفي الدرجة الثانية بعده - ثلاثة آخرين بينهم بوجه خاص شاعرنا الفقيه عبدالله كنون. . . ونهي مختاراتنا من محاضرة الشابي بالفقرة التي نوه وأشاد فيها بالأديب العالم الناثر محمد مكي الناصري ناصحاً له بهجر الشعر وعدم ممارسته أو العودة إليه.

يقول الشابي. . في استهلال ذلك كله ما يلي حرفياً:

«... أيها السادة...»

«لست محدثكم اليوم عن السيد قباج جامع الكتاب، وهل أنه وفق التوفيق كله في الترجمة لبعض من ضمهم كتابه. وهل أن الترجمة قد كانت على الأساليب العتيقة التي لا تعدو: ولد فعاش فمات، أو أنها كانت على الطريقة الفنية المستحدثة التي لا تكفي بدون النزعات الروحية غاية وبدون التحليل الدقيق صنيعاً.

«كما أنني لست محدثكم عن الجزء الأول من الكتاب الذي لا يحتوي إلا على طائفة من شيوخ المغرب الأقصى. . بعضهم تغلب

عليه النزعة العلمية وبعضهم تغلب عليه النزعة الصوفية وبعضهم تغلب عليه النزعة الأدبية. وإن اتفقوا كلهم في نظم الشعر وصناعة القريض.

«وإذن.. فما الذي سأحدث عنه...؟»

«سأحدث عن الجزء الثاني. هذا الجزء الذي لا يفيض إلا بتزعات الشبيبة وأحلامها. هذا الجزء الذي يمثل لنا الحياة المغربية الحاضرة بما لها من مطامح وآمال ورغبات ونوازع. هذا الجزء الذي لا يضم إلا أشعار الشباب المغربي الطموح، هو الذي أريد أن أتكلم عنه الليلة بما أستطيع، لأن أغاني الشباب وأحلامه هي عنوان حياة الشعوب. وإذن فنحن بدرسنا لشعراء الشباب المغربي سنكون قد أخذنا صورة صادقة - أو قريبة من الصدق - من الحياة المغربية الحاضرة.

«... هاته الروح الفتية الطامحة التي تتعاقب عليها عواطف الشعب وأمانيه.. فمن ثورة قاصفة عاصفة إلى لوعة متوجعة وآلهة، إلى أصوات هادئة مطمئنة. ذلكم هو ما شعرت به حينما طالعت الجزء الثاني من كتاب «الأدب العربي في المغرب الأقصى».

«فهل] في الكتاب إذن صورة حية رائعة ناطقة بأصوات ذلك الشعب المغربي وأحلامه؟»

[وهل] في الكتاب إذن مثل عليا سامية من الأدب العالي الرفيع؟

«أقول في الجواب عن هذين السؤالين: نعم ولا، أقول نعم لأن في الكتاب بعض صور حية تشعرك وأنت تقرؤها بأنها قطع «إنسانية» من لحم ودم لا أنصاب جامدة خزفية مجبلة من طينة التقليد.

«وأقول، لا، لأنها ليست عريقة في «إنسانيتها» بكل ما في الإنسانية من أفق سام ومعنى عميق زاخر بثتى المعاني والأنغام. بل هي صنف وسط ما زال في ذلك الدور النشوئي الذي بين الإنسانية والحيوانية»!؟!

بعد هذا الحكم الجارف الخطير على أدب الشباب المغربي..
يتساءل الشابي عن علة ذلك قائلاً:

«.. ما الذي - يا ترى - قد صبغ الأدب المغربي بهاته الصبغة
المتشابهة وألقى على أنفسهم [أي الشعراء] من هذا اللون الوحيد؟»

«أهو الشعب الذي ليست له أمان وأحلام غير تلك الأماي
والأحلام؟ وليس فيه من صور الحياة إلا تلك الصورة الوحيدة التي تمثله
في طموحه إلى المجد والحياة؟»

«أم هم الشعراء لا يعرفون من فنون الكلام غير هذا الفن الوحيد؟!»

«أم هناك شيء آخر له أثره الفعال في طبيعهم بهذا الطابع الفرد؟»

«لا أخال عاقلاً يعلل ذلك بأن الشعب المغربي ليست له من الصور
والأماي إلا تلك الصورة وذاك الأمل. بل علة ذلك هو أن هذه الحركة
الأدبية التي تريد أن تتصل بالشعب وتشعر بجذوة الحياة لم تزل في
طفولتها الأولى.. طفولة التقليد والبحث والتسأل. ولعل هاته الطفولة
الأدبية سيعقبها شباب قوي يدمدم في الكون كالعاصفة ويحرق كالنسر
بأشعة الشمس الساطعة!!»

«وهناك سبب آخر أحسبه علة العلل ومصدر الأسباب في اتفاق
الشعراء على نقطة واحدة وتواردهم على معنى فريد، هو أنهم لا
يطمحون إلى العظمة الشعرية المنتجة، التي لا ترضى بغير العالم مقعداً
وبغير الإنسانية أتباعاً...».

وبعد حديث آخر عن مقياس الإبداع والإجادة في الشعر الحي
الخالد... يصل الشابي إلى ما يشبه الخلاصة في أحكامه وآرائه عن
شعراء الشباب المتحدث عنهم فيقول:

«...»

«هذه كلمتي عن الكتاب من حيث روحه السارية فيه . أما كلمتي عن أسلوب ذلك الأدب وألفاظه فهي :

إن أسلوب الشعراء في الغالب لا يتسامى كثيراً فيساوي تلك الأساليب البليغة التي يتخذها أنصار القديم مثلاً يحتذى ويقاس عليه، ولا يصل إلى ما بلغت إليه هاته الأساليب الطريفة المستحدثة من أناقة وتجاوب وإبداع . . وإنما هي أساليب متوسطة لا تخلو من الغلط النحوي واللغوي في بعض الأحيان ومن المآخذ العروضية في الكثير . ولا استثنى من بين شعراء الكتاب (أي الشباب) إلا شاعراً واحداً هو السيد محمد علال الفاسي الذي «أعطاه شباب المغرب الأقصى لقب شاعر الشباب عن جدارة واستحقاق» كما يقول جامع الكتاب . . .» .

وبعد حديث مناسب عن الشاعر الشاب علال الفاسي وأمثلة مختارة من شعره . . يضيف الشابي ثلاثة من شعراء الشباب نالوا بعض إعجابه واهتمامه، وبينهم شاعرنا الفقيه عبدالله كنون . . يقول الشابي :

« . . . وهناك ثلاثة شعراء آخرين قد يعجب أسلوبهم، لا لطرافته وإبداعه ولا لروعته وجلاله، ولكنه لأنه نأى عن تلك المزالق النحوية والعروضية واللغوية التي وقعت فيها أساليب الشعراء الآخرين . . هؤلاء الثلاثة هم :

- السيد محمد القرني

- والسيد عبدالله كنون⁽¹⁾ .

- والسيد محمد المختار السوسي» .

ويستشهد الشابي بأبيات للشاعرين الأول والثالث ثم يقف عند

(1) في كتاب القباچ كما في وثيقة الشابي كتب لقب الشاعر «جنون» بالجيم المعطشة وكانت هكذا في عصرهما . أما الآن فإن أهل المغرب وكذلك فقيدنا «كنون» يكتبونها بالكاف فوقها فتحه .

شاعرنا الشاب عبدالله كنون، وبالتحديد عند قصيدة له نالت إعجاب الشابي فنقل أكثر أبياتها في محاضراته. وهي بعنوان «ثباتي وحزمي». كما في كتاب القباج⁽¹⁾ ومحاضرة الشابي. ولكنها في ديوان كنون⁽²⁾. تحت عنوان آخر هو: «الحماسة العصرية»⁽³⁾ ولعل الشابي قد شده إليها توجهاتها الوطنية وما طفحت به من عزة في النفس وطموح إلى المجد والمثل العليا.

ومن الطريف الملفت للنظر. أن الشيخ القباج قد حذف كلمة لها معنى سياسي ووطني من البيت الأخير ولكن الشابي اهتدى إليها بحدسه البارع وحسه الشعري. وواضح أن السبب في حذف هذه الكلمة عند القباج هو حذره من سلطة الحماية، ولعل حذفها كان من طرف الرقيب الاستعماري. على أن كلمة الشابي المضافة قد كانت هي نفسها التي أثبتها صاحب القصيدة في ديوانه عندما صدر عام 1966.

تتكون القصيدة في كتاب القباج وفي الديوان من ستة عشر بيتاً. وقد اختار الشابي ثلاثة أبيات ثم تسعة أبيات، وترك أربعة، والأبيات المتروكة هي من رقم 4 إلى 7 بدخول الغاية. وفيما يلي الأبيات المختارة عند الشابي.

«ويقول السيد عبدالله كنون من قصيدته «ثباتي وحزمي»:

- 1 - أما وشبابي في العلا قسما برا لأنني امرؤ أبى المهانة والضييرا
 - 2 - أحميد بنفسي أن تهان كرامتي وأربأ أن أسعى لما يوجب العذرا
 - 3 - إذا قيل هيا للفضيلة لم يكن ليسبقني من جد في نيلها السيرا
- إلى أن يقول:

(1) ج 2 ص 38.

(2) عنوانه «لوحات شعرية» ط. تطوان، 1966.

(3) ص 23.

- 8 - يقول حسودي إنني متدنيء⁽¹⁾ وكيف ونفسي قد تجاوزت الشعري⁽²⁾
- 9 - لئن غره مني مداراة جاهل
- 10 - ولي بين أضلعي⁽³⁾ وبين جوانحي
- 11 - أحمله ما ناء رضوى ببعضه⁽⁴⁾
- 12 - ويأبى التصابي والتعلق بالهوى
- 13 - فلا حب إلا للبلاد وأهلها
- 14 - أرى أنني إن لم أعد بسعادة
- 15 - وإني إذا حققت ما أبتغي لها⁽⁶⁾
- 16 - فيا وطني لا بت إلا [محرراً]⁽⁷⁾ ويا أمتي لقيت في سعيك البراء⁽⁸⁾
- فإن السياسي من يداري الورى طرا
فؤاد يُرى في حادثات الدنا صخرا
فيحمله لا يُستَحَسُّ⁽⁵⁾ له وقرا
لأنهما للهون كانا معاً جسرا
تخلل أنفاسي وأشربته خمرا
على أمتي - يا حسرتا - مت مضطرا
كفاني بأن حققت ثم لا فخرها
ويا أمتي لقيت في سعيك البراء⁽⁸⁾

إن كلمة «محرراً» التي قالها الشاعر في بيته الأخير: «يا وطني لا بت إلا محرراً...» والتي حذفها القباچ أو حذفها الرقيب هي التي أضافها الشابي من عنده وهي الكلمة نفسها التي أثبتتها كنون في «لوحاته الشعرية». لأنهما شاعران مخلصان للشعر وللفن وللوطن والشعب. ولأن القصيدة طافحة بمعاني النخوة والعزة الوطنية، وبروح الإخلاص والحب للوطن، فإن الشابي قد اقتصر عليها ولم يتجاوزها إلى غيرها.

- (1) هكذا عند القباچ والشابي ولكن الشاعر غيرها في الديوان بـ «متطامن».
- (2) هو الكوكب المعروف الذي يظهر في شدة الحر.
- (3) هكذا عند القباچ والشابي. والأصوب ما جاء في الديوان: «أضلاعي» لصحة الوزن.
- (4) في الديوان: «بحمله».
- (5) في الديوان: «يستحسن» بزيادة النون. وهو خطأ مطبعي.. كم يبدو.
- (6) في الديوان: «لهم».
- (7) كلمة «محرراً» عوضت بنقط عند القباچ، وقد أضافها الشابي بحدسه الشعري وحسه الوطني. وقد كانت هي نفسها في الديوان عندما طبع عام 1966.
- (8) القصيدة كاملة في الديوان ص 22 - 23.

ولعل ذلك أيضاً هو السبب الذي حمل الشاعر على تغيير عنوانها القديم، الذي كان عنواناً ذاتياً خالصاً فجعله عنواناً أكثر انطباقاً على فحوى القصيدة وأصدق تعبيراً عن المشاعر الوطنية العارمة فيها.

ونتهي جولتنا وفقراتنا المختارة من وثيقة الشابي عن شعراء المغرب الشباب في عصره بما ختم به محاضراته من رأي عن الشاعر الشاب (عامئذ) محمد المكي الناصري حيث قال عنه:

«بقي لنا شاعر جدير بي أن أحدثكم عنه وهو السيد المكي الناصري نزيل القاهرة الآن وأحد تلامذة الجامعة المصرية هناك. فقد ذكر هذا الشاعر في ترجمته التي كتبها بنفسه كثيراً من الآراء القيمة في أسلوب متين جميل. ومما ذكره هو أنه سأل فريقاً من زملائه «شعراء الشباب: هل حسن أن أمضي في معالجة الشعر أو انصرف عنه إلى غيره؟ فقالوا في لهجة مخلصلة لا رياء فيها ولا نفاق. كأنك لم تخلق لأن تكون شاعراً، ولعل استعدادك للعلم أقرب من استعدادك للشعر، ولعل البلاد ستنتفع بك كعالم أكثر من أن تستفيد منك كشاعر». وأنا أنصح له في غير رياء ولا نفاق أيضاً أن ينصرف عن الشعر إلى العلم والكتابة لأنني أرى أنه سيكون له مستقبل علمي زاهر وحياة كتابية مزدهرة...». فهل تحققت فراسة الشابي... واستجاب الناصري لنصيحته؟ الجواب بنعم أو، لا.. هو من حقكم واختصاصكم.

النص الكامل للمحاضرة

«مع تعليقات وشروح ضرورية»

حمداً وصلوةً وسلاماً

أيها السادة

أيها الرفقاء

لست محدثكم اليوم عن السيد قباج⁽¹⁾ جامع الكتاب⁽²⁾، وهل أنه وفق التوفيق كله في الترجمة لبعض من ضمهم كتابه، وهل أن الترجمة قد كانت على الأساليب العتيقة التي لا تعدو: ولد فعاش فمات... أو أنها كانت على الطريقة الفنية المستحدثة التي لا تكتفي بدون النزعات الروحية غاية، وبدون التحليل الدقيق صنيعاً.

كما أنني لست محدثكم عن الجزء الأول⁽³⁾ من الكتاب الذي لا يحتوي إلا على طائفة من شيوخ المغرب الأقصى، بعضهم تغلب عليه النزعة العلمية⁽⁴⁾ وبعضهم تغلب عليهم النزعة الصوفية، وبعضهم تغلب عليه النزعة الأدبية وإن اتفقوا كلهم في نظم الشعر وصناعة القريض.

لست محدثكم عن واحد من هذين الموضوعين لأن الأخ زين العابدين⁽⁵⁾ قد تعهد بالتحدث إليكم عن كليهما، وإذاً فما الذي سأحدث

(1) هو محمد بن العباس القباج المذكور في التقديم.

(2) كتاب القباج «الأدب العربي في المغرب الأقصى» ط 1. الرباط 1930.

(3) المخصص للشعراء الشيوخ.

(4) بالمفهوم الشائع عامئذ في معاهد التعليم التقليدية؛ بمعنى متخصص في «العلوم الدينية».

(5) زين العابدين السنوسي، صديق الشابي ونصيره في حياته الأدبية وفي النادي الأدبي لجمعية «قدماء الصادقية» حيث تقرر أن يلقي الشابي كلمته هذه عن شعراء =

عنه ليلتذ؟ سأحدث عن الجزء الثاني من الكتاب، هذا الجزء الذي لا يفيض إلا بنزعات الشبية وأحلامها، هذا الجزء الذي يمثل لنا الحياة المغربية الحاضرة بما لها من مطامح وآمال ورغبات ونوازع، هذا الجزء الذي لا يضم إلا أشعار الشباب المغربي الطموح: هو الذي أريد أن أتكلم عنه الليلة بما أستطيع لأن أغاني الشباب وأحلامه هي عنوان حياة الشعوب. وإذا فحن بدرسنا لشعراء الشباب المغربي سنكون قد أخذنا صورة صادقة - أو قريبة من الصدق - من الحياة المغربية الحاضرة.

(ماذا وجدت حين قرأت الكتاب؟ وما أحسست حين قرأت قصائد الشبية المغربية؟)⁽¹⁾.

حركات فنية في مستهل نهضتها الأولى تحاول أن تجد لها مركزاً تحت نور الشمس.

وحياة تجيش بها قلوب الشباب المغربي الطامح إلى المجد والعللا.

وأرواح نزاعة إلى الثورة على ما بالمغرب الأقصى من طقوس وعادات لا يرتضيها الدين ولا يقرها العقل المفكر.

ونفوس دائبة على الدعوة إلى إصلاح بلادها من نواحيها الدينية والاجتماعية.

وهي في دعوتها تلك، تارة تكون مندفعة عنيفة ثائرة، وأخرى هادئة لينة ساكنة، وأحياناً شاكية منتجة تبكي مجدها الضائع الأثيل.

تلك الحياة المستيقظة الساعية إلى نور الشمس وأنسام الوجود،

= الشباب من كتاب القباج المخصص لهم الجزء الثاني، أما الجزء الأول المخصص للشعراء الشيوخ فقد تعهد السنوسي بالحديث عنه، لكنه لم يفعل.

(1) ما بين القوسين الكبيرين مشطوب عليه في الأصل.

وهاته الروح الفتية الطامحة التي تتعاقب عليها عواطف الشعب وأمانيه: فمن ثورة قاصفة عاصفة إلى لوعة متوجعة والهة، إلى أصوات هادئة مطمئنة، ذلكم هو ما شعرت به حينما طالعت الجزء الثاني من كتاب «الأدب العربي في المغرب الأقصى».

ففي (1) الكتاب إذاً صورة حية رائعة ناطقة بأصوات ذلك الشعب المغربي وأحلامه؟

وفي (2) الكتاب إذاً مثل سامية من الأدب العالي الرفيع؟
أقول في الجواب عن هذين السؤالين: نعم ولا.

أقول نعم، لأن في الكتاب بعض صور حية تشعرك وأنت تقرؤها بأنها قطع «إنسانية» من لحم ودم، لا أنصاب جامدة خزفية مجبلة (3) من طينة التقليد.

وأقول لا، لأنها ليست عريقة في «إنسانيتها» بكل ما في الإنسانية من أفق سام ومعنى عميق زاخر بشتى المعاني والأنغام. بل هي صنف وسط ما زال في ذلك الدور النشوي الذي بين الإنسانية والحيوانية.

هي قطع صبت في قالب واحد، ونضدت على نسق فرد، فكانت نمطاً واحداً في التفكير والمشاعر والعواطف. . . وكانت أنغاماً متشابهة متقاربة المقاطع والنبرات، كأنها صادرة من وتر واحد في قيثاره واحدة. . . ولعلنا نكون أقرب إلى الصواب حين نقول: إنها أنشودة واحدة تقصر حيناً وتتطاول أحياناً، ولكنها في الحالتين صادرة من حنجرة واحدة. . . فهي لا تمثل عواطف شعب بأكمله له مطامحه ورغباته، له ملذاته وشهواته، وله طبيعته الجميلة التي توحي إلى

(1) هكذا في الأصل (راجع بعد) بخط الشابي والصواب أن يكتب: فهل في . . .

(2) هكذا أيضاً بخط الشابي، والمناسب أن يقول: وهل في

(3) أي مصنوعة . .

قلوب⁽¹⁾ ما توحيه وتوقظ في أنفسهم ما توقظ من شتى العواطف والخواطر، وهي لا تصف حياة أمة بأسرها، من بينها⁽²⁾ البر والفاجر، والآثم والطاهر، والطفل اللاعب بين أحضان أمه، والغادة الحالمة بين موحيات الحب وأضوائه، وفيها الشباب المتوثب بعزم الحياة. والكهل المثقل بمتاعب العيش وتكاليفه، والشيخ الذي هدمت قواه الأيام فأصبح فريضة⁽³⁾ بالية ترتعد في شتاء الحياة، فهي منتظرة نزول الصاعقة وانقشاع الغيوم، وفيها الشاعر التائه بين سدم الوجود ومعضلات الأيام المتغني بفتنة الحب وجمال الربيع، الباكي مع الإنسانية السائرة في موكب الأيام. والصوفي العاكف في صومعته المنفردة يناجي ربه بنفس يعذبها الخوف ويطربها الرجاء.

كل هذه الصور الحية الإنسانية لا وجود لها بين قطع هذا الكتاب وإنما هي صور غير متعددة لناحية واحدة⁽⁴⁾ من النفسية المغربية وهتاف متواصل إلى الإصلاح الديني والاجتماعي يردده شباب المغرب الأقصى في كل لحظة وأن.

وما الذي يا ترى قد صبغ الأدب المغربي بهاته الصبغة المتشابهة وألقى على أنفسهم من هذا اللون الوحيد؟.

- أهو الشعب الذي ليست له أمان وأحلام غير تلك الأماني والأحلام، وليس فيه من صور الحياة إلا تلك الصورة الوحيدة التي تمثله في طموحه إلى المجد والحياة؟.

(1) هكذا وردت في الأصل.. ولعل السياق يناسبه: «قلوبهم».

(2) كلمة غير واضحة، ويمكن أن تقرأ: من بينها...

(3) هكذا كتبها بالصاد، ولعله يشير إلى ما يصيب الخائف المستهدف: من فزع ورعب ومنها ارتعدت فرائضه.. من شدة البرد أو من شدة الخوف.

(4) في هذه الفقرة تشطيب وإصلاح.. وقد اعتمدنا ما اختاره الكاتب (راجع الأصل).
الآتي بعد هذا.

- أم هم الشعراء لا يعرفون من فنون الكلام غير هذا الفن الوحيد؟

- أم هناك شيء آخر له أثره الفعال في طبعهم بهذا الطابع الفرد؟ .

لا أخال عاقلاً يعلل ذلك بأن الشعب المغربي ليست له من الصور والأمازيغية إلا تلك الصورة وذلك الأمل⁽¹⁾، بل علة ذلك هو أن هذه الحركة الأدبية التي تريد أن تتصل بالشعب وتشعر بجذوة الحياة لم تنزل في طفولتها الأولى، طفولة التقليد والبحث والتساؤل.

ولعل هاته الطفولة الأدبية سيعقبها شباب قوي يدمدم في الكون كالعاصفة ويحرق كالنسر بأشعة الشمس الساطعة.

وهناك سبب آخر أحسبه علة العلل ومصدر الأسباب في اتفاق الشعراء على نقطة واحدة وتواردتهم على معنى فريد، هو أنهم لا يطمحون إلى العظمة الشعرية المنتجة التي لا ترضى بغير العالم مقعداً وبغير الإنسانية أتباعاً، وإنما هم شاعرهم، إذا ما طمح، أن يكون كواحد من شعراء بلاده الذين يعترف لهم بالفضل والأسبقية. ذلك المطمح الصغير الضئيل هو كل ما تجده في نفس الشاعر المغربي الناشيء في صناعة الشعر، وهذه القناعة الروحية هي شر ما يُمنى به شعب في بدء نهضته، أو شاعر في مستهل حياته؛ لأنها تقضي عليه بأن لا يتجاوز تلك الدائرة الضيقة من الحياة وبأن لا تتكون في نفسه نزعة الاستقلال في الفكر والعاطفة والشعور. وكيف تتولد في نفسه هاته

(1) للشابي رأي مماثل، وبنفس الألفاظ - تقريباً - في «الشعب التونسي وشعرائه المعاصرين له». راجع مقالته: «الشعر والشعراء عندنا»، وفي المناسبتين يتهم الشابي الشعراء بالقصور والعجز والتقصير. ويدافع عن الشعب بأنه ملهم ومصدر عبقرية وإبداع. بل ويعد الشعراء الشعبيين أصدق تعبيراً من شعراء الفصحى عن مشاعر الشعب وأماله ومطامحه. راجع بحثنا عن «موقف الشابي من الأدب الشعبي».

الزعة السامية التي هي أول عنصر لعظمة النفس وإنتاجها وهو لا يطمح
إلا إلى أفق ضيق محدود ولا يغذي روحه إلا بذلك المطمح التافه
الصغير . . .

وليس أدل على وجود هاته القناعة الروحية في شباب المغرب
الأقصى من قصيدة «لِمَ لا أقول الشعر كيف أريد؟» التي قالها أحد شعراء
الكتاب وهو السيد محمد المختار السوسي⁽¹⁾.

يقول:

لما لا أقول الشعر كيف أريد وأنا بينان الشعور وقود
لما لا أقول وإنني متململ في حين أن القائلين رقود
وأناهم السحر الحلال وما انتحي قلمي أنا إلا صفا وحديد

أجل! إن أدب المغرب الأقصى الذي بهذا⁽²⁾ الأدب - ليس من
الأدب العالي في روحه:

أولاً: لتوارد شعرائه على منهل واحد؛ والتوارد عندي دليل على
فقر في الشاعرية وجذب في الخيال وضعف في الإحساس بمظاهر هذا
الوجود الرائع وطواياه، وليس أدل على حياة الأمة أو حياة شعرائها -
بدقة المعنى - من اختلاف في منازع التفكير ومناهج الرأي وأنماط اللفظ
والصياغة، لأن ذلك يدل على وجود نزعة استقلالية في نفوس
الشعراء.. هي أعظم دليل على القوة الحيوية والثروة الشعرية التي تنأى
بصاحبها عن التقليد وتنزع به إلى أن يجوب كالنسر أجواء الوجود
ويتشرف كالنحلة من رحيق الحياة ما بين الأشواك والزهور..

(1) يتألم من قصوره عن اللحاق ببعض شعراء المغرب الأقصى والجزائر «تعليق
للشابي».

(2) هكذا بخط الشابي.. ولعله سهو منه. وأنه يريد «كهذا الأدب»..

ثانياً: إن المقياس الأدبي الذي أعرف به سمو الأدب من دنوه هو أنني حين أتلو شيئاً من الأدب وأشعر باتساع أفق الحياة في نفسي وبارتفاع درجة الإحساس في قلبي فذلك هو الأدب العالي وإلا فذلك هو الأدب الوضيع؛ وهذا لاعتقادي أن الشاعر الحق يجب أن يكون من نوع أرقى من البشرية يمتاز عنها بقلب ملتهب وإحساس دفاق ونفس عبقرية بأطيافها وأحلامها، ومن كان كذلك فلا بد أن تكون آثاره قطعاً من جوهر الحياة فيها ما فيها من إحساس قوي، وشعور دقيق، وجمال رائع. وأنا حين قرأت هذا الكتاب لم أجد من بينها ذلك الأدب الذي يوسع في نفسي أفق الحياة ويجعلني أشعر بهذا الوجود أو ببعض ما فيه أكثر مما ألفت أن أشعر، ولم أَلَف بين شعرائه ذلك الشاعر الذي يسمو عن المستوى الإنساني المألوف بإحساسه وأحلامه؛ وإنما وجدت قطعاً أقرأها فأظلل على ما عهدت نفسي من قبل، ونفوساً عادية من العنصر البشري المألوف.

هذه كلمتي عن الكتاب من حيث روحه السارية فيه، أما كلمتي عن أسلوب ذلك الأدب وألفاظه فهي:

إن أسلوب الشعراء في الغالب لا يتسامى كثيراً فيساوي تلك الأساليب البليغة التي يتخذها أنصار القديم مثلاً يحتذى ويقاس عليه، ولا يصل إلى ما بلغت إليه هاته الأساليب الطريفة المستجدة من أناقة وتجاوب وإبداع. وإنما هي أساليب متوسطة لا تخلو من الغلط النحوي واللغوي في بعض الأحيان ومن المآخذ العروضية في الكثير، ولا أستثني من بين شعراء الكتاب إلا شاعراً واحداً هو السيد محمد علال الفاسي الذي «أعطاه شباب المغرب الأقصى لقب «شاعر الشباب» عن جدارة واستحقاق». كما يقول جامع الكتاب. ففي شعر هذا الشاعر وحده أجد رصانة اللفظ وتناسق الكلمات وصدق التركيب وحرارة العاطفة، وأحسن

أن بين جنبيه شاعرية ناشئة كان لها أن تحلق في جو أفسح مما هي فيه الآن لو عاشت في وسط أرقى من ذلك الوسط ولو ثقفت بثقافة أسمى من تلك الثقافة، وكان لها أن تأتي بأنغام أحلى وأعذب من أنغامها؛ ولو أتاح لها القدر من رياح الحياة ما هو أقوى وأسمى مما يخالج أوتارها من نسيمات. بل إنني أعتقد أن هذا الشاعر سيكون له شأن في تاريخ الحياة الأدبية في المغرب الأقصى⁽¹⁾. ولكي يتبين لكم جمال أسلوب هذا الشاعر وصفاء ديباجته وسلامتها من الركة والتكلف سأتلو عليكم بعض قصائد له؛ يقول في قصيدة خاطب بها الشبيبة المغربية التي ألفت من بينها جوقاً مثل رواية «صلاح الدين الأيوبي»:

كل صعب على الشباب يهون هكذا همة الرجال تكون
 قدم في الثرى وفوق الثريا همة قدرها هناك مكين
 قد حسبناهم رجالاً فكانوا ولهم في الحياة مغزى ثمين

ويقول من قصيدة «سيعرفني قومي»:

أبعد مرور الخمس عشرة العب وأهلوا بلذات الشباب وأطرب
 ولي نظر عال ونفس أبية مقاماً على هام المجرة تطلب

إلى قوله «تعيرني هند...»... ومنها:

وما ساءني في القوم إلا عقولهم وظنهم أن المعالي توهب
 وكنت أرى تحت العمائم حاجة فما هي إلا أن يدوم المرتب
 بلوت بني أمني سنين عديدة فألفيت أن النشأ للخير أقرب

(1) كان لملال الفاسي شأن وأي شأن في المغرب الأقصى خلال العقود اللاحقة وإلى تحقيق الاستقلال عام 1956 ولكن ذلك الشأن الشامخ الرفيع كان في ميادين السياسة والوطنية والكفاح التحريري، أما الشعر فرغم ممارسته له وإنتاجه المتواصل فيه فإنه لم يتجاوز قط «أدب الفقهاء» أو أواسط الشعراء النظامين، وكل مسخر لما خلق له وتمرس عليه؟!.

ولكن أين النشأ؟ فهو موله وأين ضمير النشأ فهو محجب
تحجبه الآباء عن كل حكمة وتمنعه عن كل ما قد يهذب

فما قولكم في هاته الديباجة الناصعة والأسلوب الرصين؟ أما
المواضيع التي يطرقتها السيد علال بهذا الأسلوب الجميل فهي عين
المواضيع التي يطرقتها غيره من شعراء بلاده الذين ربما قصرُوا عن
اللحاق بلهجته الصادقة حتى أننا رغم قوله في بعض شعره:

الشعر روح في الفؤاد كريمة يوحى إليها الكون ما يخفيه
لا نجد في شعره ما أوحاه إليه هذا الكون الكبير!!

وهناك ثلاثة شعراء آخرين قد يعجب أسلوبهم الشعري لا لطرفته
وإبداعه ولا لروعته وجلاله ولكنه لأنه نأى عن تلك المزالق النحوية
والعروضية واللغوية التي وقعت فيها أساليب الشعراء الآخرين، هؤلاء
الثلاثة هم السيد محمد القري والسيد عبدالله جنون⁽¹⁾ والسيد محمد
المختار السوسي.

يقول السيد محمد القري من قصيدة عنوانها «ما لقومي»:

زاد في الطين بلة وفسادا من على الجهل والضلال تماغى
يظهر الحق للعيان فييدي مع بيان الدليل منه عنادا
ايه ما أبين الحقائق لنا س وهم كلهم يرون السدادا

(1) في كتاب القباج جاء لفظ «جنون» بالجيم كما نقله الشابي، ولكن هذه الجيم هي القاف المعطشة، وكان الشاعر نفسه يكتبها بالكاف. . عليها ثلاث نقط أو الكاف عليها علامة خاصة، وراجع عن الشاعر العلامة المناضل عبدالله كتون مقالنا عنه أثر وفاته (عام 1989) بكتابنا «دراسات في التاريخ والتراث» وبحثنا عن موقف الشابي من شعره (بمناسبة الذكرى الأولى لوفاته مجلة الحياة الثقافية (تونس) عدد 1990/57 وقد جعلناه مدخلا «لمحاضرة الشابي عن شعراء المغرب» الواردة أعلاه.

هم بخير في أمرهم ما أقاموا الد
فإذا ما عموا عن الحق بادوا

ويقول منها:

علم الجاهلون أنهم في ال
لم يظنوا أنا فطنا لهم من
واستطابوا حلاوة الجهل فيهم
وجدوا فيه راحة فاستكانوا
إنما الجهل لا يكلف اهلي
لا يذوقون منه مر سؤال
عرفوا أننا عرفنا على ما
مثل من كان في المنام رأى في
راء في النوم أنه في جنان
فاستلذ المنام لم يبخ أن ي
خوف أن تذهب الملة عنه
يفتح العين ثم يغمضها مظ
فهو يبدي تناوما ويغطي
ليعود النهار ليلاً فتأتي
ما لقومي عموا عن الجد اللا
ولوا عن طريقه الواضح الاع
ما كفاهم جهل الرجال فزادوا
تعلم البنت ما تعلمه الأب
ما لها لا تعلم العلم واهما
وبقاء الفتاة جاهلة عا

ين والعلم واستبانوا الرشادا
واضحلوا ثنى ثنى وفرادى

جهل ما يطلبون منه ازديادا
قبل أن يقلبوا علينا المرادا
والى الجهل أخلدوا إخلادا
له واستوطنوه قصرا مشادا
به بما يتعب العقول الحدادا
في أمور تعيي البليغ السدادا
ينطوي سيرهم فعموا المرادا
ه ملذات فاستطاب الرقادا
يقطف الزهر وهو يجني القتادا
قظ عوض من نومه الامادا
ثم لا يلقي بعد إلا الوسادا
هر نوم وما المنام ارادا
وجهه كي يرى الضياء سوادا
ه رؤى مثلها تسر الفؤادا
حب واستبدلوا به الايرادا
لام من جهلهم فضلوا المرادا
له جهل النساء وإبعادا
ن ودين الإسلام أبدى اتحادا
لكن قد ألفتهم الألحادا
ر عليكم لا ينقضى الآبادا

أين دين أتى بحرمانها من ه ضللت لا تعرفون الرشادا⁽¹⁾
ألخ القصيدة .

ويقول السيد عبدالله جنون⁽²⁾ من قصيدة «ثباتي وحزمي» :

أما وشبابي في العلا قسما برا
أحيد بنفسي أن تُهان كرامتي
إذا قيل هيا للفضيلة لم يكن
ليسبقني من جد في نيلها السير
لأنني امرؤ أبى المهانة والضيـرا
وأربأ أن أسعى لما يوجب العذرا
إلى أن يقول :

يقول حسودي إنني متدنـىء
لئن غره سنى مداراة جاهل
ولي بين أضلاعي وبين جوانحي
أحمله ما ناء رضوى ببعضه
ويأبى التصابي والتعلق بالهوى
فلا حب إلا للبلاد وأهلها
أرى أنني إن لم أعد بسعادة على أمتي
وإنني إذا حققت ما ابتغي لها
فيا وطني لا بت إلا (محررا)⁽³⁾
وكيف ونفسي قد تجاوزت الشعري
فإن السياسي من يداري الورى طرا
فؤاد يُرى في حادثات الدنا صخرا
فيحمله لا يستحس له وقرا
لأنهما للهون كانا معاً جسرا
تخلل أنفاسي وأشربته خمرا
-يا حسرتا -مت مضطرا
كفاني بأن حققته ثم لا فخرا
ويا أمتي لقيت في سعيك البرا
وأما السيد محمد المختار السويسي فلا أريد أن أتلو عليكم شيئاً

(1) واضح جداً - كما أشرنا في التقديم - أن الشابي لا يروق له مثل هذا الشعر الركيك الثقيل .. وإنما اختاره، كما اختار غيره، لما يتوجه به ويدعو إليه من يقظة وإصلاح وتنوير.

(2) في الأصل محمد عبدالله جنون، والأصح ما أثبتناه: عبدالله كنون.

(3) كلمة «محررا» زادها الشابي من تقديره .. ومكانها بياض في الكتاب. راجع تقديمنا لهذه المحاضرة.

من شعره لأن خير قصائده هي: «لما لا أقول الشعر كيف أريد» وقد تلوتهما عليكم من قبل (ومع ذلك فإنها لم تسلم من بعض هنوات كاستعمال كلمة «كيف» بمعنى «مثلما» وأنا لا أعرف في العربية أن تستعمل بهذه المعنى) (*).

بقي لنا شاعر جدير بي أن أحدثكم عنه وهو السيد المكي الناصري نزيل القاهرة الآن⁽¹⁾ وأحد تلامذة الجامعة المصرية هناك⁽²⁾ فقد ذكر هذا الشاعر في ترجمته التي كتبها بنفسه كثيراً من الآراء القيمة في أسلوب متين جميل، ومما ذكره هو أنه سأل فريقاً من زملائه «شعراء الشباب»: هل حسن أن أمضي في معالجة الشعر أو أنصرف عنه إلى غيره؟ فقالوا في لهجة مخلص لا رياء فيها ولا نفاق: «كأنك لم تخلق لأن تكون شاعراً، ولعل استعدادك للعلم أقرب من استعدادك للشعر ولعل البلد ستنتفع بك كعالم أكثر من أن تستفيد منك كشاعر»⁽³⁾.

وأنا أنصح له في غير رياء ولا نفاق أن ينصرف عن الشعر إلى العلم والكتابة، لأنني أرى أنه سيكون له مستقبل علمي زاهر وحياة كتابية مزدهرة، أما ما ذكر في الكتاب من شعره فلا يدل على شيء من التوفيق في صناعة الشعر؛ لأن الروح الشعرية التي تنير لنفس الشاعر مسالك

(1) أي في عام 1930 عام صدور كتاب القباج وكتابة (سمر الشابي) عنه.

(2) واضح أن الشابي إنما ينقل هذه المعلومات من كتاب القباج.

(3) قد كان فعلاً - كما توسم الشابي - من كبار علماء المغرب الأقصى، ومن كبار المجاهدين عن حرية المغرب واستقلاله ووحدته الترابية، وقد أصبح (عام 1989) رئيس جمعية علماء المغرب خلفاً للمرحوم عبدالله كنون وهو أيضاً صهره (متزوج بأخت الشيخ كنون) وقد كان حاضراً ورئيساً للجلسة العلمية في ذكرى المرحوم كنون وسمع قول الشابي عنه وتلقاه بابتسامته الكريمة ومكارمه العالية. وعلمت أنه لم يترك الشعر. ولكنه من تأملاته الروحية وخصوصياته الأدبية. توفي ربيع 1994 عليه رحمة الله.

(* ما بين القوسين مشطب عليه في الأصل.

المجهول بمشعلها الجميل لم يكن له بها أدنى اتصال .
أما بقية الشعراء في هذا الجزء فلا أريد أن أحدثكم عنهم بشيء
لأنني لا أجد فيهم ما يلفت النظر أو يثير الشعور، زيادة على ما في
شعرهم من مأخذ لغوية ونحوية وعروضية⁽¹⁾.

(1) لمزيد المراجعة والتدقيق أثبتنا كامل نص الشابي بخطه في القسم الموالي .



عده او علاءة و سلمها

البر السادة

البر الرفقاء

لست محمد بنكر البيوع عن السبب فنياج حيا مع الكتاب -
وهذا انه وفي التوجيه كلكه من الترجمة لبعض من
شهر كتابه. وذلك ان الترجمة قد صارت على الاسباب
العقيدة التي لا تعد ولا تحصى؛ وله معاشرة جات
او ان كانت على الكيفية العينية المستعملة
التي لا تتغير به من الترجمات الروحية غايية
وبدون التمثل ^{الضعيف} _{الضعيف}.

لست اني لست محمد بنكر من الجزء الاول من الكتاب
الذي لا يتوجه الا على طائفة من شيوخ العرب -
بعضهم تغلب عليه النزعة العلمية وبعضهم تغلب
عليه النزعة الصوفية وبعضهم تغلب عليه النزعة
الادبية. وان اتفقدوا لهم في انكسر الشعر و صناعة
الفرص.

لست قد بنكر من واحد من الذين الموضوعين لكن الال
الذين العابدون قد تعدوا بالتمدد في كتبهم من حاضرن
بشرها

واذا انظرنا سائر - عنده ليلتنا في ساقه عن

الجزء الثاني من الكتاب - هذا الجزء الذي لا ~~يعني~~ بعض
 كما ينمات السببية واحلامه . هذا الجزء الذي يشتمل على
 الحياة المغربية الحاضرة ببلاد من مطامح وآمان وربات
 وسوازم . هذا الجزء الذي لم يفرق ~~أشعار~~ الشعراء القدامى المغربيين
 الصموح وهو الذي اراد أن أتكلّم عنه اللبنة ما استطع
 لأنه أي في الشباب - وأحلافه هي بعنوان حياة الشعوب
 وإذا نحن بدرستنا لشعراء ~~الكتاب~~ الشباب - المغربيين
 سنكون قد أخذنا صورة صادقة أو فريضة من الهدف -
 من الحياة المغربية الحاضرة
~~ماذا وجد من شأن الكتاب؟ وما وجد من~~
~~مزايا فصاحة الكتاب؟ السببية المغربية؟~~

صرّيات قبية يستعمل في الأولى كماول أن
 جدل ومزاج تحت نور الشمس . وحياءه تجيش بها
 فلوب - الشباب - المغربيين الطامح الى الجبه والعللا
 وارواحهم تهايم الى التورة على ما بالمغرب - الأفضى
 من لغوسن ومادات له يبر تفرأ الدين ولا يعرف
 العقل المعكر . ونفوسن دائمة على انه موع الى الصلح
 المغرب بلادك من نواجر الدينية واما اجتماعه . وهي
 في دموي تلك ثارة تكون مندمعة عنيفة
 سايرة . وآخرون ها دية لينة ساكنة واحيانا

عيد الهجرة النبوية

أيها السادة،

إن الأمم الحية والشعوب الشاعرة، الشعوب التي تعلم أنها لم تخلق عبثاً في هذا العالم تأكل وتلهو وتتطاحن وتموت بل إنها خلقت لغايات أنبل من ذلك وأسمى خلقت لتعين الإنسانية على الوصول إلى غاية الكمال الإنساني المنشود الشعوب التي تعرف أن لجانب هاته الحياة المادية حياة أخرى روحية هي أجل وأقدس . هاته الأمم والشعوب لا تهمل ما لها من تراث تاريخي وثروة معنوية جادت بها الأجيال . ذلك لأنها تعلم أن ليس تاريخ الأمة إلا جزءاً حياً من كيانها بل لعله أهم جزء من هذا الكيان . ولأنها تعتقد أن ليست حياة كل شعب إلا سلسلة متصلة الحلقات ترتبط فيها أفراس الحاضر بذكرات الماضي وأشواق المستقبل وأحلامه . وأن تلكم الأمة التي ليس لها ماضٍ تعتر به أو تاريخ تستند إليه ليست إلا كتلة مهملة ضائعة في غبار الأجيال وشعباً تائهاً مجهولاً يتخبط في ظلمات الـهور؛ ولذلك فإن هاته الشعوب لا تنسى ماضيها بل إنها لا تستطيع أن تنساه .

هاته الشعوب - أيها السادة - تتخذ من تاريخها هيكلاً مقدساً تزوره من آن لآخر وتقف في فنائه خاشعة النفس نائرة المشاعر، متغنية بمجد هذا المصلح أو ذاك الشاعر أو ذلك الفيلسوف، مرددة على مسامع العالم ما كان له من أثر خالد أو سعي نبيل، متخذة من ذكرى مولده أو مماته

موسماً أدبياً لا يتسامع الناس فيه إلا باسمه ولا يتذكرون إلا حديثه . . هذا يتحدث بأخباره وهذا يترنم بأشعاره وذاك يتغنى بآثاره وذلك يبسط إلى الناس زبدة أفكاره . طائفة تحاضر في حياته وموته وأخرى تسامر في طريقته وأسلوبه . وهؤلاء ينقبون عن دلائل العبقريّة في طفولته وأولئك يبحثون عنها في أيام شبابه بحيث يكون رجل الموسم ، هو روحه القوية الحية السائدة على هاتيك الربوع وفي تلك الجموع أو تقف مشيبة بذكرى ساعة من ساعاتها السعيدة الماضية أو يوم من تاريخها كان له الأثر القوي في تكييف طباعها وتلوينها بصبغة خاصة أو توجيهها في سبيل محمود، جاعلة من ذكرى ذلك اليوم أو تلك الساعة موسماً وعيداً تترف فيه تلك الذكرى على النفوس فتحرك فيها أدمق المشاعر .

ذلكم - أيها السادة - ما يقع في الأمم الحية الشاعرة التي تقدر قيمة الماضي وتعلم ما له من أثر في توجيه تيارات الحاضر والمستقبل . أما نحن - وأعني بكلمة «نحن» أمة الإسلام في مشارقها ومغاربها - فإننا لا نكاد نلتفت إلى ذلك الماضي الماجد وذلك الأمس النبيل، الحافل بعظماء الرجال وجلائل الأعمال، الزاخر بأقدس ذكرياتنا وأجمل ساعاتنا؛ ذلك الماضي المحفوف بهالة من نور لا نحفل به ولا نكاد نلتفت إليه فضلاً عن أن نقف وقفات خاشعة نمجد فيها عظيماً من عظماء الإسلام أو بطلاً من أبطاله أو عبقرياً من عباقرته الكثيرين . ورغم ما في تاريخنا من ذكريات جليلة مقدسة، ذكريات لا يكون المسلم مسلماً إن لم يقف أمامها خاشع القلب نائر الوجدان مضطرم الإحساس مشوب الشعور . رغم كل ذلك فإننا نتركها مهملة ضائعة مطمورة في غمار النسيان وإن ذكرناها أو حفلنا بها واتخذنا من بعضها عيداً فإنما نحفل به احتفالاً مادياً ننصرف فيه إلى ضروب التسلية واللهو والتأنق في المأكّل والمشرب واللباس . وربما احتفلنا بها احتفالاً أدبياً ولكنه لا يكون إلا

احتفالاً معكوساً. ولناخذ لذلك مثلاً قريباً حتى تتبين لنا هاته الحقيقة الأليمة بأنم معناها.

المولد النبوي الشريف موسم ديني يحتفل فيه المسلمون - ولا غرو - بذكرى مقدسة هي ذكرى مولد ذلك النبي الخالد نبي الإسلام العظيم فكيف ترانا نحتفل؟

يبدو لأحدنا - وهو المسلم الصميم - أن يشارك الناس في هاته الحفلة الدينية المقدسة فيمضي إلى هاته الناحية؛ فإذا ليف من الناس وألوان من الخلق وأشكال من البشر وفوج يموج في فوج وموج من ورائه وموج وضجة كأنما انطلقت شياطين الأرض تعج عجيجاً، وحناجر تكاد تنفجر وعيون توشك أن تنفطر، وطار يضج وبندير يعج، وصفوف من الناس ترقص رقصاً عنيفاً جنونياً... فيأخذ العجب من نفس صاحبنا ويسأل رجلاً بجانبه فيخبره أن القوم يحتفلون بالمولد الشريف فيسأله مستغرباً: وأين روح محمد الهادئة المطمئنة المفكرة التي يحتفلون بميلادها من هاته الضجة الخاوية والثورة الداوية؟ أو أين بساطة الإسلام في جوهره الساذج البريء مما يفعل هؤلاء الناس؟ فيقول له صاحبه في شيء من الضجر واليأس: «ماذا تقول؟ ألم تفهم؟ إنهم يحتفلون بمولد النبي قلت لك!». ثم يعرض عنه في شيء من العنف إلى ذلك الضجيج والعجيج.

فيخرج صاحبنا فاراً بنفسه من هاته الأمة الظالم أهلها عله يجد فريقاً آخر أقوم وأهدى سبيلاً. فما هو إلا قليل حتى يتعثر بحلقة أخرى من الناس فإذا شكل آخر من أشكال الطلال ولون جديد من ألوان هذه الحفلات المعكوسة، طائفة من الشبان المتأنقين، وفريق من الشيوخ المتشدقين، وثلة من المنصتين، يقضون ليلهم بين نقر الطار وتحريك الأوتار والتغني بماجن الأشعار؛ فمن طرف كحيل إلى خد أسيل إلى

صباية مصبوبة وأشواق مشبوبة. فيسأل صاحبه بجانبه فما يفعل هؤلاء الناس؟ فيقول له في شيء من الاستغراب: إنهم ينشدون قصيدة «في الجد» للشيخ فلان يتشوق فيها إلى المقام المحمدي. فيعجب صاحبنا من هاته الغرائز الممسوخة والطبائع المرتكسة والأفهام السقيمة المعوجة والنفوس الوقحة التي لا تستحي أن تتغنى «بسحر الجفون» و«توهج الخدود» في مجلس يُحتفل فيه بذكرى مولد ذلك النبي العظيم بل لا تخجل أن تسند هاته الجمل وما إليها من تلك الكلمات الخليعة الماجنة إلى ذات المصطفى (ص) فيهمّ صاحبنا أن يصرخ فيهم قائلاً:

«أيها الناس! ما كان محمد رسول الجمال ولا شاعر الحب حتى تحيوا ذكره بمثل هاته المعاني الغرامية، ولكنه كان رسول الله وخاتم النبيين جاءكم بالهدى ونور الحق والرحمة والموعظة الحسنة. فإذا أردتم أن تحتفلوا بذكراه فاحتفلوا بهاته المعاني القديسية السامية. وبهاته المعاني الجليلة يجب أن يتغنى شعراؤكم ويتحدث خطباؤكم ويتكلم محاضروكم. مالكم ضللتكم حجة الحق فأصبحتم لا تفرقون بين الظلمة والنور؟ ولا بين الظل والحرور؟ وأصبحتم ولا تكادون تميزون بين ذكرى النبوة في معناها الرائع المقدس الجليل وبين ذكرى الجمال في معناه الساحر الجميل!». .

ثم يبدو له فيعدل عن رأيه لأنه يعلم أن صرح الضلال والأباطيل لا تنفسه صيحة رجل فرد. ثم يذهب من ذلك المجتمع الوبيل فما يكاد يمشي إلا قليلاً حتى يجد حلقة فيها جمع من الناس يهتفون بأصوات غليظة منكرة ببعض القصائد، فيصغي قليلاً. فإذا هي أناشيد دينية باردة خالية من ذلك الإحساس الديني العميق الذي يثير المشاعر ويهز الكيان هزاً. وليس من تلك الأناشيد القوية الثائرة التي تشتعل حماساً حتى تكاد تلمس فيها رفرقة اللهب المشبوب، وإنما هي ألفاظ مقفرة مرصوفة على نمط مخصوص، وجمل خاوية لا تكاد تحرك عاطفة دينية أو نزعة

إسلامية أو فضيلة إنسانية... فتغشى نفس صاحبنا ويصدأ ذوقه ويشعر بالحاجة إلى أفق أفسح من هذا الأفق الخائق الوبيل، ويخرج من هاته المحافل وفي نفسه آلام وحسرات، آلام لما سمع وشاهد وحسرات على هاته الأمة التي لا تعرف حتى كيف تحتفل بذكرياتها المقدسة!

تلكم - أيها السادة! - صورة مصغرة من احتفال هذه الأمة بأقدس ذكرى حفظها لها التاريخ وفي جميعها لا يجد المرء شيئاً من طبيعة الإسلام السمحة البسيطة الواضحة، ولا يشاهد أثراً لروح النبي العظيم الذي يحتفلون بميلاده، ذلك الروح القوي الخالد الجليل الذي تفجر من صحراء الجزيرة العربية فكان منبعاً سماوياً فاض على جنبات هذا العالم وأروى غلة الإنسانية التائهة إلى غير قرار. هذا الروح العميق الهادي الذي كان يذهب إلى شعاب مكة ووديانها ويقضي الأيام والليالي متعبداً منفرداً في هذا الوجود. وهناك في غار «حراء» كان ينصرف إلى ربه بقلب خاشع وشعور متأجج وإحساس عميق. هذا الروح الذي كان يفكر طويلاً ولا يتكلم إلا قليلاً فإذا تكلم جاء بالحكمة وفصل الخطاب. هذا الروح الذي كان من شبابه الأول لا يركن إلى ما يركن إليه العرب من منكر وإثم وبغي واستهتار باللذة وتهالك على الشهوات. هذا الروح الذي أدرك العرب ما فيه من عبقرية وسمو جليل ينأى به عن محظورات الأمور وصغائرها فلقبوه بهذا اللقب الذي لا يخلو من غرابة «الأمين» والذي يدل على ما كان يضمه أولئك العرب لرجلهم السامي المزيا من تقدير واحترام. ذلك الرجل الذي يمشي بينهم وكأنه ليس منهم؛ فإذا ائتمروا لصالح كان من بينهم وإذا بيتوا لمنكر أو بغي لم يجدوه، وإن وجدوه فإنما في موقف الواعظ الناهي رغم فتوته وشبابه.

أقول: ولا يُسمع في تلك الحفلات ذكر لذلك العقل العبقرى الجبار ولا لتلك القوة النفسية الخارقة التي استطاعت أن تجعل من أولئك الذين ألفوا شظف الجزيرة ومنكرات الطباع، والذين كانت كبرى

فضائلهم قتل النفس ونهب الأموال والثمرات؛ استطاعت أن تجعل منهم أمة مهذبة ناهضة، وأن تؤلف من تلك القبائل المتناحرة المتشاجرة وحدة قوية تناهض العالم جميعه وتنشر على ربوعه راية النور والمدنية والعدل.

كل هاته المعاني السامية - أيها السادة! - لا يجدها من يقف على تلك المجالس وقفة المستطلع النقاد وإنما يجد ضجة تصم الآذان، وذوات بشرية تتلوى من الصرع كمن يتخطه الشيطان من المس، يبرأ من جميعها الإسلام في مظهره الهادئ الجميل وفي جوهره البسيط الذي تكاد تدل عليه كلمة «الإسلام» وحدها. أو يجد وصفاً لمن يحتفلون بذكراه بتورد الخدّ وتألؤ الجيد وسحر العيون وما إلى ذلك مما يستحي المفكر من غير المسلمين إسناده في ذلك الأسلوب الغرامي الوقع إلى ذات النبي ﷺ فضلاً عن المسلم الصميم الصادق في دينه وعقيدته⁽¹⁾.

* * *

. وبعد هذه الكلمة التي لا مناص من ذكرها في مثل هذا الموقف فإنني سعيد بأن أرى ثلة من شيوخ هذا البلد العاملين، ونخبة من شبابه المخلص يسعون فيوقفون إلى أن يجعلوا من ذكرى الهجرة النبوية عيداً إسلامياً سيحتفل فيه مسلمو هذا البلد احتفالاً دينياً.

سعيد؛ لأنني أرى في التنبه لمثل هاته المعاني في إقبال الناس على الداعين إليها علائم حياة جديدة أخذت تنبث في هذا الصقع الصحراوي المرابط على حدود الصحراء الصامتة صمتاً إبداعاً.

وسعيد أيضاً لتوفق أصحاب هاته الفكرة في حسن الاختيار. فإن تاريخنا طافح بشتى الذكريات الدينية والأدبية والاجتماعية. والذكريات الدينية نفسها كثيرة وافرة ولكن أجملها جميعاً ذكرى «الهجرة النبوية» وما

(1) عن مجلة العالم - تونس - العدد 6 (1 - 6 - 1932) والعدد 7 (1 - 7 - 1932).

أجدر هاته الذكرى بأن يتخذها عامة المسلمين عيداً دينياً جليلاً، فإنها لأعظم حدث تاريخي وجه الإسلام وجهته العالمية المباركة. وإن احتفلنا بذكرى المولد - لأن فيه ولد نبيء الإسلام - فكم نحن حريون أن نحتفل بذكرى الهجرة لأن فيها ولد «الإسلام» بحق، ولأنها كانت أول لبنة متينة بنيت في صرح الإسلام العظيم، بل لعلها أعظم دعامة ارتكز عليها أساسه. وإلاً فلتتصور ماذا كان يكون مستقبل الإسلام لو لم تقع الهجرة؟ ولكني لا أستطيع أن أتنبأ في جزم عن ذلك المستقبل المفروض؛ وإنما أعتقد يقيناً أن الإسلام كانت تكون له وجهة أخرى وشأن غير هذا الشأن الذي شاهده العالم والتاريخ.

وإذن فالهجرة النبوية عيد ديني جديد يجب علينا أن نحيي ذكره وأن نضمه إلى قائمة أعيادنا التي ربما كان هو أجل منها وأسمى. ولكن علينا مع ذلك أن نعرف كيف نحياه وكيف نحتفل بهاته الذكرى كما تحتفل الشعوب الناهضة بذكرياتها. علينا أن نظهر روح هاته الذكرى واضحة جلية رائعة في كتابات كتابنا وفي أناشيد شعرنا وفي خطابة خطبائنا وفي محاضرات أدبائنا وفي تأليف مؤلفينا.

والآن. ما هي «الهجرة»؟

سأقول كلمة أيها السادة عن الهجرة ولكنها ستكون موجزة قاصرة عما ينبغي أن تكون عليه. بل وعما أريد أنا أن تكون عليه، ولعلكم تعذرونني في ذلك إذا علمتم أنني لم أكلف بإلقاء هاته الكلمة إلا قبل هذا اليوم بثلاثة أيام. ولكن ما لنا ولهذا؟ لأقل كلمتي على كل حال⁽¹⁾.

(البقية للعدد الآتي)⁽²⁾

(1) نشرة الستار التونسي. التي أصدرها سعيد أبو بكر بديلاً عن مجلة العالم التي نشر في عدديها 6 و 7 قسمين من المحاضرة، وضاع باقيها.

(2) لم نعتز على عدد آخر بعد هذا.

اليقظة الإسلامية الحاضرة

بقلم: أبي القاسم الشابي

اليوم هبت في صدور المسلمين آمال جميلة ناعمة، وأشواق نبيلة باسمة، ما كانت⁽¹⁾ تهب لولا عواصف الدهر الجافة التي ما زالت تندفع من مكنها البعيد على غير رود وأناة، بل في عنف وشدة وقساوة. آمال تحلم بفخر رقيق معسول تتدى حواشيه، وتأتلق آفاقه. وأشواق تشرئب إلى ضرب من الحياة قوي كالدهر، جميل كالصباح. فيه ما في الدهر من عزم وفتوة، وما في الصباح من زهرة وشباب. ولكنها ما زالت ملتانة غامضة، لم تبينها النفوس في وضوح وإشراق، وما فتئت حائرة متشككة لا تعرف سبيلاً واضحاً، فتتخذ مسلكاً بيناً بين دروب الأيام الملتوية المتعرجة. غير أنه لا ينبغي لنا أن نياس من هذه الحركات التي ما برحت واقفة في مفترق السبل تفكر أنى تذهب، وبأي المشاعب تأخذ، بل الواجب أن نؤيدها بما نستطيع، ونأخذ بيدها إلى سواء السبيل فرحين مغتبطين لأن التنفس دليل الحياة.

نعم أقول إنه لا يجعل بنا ذلك لاعتقادي أن كثيراً منا ما زالوا

(1) وردت هذه الكلمة بالأصل كادت ولعل خطأ مطبعياً تسرب إليها فأصلحناه.

يحلّمون كثيراً، ولا يعملون إلا يسيراً. فإذا ما حدثتهم عن حركة فتية، أو عمل وليد، سخروا منك ولووا من أعناقهم معرضين، كأنهم يحسبون أن الطفل لا بد أن يولد جباراً سلاحه في يده، كما تقص الأساطير اليونانية عن «أثينا» ربة الحكمة، من أنها شقت رأس أبيها، وسلاحها في راحتها. وأنهم لا يعلمون - هداهم الله - أن الضباب جلباب الصباح الجميل، وأن العوالم إنما تتكون من سدم الوجود، وكأنهم لا يؤمنون أن حركات المسلمين اليوم إنما هي صرخات أفئدة، قد ظلت بعيدة عن جزر الحياة ومدّها أحقاباً متطاولة، وأماداً بعيدة، وأصوات نفوس قد لبثت واجمة وجوم المقابر في ظلمات الدهور المتعاقبة. فلما أحست بتيارات الزمن تندفع عن جانبيها في هذا العالم الكبير، وتراءت لها الأنوار المضيئة الساحرة تلمع من خلال الأفق، أحست بتزاحم معاني الحياة في صدرها. فعبرت عنها بكلام ملؤه الدوي والاضطراب، لا يفصح عن تلك الرغبات الجامحة التي تعصف في داخلها كالرياح، وتتهزم كالرعود القاصفة. تلك هي الحركات الإسلامية اليوم. ولكنني على يقين من أنه لا بد أن يأتي ذلك اليوم الجميل الذي تترن فيه تعابير الأمة الإسلامية، فتخرج جميلة المقاطع، متجاوبة النبرات كألحان الموسيقى الرصينة الهادئة، ولا بد أن يأتي ذلك اليوم، الذي تنجلي فيه هذه الحيرة، التي ترافق أعمالنا اليوم عن يقين ثابت لا يتزعزع ولا يتحلحل، وتتكشف فيه السحب التي تغشى آفاقنا عن شمس مشرقة ويوم ضحوك.

قد قلت فيما سبق لي من قول أن النهضة اليوم لا زالت متشككة حائرة، وأي شيء أدل على ذلك من هاته الضجة الهائلة التي تتصاعد من جميع الأقطار الإسلامية إلى عنان السماء في لجج وضوضاء. ومن هاته الحرب الضروس التي تدور رحاها في كل حركة من حركات العالم الإسلامي: فالحرب الأدبية تكاد تنقص فيها الأقلام بين أنصار الجديد

وأحلاف القديم، والثورات السياسية لا يركد نفعها بين زعمائها وهواتها، والحركات الدينية بين هبوط وصعود وتضرم وخمود، منذ سحر شعلتها فيلسوف النهضة الحاضرة جمال الدين الأفغاني.

وقد قلت: إنه لا بد أن يأتي اليوم الذي تأخذ فيه النهضة الحاضرة سمتها في سبيل الحياة القيمة، وإنني أكاد أتعجله الآن، لأنني أرى طلائعه في الأفق الجميل، فقد أخذت الحركات الدينية تمشي في سبيلها مشية مطمئنة ثابتة لا ضعف فيها ولا خور، وستأتي نوبة الحركات الأدبية والسياسية في مقتبل الأيام.

أجل، لقد أخذت الحركات الدينية تسعى في سبيلها الأقسام بقدم راسخة وعزم وثيق. ففي مصر وسوريا اليوم تعمل الشبيبة المفكرة الناهضة أعمالاً باهرة في سبيل الدين الإسلامي، والإنسانية الفاضلة: بعضها لإظهار الدين الإسلامي النبيل في مظهره الحقيقي، الذي بدأ به أول مرة في صحراء العرب فكان محبباً إلى العالم، وكان بحق دين الإنسانية الجميل، وبعضها لتثقيف ما اعوج من أخلاق الناشئة، التي تحمل بين جنبها قلوباً تنبض بذكريات الأمس، وأعمال اليوم، وأشواق الغد البعيد.

وفي تونس اليوم نشاهد من آثار هذه اليقظة الإسلامية المباركة غراساً زاكياً، نتعشم فيه خيراً كثيراً، ونرجو أن يؤتى أكله بعد حين. ومن بين ذلك ما عزمت عليه ثلة من شباب اليوم من العمل لتكوين جمعية للشبان المسلمين يكون من مراميها السامية إنماء الفضيلة، وحب الخير في نفوس الناشئة، وتعليم الآباء كيف يربون أبناءهم التربية الدينية القيمة، وكيف يقتلعون من نفوسهم ما غرسته الضلالات والأوهام من خرافات وأساطير ليست من الروح الدينية في شيء. وإنني لأبتهج بهذا العمل الجليل الذي أرى فيه صورة حية صادقة من صور اليقظة الفكرية،

وأدعو الأمة التونسية الناهضة لتلبية هذا الصوت الإلهي الذي يتردد في قلوب المسلمين في جميع نواحي العالم». اهـ.

أبو القاسم الشابي⁽¹⁾

[محمد الهادي المطوي]⁽²⁾

-
- (1) نقلاً عن جريدة الزمان عدد II، يوم الثلاثاء 27 ذو الحجة 1347 و 4 جوان 1929 .
وبعد يوم واحد من نشر هذه المقالة شرعت اللجنة التحضيرية في أعمالها، وقد قال محمد الصالح المهدي في ذلك ما يلي: «وفي يوم 28 ذي الحجة سنة 1347 انتخب [الشابي] عضواً مؤسساً لجمعية الشبان المسلمين بتونس فكان يعمل معنا لتدوين قانونها الأساسي ويناقش فصوله مناقشة الناقد الخبير حتى تم القانون وانتهت مأمورية اللجنة وسلمت أعمالها إلى أيدي رجال آخرين ماتت الجمعية على أيديهم وهي ما تزال في المهدي»، الأفكار عدد 2 (ديسمبر 1936): 83 - 84 .
- (2) هو محقق المقال ونشره في مجلة «الهداية»، تونس س 6 ع 6 (شهر 6 و 7 - 1979) وراجع دراسته القيمة عنه في هذه المجلة وفي كتابنا: «الشابي في مرآة معاصريه»

روح نائرة

عرفته أديباً له حظ موفور من بعد النظر ورجاحة التفكير وجمال الأسلوب وعرفته شاعراً له روح حساسة مرهفة كالوتر المشدود وأحلام غريبة لا تخلو من الشذوذ وخيال قوي وثاب إلى المجهول.

وكنت إذا جلست إلى الناس واستمعت أحاديثهم شعرت بالخمول يدب في مشاعري ويستحوذ على نفسي حتى كأنما انقلبت قبضة من رماد خابية في ليالي الشتاء وأحسست بالحاجة إلى ما يثير عواطفي ويحرك وجداني ويؤجج في داخلي نيران الحياة.

أما بجواره فقد كانت مشاعري تتقد وتتوهج وتندفق وتستجيش كعاصفة من نار وكنت أحس أنني شعلة حية نامية تضطرم في موقد هذا الوجود وتندفع طاغية عارمة في أحشاء الزمن. لأنه كان يحمل بين جنبيه روحاً مشبوبة نائرة تدوي بتيارات الحياة. ولم يكن يحمل بركة راکدة آسنة تعكس صفحتها النائمة أشباح الجبال وأطلال الغيوم. ولأنني كنت أجد في صدره تلك النفس الحساسة الطموح الجياشة بشتى المعاني والصور وذلك القلب الشاعر الملتهب الذي يطبع كل ما يلامسه بطابع من نار.

وقد مرت أمواج الزمن متعاقبة حاملة إلى خضم الأبد المجهول أشلاء الموت وأنقاض الحياة ولكن صورته ما زالت ماثلة أمامي بوجهه الشاحب المهزول وقامته المديدة وعينه الغارقتين في شباب الأسي

وشفتيه الداويتين بلفح الألم وما برحت ذكرى تلك العشية الرائعة حية في قلب كأنها أمسية الأمس القريب تلك العشية الرائعة التي اكتشفت فيها مناجم قلبه الذهبية واطلعت على ما في روحه الشجية من كنوز غريبة كانت علة تعاسته وشقائه .

كان الوقت أصيلاً والشمس تلقي على أشجار «بلفدير»⁽¹⁾ حلة ذهبية ساحرة وفي السماء غيوم رقيقة ملونة زاهية وأنا جالس صحبة رفيق لي إلى مقعد من تلك المقاعد الخشبية المبتوثة في ظلال الأغصان وأمامنا سرب من عذارى الإفرنج يلعبن لعبة «التنس» في رشاقة وخفة كالعصافير وكان صاحبي يطالع «تاييس» وفي يميني أنا كتاب «رفائيل» الذي رسم به لامتريين صوراً من شبابه الزاخر بالعواطف والأحلام وأنا أجيل بصري مرة في جمال السماء التي توشحها الغيوم وأخرى في رقة الشمس الذائبة على ذوائب الأشجار وطوراً في فن الحياة المائل في هؤلاء الغواني اللواتي ترنح أعطافهن جميعاً حمياً الشباب .

وأقبل صاحبنا الشاعر وأنا أطلع صفحة من «رفائيل» ورفيقي غارق في «تاييس» إلى أم رأسه فقال يخاطبني وهو ما زال واقفاً: «عجيب ألا يصرفك جمال الوجود وفتنة هؤلاء العذارى اللاعبات في مرح الشباب عن أوراق الكتب وقد عهدتك من عباد الطبيعة والجمال؟ ألا توافقي على أن الكتب رغم - ما فيها - أحياناً - من غذاء شهبي للفكر وللعاطفة - كثيراً ما أركبت الناس متن الشطط في أحكامهم وأنه خير لهم لو أخذوا دروسهم رأساً عن هذا الكون العجيب؟» فنهضنا إليه وصافحناه في حرارة وأفسحناه له مكاناً بيننا وقلت له: «لو كان الناس يستقون من منبع واحد هو هذا العالم الرائع لكان الناس أسعد حالاً مما هم عليه الآن ولاستراحوا - على الأقل - من كثير من الأضاليل والأوهام التي تثقل

(1) أكبر حديقة في مدينة تونس . (ك)

عقولهم وتنوء بها أرواحهم في أودية الزمان. ولكن الله لم يطبعهم على غرار واحد في المواهب والملكات حتى يمكنهم - كلهم - أن يتلقوا دروس المعرفة عن هذا العالم الكبير. أما استصحاب الكتب فقد أصبحت عادة لي كلما ذهبت إلى منتزه أطلعها حيناً وأطالع الكون أحياناً وأسترسل مع نفسي آونة في عالم كله أطياف وأحلام» فأطرق قليلاً ثم التفت إلى صاحبي وكان قد رجع إلى الانكباب على «تاييس» وقال له: «وأنت ماذا تطالع يا صديقي؟ فإني أرى كتابك قد فتتك عن كل ما حولك وملاً كل فجاج نفسك» فأجابه وهو يتسم: «تاييس» فقال: «إن هذه القصة الفلسفية جميلة ساحرة ولكنها لا تعدو - كأثار كل أولئك الذين ندعوهم فلاسفة وشعراء ومفكرين - أن تكون ثروة نفوس معذبة تحترق في جحيم الحياة...» فقلت كالمنكر: «وكيف ذلك؟» قال: «لقد كتب هؤلاء الفلاسفة والشعراء والمفكرون كثيراً بل أكثر مما يتصور العقل ولكن الإنسان ما زال في صميمه هو ذلك الإنسان الأول الذي يقضي أيامه باحثاً عن طريده بين الأدغال والأودية وفي شعاب الجبال وأحشاء الكهوف وما برحت الطبيعة - كعهدها منذ الأزل - تلك الغابة الآبدة المرهبة التي يدلف في ظلماتها المرعبة ركب الإنسانية التائه بأقدام مهزولة وأجفان مطبقة...» فقال له صاحبي وهو يعاثر صفحات الكتاب: «فمالك تنظم الشعر إذاً يا صاحبي؟» فتجهم قليلاً وطفحت عيناه بمعاني الألم المكبوح وأجابه بلهجة ملؤها المرارة الموجهة وقد افترت شفتاه عن شبه ابتسامة ساخرة: «لأنني لم أجد دوراً أسخف من هذا أمثله في رواية الحياة السخيفة» فابتسما حائرين ثم صمتنا واجمين ثم أطرقنا مكتئبين وأخرج هو سقارة أشعلها وانطلق يدخن صامتاً ثم وضع رجلاً على رجل وأطرق برأسه إلى الأرض وراح يغني أغنية رقيقة هادئة كان كثيراً ما يغنيها حينما تكون نفسه طافحة مترعة وأفكاره مضطربة هائجة.

ومرت فترة من الزمن مثقلة بالحيرة والشجو والملل كان يتغنى
أثناءها بصوت خفيض ندي بالدمع كأنما يناجي به نفسه ويخاطب به
روحاً هائمة في ذلك الفضاء الذي حوله .

ومرّ بنا صبي صغير يقتاد قرداً وهو يعرضه على النظارة والمتزهين
المنبئين هنا وهناك ليمثل أدواراً علمته إياه العادة والمران فأشرت إليه في
شيء من السخرية والجفاء وقلت لصاحبي الشاعر أستدرجه إلى
الحديث: «يا للشقاء والخيبة! أعلى مثل هؤلاء تشيد الأمم صروح
الأمّل؟» فرفع رأسه وقال مهتاجاً: «السخرية الاشمزاز الجفاء الكلام
ذلك ما علمتنا الأيام . . . أما الحقائق فهي تبكي وحدها بين الجبال . . .»
ثم سكت قليلاً وقال بصوت هادىء وهو ينظر إلى السماء نظرة كثيبة
تائهة «لا تسخر يا صاحبي فإن كل واحد من أبناء الإنسان يجرّ من نفسه
وطباعه قرداً أو قرودة في مسالك الحياة الوعرة . . . واحد يجرّه من
سخافاته وادعائه وواحد من غروره وكبريائه وواحد من دناءة الطبع
وخساسة النفس وواحد من إقفار الذمة وخراب الضمير . . إلى كثير غير
ذلك من أنواع القرودة المعنوية التي يجرها الناس كل يوم وهم لا
يشعرون . . .»

ثم نهض واقفاً وهو يقول: «لقد مللت هذا المكان فهل لكم في
غيره؟» فنهضنا معه وقلت له ونحن نمشي بين مخارف الأشجار: «وكيف
تمل هذا المشهد الطبيعي الجميل وأمامك أولئك الصبايا اللواتي لم
تخرجهن الحياة إلا ليحركن في الناس عبادة الحب والجمال» فقال
متضجراً: «دعونا يا عبيد الحياة من هاته الكلمات الجوفاء ذات الرنين ما
الحب؟ ما الجمال؟ ما الأفراح؟ ما اللذات؟ ما الأحلام؟ ما الشهوات؟
إنها ليست سوى أشراك ذهبية لامعة تنصبها لنا الحياة لتقودنا بها عبيداً
مسخرين إلى غايتها البعيدة الغامضة» فقال له صاحبي وهو يحاوره:

«وهل تريد منا يا صاحبي أن نتحرر من عبودية الحياة؟...» قال: «لا لأن التحرر من عبودية الحياة معناه الانتحار معناه الموت. بل ليس في استطاعة من قبل أقدام الحياة أن يتحرر من عبوديتها حتى بالموت لأن الموت نفسه ليس إلا لونا آخر من ألوان هاته العبودية المحتومة الخالدة. وإنما أريد من العبد المصنفد أن لا يكون مغروراً فيحسب القيد المموه حلية مهداة فيتلقاها بالتهليل والشدو والنشيد... أريد منه إذا لم يكن بد من أن يدخل يده في السلاسل والأغلال أن يدخلها وهو عالم أنها قيود وإن كانت من ذهب...» فقلت معارضاً: «أي فكرة؟ وما جدوى كل هذا؟ وما هاته الأفكار التي تشوه وجه هذا العالم وتجعل من الدنيا جحيماً أليماً؟ لا يا صاحبي إنه خير لنا أن نعيش في وهمنا القديم مبتهجين بما تعرضه علينا الحياة كل يوم من أفراح وملذات وحماقات جليلة وحقيرة من هذا العالم الجديد الذي يجعلنا نتلقى هبات السماء وكأنها لعنات محتومة... خير لنا أن نبقى أطفالاً سعداء بجهلنا من أن نكون جبابرة أشقياء نتعذب على صخرة «بروميتيوس العاتية».

فأحنى رأسه قليلاً وقال كمن يحادث نفسه: «ما الجدوى؟ ما الفائدة؟ ذلك هو السؤال الوحيد الذي علمتهم الأيام أن يرحموا به كل شيء حتى الحقائق يريدون أن يسألوا ما جدواها؟ يا للسخافة! ما لهم لا يسألون الأعاصير عن ثورتها الطاغية؟ ما لهم لا يسألون البحار عن ضجتها وهديرها؟ ما لهم لا يقولون للقدر: ما جدوى خلقنا في هذا الوجود؟... يا للسخافة! ما الجدوى؟ ما الفائدة؟ إنهم يريدون بهاته الأسئلة الجامدة الفرار من نار الحقيقة المحرقة إلى ظل الخرافات والأوهام... يا للسخافة!».

وسكت قليلاً ثم رفع صوته عن ذي قبل وقال: «ولكن... طوبى لعبيد الحياة الذين استطاعوا أن يتسموا للشمس ويمشوا مع الدهر غير شاعرين بوطأة هاته العبودية المرهبة!... أولئك أطفال يمشون في

مواكب الأيام بأجفان ضاحكة وأعطاف راقصة وأقدام سكرى بالنشيد...
أما أولئك الذين يقضون أيامهم في قطف أوراد الحياة وانتزاع أوراقها
والبحث في أعماقها عن البذور الخالدة فإنهم أشقى الأشقياء وإن
حسبهم الناس أحيى الأحياء... أولئك أفئدة قريحة تتمشى بأعصاب
عارية على بساط من لهيب...».

وكنا قد وصلنا قمة (بلفدير) وكان الليل قد شمل السماء والبحر
عطى أرجاء الوجود والصمت يخيم على تلك الحديدية الفسيحة المترامية
حتى ليعجب المرء لتلك الحياة الزاخرة الجائشة كيف غاضت وأين
اختفت في هذا السكون؟ وكانت المدينة تبدو في جو الظلام كخيال
شاعر مفتون وكأنما أعدانا ذلك السكون الشامل فسكتنا وراح كل منا
يصغي لأحلام قلبه التي أيقظها جمال الليل الساهم الحزين وراحت
الأحلام والأفكار والذكريات تغرد أغاريدها الشجية في صمت
الظلام...

ونفض الشاعر بغتة فانتبهنا وصحت أنفسنا من نشوتها المغرية
وطارت إلى ظلمات الفضاء كل تلك الأحلام والذكريات والأفكار وقال:
«أودعكما فأنا ذاهب». قلت: «وإلى أين؟» قال: «لا أعلم على التحقيق
ولكنني أرجو أن تقول لأولئك الذين يمشون سعداء بجهلهم في مناكب
الأرض: إن الحياة امرأة ناضجة الشباب كاملة معاني الأنوثة وإنها لا
تهب قلبها الزاخر بذخر الأنوثة الحافل بحلاوة الاستسلام لمن يقف
أمامها باكياً متضرعاً وشاكياً متوجعاً ولا لذلك الذي يقف تحت نافذتها
في ضياء القمر مشبهاً بسحر عينيها ورقة شفيتها وفتنة ذراعها مغنياً لها
أشجى الأغاني وأحلى الأناشيد وإنما تهبه - كله - لذلك الرجل القوي
الجبار الذي يحملها بساعديه الشديدين ويمضي بها قائلاً: «أنت لي»
قلت: «فمالك أنت لا تكون هذا الرجل؟» فقال وهو يسدد خطاه إلى
وجهته المجهولة: «إنني لا أفعل ذلك لأنني لا يفتنني سحرها المكذوب

ولا يغرنني جمالها المجلوب... « واختفى بين الأشجار الكثيفة كما
تختفي الأشباح.

* * *

وقد مرت سنون لم أره خلالها ولما سألت عنه قيل لي إنه قد
ذهب في رحلة مجهولة لا يعلم أحد ما غرضه منها وما غايته.
توزر:

أبو القاسم الشابي

(العالم الأدبي السنة الثالثة عدد 8 (أبريل - نيسان) 1932)

مقالات
و
خواطر أدبية

يقظة الإحساس وأثره في الفرد والجماعة

تسمع إلى هذا الشاعر فإذا أنت أمام روح إلهي نبيل يسمو بنفسك إلى آفاق الحق والفن والجمال ويجعل منك كتلة من شعور قدسي مشبوب. وتسمع إلى آخر فترى أنك تسمع إلى حديث ساذج بسيط لا يميزه عن أحاديث الناس العادية إلا رنة النغم وتواتر القوافي وجمال التعبير وتسمع إلى غيره فتخال أنك تجلد بالسياط أو تساق إلى الموت على وجهك.

وتصغي لهذا المنشد أو الموسيقىار فيستفز نفسك ويثير وجدانك ويهز عواطف قلبك ويذكي خيالك إلى أقصى مداه حتى تكاد تستحيل شعلة متوهجة من خيال وذكريات وأحلام. وتصغي لسواه فلا تشعر وأنت تصغي إليه إلا بحلاوة في الصوت وجمال في المقاطع ورقة في النشيد وشيء من المتعة يخفف عن النفس أعباء العيش وشقاءه، وتصغي لغير هذين فيكاد التثاؤب ينمك والضجر يقضي عليك. وترى صورة لهذا الرسام أو تمثالاً لذلك النحات فتشعر بلذة روحية سامية تخرج بك إلى سماء الإلهام ومعارج الوحي البعيدة وترى لغير هذين فلا تحس في نفسك بغير الإعجاب البسيط الفاتر. وترى الآخرين فتظل نفسك هادئة ساكنة كأنك ما رأيت أو تشمئز وتنفر وتفر بذوقك فراراً.

وهذا شعب من شعوب الأرض، يجد ويكده ومنتج ويخصب أينع الثمار وأحلاها، فإذا له حياته الأدبية الناضجة وحياته العلمية الراقية

وحياته العادية المهذبة ومشاعره الطامحة إلى ما هو أجل من ذلك وأسمى، إلى المثل الأعلى المحجب في ظلام المجهول. وهذا شعب آخر، منصرف إلى التبطل، والفراغ، مخلد إلى الكسل والخمول لا يعمل، ولا ينتج ولا يوجد على الإنسانية بخير، ليس له فن ولا علم، ولا أدب ولا طموح، بل ولا حياة... أيضاً. إلا كما تحيا ماشية الحقل وأبدة الجبل...

فما هو السر يا ترى في هذا التفاوت الواضح بين هؤلاء؟
ستقول: الحرية. فكلما كان الفنان حراً في فنه، كلما اكتشف آفاقاً جديدة من السحر والجمال، وبذلك يسمو على غيره ممن لا يعطي لفنه حرية الحياة.

وهذا حسن، لولا أنه إن صح صرفه إلى الفنان فإنه لا يصح صرفه إلى الشعوب لأن كثيراً ما تجد الشعب حياً منتجاً تزخر في عروقه دماء الحياة وعزمها، ومع ذلك لا يملك من الحرية ما يتكافأ مع حيويته ونتاجه. وهو فوق ذلك تعليل للشيء بغير علته. وعندني أن السبب الحقيقي لهذا التفاوت هو: «يقظة الإحساس» لا الحرية. لأن حرية الفنان في فنه، إنما هي أثر من آثار هاته اليقظة الروحية وثمره من ثمارها، فإذا تيقظ الإحساس في قلب الشاعر والفنان - بتعبير أشمل - كان له - بالرغم عنه - استقلاله الذاتي الذي يشعره بأنه قوة حية منتجة، من المستحيل أن تندمج في سواها، وأن لا تشق لنفسها سبيلاً بكرةً للمجد والحياة، وكانت له كرامة ترفع عن أن تذوب في غيرها أو تنحط إلى درك التقليد. وبذلك تصبح نفسه شعلة حية نامية تتوهج في قلب الحياة. وطاقراً سماوياً يتغنى بأفكار وأحلام البشر. وإذا تيقظ الإحساس في روح الشعب تحركت في صدره - رغم كل شيء - تلك الأشواق الطامحة والرغبات الجامحة التي كانت مكبلة نائحة في ليل الدهور. وإذا ذلك يشعر بنفسه - وإذا قلنا «يشعر بنفسه» فقد قلنا كل شيء - ويعلم أنه

عضو هاته الجامعة البشرية عليه واجب السعي والعمل في سبيل كمال الإنسانية المنشود، في سبيل مثل الحياة العليا، في سبيل الحق والقوة والجمال.

وإذا أردنا أن نستشهد التاريخ والواقع على ما نقول فهذا «المتنبي» الشاعر العربي وهذا «بيتهوفن» الموسيقار الألماني. وهذا «واطس» الرسام الرمزي الإنكليزي. وهذا «ميكلانجلو» الممثل الإيطالي، فكل من هؤلاء العظماء الأربعة قد كان له معاصروه ومعارضوه والضاربون معه في سبيل واحد. ولكنهم انفردوا دون معاصريهم بالعبقرية الخارقة والمجد والخلود. فما هو هذا السبب الأعظم الذي جعل الإنسانية تمجد هؤلاء تمجيداً لا تمنح معشاره لمن عاصروهم من الفنانين والشعراء؟

إنه يقظة في أرواح هؤلاء عديمها معاصروهم. يقظة روحية عميقة سامية هي التي كانت تملؤهم شعوراً بأنفسهم وبالحياة. ومن شعر بنفسه حق الشعور احترامها وسما بها عن مواطن الضعة والحقارة. ومن شعر بالحياة حق الشعور لم يستطع أن يكون بوقاً يردد صدى غيره ولا بركة آسنة تعكس صفحتها ظلاله... بل كان بحراً رحيباً داوياً يدمدم بما في أعماقه من قوة وعزم وأهوال يقظة روحية عميقة. وتلك هي التي كانت تعلم «المتنبي» من سنن الحياة وغرائزها وقواعد الاجتماع ونواميسه ما لا يعلمه سواه. وتنطقه بذلك الأسلوب الحي المتماسك الأجزاء الممتلىء قوة وجمالاً. وهي التي كانت تخلق حول روح «بيتهوفن» جواً شعرياً من الأنغام السماوية الخالدة، وتفيض على موسيقاه ما في هاته الحياة العاصفة وقلب الإنسان من أفراح راقصة في ضياء القمر، وآلام متفجعة في ديجور الأسي، وأحلام تغني للفجر أناشيد الضياء، وأشواق تلتهب بنار الوجد والحنين. وهي التي كانت تجسد لـ «واطس» معاني الحياة والحب والموت، وترية من الأحلام والعواطف والأفكار صوراً سحرية رائعة لم تخطر على قلب بشر. وهي التي كانت تنب «ميكلانجلو» إلى ما

في تماثيل عصره من مرض وحوار وجمال شاحب مهزول، كاد ينقلب
دمامة شوهاء في نظر الشعور الدافق والذوق القويم. وتهيب به أن ينهض
بهذا الفن المحتضر وينفخ فيه روحاً جديدة ليمثل جمال القوة المهيبة.

وهذه الأمة العربية. كانت بالأمس رائد العالم ورسول المدنية
والنور حين كانت روحها مستيقظة ناهضة، وإحساسها مضطرباً مشبوحاً.
ثم أمست في آخر القافلة الإنسانية نائمة تلوك أحلام الماضي لما تلبد
إحساسها وفقدت شعورها بنفسها وبالحيوة. ثم ها هي اليوم تحاول
النهوض واليقظة ثانية لأن روحها قد أخذت تستيقظ من جديد.

ثم إن هناك ظاهرة قد تكون لأول وهلة غريبة ومثاراً للحيرة
والتساؤل وهي أن الآداب والفنون، كثيراً ما تزدهر في عصور الثورات
والانقلابات وبين الجماجم المثورة والدماء الجارية. بل وربما كانت
أحياناً أبهى منظراً وأعبق شذى وأنطق بمعاني الحياة من آداب الراحة
والأمن والسلام وفنونها. أما أنا فلا أراها غريبة ولا مدهشة، بل أراها
نتيجة منطقية ومعقولة لنفسية الأمة الجائشة، لأن الثورات لا تحدث إلا
والنفوس أكثر إحساساً بالحياة وملل من الحاضر، وشوق إلى المستقبل.
وطموح إلى المجهول... وتلك هي يقظة الإحساس بمعناها الشامل
العميق. وأن شعباً يكون مستيقظ المشاعر متسع جوانب الحياة، لجدير
بأن يستخرج خير ما في الطبيعة من قن وحق، وأن فناً يكون مصدره
ذلك العطش الروحي الذي يلهب النفوس، وتلك العواطف الثائرة التي
تعصف في قلب الشعب، وبعبارة أخرى، أن فناً يكون مصدره تلك
اليقظة الروحية العميقة التي سمينها «يقظة الإحساس» لهو الفن الحي في
صميمه، الفن الذي لا ينصرف إلى القشور ولا يقنع بما دون اللباب.

ومن هنا تفهم معي أن يقظة الإحساس هي روح الحياة المنتجة
الولود التي تصقل العبقرية وتؤجج نيران النبوغ.

الشعر

ماذا يجب أن يفهم منه؟ وما هو مقياسه الصحيح؟

كثيراً ما تحدث الناس عن الشعر وكثيراً ما رتلوه.
فالشاعر والفنان، والمؤرخ والفيلسوف، والراهب في ديره،
والناسك في صومعته، والشاب في مدرسته، والغادة في خدرها،
والراعي بين الغابات والجبال، والحصاد بين السنابل والأغمار، والبحار
يصارع الموج ويقاوم العاصفة في زورقه الصغير، كل هؤلاء يتحدثون
عن الشعر أحاديث كثيرة متباينة، ويصفونه بأوصاف غريبة، ويتكلمون
عنه بلغة يقرب بها كل بين ما في نفسه وبين حقيقة الشعر، وكل هؤلاء
يرتلونه في أوقات الوحدة والانفراد، ويتغنون به حينما يخلو كل واحد
إلى نفسه ويصغي إلى أحاديث قلبه الكثيرة، ولكنك لو سألت كل واحد
من هؤلاء عن «الشعر» وعما يفهم من هذه الكلمة الصغيرة، لتبلمت
السنة، واختلجت شفاه، ولرأيت بسمات حائرة، وأخرى ساخرة،
وأخرى ساذجة طافحة بمسرات الحياة...

الشعر! وهل يسأل عن الشعر؟

إن الشعر هو الحياة نفسها... في حسنها ودماستها، في صمتها
وضجتها، وفي هدوئها وثورتها، في نومها ويقظتها، وفي كل صورة من
صورها ولون من ألوانها.

الشعر! وهل يسأل عن الشعر؟!

إن الشعر يا صاحبي، هو ما تسمعه وتبصره في ضجة الريح وهدير البحار، وفي بسمه الوردية الحائرة يدمدم فوقها النحل ويرفرف حواليتها الفراش، وفي النغمة المفردة يرسلها الطائر في الفضاء الفسيح، وفي وسوسة الجدول الحالم المترنم بين الحقول، وفي دمدمة النهر الهادر المتدفق نحو البحار وفي مطلع الشمس وخفوق النجوم، وفي كل ما تراه وتسمعه، وتكرهه وتحبه، وتألفه وتخشاه. فهل بعد ذلك تسألني عن الشعر؟

هكذا يجيبك الشاعر وهكذا يتحدث إليك الفنان. ويقول لك المؤرخ: إنما الشعر يا هذا ما مثل عوائد الشعب وأخلاقه، وعقائده وأوامره، وفضائله ورذائله، وأعطاك من كل ذلك صورة صادقة ناصعة للحق والتاريخ. ويجيبك قائلاً: هل الشعر يا صاحبي إلا ما أوقفك في هيكل الوجود، وعلمك الحكمة وأسَمَعك أغاني الحياة وصلواتها. ويقول لك الراهب: هو الشعر يا بني كل ما تغنى بمجد الله في السموات والأرض، واقتلع الكفر والزيغ من فؤاد الإنسان. ويقول لك الزاهد: الشعر يا ابن أخي، هو ما حجب إلى النفس القناعة والزهد وأبعدها عن ضجة العالم، لتصغي إلى الله متكلماً. ويقول لك الشاب: هو ما يتغنى به قلبي حينما يسكره رحيق الحياة. وتقول لك العذراء: هو ما أسمعته من شفاه الشاب الجميل حينما يجالسنني فأنسى العالم في جواره. ويقول لك الراعي: هو أغنيتي الجميلة في الصباح حينما أسوق المواشي بين المزارع، وأطارد الطير فوق الجبال، وألحان شبّاتي في المساء، حينما أرجع إلى الحي وفي قلبي غبطة القناعة، وفي عيني وميض السرور. ويجيبك الحصاد قائلاً: هو تلك الأغاني البهيجة التي ترتلها جموع الشبان، وأسراب الصبايا حينما يجتمعون بين الحقول لحصاد السنابل الشقراء وجمع الأغمار الناضجة. ويقول البحار: هو تلك الأنشودة

الساحرة التي أتلوها وأنا بين أهوال البحر وزئير الأمواج، فتتسبني
مخاوف اليم وتبعث في ساعدي قوة الجبار وفي قلبي عزم الشباب.

هكذا يجيبك هؤلاء عن الشعر. وكل واحد منهم إنما أعطاك
صورة من نفسه ورسم لك أحلام قلبه في هاته الكلمة الصغيرة الكبيرة.

أما أنا فلا أريد أن أبلبلك فأقول لك: إن الشعر هو كل ما قال
هؤلاء - وإن كان ذلك حقاً - ثم أمضي صامتاً. لأنني أعتقد أنك ستظل
مببلب النفس مضطرب المشاعر، تسائل نفسك من حين لآخر ما هو
الشعر؟ بل إنني سأخذ بيمينك وأمضي بك في طريق معبدة واضحة، لا
التواء فيها ولا أشواك. وسأحدثك عن الشعر، حديثاً هادئاً لا عنف فيه
ولا قوة، كأحاديث الأصدقاء في ليالي الصيف المقمرة وسأحاول أن
أجعله بسيطاً واضحاً سهلاً، يرسم لك صورة مجردة عن الشعر،
ويعطيك مقياساً صحيحاً أو قريباً من الصحة - على الأقل - لتفهمه وللحكم
عليه. ولكنني سأوجز ما استطعت في تحدثي عن الشعر لأنني وقد
استوقفتك لتسمعني مكلماً عنه، لا أريد أن آخذ عليك وقتك.

الشعر يا صديقي «تصوير وتعبير» تصوير لهذه الحياة التي تمرّ
حوالك: مغنية، ضاحكة، لاهية، أو مقطبة، واجمة باكية، أو وادعة
حالمة، راضية، أو مجدفة، ثائرة، ساخطة، أو تصوير لآثار هذه الحياة
التي تحس بها في أعماق قلبك، وتقلبات أفكارك، وخلجات نفسك،
ورفرقة أحلامك وعواطفك.

وتعبر عن تلك الصور أو هاته الآثار بأسلوب فني جميل، ماؤه
القوة والحياة، يقرأه الناس فيعلمون أنه قطعة إنسانية من لحم ودم وقلب
وشعور لأنهم يحسون أنه قطعة من روح الشاعر، وعبق من عواطفه، أو
فلذة حياة من فؤاد الحياة. هو هذا الأسلوب الذي يكون عنيفاً كالعاصفة
حينما يمثل سخط الحياة أو ثوران العواطف، ويكون وادعاً كضوء

القمر، حينما يمثل طمأنينة الحياة وسكون النفس، ويكون رقيقاً شجياً كأنات ناي بعيد، حينما يمثل أحلام الحياة ونجوى القلوب المتحابة، ويكون كثيباً مظلماً كقلب الظلام، حينما يمثل بؤس الحياة وأحزان البشر.

فالتصوير الصادق الذي يريك تصورات الشاعر أرقى من تصورات البشر. والتعبير الفني الجميل الذي يكون قالباً إنسانياً حياً لذلك المعنى الذي يشمل ذلك هو الذي ينبغي لك أن تبحث عنه، كلما قرأت قصيداً أو رتلت مقطوعاً، أو تصفحت ديواناً. فإن وجدته فكن على يقين أنك إنما تقرأ شعر الحياة، وأنت أخطأته، فاعلم أنك تقرأ شعراً زائفاً لا قيمة له في سوق الخلود.

ولا يهملك بعد أن تجد «التصوير الصادق» و«التعبير الصحيح» أكان ذلك الشعر غنائياً يتغنى بخوارج النفس وعواطف الإنسان، أم كان قصصياً يقص عليك فصول الحياة كما هي أو يرسم لك مثلها العليا كما توحيه إليه أحلامه، أم كان تمثيلاً يمثل لك كثيراً من حقائق النفس وصور الحياة، ومشاهد هذا الوجود. وإنما الذي يهملك بعد أن استوثقت أن الذي بين يديك نتاج قريحة خصبة منتجة، وخيال حي صحيح، هو أن تعرف هل أنك تقرأ مثلاً أعلى من الشعر الإنساني الذي يكاد يسمو إلى درجة الإلهام، أو أنك تقرأ مثلاً دون ذلك!.. ولكي تدرك هاته الحقيقة فانظر هل هو من ذلك النوع الذي يوسع أفق الحياة في نفسك، ويجعلها تحس بتيارات الوجود أكثر مما كانت تحس، وتدرك من معانيه وأصواته أكثر مما ألفت أن تدرك، وينسيك وجودك الإنساني لحظة، لتستغرق في عالم الجمال المطلق الذي يخلقه الشاعر حوالياً ويسبغ منه على نفسك، أقول انظر فإن كان من هذا النوع فاعلم أنك تقرأ شعراً إلهياً لا تجود بمثله الحياة كثيراً، وإلا فاعلم أنك تقرأ مثلاً دون ذلك.

ذلك هو الشعر في نظري يا صديقي، وهذا هو المقياس الذي
أعرف به الشعر من غيره، وأدرك به المثل الأعلى مما عداه. ولكنني قبل
أن أفارقك أقول لك: إن هذا المقياس من شأنه أن يقضي عليك - إن
اتبعته - أن تلقي بكثير من أصنام الشعر ودواوين الشعراء إلى النار أو إلى
سلة المهملات. فإن كنت رقيق القلب جم العواطف فإنني أنصح لك في
إخلاص أن لا تأخذ هذا المقياس يا صاحبي، وأن تقنع بمقياسك إن كان
لك مقياس تقدر به قيم الشعر في عالم الأدب. وإن كنت من الإخلاص
للأدب والفن بحيث لا يحزنك مشهد الأصنام البشرية تحترق في جحيم
الحياة، ولا يحرك نفسك أو يهز مشاعرك رؤية الأسفار الكثيرة تندثر في
ظلام الإهمال وتنبعث منها رائحة الموت. فلتأخذ هذا المقياس ولتكن
مخلصاً في استعماله، وأنا الكفيل بأنك تكون قد حزت مقياساً دقيقاً
تعرف به كيف تفرق بين شعر الحياة الخالد، وبين شعر السخافات
والتقاليد.

الشعر والشاعر عندنا

كان الوقت مساء من أمساء الربيع الفاتنة، الموشحة بالسحر والطر والأحلام، وكانت كآبة الغروب الساهية تبعث في النفس ضرباً من اللذة الشعرية الغامضة، وكنت أتحدث إلى صاحبي في ظلال النخيل حديثاً متقطعاً مختلف الأفانين، ونفسي سكرى بذلك الجمال الساهم المحزون الذي تنشره على آفاق السماء شمس الصحراء الغاربة؛ وكان صاحبي يصغي إليّ في صمت عميق لا يقطعه إلا حوار هادئ لين أو صيحة إعجاب بذلك الجمال الرائع تند من شفثيه. وانتقل بنا الحديث إلى يقظة المشاعر وأثرها في عبقرية الشاعر، ثم إلى طاغور وروحانيته وتصوفه الشعري الجميل، فرفع إلي صاحبي وجهاً ذا معان كثيرة، وقال، وعلى شفثيه ابتسامة خبيثة ماكرة:

«وهل يوجد بين شعرائنا اليوم من اختمرت فيه هاته اليقظة الروحية التي تتحدث عنها؟»
قلت:

«أي شيطان أوحى إليك بهذا السؤال؟»

قال وهو ما زال يتسم:

«أحسبه شيطانك أنت، ما زلت تتحدث عن هاته التي تدعوها «يقظة روحية» أو «يقظة إحساس» حتى جعلتها كل شيء في تكوين عبقرية الشاعر وفنه، فأردتُ أن أعرف نصيب شعرائنا منها».

قلت:

«أما إذا كنت تريد أن تعرف نصيبهم منها فإن نصيبهم «لا شيء»، وأن في هؤلاء الشعراء من يعرف كيف يجبل الطين، ولكن ليس فيهم من يعرف كيف ينفخ فيه روح الحياة».

فقال:

«مساكين! وما أجدرهم - والله - بالشفقة والرثاء!».

قلت:

«أتسخر؟!»

قال:

«كلا! والله، فإنه ليس على وجه الأرض أتعس من شاعر لا يستطيع أن ينفخ في آثاره قطعة من روح الحياة المتأججة بنيران الحياة. وما جدواه في عالم الفن، وما أثره إن لم تكن له طبيعة الفنان؟. بل ماذا عسانا أن نسميه؟ هل ندعوه «طبيعة مشلولة عاجز.؟!» أو لهيباً يتوهج في تابوت من الصخر؟».

قلت:

«كلا يا صاحبي. فإنها أرواح مقفرة مجدبة فارغة، لا حس فيها ولا فن ولا حياة. ولو كانت تحتوي أعماقها على تلك القوة الحية الملتهبة لكانت آثارها مطبوعة بطابعها المشبوب، فإن الذرة الحية لتخترق الصخر إذا استيقظت فيها قوة الحياة الكامنة، وكيف تريد من شعرائنا التونسيين أن يكونوا غير ذلك وهم إنما يعيشون على هامش الحياة، ولا يخوضون أحشاءها؛ ويستوحون صفحات الكتب ولا يستوحون هذا الوجود؛ ويصفون إلى هذر الشعب، ولا يصفون إلى أصوات قلبه الكثيرة؛ ويتغنون برغبات المجتمع الزائلة، ولا يتغنون بمطامع الإنسانية الخالدة».

إن شعراءنا اليوم على طبقتين:

طبقة لم تكوّن لنفسها ثقافة إلا مما يحمله إلينا الشرق من روايات ومجلات وصحف مختلفة الأحجام والأشكال والمواضيع، وما تطالعه خلال ذلك من أدب المدرسة الجديدة في المهجر والشرق، وطائفة هذا حظها من الثقافة الأدبية لا ينتظر منها أكثر من هذا الأدب الفج السخيف المهزول في روحه وأسلوبه ومعناه الذي تنتجه من حين لآخر.

وطبقة كونت لنفسها ثقافة صالحة من قديم الأدب وحديثه، فكان لها الأسلوب الجميل والنسج الرصين والصناعة البارعة. وقد كنا ننتظر أن نجد عندها إلى جمال التعبير وقوته طرافة المعنى وعمق التفكير وحيوية الروح الشاعرة فخابت آمالنا فيها؛ فإن شعراءها ما فتوا يسخرون أشعارهم للمدح الكاذب والرثاء المصنوع، والمعاذير والتهنئات، وغير ذلك من أكاذيب الشعر وزيد النفس وغنائها، وإن خرجوا عنها فإلى مواضيع صحفية مبذولة باردة يسمونها في غفلة مضحكة «شعراً اجتماعياً». وقد كنا نتعلل للنشأة الأولى منهم بأنهم استيقظت على ضوء فجر جديد لا عهد لأحلامها به. فلما أرادت أن تجدد الشعر مجارة لتيابه لم تجد أمامها غير الصحف من بدع هذا العصر فأخذت في حيويتها تقلد الصحف في الغاية والموضوع، وبذلك أصبح الشاعر صحافياً ينظم في أحداث عصره ومشاكل يومه؛ حتى لقد نظموا في أزمة المعاش وغيرها من توافه الدنيا ومحقرات الأمور. ولكن إذا تعللنا للنشأة الأولى بدهشة الجدة وحيرة الانتقال فبم نعتذر عن هاته النشأة المحدثه؟ لا عذر إلا جذب في القريحة، وقفر في النفس وجفاف في العاطفة والخيال. وإلا فما هذا التمسك بالقديم والجمود عليه، وقد حفيت الأفلام في إفهامهم معنى الشعر وموضوعه؟ وما هذا التشابه الأليم بينهم في الروح والمنزع والخيال؟ ما لنا نجالسهم ونتحدث إليهم فإذا لكل ملامحه وصفاته وأسلوبه الخاص في فهم الأشياء وتقديرها، وطريقته

الفريدة في الإشارة والنظرة والحديث، ثم نحن نفارقهم ونرجع إلى أشعارهم نتلمس تلك الفروق الواضحة التي كنا نشاهدها وهم يتحدثون، فإذا ملامح متشابهة، وأساليب متقاربة، وأرواح متماثلة، كأنها منتسخة من أصل واحد مخبوء في عالم الغيب، إلا فروقاً خافية دقيقة لا تكاد تبين، بحيث لو ألقيت إلى الناقد مجموعة من شعر هؤلاء مجردة عن أسمائهم لأعجزه - مهما أجهد نفسه - أن يرد كل شعر إلى قائله، لأنك لا تجد للواحد منهم أسلوباً ولا روحاً ولا لوناً من ألوان الفن يمتاز به عن غيره كما يمتاز بمعارف وجهه ونبرات صوته وطريقة فهمه وحديثه؟!!

الحقيقة أنهم ما زالوا بعيدين عن الحياة في فهم، حياة رفيعة سامية، والاندماج فيه بكل ما لهم من روح وحس وتفكير وخيال، حتى ينطبع شعر كل واحد منهم بطابعه الذي لا يشاركه فيه غيره، وما برحوا ينظرون إليه كنافذة من نوافل النفس، لا ضرورة من ضروراتها، ولهو ساذج يتسلى به المرء في سامة الوحدة وملل الفراغ، لا جد صارم يتصل بأعمق أعماق الحياة، ومن ثم كانوا لا يمنحونه ما يجب له من التقدير والاحترام! ولا يتحرجون أن يسفوا به إلى صغائر الأشياء وسخافاتنا...

وهكذا يصرفون أيامهم ولياليهم في كهوف ضيقة وأودية عميقة مظلمة يسمونها مساكن آبائهم الأولين.. وإن ارتفعوا فإنما ليخاطبوا الشعب بذلك «الشعر الاجتماعي» على طريقة وعاظ المنابر أو أساليب كتاب الصحف، ويا ليتهم يعلمون أن للشعب روحاً كأرواح الأطفال وأقداماً كأقدام الجبابرة، وأن أنشودة تغني فينة للعالم وجمال الوجود لأجدى على روحه وأعوذ عليه من ذلك الوعظ الفاتر والتعاليم الجامدة، وكل تلك الأشعار المقفرة الخالية من روح الفن وحرارة الحياة التي ملأوا بها سمعه وأثقلوا بها قلبه المسكين!

كذلك شعراؤنا يا صاحبي، وإنهم ليشبهون في عالم الفن أطفالاً

صغاراً بينون من محار الأمواج وأجصاب الشاطئ قصوراً تهدمها
الرياح.. ويرتلون للموج ثرثرة الطفولة الساذجة والموج يدوي بجلجلة
اليوم وأغاني الأعماق...

أما ذلك الفنان الذي يكون في روحه شيء من طبع النبوة التي
تبصر ما لا يبصره الناس، وتشعر بأسمى مما يشعرون، وعنصر من معنى
الالوهية التي تخلق المادة الصماء حياة ساحرة وفلكاً دائراً؛ أما ذلك
الخلاق الذي يبعث في آثاره فلذة من روحه ونسمة من حياته فإذا هي حية
ناطقة تعبر في قوة وإبداع عما في هذا الوجود من سحر وفن وجمال،
وتتغنى بما يزخر في أعشار القلب البشري من عطف وبغض، وبأس
وحنين، ولذة وألم، وغايات ومثل.. أما ذلك الجبار الذي يرتفع بقلبه
فوق البشر ليتحدث بلغة السماء عن نشوة الروح وحيرة الفكر التائهة بين
نواميس العالم وبهاء الوجود؛ فإنني فتشت عنه فما وجدته، ولو وجد
لظل غريباً مغموراً مجهولاً من الناس.

وكان القمر قد ألقى على رمال الصحراء جمالاً شاحباً حزيناً،
فالتفت إليّ صاحبي، وفي عينيه كآبة عميقة حائرة وقال:

«إنني أخشى...».

قلت:

«ماذا؟».

قال:

«أخشى أن تكون العلة في روح الشعب، وأن يكون عقمه هو الذي
حال بيننا وبين ظهور الشاعر العظيم فينا».

قلت:

«لا يا صاحبي، ليست العلة في روح الشعب فإن روحه غنية زاخرة
بقوة الفن وإنما الداء في الألسنة المعبرة، وما عليك إلا أن تذهب إلى
صميم البادية، وبين المضارب والخيام، وتصغي إلى أناشيد قلبه الصادقة

حتى تدرك أي حياة وفن وجمال في تلك الأغاني والأناشيد الساذجة، بل إن بعضها ليحتوي فلسفة صادقة ونظرات عميقة في الكون وسنن الحياة، وإذا أردت أن تعرف ما في موسيقى الشعب من سحر وقوة وفن، فاستمع إليها في الحقول الفسيحة تتموج فوق السنابل والأغمار، وتحت أشجار النخيل والزيتون تتهادى بين السواقي والأنهار، حتى أنها رغم بساطتها ورغم أنها لا تتجاوز الشبابة والمزمار لتسامى أحياناً إلى أن تكون موسيقى وصفية حماسية ترسم لك، في دقة وإبداع، صورة من صور الحياة بما فيها من اضطرابات نفسية عميقة وحوادث وأهوال.

أجل يا صديقي، إن في قلب الشعب التونسي ثروة روحية وفناً قوياً، ولكنها ثروة مهملة وفن غير مصقول، وإن في طبيعة هاته البلاد سحراً يلهم أسمى المعاني وأرفع الأفكار لو كانت للصخر مشاعر حية واعية. وأن الداء كل الداء في الألسنة المعبرة لا في روح الشعب ولا في طبيعة البلاد».

فقال صاحبي وهو ينظر إلى الصحراء التي لا حد لها في رأي البصر:

«ليت شعري هل يلد الشعب نابغته المنظور؟»
فأجبت:

«إن البذرة الحية لا تموت، وحينما تلمسها أنامل الربيع الساحرة يلثمها الفجر ويعانقها النهار...».

وغشت القمر غيمة رقيقة عابرة، وازداد شذا الأزهار البرية والآبدة قوة تحرك في النفس لذة مسكرة، فرجعنا صامتين بخطى متناقلة إلى القرية الصغيرة النائمة وبين الصحراء وواحة النخيل، وكان كل شيء ساكناً غير العراجين المتدلية فقد كانت تملأ ذلك السكون بأنشودتها القديمة البالية.

الفنون والنفس العربية

... كثير من الباحثين يا صديقي⁽¹⁾ عللوا جمود الفن العربي واتباعه تلك الطريقة الهندسية المتشابهة التي لا تمت إلى الحياة والعمق والخيال بسبب قريب أو بعيد، بسيطرة الإسلام وتحريمه محاكاة ما له روح بالرسم والمثال، بل علل أخيراً بعضهم بنفس هاته العلة بساطة الروح الشعرية في الأدب العربي وحملوا الدين قسطاً وافراً من أسباب سذاجته وركوده.

أما أنا فلا أذهب هذا المذهب في تعليل ذلك، لأن الدين لم يستطع أن يمنع الأمة العربية من الاندفاع في الغناء والاستمتاع به، مع أنه حرمه كما حرم النحت والتصوير. فقد ازدهر الغناء في العصر العباسي والأندلسي ازدهاراً عجيبياً. وكان له مدى بعيد الأثر في حياة تلك العصور الروحية. وأن الشعر ليدين له بكثير من رقة الأسلوب ونعومة ديباجته وحلاوة موسيقاه في تلك الأجيال. بل لقد بلغ الغناء غاية شأوه في العصر الأموي بين سمع الصحابة وبصرهم. وفي مكة والمدينة بالخصوص. حتى لقد استطاع أن يسيطر على روح الشعب إذ ذاك، سيطرة جعلت نساك الحجاز وزهاده مضرب المثل في رقة الطبع

(1) هو الأديب التونسي الجهير المرحوم محمد البشروش، وكان من أصدقاء الشابي الأعزاء، وهذا الفصل كان في الأصل رسالة بعث بها الشابي إلى صديقه البشروش.

وحلاوة الشمائل، وحتى تكونت في الحجاز مدرسة من الفقهاء يفتون بحلية الغناء ولا يتخرجون من سماعه والإصغاء إليه والافتتان بسحره الجميل. كما أن الدين لم يستطع أن يصد الأمة العربية عن الاندفاع في تلقي فلسفة الهند وفارس واليونان وعن تذوقها ودراستها وأداء أمانتها إلى الإنسانية كاملة غير منقوصة فأنتجت في الشعراء أمثال المعري وابن الرومي والمنتبي. وفي الفلاسفة أمثال الكندي وابن الراوندي وابن رشد وأخوان الصفا. كما أن الدين لم يسكت شعراء العرب حين حاول كثير من جامدي الفقهاء تكبيل الشعر بقيود من حديد، وحاولت طائفة منهم تحريمه مطلقاً. سأل بعضهم ابن عباس: هل ينتقض وضوء المرء إذا أنشد الشعر؟!

ومما تقدم يبدو لك يا صديقي أن سيطرة الدين لا تكوّن علة منطقية لجمود الفن العربي والحضارة في دائرة ضيقة، لأن سيطرة الدين، بالغة ما بلغت من الصولة والبأس والسلطان، لا تستطيع أن تسكت روح الشعب، ولا أن تقضي على منازعه وميوله! .

وإذن فما علة ذلك؟

العلة في مذهبي هي روح الأمة العربية، فهي روح مادية ساذجة، كما بينت هذا في «الخيال الشعري عند العرب»، وإنك لتتظر إلى كل آثارها الفنية من أدب ونقش وتصوير ومثولوجيا فلا تجد لها حظاً من نفاذ الإحساس وعمق الخيال وروحانية المشاعر. حتى أن المذاهب الفلسفية التي تغلب عليها النزعة الروحانية لم تعرف سبيلاً إلى نفوس العرب، فمذهب وحدة الوجود الذي هو أعمق نظريات المتصوفة لم يشتهر به من متصوفة الأمة العربية إلا من كانوا أغراباً عن العرب كالسهروردي والحلاج والشمس التبريزي وجلال الدين الرومي. ولعل من الأسباب أيضاً أنهم لم يتقلوا عن الهند واليونان والرومان شيئاً مما يتصل بالجانب الروحي والناحية الفنية، فهم قد ترجموا من أدب فارس

واطلعوا على عقيدتها، وفارس هي أقرب الشعوب الآرية شياً بالعرب من ناحية الحس والخيال، وهم قد اطلعوا على بعض من آداب الهند ولكنهم لم يدرسوا عقيدة الهند درساً عميقاً، يستطيع أن يؤثر في تاريخهم الفني أثره البعيد؛ لأن ما فيها من عمق فني ونفاذ في الفكر وسكرة في الإحساس، قد كان منافياً لطبيعتهم القنوعة الساذجة فحال بينهم وبينها. كما أنهم لم يدرسوا تاريخ الفن بأوسع معانيه، لا عند اليونان ولا عند الرومان، إلا قليلاً من أساطيرهم لا تكفي لشرح نظريتهم الفنية إلى هذا العالم، ولعلمهم لم ينقلوها إلا ساخرين بوثنيتهم المسكينة!

وبذلك وقفت آداب العرب وفنونهم في منطقة ضيقة لا عمق فيها ولا قوة إحساس بالحياة، ولا مجاوبة للكون بالفهم والحس والخيال⁽¹⁾.

(1) نفس هذا الرأي ذهب إليه الشابي في كتابه «الخيال الشعري عند العرب» - راجع البحث في هذا الكتاب، ولكننا نختلف مع الشاعر فيما ذهب إليه من استنتاج، وإن كنا نوافق على تصويره للواقع التاريخي في الأدب والفكر العربيين. «كرو».

مات جبران

مات جبران ولكن روحه لن تموت .
مات جبران وأصبح سراً صامتاً في ضمير الموت وخيلاً سارياً في
مجاهل الأبد الغامض الرهيب .
أجل مات جبران واختفى عن هذا العالم إلى الأبد وأصبح
بعيداً . . بعيداً . . عن أنباء هذا الوجود .

مات جبران، مات ذلك الذي جبلته الحياة من طين وماء وكبّلته
بأصفاد الزمان والمكان واتخذت منه قصبه جوفاء تتغنى بها حيناً ثم
تلقوها عيداناً محطمة في أودية الموت . أما ذلك الذي صاغه الإلاه من
جوهر الحياة . أما تلك الجذوة الإلاهية المتأججة في قلب جبران . أما
روح جبران الغريبة الهائمة الواقفة في مفترق سبل الحياة حائرة متشككة
متسائلة مفكرة شادية حالمة . أما عبقرية جبران . أما من جبران فكل هاته
حية خالدة لا ولن تموت بل إنها ستظل مصدر وحي ومهبط إلهام
وستظل مقدسة جليلة إلى أبد الدهر .

كان جبران روحاً شعرية حالمة . وأنشودة سماوية هائمة وبخوراً
سحرياً يتضوع في هيكل هذا الوجود . ولبلاً إلهياً غريباً غنى للبشرية
المحزونة أغاني الحب والجمال وعلمها محبة الحق وأراها بهاء السماء .

ترنم جبران بأصوات قلبه وتنهدات روحه في عهود الشباب
الجميلة المخضبة بالدموع والأحلام . فكانت أناشيده رقيقة ناعمة كأغاني

الملائكة. وكانت عميقة داوية كأصوات البحار وكانت شجية ساحرة
كانات نايٍ بعيد.

وتألم جبران فكانت آلامه لهيباً شعرياً يرفرف حول أرواح البشر
بأجنحة من نور وكانت زوابع من نار تتأجج فتلتهم الأنصاب والهشيم.
وفكر جبران كانت أفكاره عميقة كالموت جميلة كالحياة. فكر
كالفيلسوف وتكلم كالشاعر فكان لأدبه رقة الشعر وجلال الفلسفة وكان
له فن غريب تتعاقب في ظله الحقيقة السافرة والخيال الجموح.

وكان جبران ثورة في الأدب العربي ولكنها ثورة حبيبة جانب البناء
فيها أكثر من جانب الهدم والتخريب. ثورة أيقظت الناس من سبات
الدهور وأرتهم آفاقاً كانت مجهولة. وأسمعتهم هزيم الحياة وعلمتهم أن
روح الشاعر كثر لا يفنى وثورة لا تبيد وأن في هذا العلم شيئاً آخر غير
الأمس البعيد...

ويمتاز أدب جبران بميزتين هما في نظري دعامتا مجده الذي لا
يزول:

الميزة الأولى: الجدة والطرافة في أسلوبه وفي معانيه وفي روحه
فإنك لتقرأ أدبه فإذا أسلوب موسيقي متجاوب النبرات ومعان خيالية
رائعة وروح متأججة ترفرف بين السطور.

الميزة الثانية: الحياة. الحياة التي لا بد أن تحرك في صدرك حين
تقرأه عاطفة أو فكراً أو خيلاً بل إنها تكرك على أن تفكر أو تشعر أو
تتخيل ومن لا يحركه أدب جبران ولا يثير شعوره فإنما هو روح مقفرة
وقلب مهدوم.

وسيقول الناس عن ثورة جبران على قواعد اللغة العربية أحياناً.
ولكن ذلك لا يحط من قيمة جبران فما هي إلا هفوة تغفرها له تلك
الثورة المعنوية الخالدة التي خلفها جبران للعربية وستمّر الدهور وتتعاقب

الأجيال وينسى الناس عن جبران كل شيء ولكن لا يستطيعون أن ينسوا
هاته الحقيقة .

«لقد كان جبران عاطفة مشبوبة وخيالاً جامحاً وفكراً قوياً يجوب
أعماق الحياة» .

وسيقول الصديق لصديقه وهو يحادثه في الليلة القمراء تحت ظلال
النخيل أو على شاطئ اللجة الداوية: «حقاً لقد كان جبران رسول الحق
والحب والجمال...»⁽¹⁾.

أبو القاسم الشابي

(1) أقيم لجبران حفل تأبين في ذكرى الأربعين عام 1931 . وشارك الشابي بهذه
الكلمة التي قرئت باسمه في الحفل ونشرت في جريدة الزمان (تونس) عدد 83
(8 - 7 - 1931) .

الخيال الشعري عند العرب

«بقلم أبي القاسم الشابي، 141 صفحة،
13 2/1 سم 18 4/3 سم».
«مع مقدمة بقلم زين العابدين السنوسي، مطبعة
العرب بتونس».

نقد: مختار الوكيل

هذا كتاب يحوي مجموعة محاضرات ألقاها الشاعر التونسي المجيد أبو القاسم الشابي على جمهرة من المتأدبين في تونس يعالج فيها الخيال الشعري لدى العرب، ونحن لا ننكر على الشاعر الفاضل دقة بحثه وأمانة فكره ورجاحة رأيه في أغلب المواضيع مع عذوبة لفظه، وتحريه الحق والصدق عند كل فكرة، وتمشيه مع المنطق السليم في كتابته، والأديب الشابي من شباب العروبة المجددين، كما تنم عليه روحه الحية. يسخر من القدامى ولا يحب أن يعترف لهم بفضل كبير على الخيال الشعري، بل هو يذهب إلى أبعد من هذا، أجل هو يرى أن ليس لهم من الخيال الشعري نصيب، وهو وإن كان قد استدل على ذلك ببعض أشعار للفحول المتقدمين إلا أننا نراه غالي كثيراً في حكمه. وبقيننا أن الذي دفعه إلى هذه المغالاة إنما هي رغبته في شحذ القرائح واستنهاض الهمم، حتى يصل الخيال الشعري على أيدي شباب العرب

إلى درجة سامية لم يحلم بها السابقون في هذا الميدان. فلا جدال في أن العرب كانوا على نصيب ممتاز من الخيال الشعري، خصوصاً بعد تمازجهم بالفرس واليونان في عهد بني العباس، على نقيض ما يذكره المؤلف من أنهم لم يتأثروا بهؤلاء ولم يمتزجوا بأولئك لعنجهية وغطرسة فيهم. ونحن نرى في كثير من شعر العهد العباسي خيالاً رائعاً لا يقل عن خيال فطاحل الشعراء الغربيين الذين يستشهد المؤلف بهم في غضون محاضراته القيمة. فهذا البحترى يصف الربيع فيبدع الإبداع كله في قوله:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً	من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز في غسق الدجى	أوائل ورد كن بالأمس نوما
يفتقها برد النداء فكأنه	يبث حديثاً كان قبل مكتما
فمن شجر رد الربيع لباسه	عليه كما نشرت وشياً منمنما
أحل فأبدى للعيون بشاشة	وكان قذى للعين إذ كان محرما
ورق نسيم الريح حتى حسبته	يجيء بأنفاس الأجنة نعماً!

وهذا المتنبى يقول في وصف بطله في ساحة الوغى:

وقفت وما في الموت شك لواقف	كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة	ووجهك وضاح وثرغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى	إلى قول قوم أنت بالغيب عالم!
ضممت جناحيهم على القلب ضمة	تموت الخوافي تحتها والقوادم
بضرب أتى الهامات، والنصر غائب	وصار إلى اللبات والنصر قادم
حقرت الرُدينيات حتى طرحتها	وحتى كأن السيف للرمح شاتم!

وشعراء الأندلس كانوا على جانب عظيم من الخيال الشعري، فهذا ابن حمديس يقول في وصف بركة يجري إليها الماء من شاذروان ومن

أفواه طيور وزرافات وأسود:

والماء منه سبائك من فضة
فكأنما سيف هناك مشطب
كم شاخص فيه يطيل تعجباً
عجباً لها تسقي هناك ينابعاً
خصت بطائرة على فنن لها
فإذا أتىح لها الكلام تكلمت
وكان صانعها استبد بصنعة
وزرافة في الجو من أنبويها
وكانما ترمي السماء بيندق
ذابت على دولاب شاذروان⁽¹⁾
ألقته يوم الروع كف جبان
من دوحة نبتت من العقيان
ينعت من الثمرات والأغصان
حسنت فأفرد حسنهما من ثاني
بخيرير ماء دائم الهملان
فخر الجماد بها على الحيوان
ماء يريك الجري في الطيران
مستنبط من لؤلؤ وجمان

إلى آخر القصيدة الممتعة من وصف رائع وخيال رائق لا يتاح إلا
لعبقرية جبارة، وهذا ابن الرومي يقول فيبدع في رثاء (بستان) المغنية،
ويمدح (وحيد) فيجيد كذلك الإجادة كلها. وغير هؤلاء كثيرون قرأ لهم
شاعرنا الناقد فيما نظن.

والذي أراه أن الشابي تواق إلى الإصلاح نزاع إلى الطفرة بالشعر،
وهذه خلة حسنة ما لم تصحب بالتطرف البعيد في امتهان الخيال العربي
في الشعر. وما عدا هذا، فالكتاب جميل، عذب الأسلوب رشيق
العبارة، وهو من الكتب النادرة التي تبعث على التفاؤل بمستقبل الشعر
خاصة والأدب بوجه عام.

مختار الوكيل⁽²⁾

(1) رفف.

(2) مجلة أبولو مجلد 1 ع 7 ص 833 (مارس 1933).

الخيال الشعري عند العرب

ردّ على نقد

في العدد السابع من هاته المجلة كتب حضرة الأديب الفاضل مختار الوكيل عن «الخيال الشعري» وصاحبه كلمة طيبة كلها أدب جم ونقد نزيه محتشم، وإنني أود أن أحاوره حواراً هادئاً رقيقاً في بعض مآخذه علي في الكتاب المذكور، شاكراً له ما خصني به من ثناء.

أخذ عليّ الأديب الفاضل ذهابي إلى نفي الخيال الشعري عن الأدب العربي القديم قائلاً: «إن العرب كانوا على نصيب ممتاز من الخيال الشعري خصوصاً بعد تمازجهم بالفرس واليونان في عهد بني العباس على نقيض ما يذكره المؤلف من أنهم لم يتأثروا بهؤلاء ولم يمتزجوا بأولئك لعنجهية وغطرسة فيهم»؛ ثم ذهب يدلل على وجود الخيال الشعري في الأدب العربي بقصيد البحري في الربيع:

أتاك الربيع الطلق يختال باسماً من الحسن حتى كاد أن يتكلما، إلخ.
وبنونية ابن حمديس الصقلي المشهورة في وصف البركة، وبأبيات أبي الطيب:

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردي وهونائم، إلخ.
ويلفتني إلى دالية ابن الرومي الغزلية في «وحيد» ورائيته الرثائية في «بستان»، ومن ثم حملني على «التطرف» و«المغلاة» وحب الطفرة،

ولكنه اعتذر عني، بأن ما دفعني إلى ركوب ذلك السبيل إلا حب «الإصلاح» و «الرغبة» في «شحذ العزائم واستنهاض الهمم» إلخ.

وإني فهمت من كلام الأديب الناقد ودلائله أنه يعني «بالخيال الشعري» غير ما أردت أنا منه في فصول الكتاب، فهو يريد به خيال المجاز والاستعارة والتشبيه وغير هاته من براعات الألفاظ والتعابير التي أشبعها كتب البلاغة على اختلافها بحثاً ودرساً، وهذا ضرب من الخيال لا أنكره على الأدب العربي ولا ينكره أي باحث يحترم نفسه ورأيه، بل إنني أزعم أن الآداب العربية غنية بهذا اللون من الخيال غناء مفرطاً وأن لها فيه القدح المعلى والسهم الموفور. ولكن الخيال بهذا المعنى ليس مما يدور عليه أبحاث الكتاب، وقد تحدثت عنه في صفحة 31 وسميته «بالخيال الصناعي» أو «الخيال المجازي»؛ وقلت إنني لا أريد أن أعرض لهذا النوع من الخيال المألوف؛ لأنه، وإن دل على بعض نواح خاصة من روح الأمة فهو لا يدل على «مقدار شعورها بتيار الحياة كعضو حي في هذا الوجود»، وإنما أردت منه معنى جديداً لا يخلو من دقة وعمق. فقد عنيت به (كما قلت بصفحة 12) ذلك الخيال الذي «اتخذه الإنسان لا للتزيق والتشويق، ولكن ليتفهم من ورائه سرائر وخفايا الوجود...». وقلت إنني أسميه «بالخيال الفني» لأنه فيه تنطبع النظرة الفنية التي يلقاها الإنسان على هذا العالم الكبير، وأسميه «الخيال الشعري» لأنه يضرب بجذوره إلى أبعد غور في صميم الشعور، فالخيال الشعري بهذا المعنى العميق الذي تلتقي فيه الروح الفنية والفلسفية في آن، والذي نفهم منه نفسية الأمة ونذكر ما الذي لآفاقها الروحية من عمق وسعة وضياء، ذلك هو الذي أردت عليه أبحاث الكتاب وكسرت عليه فصوله.

والذي يدل على أن حضرة الناقد يريد «بالخيال الشعري» ويفهم منه الصناعة البلاغية لا خيال الإحساس والشعور والاندماج في الأشياء اندماجاً فنياً، ما ساقه من الأدلة الشعرية على وجود الخيال الشعري عند

العرب، فأبيات المتنبي التي ساقها شاهداً على ذلك ليس فيها من الخيال الشعري الذي نعينه أي حظ أو نصيب، وإنها لأبعد عنه وعن الاتصال به من كل شيء. وقصيدة ابن حمديس في وصف البركة هي حجة ناهضة على وجود الخيال الصناعي في الآداب العربية، وأنا معه في ذلك، ولكن ما حظها من الخيال الشعري بالمعنى الذي بيته؟ لا شيء على التحقيق، فهي لم تخرج عن تلك التشابيه الذهبية الخاطفة التي امتلأ بها الأدب العربي امتلاء غريباً، ولم تعد تلك الروح الشائعة في الآداب العربية التي لا تحيط من الأشياء إلا بمظاهرها المادية من لون وشكل ووضع وما إليها، وهي لهذا حجة تضاف إلى ما عرضته من شواهد في فصول الكتاب - تؤيد ما ذهبت إليه من أن روح الأدب العربي القديم مادية سطحية في نظرتها إلى الكون وتناولها الأشياء، وأنها لا تأخذ منها إلا ملامحها البادية.

والغريب أنه يناقضي بقصيدة أبي عباد: «أتاك الربيع... إلخ. وبالإشارة إلى دالية ابن الرومي في «وحيد»، مع أنني قد أتيت عليهما وعددتها - فيما عدت - من نوادر الخيال الشعري وبواكيره في الأدب العربي أثناء البحث عن «الطبيعة» و «المرأة» في هذا الأدب (صحائف: 48 - 57 - 63).

والأغرب من ذلك ذكره أنني قلت أن العرب لم يتأثروا ولا امتزجوا بالفرس ولا باليونان، مع أنني قلت بالحرف الواحد بصفحة 41: «... حتى أظل العصر العباسي حياة العرب فكانت عادات وأخلاق وأمزجة وطباع، غير ما ألف العرب من طباع وأمزجة وأخلاق. وكان أن اصطبغت الحياة الإسلامية بصبغة مشتركة من حضارات عتيقة متباينة تكونت منها حضارة جديدة مهلهلة ناعمة، تجمع كل ما عرف الفرس والروم والإسلام من فكر وطبع ودين. فكان لهذا كله أثر غير يسير على النزعة العربية الجافية، وكان أن أتقن العربية كثير من الفرس

والروم ونظموا فيها بأمزجة غير الأمزجة العربية، وأذواق غريبة عن أذواق العرب... إلخ. وإنما الذي قلت غير هذا، أن العرب وإن ترجموا فلسفة اليونان وعلومها وحكمة فارس وفنونها فانتفع بذلك الذهن العربي فإنهم لم يترجموا من آداب اليونان والرومان شيئاً ولا من آداب الهند وفارس إلا قليلاً، وجعلت هذا من الأسباب التي أبقت روح الأدب العربي على حالها الأولى، رغم تطور أسلوبه وتغيره باختلاف العصور والأوساط، وعللت عزوف العرب عن ترجمة الآداب المذكورة بتشبع أدب اليونان والرومان بالترعة الوثنية التي جاء الإسلام لمحاربتها، وباعتداد العرب بأدبهم الأول، وإيمانهم بأنه هو المثل الأعلى الذي لا يحتذى غيره (ص 140 - 141). ولعل من أسباب ذلك أيضاً أن العرب لم يتصلوا بفلسفة اليونان وعلومها إلا عن طريق تراجمه «النساطرة» و«اليعاقبة»، وهؤلاء لم يعنوا من ثقافة اليونان بالقسم الفني وإنما عنوا منها بما يتصل اتصالاً وثيقاً بصفتهم الدينية اللاهوتية. ولعل ما في آداب اليونان وفننها من روح وثنية قد كان ينفرهم هم أيضاً منها.

* * *

وبعد، فأنا أحب أن يعلم الأديب الفاضل أنني إذا كنت أدعو إلى التجديد وأعمل له فإن ذلك لا يدفعني إلى الهزء والسخرية بآداب الأجداد - كما قد حسب - ، بل إنني لأومن كل الإيمان بما فيها من جمال فني وسحر قوي، وأعتقد أنها قد آتت في عصورها الحية لأجدادنا كل ما طمحت إليه أشواقهم من غذاء معنوي دسم. ولكنني أومن إلى جانب ذلك أن في الحياة آفاقاً مجهولة ساحرة غير ما في الأدب العربي من آفاق، وأن هذا الأدب إذا كان قد سد خلة آباتنا الروحية فإنه لعاجز كل المعجز عن أن يشبع ما في أرواحنا من جوع وعطش وطموح، وأنه إذا كان لزاماً علينا أن نعجب بهذا الأدب ونفخر به كحلقة من سلسلة

ذاتيتنا العربية وكمنجم ذهبي نرجع إليه كلما أردنا أن نصوغ لأفكارنا
حليها الساحر الجميل، فإن ذلك الإعجاب لا ينبغي أن ينقلب في نفوسنا
إلى تقديس فعبادة فجمود فإطباق لأبصارنا عن كل ما في السماء من
أشعة ونجوم. هذا رأيي وهذا بعض ما دعوت إليه في كتاب «الخيال
الشعري عند العرب».

وما أحسب في مثل هذا شيئاً من الغلو أو الإغراق، أو تنقص أدب
الأجداد أو الزراية عليه.

فإن كان ناقدني المفضل يأبى بعد هذا إلا اعتباري «متطرفاً» غالباً
ومتنقصاً لأدب الأجداد، فليفعل وأجري على الله.

أبو القاسم الشابي⁽¹⁾

(1) مجلة أبوللو مجلد (1) العدد 10 ص 1172 (يونيو 1933).

لصووية الشعر⁽¹⁾

كلمة إلى صديقي عبد الخالق

يا صديقي:

أنت تسألني رأبي في هاته الطائفة التي تسميها عامداً: «شعراء الاختيار» وتريد منها تلك الفئة من النظامين التي لا تستلهم السماء ولا الأرض، ولا تستوحي الموت ولا الحياة، ولكنها تستوحي الكتب والأوراق والقصائد والأناشيد، وما أحسبك تجهل رأبي في مثل هاته الطائفة بل أحسب أنه لم يحملك على مسألتي هذا السؤال إلا لأنك تريدني أن أضرب بسهم في هذا الحوار الجميل الرائع الذي يدور بينك وبين أختينا الحلوي هادئاً هيناً ودبعاً، وإن كانت شقة الخلاف بعيدة فيه كل البعد. فإنك لتعلم أنني وصفت الشاعر في بعض ما كتبت بأنه «ذلك الخلاق الذي يبعث في آثاره شعلة من روحه ونسمة من حياته، إذا هي ناطقة تعبر في قوة وإبداع عما في هذا الوجود من سحر وفنّ وجمال، وتتغنى بما يزخر في أعماق القلب البشري من عطف وبغض ويأس وحنين ولذة وألم وغايات ومثل...» وأنه «ذلك الجبار الذي يرتفع بقلبه فوق البشر ليتحدث بلغة السماء عن نشوة الروح وحيرة الفكر التائه بين نواميس العالم وجمال الوجود...» ولكن لندع هاته القمّة الشاهقة التي

(1) جريدة «الزمان» (تونس) س 6 عدد 244 (1934.9.4).

يجلس منها الشاعر على صخرة عالية تجلّ لها الغيوم والأضواء والظلمات مشرفاً على تلك الدنيا المقدّسة السّاحرة المستقرّة في أحشاء الحياة وطوايا هذا الوجود. ولننزل إلى هاته الأرض المدحوة المتظامنة التي يمشي في مناكبها أبناء التراب، ولنتحدث عن الفنّ كما أفهمه ثمّ عن هاته الطائفة التي تسمّيها «شعراء الاختيار» ونصيّبها منه. وإذن فما هو الفنّ أوّلاً؟

الفنّ في نظري حياة موسيقية مصطفاة سواء كانت قطعة تنشد أو لحناً يعزف أو صورة ترسم أو تمثالاً ينحت. هو «حياة» لأنّ الفنّ في صميمه إنما هو صورة من تلك الحياة التي يحيها الفنان في هذا الكون الزاخر الرحيب، أو في دنيا خياله وأحلامه كيفما كانت تلك الصورة في اللون والشكل والغرض. وهو حياة «موسيقية» لأنّ الفنّ في جميع صورته وألوانه إنما هو نسب موسيقية يوازن الفنان بينها موازنة حكيمة ملهمة يحسّ بها ويأتيها وربما لا يفهمها حقّ الفهم أو بعضه. فالشاعر العظيم هو ذلك الذي يوقّق إلى المعادلة بين نسب العاطفة والفكر والخيال والأسلوب والوزن، بحيث يكون لكلّ منها نسبة فنية تجاوب بقية النسب الأخرى وتنسجم معها في القصيد انسجام النور والعتير والماء والهواء، في الزهرة الجميلة الياقة. والرّسام العظيم هو الذي يوقّق في الصورة إلى الموازنة الموسيقية بين الألوان والأضواء والظلال والرّوح الفنية الشائعة في كلّ ذلك شيوع الضياء في السماء، وليقلّ مثل ذلك فيما بقي من ضروب الفنّ وأشكاله.

وهو حياة موسيقية «مصطفاة» لأنّ الفنان المخلص لفنّه لا يعبر بفنّه - أو هو مكره على ألاّ يعبر به - إلا عن أرفع صور الحياة وأسامها. وإلّا فإنّ في الحياة كثيراً من السخافات والدنايا لا ينحط إليها الفنّ الرفيع بحال.

وعلى هذا فإنّ الشعر حياة موسيقية مختارة تعبر عن نفسها في فنّ من الكلام والموسيقى، حياة موسيقية مختارة ترفرف بألحان مجنّحة في جوّ منغمّ موزون. وكذلك يقال في المثالة والنحت والتصوير. فأنت ترى أنّ لباب الفنّ وصميمه في رأيي هو «الحياة» بكلّ ما فيها من شعور وفكر وبداهة وخيال.

وإذن فما حظ هاته الطائفة التي تسمّيها عامداً: «شعراء الاختيار» من «الحياة» التي لا يكون الفنّ بدونها فتناً؟

لننظر!

إنّ أحدهم ليغلق سمعه وبصره عن كلّ ما يعرضه الكون من مرأى ومسمع، وعن كلّ ما يعجّ بقلبه من هواتف وأحلام، عاكفاً على الكتب منصرفاً إليها يلتقط منها ما يفتنه من ضوء وزهر وظلال، لينشئ منها «حديقة» يزعم أنها نامية ريانة بالحياة. قد نقول له حين ننظر إلى حديقته: ما أجملها! لكننا لا نستطيع أن نقول له: ما أحيا حديقتك يا صاح! لأننا لن نجد إلاّ جمالاً هندسياً لا عطف فيه ولا حياة. وقد نصفه بلطف الذوق أو البراعة أو الذكاء، ولكننا لن نصفه بالفنّ أو العبقريّة أو الإلهام. فالذوق شيء والفن شيء آخر والبراعة شيء والإلهام شيء آخر، والذكاء شيء والعبقريّة شيء آخر. تلك لا تحتاج إلاّ الكدّ والدأب وحسن الاختيار وأمّا هاته فإنها هبة السماء وشعلة الحياة. وشتان بين الجواهر والمظاهر بين القشور واللباب. والبراعة وما إليها قد تستطيع أن تختار وتؤلّف وتنضّد وتوفّق إلى حظ غير يسير من جمال التنسيق والتأليف، ولكنها لا تستطيع بحال أن تخلق الأشياء خلقاً، فتلك مزية العبقريّة ربة الإنشاء والإبداع!

الحق يا صديقي أن هاته الطائفة التي تزجّها في الشعراء زجاً ليست من الشعر في شيء، وإنّما هي آلات صمّاء تتحرّك بلا قلب وتنطق بلا

شعور. وهي قد تكون بارعة في الوثب والقفز والمسير رقيقة في النجوى والحديث والنشيد، ولكنه سير مقلد وحديث معاد تلعنه الحياة ويبرأ منه الشعر والفرن. وماذا يبقى في الشعر والفرن عموماً من سحر إذا انطفأت فيه الحياة وفقدنا ما فيه من حرارة وحركة شعور؟ لا شيء إلا جمال الشعوذة ورنين الألفاظ، وهو جمال خامد لا أحسبه يضل ويفتن إلا أطفال الأدب وصغار العقول.

وهذا الجمال الميت الزائف هو كل ما «الشعراء الاختيار» من بضاعة مزجاة. وإني لأعجب لك يا صاحبي كيف تؤمن مع هذا بأنهم على شيء من الشعر والفرن! أما أنا فما أشبههم في عالم الشعر إلا بتلك الطفيليات التي لا تورق ولا تزدهر ولا تثمر ولا تستطيع أن تستخلص من الكون عصير الحياة. وإنما كل عملها أن تلتف على بعض الجذوع الحية النامية تقاسمها ما امتصته من قوة الأرض والماء والسماء... هاته كل على النبات وتلك كل على الشعراء وكلتاها عبء على الحياة ثقيل.

قد يسبق إلى وهمك مما تقدم أنني من الشاعر أن يخلق آثاره من العدم ويأتي بها غير مسبوقه بصورة أو مثال! كلا! فتلك حماقة جلية لا يقول بها من يعلم أن الحياة نفسها ليست إلا حرية ترسف في القيود وسلسلة يتصل فيها التليد بالجديد. وإنما أريد من الشاعر في فنه أن يترسم خطى الحياة في فنها. فالزهرة التي هي فن من فنون الحياة ليست إلا بعض ما في التراب والماء والسماء من روح الوجود، ولكنها مع ذلك فن منها جديد يخيل لك أنه بعيد عنها جد بعيد. ونحن أبناء الإنسان نتحدّر إلى هاته الدنيا وفيها مشابه من آباءنا الأولين في الملامح والميول والأطوار، ولكن لكل منا روحه الخاصة وطابعه الممتاز، وكذلك تتدفق الكائنات من قلب الحياة الأزلي الذي لا ينضب وكأنها صور ممتازة متباينة رغم ما بينها من وشائج الرحم والقربى، ولولا ذلك لأصبح عمل الحياة عبثاً متواصلاً معاداً لا جدوى وراءه ولا متاع.

كذلك يفعل الشاعر، فهو لا يخرج ولا يستطيع أن يخرج عما في نفسه التي بين جنبيه، وما في هذا العالم من سحر وألم، وما خلّفته الإنسانية من فنّ ورأي ودين. ولكن ينبغي أن لا يلقي إلينا ما ينتجه من ذلك إلّا بعد أن يحيا في قلبه ويتوهج في حياته، فيبرز للدنيا موسوماً بوسمه مطبوعاً بطابعه الذي طبعت به الحياة.

ذلك رأيي، يا صديقي، أدفعه إليك ولست أعلم ما سيكون وقعه من نفسك ورأيك، ولكنّي أقول إنّنا ما زلنا في بداية نهضة روحية وفي مستهلّ فجر جديد، وإنّه خير لنا وأخلق أن نتمسك بأدقّ المذاهب روحانية وأبعدها غوراً وأسطعها ضياءً من أن ندين بهاته المذاهب السطحية المتساهلة التي لا تتجاوز المظاهر إلى الأعماق. وإلّا فعلى نهضتنا وأدبنا وشعرنا سلام الوداع.

أبو القاسم الشابي

تعليق للبشروش على هذا الردّ

أما أن نتمسك بأدقّ المذاهب روحانية وأبعدها غوراً وأسطعها ضياءً ونحن ما زلنا في بداية نهضة روحية وفي مستهلّ فجر جديد، فهذا بديع. وأحسب أنّ هاته الفكرة كانت نصب عيني الصديق الشابي وهو يكتب هذا المقال الرائع، لذلك هو طالعنا بفهم للشعر هو أدقّ وأعمق فهم يقرأه الإنسان. وهو بهذا الفهم يطرد من حظيرة الشعراء كثيراً من الشعراء الصادقين أمثال شعراء الشعب، وأمثال مجنون ليلي في العربية وغيره حتى من شعراء العصر الذي نجتازه نفيض قصائدهم حياة وإن لم يتح لهم من الفن ما يسمو بهم إلى قمة الضياء. وتتناول أناشيد الواحة والربّاب، وتتناول حتى ديوان مجنون ليلي فإذا هو معان مكرّرة وأخيلة

مرّدة اختارها الشاعر وصاغها في قالب من الكلام جديد، فإذا هي لسان
وإذا هي تفصح عمّا في نفسه من «حياة». ونطالعها فلا نطالع فيها جيتي
أو شلير ولكننا نطالع «حياة» يعوزها من الفن غير قليل، ويعوزها أن
تكون حياة موسيقية في جميع أجزائها ومصطفاة في رقيّ أخيلتها وأدقّ
معانيها. فشاعر الاختيار شاعر حيّ؛ هو دون شعراء الإلهام والخلود
الناثنين في المحيط؛ ولكنه أبداً في صميم اليمّ ومنه. فيه من حياة
العُباب، ومنه من حياة العباب، وأناشيده أناشيد متواضعة جدّ التواضع،
ولكنها غير مقفرة من الحياة. فليعتقد هذا صديقي الشابي.

وكتبنا رسائلنا للبحث عن قسم من الشعراء أسميناهم شعراء
الاختيار، ونصيهم من الحياة. فما كنّا إذ نكتب ذلك لنحدّد برنامجاً
لنهضتنا أو نقرّر سبيلاً يتخطاه «فجرنا الجديد» وكان يجب على الصديق
أن لا يتجاوز الإطار الذي ما تجاوزناه ولعله كان يرى إذ ذاك في الرأي
الذي ذهبنا إليه شيئاً من الصواب.

محمد عبد الخالق (البشروش)⁽¹⁾

(1) هو من أخلص الأصدقاء للشابي (1911 - 1944) راجع عنه «رسائل الشابي» من
إعداد محمد الحلوي ثالث الثلاثة (1907 - 1978).

صفحات دامية

من حياة شاعر

... تلك حياة بعيدة... تجلت كالفجر، وتوارت كالحلم،
واضحلت في ظلام القبور.

تلك حياة جميلة... قد تهادت غيمة وردية في سماء الوجود،
وتدفقت نهراً مترنماً بأحلام البحار، ثم سارت جدولاً صامتاً في أودية
الموت...

تلك حياة شعرية ساحرة... قد حاكها الأمس من أصال الفردوس
وأسحاره، ووشتها أنامل الدهر بأزهار الربيع...

تلك حياة فتية حالمة... ما استحمت في لجة الليالي والأيام،
ونشرت غداؤها الذهبية فوق المياه... حتى تخطفتها المنايا وسارت بها
إلى مأواها البعيد... وهناك، في ظلمات الأبد الغامض الرهيب، تتألم
تلك الحياة الشقية، وتبكي وحدها بين الصخور...

* * *

... كنا نسير نحو الغاب، وكانت غماغم الحقول تحدثنا عن
الحب والحياة، وكانت تقنع السماء سحابة رقيقة ساجية، كأنها قناع
حورية من بنات الأحلام... أو رداء ملك من ملائكة الفردوس...

وكان الغاب يبدو في ضياء القمر كرؤيا نبي أو خيال شاعر... وكان
الحب يتهادى أمامنا، ثملاً بين المروج الناعسة في سكون الليل، وعلى
منكبيه درع قصير كضباب الصباح، جميل كغيوم الربيع... ومن حوالبه
بنات الربيع يتناغين بصوت أعذب من أغاني السواقي بين الحقول...

ولما اقتربنا من الغاب سمعنا طائراً يغني أنشودة القمر... وسمعنا
قيثارة الحب تترنم في جواره... وسمعنا صوتك العذب الجميل يتغنى
بوحى الجمال، يا ابنة الليل، ويا ربة الأحلام.

ولما جلسنا في ظلال الزيتون، وبين أشجار اللوز المزهرة، كان
الطائر قد سكت، وكانت قيثارة الحب تتأوه في يديك، يا ابنة الليل ويا
ربة الأحلام، وكانت أناشيد الغرام تنزل علينا من مكان بعيد...

ولبنا نصغى لأنشودة الحب، حتى توسط البدر قبة السماء؛
واختلجت كواكب الليل، وإذ ذاك شعرت بالحب يستجيش في قلبي،
وبالحياة تتدفق من شفتي.

* * *

تلك كانت حياتي بالأمس، حينما كانت نفسي بخوراً يتضوع في
معبد الحب، ورحيقاً يهرق تحت أقدام الجمال، وأنشود إلهية، تتغنى
في هيكل هذا الوجود...

تلك كانت حياتي بالأمس، حينما تمايلت في قلبي رؤى الحب
الجميل كما تمايل غلائل الحور في ضياء القمر، واصطفقت في صدري
أحلام الشباب الأولى، كما تصطفق أمواج البحيرة الموردة بأشعة الشفق
الجميل...

تلك كانت حياتي بالأمس، حينما كان هذا القلب الخفوق يتضوع

بعبق الحياة. ويتوهج بنارالخلود، ويزخر بشتى العواطف والأحلام...
وحيثما كانت نفسي تركع في محاريب الغاب الجميل، مرتلة صلاة الحب
وأغاني الفصول...

تلك كانت حياتي بالأمس، حينما طفح بقلبي خمر الحياة،
وترنمت في نفسي أغاني الوجود، وراقصت أحلامي عرائس الغابات...
تلك كانت حياتي بالأمس، وما شيدته الأمس في ضباب الفجر
المرصع بالنجوم... قد هدمته الأهوال في أحشاء الكهوف العابسة،
وأفنت بقاياها غيلان الظلام...

تلك كانت حياتي بالأمس، أما اليوم، فقد انكسرت بين قلوب
الموت تلك الزهرة السماوية الطاهرة، التي كانت تحب لي البقاء في
هذا العالم، وبقيت وحدي بين الصخور، أشيب بالموت وأنغزل بأهواء
القبور⁽¹⁾...

(1) عن مجلة العالم الأدبي (تونس) التي قال محررها «إنها صفحة من كتاب بهذا
العنوان؟».

صفحات من كتاب الوجود...

(الشاعر)

. . . لقد رأيتك يا رفيق الحياة تتغنى بوحيك بين الصنوبر في ظلام الغاب! فرأيت في كل حرف من حروفك جذوة ملتهبة. وفي كل كلمة من كلماتك دمعة دامية. وفي كل نظرة من نظراتك ألف ابتسامة ساخرة بالحياة وما في الحياة. فاعتبطت بحزنك. وابتهجت بسخريتك لأنني علمت أنك فوق الحياة وإن ألمتكم الخطوب. . .

* * *

ورأيتك في ظلام الليل من وراء الدموع شاكياً منتحباً متبرماً بحزنك. متضجراً من أساك فألقيت إليك من وراء الحلك بابتسامة مخضلة بالدموع. مغالباً مرارة نفسي، ومضاضة آلامي لأنني رأيتك ضعيفاً بحزنك، شقيماً بأوجاعك. وأنا أبتغي أن أراك قوياً باكتئابك سعيداً بتلك الآلام التي تمزق قلبك، وتذيبه على ذوايب اللمهيب. . .

* * *

وأبصرتك في صباح الحلم. تسعى على مسلك مفرد قد انبثت على حافتيه الأشواك. والتفت على جانبيه الأفاعي. مجدداً على حياة لا

تلهو بغير القلوب . تواقاً إلى حياة غريبة قانعة . لم تخطها يد الأحلام إلاً
في فضاء نفسك - فأحببتك لأن الشوق القوي والحنين المتدفع هو الأفق
الأول من آفاق الخلود . ولكنني أشفقت عليك . لأنني رأيتك تتطلع إلى
أبناء الحياة . فتراهم يمشون في مناكب الأرض على سبيل قد عبدتها
الأفراح وتفتقت على حفافها الزهور فتبتس، لأن الأقدار قد وضعت بين
جنبك تلك النفس الحساسة الطموح ولم تسكرك من كأسك الذي ظمئت
لها منذ الأزل . . أشفقت عليك يا رفيق الحياة، لأن القمة الجميلة يؤدي
إليها مسلكك وأنت ناغم، والهاوية المريعة تقف عندها سبلهم وهم
يهزجون . . !

وسمعتك في مساء الحلم شادياً بأنات قلبك . مترنماً بأوجاع البشر
والناس من حولك هازئون . فلم أخش عليك من تلك الكتلة الملتهبة
التي ضرمتها في قلبك الأيام . لأن اللهب لا يتلهم إلاً الأنصاب
والهشيم . . . ولم أفرع من ذلك النهر المترع بالدماء والفرات . المتدفع
في جوانب نفسك . لأن السيل لا يجرف إلاً ما سئمه الحقول . . .

* * *

رأيتك باكياً ورأيت الناس يضحكون .
ورأيتك صامتاً ورأيت الناس يصخبون .
ورأيتك خاشعاً . ورأيت الناس في غفلة يلعبون . ورأيتك تحرك
عودك السحري الجميل وتنتقل بين الجداول . ورأيت الناس يلعبون
بالجماجم البشرية الدامية وينهلون من كؤوس الدماء . . !
كل ذلك قد رأيته يا طائر السموات ! فسرت في سبيلي مفكراً
بمساخر الأيام الشجية . .
ولكنني لما رأيتك بين الجموع البشرية القاسية رافعاً صوتك

الإلهي النبيل بتلك الأنشودة السماوية التي أرتهم أنفسهم كأصداف
مكسورة على شاطئ الحياة ناديت: «لتنصر رسولك يا إله الحياة!».
ولما رأيتك راجعاً إلى غابك الشعري الجميل والجماهير الفاجرة ترميك
بالحجارة وتضج وراءك ضجيج البحار. تسلت إلى غابك الجميل
وبقيت انتظر الظلام. وحينما أخذت تستوحي النجوم. تناولت قيثارتي
وغنيت على مسمعك أناشيد الخلود التي أسمعك إياها بنات الشعر في
غابك المسحور!.

* * * *

لتغنن بوحيك يا رفيق الحياة. فإن وراء هاته الجموع الكافرة قلباً
نقية طاهرة تحب نشيدك وتتغنى بأياتك.
لتغنن بوحيك يا رفيق الحياة. ولا تحفل بسخرية أبناء الظلام. فإن
البلبل الغريد لا يحفل بغياهب الديجور.

* * *

هم الناس يا شاعر الأحلام. لا يريدون من الشاعر إلا أن ينظر إلى
الحياة بالمنظار الذي يبصرون به الحياة. فإذا ما تأمل الوجود بعينه وقال
لهم.. «إنكم يا هؤلاء تضربون في بيداء الظلم» اعرضوا عنه وقالوا: «إن
على أجفانه غشاوة، حجبت عنه أنوار السماء».

* * *

هم الناس يا شاعر الآلام. لا يبتغون من الشاعر إلا أن يكون
رساماً أجيلاً يرسم لهم مشاهد هذا الوجود على ما يشتهون. ولا من

شعره إلا أن يكون رسماً جميلاً تتألق أنواره وتبتسم ظلاله وتراقص
حواليه أفراس الحياة.

* * *

هم الناس يا شاعر الدموع. لا يفهمون الشاعر إلا أن يكون
كالنحلة الهازجة. التي تجني رحيق الزهور وتترك الشوك للعاصفة.. ولا
الشعر إلا أن يكون ساحراً كأجنحة الفجر هادئاً كأشعة القمر. أما إذا كان
الشاعر كالنسر القوي الذي يجمع الجثث. ويفجر الدماء. وكان الشعر
غضبوا كأنشودة الأمواج مقطباً كوجه الظلام. - فإنهم يصرخون
متضجرين: «إنه متشائم لا يعرف من الحياة إلا أحزانها ولا يسمع من
قيارة الزمن إلا النحيب!».

* * *

هم الناس يا شاعر الدموع. لا يودون من الشاعر إلا أن يكون
مطرباً كذوباً يداجيهم وينافقهم. مرتلاً أحياناً شجية. تطربهم ولا
تبكيهم. وتفرحهم ولا تشجيهم. ساتراً دموعه بابتسام متصنع مسكناً
صوت قلبه بضوضائهم التي ترضيهم. أما إذا التفت إلى نفسه. وكشف
لهم عما بها من كلوم.. وأسمعهم صوتاً من أصوات الألم التي طفت
عليهم ضججاتهم فاعتصم بالسكوت فإنهم يصبحون متبرمين: «إنه أعمى
لا يحدق إلا بالظلام... ولا يبصر إلا أودية الدموع.».

* * *

هم الناس يا شاعر الأيام. يؤثرون من كان رقيقاً هيناً كأنفاس
السحر. يرتل أغاني النوم ويريهم أحلام السبات. على من كان كالعاصفة

الغضوب يوقظهم في وادي الظلام.. ويحصيهم بالشوك والحصى هم
يكرهون هذا لأن الشوك يدمي أناملهم والحصى يعمي أبصارهم.. ولكن
ليتهم يعلمون أن الشوك لا يهدر إلاّ الدماء الفاسدة. وأن الحصى لا
يعمي إلاّ الأبصار المظلمة!..

* * *

هم الناس يا شاعر الموت يودون من الشاعر الذي أترع جفنه ظلام
الموت. وأحنى رأسه إكليل المنون. أن يرتل لهم أغاني الحب في فجر
الشباب مشبهاً بسرب من عذارى «أفروديت». ساحرات الأجنان. فائنات
المرشف. ينظرن بأعين مكحولة بالنور والأحلام. ويسمن بشفاه وردية
قد صبغتها أشعة الشفق وخضبتها حلاوة الابتسام!..

* * *

هم الناس يا شاعر السماء. يطلبون إلى الشاعر وهو في أغوار
الظلام. أن يسمعهم أنشودة الصباح. ويربهم طيف الفجر الجميل.
منتصباً بين السماء والأرض كحورية من عرائس الأبد قد بسطت جناحيها
الفاتنتين. وتطارت من شفتيها وأجفانها الأنغام والبسمات. والويل له ثم
الويل! أن أسمعهم صرخات الهاوية. وضجات القبور أو أراهم طيف
الظلام الواقف كمارد من مرده البشر وجبار من جبابرة الجحيم!

الويل لشاعر يتلو على قومه أغنية الظلام لأنهم في قلب الظلام.
ويسمعهم بكاء الآلام. لأن الآلام واجمة في قلوبهم!

* * *

هم الناس يا صاحبي يحبون من الشاعر أن يضحك مثلهم .
والليالي ساخرة بما يضحكون . فإذا قال لهم باكياً : «إني عليكم أبكي يا
قومي . ولأجلكم أنتحب يا أبناء بلادي» . اعرضوا عنه هازئين وقالوا :
«إنه شاعر مجنون . . يقف راثياً منتحباً في أعراس الحياة . ويظل نادباً
باكياً في أفراح الدهور . .» هم الناس يقولون ذلك لأنهم لا يفقهون . ولا
يعلمون أنهم ضحايا في أعراس الجبايرة . وأصداف في لجة الأيام .

* * *

هم الناس يا روح الإنسانية التائهة . يحبون من الشاعر أن يضحك
مثلهم لبكاء الحياة . أما الشاعر ذاته فإنه يحب أن يغني مع الحياة
المضرجة بالدماء مرثي الموت .

* * *

هم الناس يضجون فرحين . بجهلهم . وغبواتهم . أما الشاعر فيشن
مكتئباً لنبوغه ومعرفته .

* * *

هم الناس يلهون ويطربون . لأنهم لا يسمعون أصوات القلوب . أما
الشاعر فيتغنى الأسى والمرارة لقربه من قلوب البشر .

* * *

هم الناس يقولون كلما سمعوا شيئاً لشعراء الدموع: «ما لهم؟ هل ضاقت عليهم مسالك الحياة؟ أم سدت في وجوههم أبواب الأمل فطفقوا يستلهمون الطبيعة أحياناً متفجعة شاكية. ويصوغون من بسمات الحياة دموعاً بائسة دامية..؟».



هم الناس يقولون ذلك مراراً ولكنهم سيعلمون ما شعر الكتابة والمثلل. وما شعر الدموع والآلام. فإلى الغد القريب يا شاعر الحياة والموت..! إلى الغد القريب يا شاعر الأحلام والآلام..!

أبو القاسم الشابي⁽¹⁾

(1) مجلة الصادرات والواردات (تونس) س 1 عدد 6 (أغسطس 1929) ص 4 - 5.

شعر منثور

قصيدة النثر عند الشابي وجيله

بقلم: أبو القاسم محمد كرو

ليس هذا الحديث تاريخاً أو تنظيراً لقصيدة النثر، وإنما هو جملة خواطر وملاحظات عن جانب مغمور ومنسي من حياة أدب محمد البشروش وعلاقة ذلك بنبغاء جيله وبما يزعم عند الكثيرين من ريادة أو ابتداع في قصيدة النثر.

لقد رسخ عند العديد من شباب الأدباء وأدعياء الشعر في السبعينات والثمانينات أن قصيدة النثر ابتكار أو إبداع ولدته عبقرية فلتان أو علان. وكادوا يجعلون من أدونيس إلهاً مبدعاً لقصيدة النثر، كما جعلوا من نازك والبياتي والسياب في الشعر الحر آلهة مماثلة. والحال أن القضية لا تحتاج لمن يتحزب لها أو يدافع عنها.

فقصيدة النثر أو القصيدة الحرة موجات متعاقبة في الأدب العربي منذ ظهر النص القرآني إلى اليوم.

ومن يقف على كثير من الآيات والسور وعلى سجع الخطباء وكتاب «الفصول والغايات» للمعري ونصوص أخرى من مختلف العهود، يقف على كثير من الإجابة النصية وكثير من الابتداع والمهارات الأدبية.. لا سيما في خصوص الصياغة والتشكيل.

وعندما نعود إلى البشروش وقصيدة النثر عنده ولدى جيله من شعراء تونس نجد البشروش آخرهم وأقلهم إنتاجاً.

وإذا كان الشابي زعيمهم وأكثرهم إنتاجاً وأعظمهم شهرة، فإن ذلك لا يعني ريادته المطلقة في التجديد بعامة ولا في قصيدة النثر بخاصة.

فأول قصيدة له كانت عام 1927. وقد سبقه إلى التجديد سعيد أبو بكر وهو أكبر منه سنّاً بعشر سنوات. أما البشروش المولود عام 1911 فهو أصغر من الشابي بعامين في حين ولد مصطفى خريف عام 1910 أما محمد الحليوي فكانت ولادته عام 1907. وبصرف النظر عن التفاوت العمري بين هؤلاء الشعراء والأدباء، فإنهم جميعاً جيل واحد، ظهرت أسماؤهم وفاح عطاؤهم في العشرينات والثلاثينات.

وهنا لا يمكن أن ننسى محمد العريبي ذلك الشاعر الثائر الذي لم يتمرد على المضمون والشكل والأوزان فقط بل على الدين والتقاليد والمجتمع والحياة أيضاً⁽¹⁾.

وفي المحصلة الحقيقية لا يبقى لنا سوى الشابي، وخريف ثم العريبي برغم جنوحه المتطرف وثورته الصاخبة على جميع القواعد وعلى كل سائد وراكد.

إن أقدم نص تونسي حديث في قصيدة النثر نجده منشوراً عام 1928 بتوقيع «أبو القاسم الشابي» بتقديم وعناية راعي الأجيال المرحوم زين العابدين السنوسي.

وإذا علمنا أن هذا النص قد نشر في باب «الشعر المنشور» وعلمنا أيضاً أن هذا العنوان نفسه وأنماطاً من نصوصه قد شاعت في مطلع

(1) ولد بتونس عام 1915. ومات في باريس متحرراً عام 1946.

العشرينات مع أشهر كتاب - صدر في ذلك الحين - عن الأدب المهجري، ألا وهو كتاب «بلاغة العرب في القرن العشرين» أدركنا أن الشابي نفسه كان واقعاً تحت تأثير الأدب المهجري. وكلنا يعلم قوة هذا التأثير وأبعاده القصوى في شعر الشابي عامة وفي أدبه الثري بوجه خاص.

يقول الشابي 1928 تحت عنوان عام «الشعر المثور» وتحت عنوان خاص هو «أيها القلب» يقول ما يلي:

«يا إله الحياة والموت!

«إنني وحيد تائه في أحشاء الفلاة القاتمة.

«ومن مستقر وحدتي وانفرادي أدعوك يا ربي لتجدني في بيداء

الحياة.

«لقد طفحت نفسي بسامة الفلاة الخرساء.

«وامتلاً قلبي بهدير البحار الزاخرة.

«وجاشت جوانحي بزوبعة الظلام المتمرمة.

«تلك الزوبعة التي تتكلم بصوت أمر من القنوط وأدهى من سنايك

الأيام.

«وكلت أجفاني من مشاهدة الصخور الصماء الرابضة كأفئدة

الجبابة،

«المتساندة كأحلام ماردية أعيها المسير.

«تلك الصخور التي عانقتها هجمات الزمن وأحلام الدهور

الخالية، فظلت،

«ناعسة وقد خضبتها عبراتي، وما فتت جامدة وقد لامستها

أحزاني،

«لأنها لا تفقه وحي الدموع ولا تشعر بأجنحة الأسي...».

إن هذه البداية من الشابي لم تكن محاولة يتيمة عنده بل تكاثرت

بعدها نصوصه، وقد عنى بجمعها والتأريخ لها الأستاذ توفيق بكار منذ ربيع قرن مضى⁽¹⁾.

وغني عن القول أن خريف والبشروش وكذلك محمد العريبي قد ظهوروا جميعاً، وعلى ترتيبهم هنا، بعد الشابي، وجميعهم كان مصاحباً له أو متأثراً به.

وغني عن القول كذلك أن هذه البدايات التونسية لم تكن معزولة في تونس، أو طليعة في الشعر المنشور أو قصيدة النشر. فقد كان آخرون في مصر، بعضهم أسبق من الشابي كأحمد زكي أبو شادي، وبعضهم ظهر بعدهما كعلي أحمد باكثير. قد أنتجوا هم أيضاً إبداعات مماثلة، بل إنني أزعم أن أبا شادي بالذات، وهو المتأثر مباشرة بالشعر الإنكليزي، قد أنتج أنماطاً أخرى تحدث هو نفسه عنها في عديد من مجلاته وكتبه.

وهنا أغتنم هذه المناسبة لأعلن عن حقيقة تاريخية كبرى، وهي أنه لم يوجد إطلاقاً أي تأثير لمجلته «أبوللو» وجماعتها على شخصية الشابي وشعره. وما ذهب إليه عديد النقاد والباحثين المصريين من وجود تأثير لهذه الجماعة في أدب الشابي وشاعريته لا أساس له.

ويكفي أن نقول هنا بأن الشابي كان معروفاً بأدبه الثائر وشعره الساحر لدى أبي شادي قبل صدور هذه المجلة. وعندني من رسائله الشخصية لي وللشابي ما يؤكد هذا الذي أقوله ويدحض كل الاجتهادات والافتراضات الواهمة.

ونعود إلى صاحبنا البشروش لنقول:

لقد كتب المقالة والأقصوصة والشعر - بنوعيه المنشور والموزون -

(1) حوليات الجامعة التونسية ص 2 (1965) صفحات 133 - 231.

كما كتب في النقد والتأريخ والفن، وفي ميادين أخرى كالتراث والتراجم والتقاليد الشعبية... ولكنه لم يتفوق ولم يبدع إلا في ثلاث منها هي:

- النقد.

- الأقصوصة.

- وتاريخ الأدب.

ويمكننا أن نضيف نوعاً رابعاً، هو الترجمة من الفرنسية إلى العربية، وفي سنواته الأخيرة من العربية إلى الفرنسية.

وعلاقة هذه المترجمات، بتاريخ الأدب علاقة عامة شاملة. بحيث يمكن وبدون تعسف إضافتها إلى أعماله في تاريخ الأدب.

وعندي أن إنتاجه في تاريخ الأدب التونسي القديم - على قلته - هو أهم أعماله الأدبية بإطلاق (باستثناء ما كتبه عن الشابي). ويأتي بعده مباشرة مترجماته من الفرنسية إلى العربية.

وكلاهما كان يبهز الشابي ويزيده ودأ وارتباطاً بالبشروش.. كما كانت شاعرية الشابي وطموحه الجارف وحبّه لتونس وللشعر تزيد البشروش حباً للشابي وإكباراً له وشغفاً به وتمجيذاً لمواهبه. أما الحليوي ثالث الثلاثة فما أبعد مواهبه ومسافاته عن الرجلين!!

من المعروف عند دارسي أدب البشروش - وهم قلة حتى الآن، مع الأسف الشديد - أنه لم يترك لنا سوى نصوص شعرية قليلة العدد، بعضها مؤلف والآخر مترجم.

أما نصوصه المؤلفة فلا تزيد عن تسعة نصوص منها المنظوم، ومعظمه ليس من الشعر في شيء..

أما المنتور، أي قصائد النثر.. فكانت أقرب إلى روح الشعر وفنه رغم نثرتها. على أن الأهم من النوعين هي مترجماته الشعرية، التي

توزعت بين القديم والحديث والمعاصر.

فمن القديم كان حديثه عن الأدب التونسي قبل الإسلام، أي في عهد قرطاجة الرومانية. ولا أحد يجهل اليوم أن البشروش كان أول من كتب بالعربية في تونس عن هذا الأدب. كما أنه - وفي هذا السياق نفسه - كان أول من ترجم لحياة وأدب... «أبوليوس APULEIUS» الميودوري⁽¹⁾ ذلك الخطيب البارع والمحاضر الشجاع والأديب الفيلسوف. وحتى الآن لم يكتب عنه أحد في تونس - بعد البشروش - ، سوى جمل عابرة وردت في سياق التاريخ عند المؤرخ أحمد صفر⁽²⁾ أو نبذة مشوهة رمى بها الأب جان فونتان في وجوهنا⁽³⁾.

ورغم شهرة هذا الأديب الساحر وكثرة نصوصه وكتبه التي وصلتنا في لغتها اللاتينية، ورغم ترجمتها وانتشارها بعدد من اللغات الحية المعاصرة كالفرنسية والإنكليزية، فإنها لم تترجم إلى العربية كأعمال تامة، إلا بين أعوام 75 - 1980 حين أقدم بشجاعة وانبهار الصديق الدكتور علي فهمي خسيم على ترجمة ثلاثة مؤلفات لأبوليوس من الإنكليزية إلى العربية، وهي:

1 - الأزهير.

2 - دفاع صبراتة.

3 - تحولات الجحش الذهبي.

(1) ولد 125 وتوفي 180 م. والميودوري نسبة إلى مدينة قديمة من أفريقية تقع اليوم على خط الحدود التونسية الجزائرية - شمالاً - وهي تسمى اليوم «ميدروش» وكانت تدعى «ميدورا» «MADURA» وهي تقابل حيدرة في داخل الخط التونسي.

(2) كتابه «مدينة المغرب العربي في التاريخ» ج 1/ ط تونس 1959 ص 360.

(3) كتابه «الفهرس التاريخي للمؤلفات التونسية» ط. تونس 1986 ص 16 - 17. وانظر أيضاً ردنا عليه «مستدرك الفهرس التاريخي للمؤلفات التونسية» ط. بيروت 1988 ص 34 وكلاهما نشر بيت الحكمة.

ومعنى هذا أن عمل الصديق علي خشيم - على ضخامته وأهميته - قد جاء بعد أكثر من أربعين سنة من ريادة البشروش وتوغله في هذا الأدب الجاهلي المغاربي .

وتأتي بعد هذه الريادة للبشروش ريادة أخرى له، حين كان أول وأهم كاتب ومترجم تونسي عرفنا بشاعر معاصر له، يمكن اعتباره بحق (شاعراً تونسياً) رغم أنه كتب بالفرنسية، وانحدر من أب صقلي، وأم مالطية . . ولم لا . . نعتبره شاعراً تونسياً، وقد ولد بتونس عام 1892 وعاش في ربوعها . . وتعذب وشقي وعانى جميع أصناف الفاقة والمرض والحرمان . . تماماً . كما كان يعانيها التونسيون في عصره . ثم هو قبل ذلك وبعده كان في شعره موهبة نادرة وعبقرية فذة وإبداعاً رائعاً من الإلهام والمعاناة والألم .

إنه الشاعر ماريوس سكاليزي (Marius Scalesi) الذي أصيب في الخامسة من عمره بكسر في ظهره عاش به معاقاً أحذب الظهر، منبوذاً محروماً من التعليم والحنان ومن العطف العائلي والمجتمعي . . ومات مجنوناً مسلولاً في باليرمو عام 1922 .

ومنذ مات لم يذكره أحد⁽¹⁾ إلا محمد البشروش فنقل إلى العربية بعض قصائده وترجم له وتوغل في حياته اليائسة وشعره الأليم وابتهالاته اليائسة وأوجاعه اللاذعة .

كان هذا في مجلة العالم الأدبي منتصف جانفي من عام 1934 .

ومنذ هذا العام لم يذكره في مجال الأدب أو الدراسة سوى اثنين : الأول - الشاعر الإيطالي الأصل التونسي المولد فويدو ميدينا، حين خصه بتحية أدبية جمعت بينه وبين الشابي في مناجاة صادقة ومودة

(1) أي في الكتابات العربية .

حميمة⁽¹⁾.

الثاني - الهادي البالغ الذي خصه بدراسة مطولة نشرت عام
1978⁽²⁾.

هذا الشاعر المجهول الذي فجرت مواهبه وعبقريته محن العذاب
والألم والتعاسة.. يقول في قصيدة يناجي بها أمه، كما ترجمها
البشروش⁽³⁾:

كنت أنتفض من الفجر يا أمي
فأنا مكدود كثير العناء
فابسطي لي رداءك البالي على النافذة
الأرض لا تدفء
والشتاء عنيد
ران الظلام، هل عندك ضياء؟
الماء البارد أشربه
فيقضي على عطشي
ولكنه يوقظ جوعي. ألم يبق لك غذاء
لا غذاء ولا ضياء، فالدنيا عناء
أنا صابر للشقاء
وأسمع للأطفال في الظلام بكاء.

هكذا ترجم البشروش شعر سكاليزي قصيدة نثرية، ولكنها جميلة
وبديعة ومؤثرة..

(1) أنظر ترجمة ما كتبه فويدو في مجلة الثريا س 3 ع 2 (1946/2) ص 35.

(2) راجع عنها كتاب الفهرس التاريخي... ص 175.

(3) مجلة العالم الأدبي س 4 ع 3 (14 - 1 - 1934).

فهل كانت قصائد البشروش الشعرية، جميلة وبديعة كشعر صاحبه سكاليزي؟ ولا نقول كشعر صديقه الشابي أو خريف أو محمد العريبي؟؟
أنا أعتقد ذلك.. كما أعتبر أيضاً.. أن قصائد البشروش الثرية - وهي قليلة أيضاً - أكثر شاعرية وأجمل تعبيراً وتصويراً من قصائده المنظومة. وهكذا أضعه في مكانة من الشعر دون معاصريه السابقين ولكنها مكانة لا بخس فيها. وهي مع ذلك أعلى من مكانة صديقه الحليوي في أشعاره المنظومة والتي جمعت - كمتن قيرواني - في كتاب سمي ديواناً⁽¹⁾. مع أن البشروش في قصائده الثرية أكثر شاعرية من صاحبه الحليوي. ولكن هل يوافقنا الحليوي؟! قطعاً.. لا يوافق.. لأنه في كلمته القصيرة واليتيمة عن البشروش نفي عنه الشعر والشاعرية⁽²⁾.
ويدون نبش لما فات، ولم يمت بعد، من تاريخ وحقائق.. هاكم ختاماً نصين من شعر البشروش المنشور أو كما تسميه أجيال اليوم «قصيدة الثر».

يقول البشروش تحت عنوان «خواطر مجنحة»⁽³⁾:

جزيرتي محببة إلى، تعلم.. القلب الوفاء..
في فضائها المشرق على هدهدة أمواج الحياة
تنطلق أجنحة أيامي وليالي
كالكروان في الأفق الداجي. مازحة شادية
هذا الضياء الذي يغمر روحي
يشع من قرارة ذاتي

(1) نشر بيت الحكمة بتونس بعنوان «تأملات».

(2) انظر كتاب محمد الحليوي في «الأدب التونسي» ط.. 1 تونس 1969 ص 107 - 113.

(3) مجلة الثريا س 1 ع 3 (1 - 2 - 1944) ص 16.

وأسمو به إلى حيث الامتداد وسحر الحياة، السخي السافر
أسمو به إلى المرتفعات الطلقة الساهية
هناك ظلال وأنهار ومشاهد جميلة وأحلام
وهناك الألوان وهناك الانسجام
يُعلِّمُ ابن آدم الوفاء إليه والابتسام.. والاستسلام..
يا أحلاس المنخفضات. آه يا بني أمي!
كم من زهور هصرت دياجيكم شبابها
وبددت عواصفكم أجزاءها
وأذبل هجيركم رواءها وفتتها
ضلال أيامكم وظلام
آه لو يتألم السادرون!
يا عزاء المتوحد في مسالك الأيام! يا ضياء!
يا أيها الذي ينبجس من قرارة قرارتي
ويغمر جوانب ذاتي
فأنسى كل شيء سواه
سعيد من اكتحلت عينه برؤياك
سعيد من باركته ولثمته شفتاك.

* * *

لكن أجمل وأروع ما أبدع البشر في شعره المتثور هو هذه
القصيدة التي ناجى فيها الرسول محمداً في عيد ميلاده تحت عنوان «يوم
الميلاد».. وكما سترون ، فإنها حبلى برؤى جديدة، تستشرف
المستقبل ، وتسمو إلى النقاء والحب والتوق إلى الأسمى والأبقى
والأفضل.

يقول البشروش⁽¹⁾:

في قلب جزيرتك شع نورك يا نبي الله سخياً
والدنيا حواليك أجديها الضلال وأذبلتها الأنانية
فتقبلت على ممرض معذبة سادرة صابرة
وربي لا ينسى عباده الصابرين

في بهيم الليل انبجس نورك وانطلق يميناً وشمالاً
يغتال الدياجي ويسمو بالأرواح إلى السماء
في صميم الصحراء انبجس فيضك عذباً متدفقاً
يروى العطشى ويهدي الحائرين

علمت الناس أن يبذلوا من أنفسهم حتى تعلموا
وارتفعوا بالبذل إلى المقام الكريم
وشاهدت الدنيا الجذب يستحيل إلى وراء
في صحراء الزمن الضنين

هذا هو السخاء يا بني أمي .

أه متى أراكم تبذلون من أنفسكم لبعضكم بعضاً
بالبذل وحده ترفعون إلى ذلك المقام السعيد
يا عيد الذكرى!

متى يعاودنا إلى السخاء الحنين

في هذا اليوم تتصاعد أصوات الفرح بذكرى ميلادك
وتشق لها نهجها بين دوي الطائرات الطائرة . . .
كل شيء يمضي . . . ويبقى ضياؤك يا نبي الله
يغذي فينا اليقين .

(1) مجلة الثريا س 1 ع 4 (1 - 3 - 1944) ص 25 .

وبعد . . فإن هذه القصيدة قد أبدعها البشروش في ربيع عام 1944
أي في نفس العام الذي انتقل فيه بروحه إلى الرفيق الأعلى ليكون هناك
مع الخالدين والأنبياء . . فهل كان في حنينه وشوقه إلى لقاء النبي:
يحلم؟!
أم كان يعلم؟!

(تونس 3/01/1993)

من شعره المنشور

«النفس التائهة»

يا إله الحياة والموت!
إنني وحيد تائه في أحشاء الفلاة القاتمة.
ومن مستقر وحدتي وانفرادي أدعوك يا ربي لتنجدني في بقاء
الحياة.

* * *

لقد طفحت نفسي بسامة الفلاة الخرساء.
واملاً قلبي بهدير البحار الزاخرة.
وجاشت جوانحي بزوبعة الظلام الممتنمة. تلك الزوبعة التي تتكلم
بصوت أمر من القنوط وأدهى من سنابك الأيام.
وكلت أجفاني من مشاهدة الصخور الصماء الرياضة كأفئدة الجبائرة
المتساندة كأحلام ماردية أعيائها المسير تلك الصخور التي عانقتها
هجمات الزمن وأحلام الدهور الخالية فظلت ناعسة وقد خضبتها عبراتي
وما فتئت جامدة وقد لامستها أحزاني لأنها لا تفقه وحي الدموع ولا
تشعر بأجنحة الأسي...

* * *

دعوت رفيقي البعيد... وكثيراً ما دعوته. ولكنه قد ظل محتجباً
بالظلام مختفياً في طوايا السديم.

دعوت رفيقي البعيد... وكثيراً ما دعوته.

دعوته في آصال الحياة وأسحارها. وفي تبلج الدهر وقطوبه.
دعوته بأسمائه المستعذبة وكناه المستحبة. ولكنه قد ظل نائياً عني.
مضطجعاً في غمّام الجبل. غير راحم وحدتي ولا آبه لتلهفي واشتياقي.

دعوته في ضحوة نهاري حينما ترتعش الأفياء بين الهضاب وتنطلق
أحلام الصباح من أوكارها مرتعية أنداء الظلم. متلمعة بين الأشعة فكنت
أقف بين الجبال المتشامخة كأشباح الدهور داعياً: «يا رفيقي! يا رفيقي!».

دعوت رفيقي البعيد... وكثيراً ما دعوته.

دعوته في ضرام الهاجرة عندما تتمايل ظهيرة يومي فوق الفن
وتناسب الظلال نحو الكهوف فكنت أقف بين الكهوف المتناوحة.
كذكرى قضية حائمة بين قلوب هدمتها الحياة منادياً «يا رفيقي! يا
رفيقي!».

دعوته في الغروب إذ يداعب النوم أجفان الوجود. وتراقص
الأحلام ذاكرة الزمن فكان صوتي ينبعث من شفتي حارقاً: «يا رفيقي أين
أنت!؟».

إيه يا حياة! إيه يا حياة... لم يبق لي فيك من رفيق اسمع في
صوته خفقان قلبي وفي وحيه هجسات روحي وفي عينيه رفرقة أحلامي
إيه يا حياة!

لم يبق لي فيك من رفيق في هذه الفلاة الموحشة إلا عرائس
الأودية الضائعة بين الجبال وأصداء الجبال التائهة بين الأودية؟ إيه يا
حياه...

إيه يا حياة!... ولكن حينما تعصف بين عواصف الموت.
فسيهجرني حتى الصدى وستسلوني حتى أحزاني الباكية إيه يا حياة... .

وعندما يحتبس في صدري النحيب وتصم في مسمعي الأصداء
وتمتلئ أجفاني بظلمات المنون فسأثوي حتى الأبد بين هاته الصخور
الخرساء. التي لم يتوهم بأعماقها لهيب السماء ولا داعبت أحلامها أنامل
الشفق ولا قبلت أفئنتها يقظة الصباح.

إيه يا حياة!... ولكني إذا ما قضيت فسأنطرح حتى الأبد بين هاته
الأودية الجرداء التي لا تذر علي دمعة. ولا ترسل لأجلي تنهدة
ولطالما بللت جوانبها بالدموع وأترعت مسامعها بالنواح.

إيه يا حياة... وآهاً منك يا ابنة الدهر.

* * *

يا إله الحياة والموت

إنني ضائع مستوحذ غريب ضللت سبيلي في هذه الفلاة الموحشة
الضائعة بين فلوات الأبد... إنني ضائع مستوحذ غريب. عدت رفيقي
في ظلمة الليل وتخطفت بنات الجن مزماري الذي كنت أطرده به سامة
القفر وعبوس الفلاة.

يا إله الحياة والموت!

إنني ضائع مستوحذ غريب ملأت أجنحة الأحزان الملتظية جوانب
نفسي بحفيف ملتهب أليم.

إنني ضائع مستوحذ غريب قد التهمت أنفاس الهاوية جحيم قلبي
الذي كان مخضلاً بدموعه الشعرية فأصبح صامتاً مقفراً

كعش الخريف واهياً متهدماً كالضريح العهد.
هل أنت سامع صوتي يا إله الحياة والموت؟ ومصغ لتنهيدات
أوجاعي يا منجد القلوب الضائعة؟
هل أنت ناظر إلى قدمي اللتين كلمتهما الصخور وإلى عبراتي التي
ضرجتها الدماء؟؟.

* * *

هل أنت مصغ وناظر إلي يا منير الأبصار المطبقة؟
متى أرى يا إلهي أحلامي مرفرفة بين الغيوم؟ وأسمعها متغنية فوق
الرياح؟
ومتى أرى قلبي مترنماً وأسمع روعي متكلماً؟
ومتى أبصر أعماقي تهتز بابتسامات الربيع؟
وانظر أجفاني مكحولة بأنوار الصباح؟
ومتى تستنبت السماء الورود بين السبل العارية؟..
وتستبدل الفلاة الهاجدة... بفردوس متفرد يقظ؟
ومتى أعرف سبيلي يا إله الحياة والموت!؟.

أبو القاسم الشابي

النهضة الأدبية. 16 فيفري 1928

أغنية الألم

ما أمرك أيها الألم وما أعذبك!
أيتها المرارة، التي أترعت أودية الحياة بأموج الدموع، وملأت
آفاق الوجود بآيات النفوس الدامية!
أيتها اليد الرهيبة الهائلة، التي حطمت على شفاه القلوب كؤوس
الأحلام، وأراقت رحيق النفوس بكهف الظلام.
أيها الهول الذي ترهبنا ملامحه وتخيفنا ذكرياته.
إنك الألم الرائع الذي نحبه ونخشاه..
إنك أنت الشعاع الأزلي الجميل، الذي وشح ظلمة نفسي بالشفق،
ورصعها بالنجوم، وتوجها بأضواء الصباح..!
وأنت، أنت الصوت الإلهي النبيل، الذي أوحى إلينا أناشيد
السماء، وعلمنا كيف نغني للبشرية أغاني الجمال...
وأنت، أنت المنبع السحري الغريب، الذي ينمق سبل الإنسانية
المضرجة بالدماء، بأوراد الحياة وأزهارها.
أيها الألم النبيل، الذي نحبه ونخشاه. ترى أية شفة ترشفت
رضاب الحياة، ولم يطهرها لهيب الحياة؟! أية زهرة تلفت قبل الربيع
ولم يروع الشتاء أحلامها؟! أية نفس بشرية عانق الفجر روحها
بجناحيه، ولم تراقصها أهوال الظلام، ولا عذبتها أبالسة الجحيم!؟

لنجتُ أيتها الحياة، على قدمي ذاك الجبل الجميل، المحدق بما وراء هذا الوجود.

ولنسجد أيتها الليالي والأيام، إلى تلك الأجنحة النارية المشبوبة بأوجاع القلوب، والتي تسمو بالنفس البشرية إلى أقصى آفاق الخلود، وتنحدر بها إلى ظلمات الحياة. أيان تضطرب عواطف الوجود الغامضة، وترتعش شكوك البشر، وتتمايل أحزان الدهور. أيان تلقى (المعري) لزوميته، وتغنى (الخيام) برباعياته، ويرتل الخالدون إنجيل الحياة!!

ولتغن يا قلبي بأنشودة الأحزان المرة إلى الأبد...!

لتركع أيها الوجود بخشوع أمام تلك القوة الإلهية، التي تصوغ من دماء النفوس وأناتها أقدس ما في هذا العالم، وأبدع ما في شاعر الأيام، وتنشئ من ظلمات القلوب صباحاً ساحراً سرمدياً، لا تكدره الرياح...!

ولنقدس أيتها الليالي والأيام، تلك الأشعة الوردية الصافية، تنبت حول جداول الأحلام الدامية، هاتيك الزهور النارية المقدسة، التي تستنشئ عبيرها من لوعة (المجنون) وأغانيه. ولتترنم يا قلبي بأغنية الآلام المرة حتى الأبد!.

لنصلُّ أيتها الكائنات بخضوع أمام ذلك الضباب السحري، الذي يستر بنقابه عرائس الشعر وعذارى الأحلام...!

ولتغنَّ أيتها الليالي والأيام، بمجد تلك الشعلة الخالدة، التي أنارت للبشرية سبيل الحياة الغامضة، وهدتها إلى شجرة المعرفة، التي لا تنبت إلا على ضفة نهر الدموع والأحزان. ولترتل يا قلبي في سكون، أغاني الأوجاع المرة إلى الأبد...!

ولتمجد يا أيها الغاب المنتحب، ويا أيها الوادي الكئيب، ويا أيها الكهف الأخرس، ويا أيتها الحيرة الواجمة، ويا أيتها الحياة المغمورة

بالدماء، ويا أيتها الإنسانية التائهة، المتوجة بالأشواك، الريانة بالدموع،
السائرة على بساط لهيب الأوجاع، لنقدس كلنا ذلك الألم، الذي يجعل
من الشاعر قيثارة غريبة غامضة، منطرحة في ملتقى رياح الوجود،
صداحة بأغاني الحب والجمال.!!

لنرتل يا قلبي الكئيب البائس، أنشودة الآلام المرة بالدموع،
ولنرددتها على مسمع الظلام حتى الأبد.!!!

أيها القلب

... أبين الأمواج الباسمة. تتهادى أصدااء قلبي. وابتسامات
روحي؟

أم في أعماق الهاوية. تنمرغ على مضض ألحاني وأنغامي؟
لتقترب إلى قلبي أيها النهر المتفرد فعسى أن يحس قلبي لأغانيك
الطائعة رنة هاجعة بين ألحانك وعسى أن تبصر روحي الكثيرة بين طيوف
تلك الحياة القصية الشاردة فلقد قضت في قلبي الأخرس نغمة الحب
الشملى برحيق السماء وتجمدت أغنية النفس في قلب الوتر الخفوق فلم
تعد تسمع الحياة من وترى أو من شفتي رنات النياحة والنديب. أما تلك
النغمة الهفافة والجذابة فقد أمست كثيرة واجمة وكأنما هي طيف المساء
الصامت الحزين.

كفى أيها القلب! فقد اعتم الليل. ونامت أغاني الأمواج بين
صخور الوادي وسيأتي الفجر الضحوك فيوقظها من سبات الظلام. أما
أنت فستلبث معتماً حتى الأبد!

كفى أيها القلب! فقد أغفت أجفان الزهور. ولم تعد تبصر إلا
الأمل الحالم بأضواء الغد. وسيأتي الصباح. فيمسح أجفانها بدموعه
الظاهرة. أما أنت فستظل تائهاً في بيداء القنوط دون أن تطبق جفنيك
على جداول الدموع أو تفكر بابتسامة الآتي.

أبو القاسم الشابي

«العالم الأدبي عدد 6 شهر أوت 1930»

ومجلة الفكر س 27 ع 4 (1 - 1 - 1982)

رسائل الشابي

الشابي من خلال رسائله

ولد أبو القاسم الشابي في اليوم الرابع والعشرين من شهر (فبراير) (شباط) عام 1909، وتوفي في التاسع من شهر أكتوبر (تشرين الأول) عام 1934، وبذلك يكون قد مر على ميلاده الآن اثنان وستون سنة، ومر على وفاته سبعة وثلاثون عاماً. ورغم هذه المدد القصيرة، فإن اسم الشابي يرن اليوم في جميع أنحاء العالم العربي، وشعره أغنية عذبة على كل لسان، ونشيد يتدفق من كل حنجرة، وطرب مؤنس في شفاه عدد غير قليل من المطربين والمطربات.

ويكاد لا يوجد أديب عربي إلا قال كلمة عن الشابي وأدبه أو ينوي أن يقولها. ويوشك أن يعم ذكره وأدبه كل ناد ومجلة ومنبر وصحيفة، في كل قطر من الأقطار العربية.

والحق، أنه ليس من أحد عرف من حياة الشابي وأدبه نزرأ يسيراً إلا امتلأت نفسه إعجاباً بالرجل، وإكباراً لشاعريته، وتقديراً باهراً لمواهبه ونبوغه، وأسفاً عميقاً على فقدانه في سن لا تكون عادة سن إنتاج ونضج أدبي، فضلاً عن التفوق والإبداع.

ولم يترك شاعر مات باكراً كالشابي آثاراً في مثل روعته وخصب مواهبه وكثرة إنتاجه. كما لم يظفر شاعر معاصر بمثل ما ظفر به الشابي من مكانة عالية، واعتناء فائق بحياته وأدبه، فالكتب التي صدرت عنه أو

تناولته بالبحث جاوزت اليوم تسعين كتاباً بمختلف اللغات، والمقالات والدراسات التي حبرتها الأقلام عنه تكاد لا تحصى، وفي كل يوم يضاف جديد إلى مكتبة الشابي ومراجع دراسته والبحث عن حياته وأدبه الصافي الأنيق.

وقد أصبح الشابي يدرس اليوم - كعلم من أعلام الأدب العربي - في عدد غير قليل من الأقطار العربية، ومن بينها مسقط رأسه تونس. وهذا ما جعل الحاجة إلى معرفة المزيد من آثاره ومعلومات حياته، والبحوث الدارسة أو المحللة لأدبه أكيدة ومستعجلة. خاصة وأن آثاره ما زال معظمها غير منشور، وما كتب عنه مشتت بين جميع الأقطار. . منذ ظهر أدبه لأول مرة عام 1927 إلى اليوم.

فإذا أضفنا إلى هذا كله أن الشابي - كأديب آخر - لا يمكن للتاريخ وللنقد أن يزنا حياته أو أدبه بميزان العدل والإنصاف، ولا للباحثين أن يستوعبوا صورته الأدبية ويتعمقوا بتحليل شخصيته وعبقريته وإنتاجه. . لا يمكن لهؤلاء جميعاً أن يفعلوا شيئاً من ذلك ما لم تتوفر لديهم جميع مصادره الأساسية.

وهي في رأينا:

أولاً: آثاره الشعرية والنثرية، وخاصة ديوانه المؤرخ ويوميته ورسائله.

ثانياً: آراء معاصريه وذكرياتهم وانطباعاتهم عنه وعن علاقاتهم به وما اعتور ذلك كله من قضايا وشؤون وشجون أيضاً، ولأصدقائه هنا قول خاص.

ثالثاً: دراسة عصره بكل ما كان فيه من أوضاع وتيارات فكرية واجتماعية وسياسية، وما جرى فيه من أحداث غيرت المفاهيم ومشت بالتاريخ وجهة أخرى.

ولا شك أن بلوغ جميع هذه الأغراض أمر يحتاج إلى زمن طويل وجهود عديدة وأجيال من الدارسين . . ومن هنا لا مناص من أن نتعقب الخطى وراء كل إمكانية متاحة لكي نظفر بأثر جديد من آثار الشابي أو نكتشف حقيقة كانت غامضة أو مجهولة . وفي كل ذلك لا يسعنا إلا أن نكبر كل جهد يبذل في هذا السبيل ما دام القصد نزيهاً والنتائج عادلة والغايات شريفة .

لقد قلت منذ قليل: بأن أهم مصادر الشابي هي آثاره، وأن أهم هذه الآثار هي ديوانه المؤرخ، ويوميته ورسائله .

فأما ديوانه، فقد كان لمهرجان الشابي سنة 1966 يد كريمة في إنجاز طبعة جديدة، مستوفية معظم شروط الباحثين، كوضع تاريخ للقصائد، وجمع معظم قصائد الشاعر . ولا شك عندي، في أن تاريخ القصائد - ومن حسن الحظ أن الشابي كان يؤرخ كل قصائده، وهو أمر قل أن انتبه له من الشعراء - لا شك في أن وضع تاريخ القصائد في طبعة جديدة سيحدث انقلاباً كبيراً في دراسة الشابي وفهم نفسيته ومؤثرات العصر فيه .

أما يومياته، فإنها دون الديوان والرسائل شأنًا، رغم ما يعلقه عليها بعض الباحثين من آمال مبالغ فيها . إنما هي أقرب للخواطر الوجدانية والمقالات الجبرانية، وليست من نوع اليوميات التي يقص فيها كاتبها حياته الخاصة وانطباعات الحياة والناس في نفسه .

ومع ذلك فإننا قد نظفر فيها ببعض الملاحظات أو - التفسيرات الهامة، لبعض حوادث الشابي اليومية، وما جرى بينه وبين معاصريه، من حوار أو مشاكل أو علاقات .

على أن لي أملاً واحداً كنت أرجوه في هذه اليوميات، وهو أن نجد فيها شيئاً من حديث الشابي عن حياته الداخلية، أعني حياته

الخاصة، كزواجه أو حبه أو ميوله العاطفية. لكنها لم تسعفنا بشيء من ذلك.. وهكذا ضاعت منا الحقيقة كاملة عن حياة الشابي - العاطفية. تلك الحياة التي تومئ إليها بعض قصائده، ولكننا لا نظفر فيها بيقين.. وإن بالغ بعض الكتاب في وضع الأحكام القاطعة حولها.

أما رسائله، وهي موضوع هذا الحديث إلى حضراتكم، فإنها تأتي في الدرجة الثانية بعد الديوان من حيث الأهمية، ولكنها من حيث علاقتها بالأحداث العامة والعلاقات الاجتماعية والحياة الأدبية في تونس والبلاد العربية، أشد التصاقاً وأكثر دلالة من الديوان نفسه، ومن اليوميات كذلك.

إن رسائل الشابي تعيننا إعانة كبيرة جداً على حل كثير من المشاكل والقضايا المتعلقة بحياته وبأدبه وبمكانته في عصره، ومدى تأثيره بأحداثه ورجاله ومعطياته المختلفة.

وهي إلى ذلك صورة صادقة لأفكاره وميوله وكفاحه الأدبي والاجتماعي.

أضف إلى ذلك أنها قد كتبت دون تعمل فني أو - صناعة أدبية، لأنه لا الشابي ولا زملاؤه كانوا يكتبون هذه الرسائل لتتشر يوماً بين الناس.

ولذلك فهي في رأيي، أكثر صدقاً وصراحة من اليوميات، لأن اليوميات التي يكتبها ذوو الشأن في الحياة، معروف لديهم سلفاً أنها قد تتشر يوماً ويقراها الناس، لذلك فهم لا يكتبون فيها إلا ما يريدون أن يطلع عليها الآخرون.

ولا يتسع الوقت لأن أستخرج من رسائل الشابي وأصدقائه جميع النتائج الماثرة فيها، ولا أن أستوعبها لكم بالتحليل والدرس.

لهذا.. سأقتصر على جانبين اثنين فقط من جوانب هذه الرسائل!

أولاً: حول أصدقاء الشابي الذين كان يرسلهم.

ثانياً: حول مجموعة من الحقائق والمعلومات التي يمكن استخلاصها من رسائل الشابي. وهي هنا أيضاً مجرد أمثلة لما يمكن أن يستفيدة الباحثون والقراء من هذه الرسائل. علماً بأنني لم أعتد سوى هذه المجموعة التي أعدها الأستاذ محمد الحليوي والتي كان لي شرف التقديم لها ونشرها بين الناس، بالإضافة إلى بعض رسائل أخرى عثرت عليها في الدوريات التونسية أو لدى بعض أصدقائه.

وسأثبت في نهاية البحث مجموعة هامة من رسائله إلى عدد من أصدقائه ومعظمها ينشر لأول مرة..

وباستثناء رسالة واحدة كان أرسلها إلى صديقه الشاعر السوري الدكتور علي الناصر، والتي سنقوم بالتقديم لها وشرح ظروفها، فإن باقي رسائله سنثبت فقط نصها مع نماذج من خطه في بعضها.

أصدقاء الشابي:

كان لفقيدنا الشابي صلات مودة مع عدد غير قليل من أدباء تونس والبلاد العربية، وكان يرسل آخرين - من عامة الناس - لأسباب أدبية، واجتماعية أو عائلية محضة، مثل تكليفه لهم بجمع الاشتراكات لطبع ديوانه، أو لأسباب عائلية محضة مثل مراسلته لبعض أقاربه أو أبناء بلده في شؤون غالباً ما تكون بعيدة عن مجالات الأدب والفكر.

لا يهمنا هنا - بطبيعة الحال - إلا النوع الأول، أي ما كانت فيه أسباب المراسلة تتصل بالأدب والفكر بأي صلة كانت.

وقد أمكننا أن نتعرف من هؤلاء الأصدقاء عدداً وافراً. نذكر

منهم:

1. محمد الحليوي.
 2. محمد البشروش (توفي 1944) وهو أحد أدبائنا الطليعيين، الذين ساهموا بحق في بعث حركة الأدب التونسي طيلة الربع الثاني من هذا القرن.
- ولئن أصبح اليوم مغموراً منسياً فإن الواجب يقتضينا نحوه التفاتات كثيرة. ولا سيما جميع آثاره المبعثرة في العديد من المجلات التونسية والأجنبية.
- والبشروش - في اعتقادي - كان أكثر معاصري الشابي فهماً له،

وحناناً عليه، فقد كانت له ملاحظات دقيقة عن حياة الشابي وأدبه، وكان ينقل له ويقرأ عليه - مع الترجمة - بعض الآثار الأجنبية، أو يعطيه خلاصتها في أحاديثه معه. كما لازمه أطول مدة لازمه فيها صديق، في سنواته الأخيرة.

ونعتقد أن رسائلهما هي أهم بكثير من أي رسائل أخرى، وبعدها تأتي رسائل الحلوي.

وقد أعد البشروش كتاباً عن الشابي، نشر بعض فصوله في الصحافة، كما نشر بعض آثار الشابي ورسائله له. وعسى أن نرى هذا كله مطبوعاً بين أيدي الناس في يوم غير بعيد.

3. مصطفى خريف (توفي 1967) وهو الشاعر التونسي الجهير الذي له في الشعر «شوق وذوق»، وهو من أصدقاء الشابي، وابن منطقته، ومعاصره في طلب العلم بعض الوقت. وقد راسله الشابي ولا ندري كم لديه من رسائله، إلا أنا نعلم برسالتين نشرهما الأستاذ خريف في الصحافة التونسية.

4. محمد صالح المهدي (توفي 1969) وهو من كتابنا المعاصرين، كان صديقاً للشابي وغير بعيد أن يكون لديه بعض رسائله.

5. الدكتور أحمد زكي أبو شادي (توفي 1955)، العالم والأديب المصري الشهير، كانت بينه وبين فقيدنا الشابي صلات أدبية وثيقة، جديرة وحدها بالدرس والتأليف. والى أبي شادي يعزى الفضل في انتشار شعر الشابي وذيوع صيته في الشرق.

وكان أبو شادي يحتفظ بمجموعة من رسائل الشابي، غير أنها ضاعت - فيما يعتقد هو - أثناء هجرته إلى أمريكا عام 1946، كما أخبرني بذلك في إحدى رسائله لي. ولكني شخصياً لم أقطع الأمل في العثور عليها.

6. الدكتور إبراهيم ناجي، الطبيب والشاعر المصري المعروف. وهو أحد أصدقاء الشابي الذين كان يرسلهم كما ذكر ذلك الأستاذ المهدي، ولكن شقيقه الأستاذ محمد ناجي لم يعثر - كما قال لي - على أي شيء من آثار الشابي بين مخلفات أخيه.

7. الدكتور علي الناصر، وهو شاعر سوري ذكر المهدي أن الشابي كان يرسله.

8. عبد العزيز عتيق، وهو شاعر مصري، ذكر الأستاذ طه سرور، في كتابه عن (الشابي شاعر الحرية) أن الفقيه كان يرسله، وأورد بعض فقرات من رسائل الشابي إليه.

9. الشاذلي عطاء الله، شاعر القيروان الكبير.

هؤلاء بعض من عرفنا من أصدقاء الشابي الذين كان يرسلهم. ولكن أحداً منهم - فيما نظن - لم يكن على صلة وثيقة به - أدبياً وروحياً - كما كان مع أدباء ثلاثة بادلهم الشابي ودأً بود وفكراً بفكر وإخلاصاً بإخلاص. وهؤلاء الثلاثة هم:

1. محمد البشروش.

2. محمد الحلوي.

3. أحمد زكي أبو شادي.

فهؤلاء قد دامت صلتهم به إلى آخر يوم في حياته. كما امتازت صلة الشابي بهم بميزات عديدة، فضلاً عن صدق الود وعمق المحبة وقوة الإخلاص.

ولعل أبرزها أن هذه الصلة قد أثمرت إنتاجاً أدبياً له طرافته الخاصة، وقيمتها البالغة في دراسة الشابي من جوانب عديدة، ومن دراسة جيل الشابي وعصره، بكل ما اعتوره من مشاكل وما اضطرب فيه من أحداث وتيارات وأفكار.

كذلك امتازت هذه الصلة بأنها لم تكن مجرد علاقات شخصية أو اجتماعية بقدر ما كانت علاقات أدبية مليئة بالحوار والآراء والمناقشات ومن هنا تعتبر رسائلهم من أهم المصادر للكشف عن كثير من الحقائق المتعلقة بحياة الشابي وأدبه، وما طرأ عليهما من عوامل مكينة أو أسباب مؤثرة أو ظروف وملابسات تركت نتائج معينة في ثقة الشابي وآرائه أو مواقفه المختلفة.

ولئن لم يتح لرسائل الشابي كلها ولرسائل أصدقائه الثلاثة، بل أصدقائه جميعاً، أن تجمع كلها وتشر بين الناس، فإن في هذه المجموعة الكبيرة التي قدمها لنا اليوم صديق حميم من أعز أصدقائه - عليه وعلينا - لخير عمل أسداه للأدب العربي عامة، وللشابي وتونس بوجه خاص.

فقد تضمنت مجموعته :

24 رسالة للشابي .

30 رسالة للحليوي، وهي ردود عليها ذات صلة بها .

20 رسالة للبشروش كان قد أرسل بها الحليوي، وقد اختار

الحليوي لمجموعته لعلاقتها بالشابي خاصة منها ما أرسله البشروش من بلدة نفضه أيام كان يشتغل بها معلماً، وكان يلتقي مع الشابي مرة كل أسبوع على الأقل، ويقضي معه أوقات طويلة، وكان يسجل هذه اللقاءات في رسائله .

كما وصف لنا أيام الشابي الأخيرة، وما كان يعانيه من أهوال وآلام بسبب المرض، هذا المرض الذي لا يمكن لنا أن ندرك فداحته وأثره الخطير في صحة الشابي وفي نفسيته إلا من خلال البشروش .

الرسائل:

لا شك أننا واجدون في هذه الرسائل حقائق ومعلومات في غاية الأهمية عن مرض الشابي وزواجه، وعن ظروف بعض قصائده وما كان يلاقه في الحياة من متاعب، وما كان يتشوف إليه من آمال لوطنه ومن غايات للأدب التونسي والعربي عموماً، وما بذله من جهد لخلق حياة أدبية ثائرة، وما كان يصبو إليه ويتمناه لبلاده في ميادين الشعر والتأليف والصحافة والنشر.

ونكتفي في هذه العجالة بالطواف حول جوانب الموضوعات

التالية:

أولاً: حول ثقافته وشغفه بالآداب وقضية اللغة الأجنبية.

ثانياً: آرائه في بعض معاصريه من كبار الأدباء والشعراء، أمثال طه حسين والعقاد، والرافعي، وأبو شادي، والطاهر الحداد، ومحمد الحليوي، والبشروش... إلخ.

ثالثاً: آماله الأدبية والوطنية وكفاحه المتواصل لخلق حياة أدبية

ثائرة.

الشابي والآداب الأجنبية:

تفيدنا رسائله، بأنه كان شغوفاً بالآداب الأجنبية، وما يترجم منها وما ينتجه الأدباء المتأثرون بها. أمثال البشروش والحليوي وهيكل والمازني والعقاد وطه حسين والزيات.

جاء في رسالة مؤرخة بـ 1933/3/30 مخاطباً صديقه الحليوي:
«أحبيك وأهنتك على نجاحك في دراسة رومانتيكية الأدب الفرنسي، أقول أهنيك، بالنظر لما أثارته في نفسي من لذة وإعجاب، ولما أدركت فيه - أي المقال - من دقة واستيعاب. وإلا فإنني لا أعرف الأدب الفرنسي - كما تعلم - حتى أقول لك إنك وفقت كل التوفيق في الإحاطة والدرس والاستنتاج، وإن كنت أشعر أنك كذلك فإن ما طالعت من دراسات عن هذا الأدب يسمح لي بأن أقول هذا القول».

والشابي بهذه الفقرات، يعلق على مقال كتبه صديقه الحليوي وكلفه أن يتولى إرساله إلى مجلة أبولو وقد أنجز الشابي ذلك ونشر المقال فعلاً، ولكن الشابي لم يكتف به، بل هو يستزيد صديقه الكتابة في مذاهب الأدب الفرنسي. والترجمة لأعلامه البارزين.

ونحن نستفيد هذا من فقرة أخرى وردت في الرسالة نفسها، وهي:

«أما أنا فإنني لا أريد منك أن تكف عن العمل منتظراً ما ستكون النتيجة مع أبولو، وإنما أريد منك أن تتابع دراساتك عن

الأدب الفرنسي وغيره، وإنما ألاحظ لك أنني أود أن تضيف إلى الدراسة العامة عن أطوار الأدب الفرنسي، دراسة خاصة - أثناء ذلك - عن أعلام كل طور حتى تكون الدراسة وافية شاملة لها شواهدا وآياتها».

«لعلك قد شغلك عنا ما أنت قائم به من تحرير دراسة المذهب الرومانتيكي وزعمائه، إذا كان ذلك، فإني ليثلج صدري كمثّل هذا العمل الجليل الذي أنت قائم به».

من المعروف أن الشابي كان لا يعرف اللغة الفرنسية، ولا أية لغة أجنبية أخرى.. هذه حقيقة مسلمة وقضية منتهية وعندنا بتونس ولكنها عند أخواننا في الشرق، ليست كذلك.. فما زالت حتى الآن تثير النقاش الحاد ويدور حولها الجدل. فقد كتب أكثر من واحد حولها، معتقداً أن الشابي كان يجيد الفرنسية. بل إن منهم من راح يبرهن على ذلك بحجج وبراهين كثيرة كما فعل الدكتور زكي المحاسني في كتابه «إبراهيم طوقان شاعر الوطن المغصوب» وعبد السميع المصري في مقال نشره في مجلة الرسالة الجديدة عدد فيفري - شباط - 1955.

وكنت أظن أن الأمر قد انتهى بعد التصويبات والردود التي كتبتها في كتاب «آثار الشابي وصداه في الشرق» ولكن الأمر استفحل منذ عامين حتى انقلب إلى معركة قلمية على صفحات مجلة الرسالة المصرية وها نحن هنا نسوق بعض فقرات بقلم الشابي نفسه كما جاءت في رسالته الثانية والعشرين بتاريخ 1933/2/22 مخاطباً صدقه الحلوي:

«نسيت أن أذكر لك أن مما طلبه مني أبو شادي في رسالته الثانية أن أمدّه من حين لآخر ببعض الدراسات والأبحاث، وعلى الخصوص في الأدب الفرنسي فصاحبنا يعتقد أنني أعرف الأدب الأجنبي ولذلك يطلب مني هذا الطلب وأنه ليحز في قلبي

صديقي ويدمي نفسي أن أعلم (لعله يريد أن يقول أن يعلم أي أبو شادي) أنني عاجز، عاجز، عاجز، وأنني لا أستطيع أن أطيّر في عالم الأدب إلا بجناح واحد متوف.

هذا ما يقوله الشابي عن نفسه فهل هناك شك بعد هذا؟

على أن من يقرأ رسائل البشروش يجد حديثاً منه على مطالعات الشابي، لبعض الآثار الأجنبية من خلال مطالعات البشروش وما كان ينقله له من خلاصات شفوية عنها. والشابي من هذه الناحية شبيه جداً بالكاتب المصري المعروف مصطفى لطفى المنفلوطي الذي كان يستوعب ويعي كثيراً من القصص الأجنبية بواسطة أصدقائه.

الشابي والعقاد:

وننتقل الآن إلى رأي الشابي في أدباء عصره.. وسأبدأ بالعقاد، ونستخلص أنه لم يكن معجباً به فقط بل كان مبهوراً منه أيضاً، ينظر إليه بتقدير فائق، ويراه - كما يقول هو - ذا (ذهن جبار ولود، وعبقريّة نادرة خارقة).

ولا يقتصر الشابي في إعجابه بالعقاد على نثره، بل هو ينظر بنفس النظرة إلى شعره، ويرى فيه فيلسوفاً وشاعر الاختيار. وهو في هذه النقطة يختلف تماماً عن صديقه الحليوي الذي، وإن كان يشاركه الإعجاب بأدب العقاد النثري إلا أنه يخالفه تماماً في تقدير شاعريته ويرى شعره رأياً يوافقه عليه اليوم معظم النقاد المعاصرين.

ويخيل إلي أن الشابي ما اندفع في إعجابه بالعقاد إلى ذلك الحد الذي نلمسه في كتاباته عنه إلا لما كان يحسه ويقرأه من أثر الثقافات الأجنبية في إنتاجه، ولما كان يكتبه العقاد عن آداب الغرب وشعرائه.

وهاكم الدليل في هذه الجمل القصيرة التي يتحدث بها الشابي عن فصل كتبه العقاد عن الشاعر الإنكليزي شكسبير في كتاب «ساعات بين الكتب» يقول الشابي:

«وقد كتب العقاد فيما كتب عن شكسبير، كتابة لو علم شكسبير أنها ستكتب عنه لمجد نفسه ألف مرة. كتب كتابة لا أحسب أنها كتبت عن بشري من قبل، فقد صور العقاد فيها

شكسبير بصورة إلهية، عليها جلال الألوهة في جدها ولعبها، في حزنها وفرحها، في بؤسها وسعادتها، وماذا يمكنني أن أقول؟ إن العقاد لم يجعل من شكسبير إلا إلهاً صغيراً بشرياً، يخلق في دنياه الصغيرة صوراً كاملة من صورة الإنسانية المتباينة، صوراً ملأى بمعاني الحياة اللاعبة العابثة، والمجادة العابسة، والشاعرة المفكرة، والمجنونة التائهة».

وفي رسالة أخرى، يقف الشابي موقف الدفاع عن شعر العقاد، معارضاً رأي صديقيه الحلوي والبشروش في شعر العقاد.

يقول الشابي في رسالة مؤرخة بيوم 21 ذي الحجة 1351:

«.. وردت على رسالتك الأخيرة وفيها رأيك عن «وحي الأربعين» وإذا كان لي أن أنكر عليك من هذا الرأي فهو زرايتك على العقاد نظمه البيت والبيتين، وقولك أن النفس تأنف من ذلك وتأبى أن يكون نفسها غير ممتد.

فالعبرة يا صديقي عندي، إنما هي بنوع الشيء وعلو عنصره وكرم معدنه، لا بكميته وكثرته وكم من مطولات ممدودة النفس، لا يعثر فيها المرء على ما يكسر القلب أو يغذي الفكر. ثم ألا ترى معي أن قولك: أن النفس تأبى ألا تكون ممتدة النفس وهو ضرب من «تحكم الإرادة» الذي تنعاه على العقاد في شعره؟ أما أنا فلا أفهم من الشعر إلا أنه فيض الحياة في أيقظ ساعاتها وأحفلها بنوازع الفكر والشعور، كما أن السحابة العابرة قد تسيل السيول وقد تسكب القطرات. كذلك نفس الشاعر».

لقد أصاب الشابي كل الإصابة في تحليله عملية الشعور عند الشاعر ووصفه للشعر النابع من القلب. فهل كان شعر العقاد كهذا الذي يتحدث عنه الشابي؟

لقد ثار هذا الدفاع عن شعر العقاد، نائرة صديق آخر من أصدقاء الشابي، هو المرحوم أحمد زكي أبو شادي حينما نشر الأستاذ الحلوي نص هذه الرسالة كاملاً، في مجلة الندوة التونسية، عدد أكتوبر 1953 .

«فكتب أبو شادي ليس رسالة عنيفة حادة، يهاجم فيها العقاد وأنصاره، ويعلن أن الشابي قد ضلل في حقيقة العقاد كلها».

والذين يعرفون الخصومات العريقة بين أبي شادي والعقاد.. والتي ما زالت حية إلى اليوم في نفوس تلاميذهما وأنصارهما.. لا يستغربون منه أن يقول عنه - فيما يقول - في هذه الرسالة:

«..ويتصور فقيدنا الشابي أن العقاد - شاعر الاختيار - بمعنى الاختيار «الأصيل» من ينابيع الحياة. وعذره أنه لم يكن يعرف غير العربية. أما الحقيقة فالعقاد أكثر ما يكون «شاعر السطو» على ما يطالعه، وكذلك كان يصنع لإيليا أبو ماضي وإبراهيم عبد القادر المازني مع فارق كبير وهو أن الأخيرين من رجال الصناعة الأنيقة والشاعرية، بينما العقاد حجري الطبع والأسلوب غالباً. وهو في تهجمه على الناس إنما يعبر عن حقيقة نفسه بطريقة البروز، أكثر من تعبيره عن معائب سواه لو كان لها وجود».

الشابي والظاهر الحداد:

هذا هو رأي الشابي في شعر عباس محمود العقاد .
وإليكم رأيه في أديب تونسي رائد، هو الفقيه المرحوم الطاهر
الحداد، نصير العمال والداعية الأكبر إلى تحرير المرأة في تونس .
ولا أظن أحداً يتوقع من الشابي موقفاً آخر غير موقف المناصرة
للحداد والذود عنه والتأييد لآرائه، فكلاهما كان أديباً ثائراً، وكلاهما
كان يلهب حماسة على مصير شعبه وما كان يعانيه من استعمار حقود
وجماد مستحكم وتخلف في شتى الميادين .

ولئن تباينت مواهب الرجلين، واختلفت أساليب العمل والتعبير
عندهما، فإنهما يجتمعان على حب تونس وعلى البذل السخي من أجل
نهوضها وتحررها . .

أنا يا تونس الجميلة في لجج شرعتي حبك العميق وأني لا أبا لي وإن أريق دمائي إن ذا عصر ظلمة غير أني ضيع الدهر مجد شعبي ولكن أتونس عندي في هواك تولع نسيت بك الدنيا وعيشي وراحتي يريد انقراض الأهل منك لبيتني بجهل، بتفليس، بتجويع أنفس	الهوى قد سبحت أي سباحة قد تذوقت مره وقراحه فدماء العشاق دوماً مباحة من وراء الظلام شمت صباحه سترد الحياة يوماً وشاحه وأنت مني نفس عليك تقطع أريد لك الحسنى وخصمك يمنع هنا . . دار ملك أبد لا يززعز بخلق رؤوس تستهان فتركع
---	---

فياليت شعري . . هل تصادف نشأة تقيم لها رأساً أميل وترفع
وتلبسها تاج الجهاد مخضباً وفيه المنى والعز والمجد لامع .

* * *

هذا هو الحداد وذلك هو الشابي ، كلاهما فذ وخالد وعبقري . .
هذا في الفن والشعر، وذاك في الفكر والنضال. فما هو موقف الشابي
يوم تألبت قوى الرجعية الباغية على الطاهر الحداد فحاربتة، بل حاربت
فيه مستقبل شعبنا حين نادى فيه بنهضة النصف المشلول والرثة
المعطلة. حتى ينطلق شعبنا في كفاحه التحريري بقدميه معاً، ويطيّر في
أجواء التقدم بجناحيه الاثنين. ومن لا يحب صعود الجبال يعيش أبداً
الدهر بين الحفر.

لقد كان موقف الشابي، دقيقاً ومحرجاً، لا يسبب خوفه من
الرجعية أو من الاستعمار فإن له معهما من مواقف التحدي والبطولة ما
لا يتسع المجال لشرحه، وإنما كان موقفه متحرجاً بسبب مرضه الشديد،
وآلامه الملعونة التي كانت يومئذ في أشد أزمتها عليه .

فهو يكتب من تونس العاصمة لصديقه الحلبي خلال شهر أكتوبر
من عام 1930 أي بعد صدور كتاب «امراتنا في الشريعة والمجتمع»
للطاهر الحداد فيقول:

«وبعد.. فقد اشتد الضعف على قلبي في هاته المدة
الأخيرة، بما أوجب معه الطبيب علي، حرمانني من كل الأعمال
الفكرية، لا فرق بين مطالعة أو تحضير أو كتابه .
وقد لبثت على ذلك نحو أربعة عشر يوماً كاملة وذلك ما
حدا بي إلى أن لا أكتبك كل هاته المدة. أما الآن وقد أوجب
الطبيب علي السفر - وقد أزمعته غداً يوم الخميس - فإنني أراني
مضطراً إلى مكاتبتك رغم كل شيء . . .»

ثم يقول في نفس الرسالة:

«.. أن الضجة في تونس قائمة حول كتاب صديقنا الطاهر الحداد «امراتنا في الشريعة والمجتمع». ويقال إن النظارة (أي نظارة جامع الزيتونة يومئذ) تفكر في القيام عليه وطلب حجزه، كما فعلت مشيخة الأزهر في مصر بطه حسين وكتابه. بمعنى أنه قدر علينا أن نكون مقلدين لمصر في كل شيء».

وهذا ما يشاع وإن كنت لا أو من بصحة هاته الإشاعة ويوم الجمعة ستقام للصدیق مؤلف الكتاب حفلة تكريمية كبرى بكازينو بلفيدير. وستلقى فيها الخطب والقصائد. وسينشر الحديث عن هاته الحفلة وكل ما قيل فيها في عدد ممتاز من الصواب، لا بد أنه سيبلغ إليك نبؤه. وقد ابتهجت بهاته الحفلة لأنها تدل على أن تكريم التونسي للتونسي قد بدأ قبوله في النفوس. ولكني آسف لأنني لا أحضر هاته الحفلة ولا أقول فيها كلمة بأمر الطبيب، الذي هو ككلمات القدر في نظر النفوس الواهنة المرضوضة».

من هذه الفقرات، نفهم أن الشابي كان صديقاً للحداد، وأنه كان يناصره بحرارة، وأنه كان يريد أن يحضر حفلة تكريمه، بل هو مسرور ومبتهج من وعي مواطنيه الذي بدأ بتكريم الحداد، وأنه كان ينوي أن يشارك في تقدير الحداد بكلمة بين الخطباء.. لولا مرضه الشديد ولولا أمر الطبيب له بأن يكف عن كل عمل فكري وأن يبارح العاصمة إلى مكان يستشفى فيه ويستجم.

وقد أخرج ذلك وآلمه، لأنه سيتغيب عن أول حفل يقام في تونس تكريماً للفكر الفاتح، والوعي القومي المتحفز.

ولكن أنظنون الشابي يترك المرض والطبيب يغلبان إرادة الخير في نفسه ونزعة الحب لشعبه، فلا يشارك هذا الحفل التاريخي الذي وضع

فيه حجر الأساس لنهضة المرأة اليوم ومستقبلها غداً.

كلا.. فإن الشابي ما كان يوماً ليتخلى عن كفاح شعبه وعن بعث اليقظة في أبنائه، لولا ذلك المرض اللعين الذي ظل يصارعه ويعذبه ويصارع آمالنا فيه ويعذبها معاً.. حتى قضى عليه وعليها.

أجل لم يترك الشابي تونس إلى مسقط رأسه دون أن يرسل كلمة اعتذار ومناصرة، اعتذار عن عدم الحضور ومناصرة للحداد ولأفكاره ولكل المعاني التي يرمز لها حفل تكريمه.

وها هي رسالة الشابي، التي قرئت في الحفلة نيابة عنه أسمعكم إياها.

يقول الشابي:

«.. لجنة الاحتفال المحترمة

تحية لجميعكم وسلاماً

وبعد، فإنني أشارككم قليلاً في حفلتكم التكريمية المباركة، وأشكر لكم سعيكم الجميل، ولكني آسف لعدم استطاعتي الحضور شخصياً، إذ ما فائدة حضوري إذا لم أصرح بما تجيش به نفسي من أفكار، وما يطفح به قلبي من عواطف. لقد حجر عليّ الطبيب - كما تعلمون - مباشرة أي عمل فكري، فلم أستطع أن أخط كلمة أشارككم بها في الاحتفال، ولذلك رأيت أن حضوري لا جدوى وراءه فأثرت السفر على الحضور رغم ما يحدث في ذلك من حرمان وألم. وفي الختام أرجو أن تقبلوا عذري، والسلام».

وقد تليت رسالته هذه في أثناء الحفلة، ونشرت في نشرة خاصة بالحفلة مع كلماتها الأخرى مقرونة بتمنيات اللجنة له بالشفاء العاجل.

أما عن رأي الشابي في المرأة بصورة مفصلة، فيمكننا أن نستشفه من الفصل الخاص بها في كتابه «الخيال الشعري عند العرب». وهو في متناول الجميع.

آماله الأدبية والوطنية:

الموضوع الأخير هو عرض آماله الأدبية والوطنية - كما جاءت في رسائله - وما كان يقوم به من كفاح دائم لخلق حياة أدبية ناثرة في تونس، وسعيه الحثيث - رغم مرضه وأحكام الأطباء، التي مرت بنا - سعيه الحثيث لإيقاظ الشعب من غفوته واستسلامه، ولتحريره من الرجعية الدينية والأدبية الفكرية.

وسنرى في بعض الفقرات والتعليقات الآتية، مدى ما كان يعانيه من آلام نفسية وحسية مما كان عليه مجتمعه من ركود أدبي وسياسي واجتماعي. . وكيف تجاوب مع حركة رجال الدين السياسي التي انبثقت يوم 2 مارس 1934 في المؤتمر التاريخي بقصر هلال.

وفي كل هذه المواقف والنصوص الأحداث التي سنذكرها رد واضح على الذين يزعمون اليوم بأن الشابي لم يكن شاعراً وطنياً ولا كان شاعراً ملتزماً، وأنه لم يقف مع الشعب في كفاحه ضد الاستعمار والحكم الأجنبي. وهي أغرب تهمة يمكن أن توجه للشابي.

ونحن. . لا نريد هنا أن ندخل في نقاش تفصيلي مع دعاة هذه الآراء. وقد نفعل ذلك في المستقبل القريب. ولكننا نكتفي بذكر الحقائق والملاحظات والنصوص التالية وفيها وحدها ما يقنع كل قلب وعقل وضمير.

أولاً: يحتوي ديوانه في طبعته الأولى على إحدى وتسعين قصيداً

أو مقطوعة، بها ألفان وأربعمائة وستة وستون بيتاً.. بينها فقط تسع وثلاثون قصيداً أو مقطوعة في الوطنية والاجتماعيات أبياتها ثمانمائة وثلاثة عشر بيتاً أي أن نسبة الثلث من ديوانه المعروف وهو شعر وطني ملتزم.. وسيزيد هذا العدد وتلك النسبة في طبعة ديوانه الجديدة، كما لدينا عديد القصائد والمقطوعات التي تنشر في طبعة ديوانه. مما سنعرض له بالتفصيل في مناسبة أخرى.

ثانياً: وفي رسائله نجد حثاً متواصلاً لأصدقائه كي ينتجوا لتونس أدباً يرفع رأسها عالياً بين البلدان العربية، ونجد منه سعياً دائماً لكي يظهر إمكانياتها الأدبية، ولكي يحدث فيها حركة فكرية نشيطة تقف بوجه قوى الرجعية في عصره، وتعمل على النهوض بأمتة عن طريق المعرفة والفكر والأدب، وأن في هذه العبارات النارية الملتهبة ما يغني عن كل تعليق أو تحليل أو شرح:

يقول الشابي في رسالة للحليوي مؤرخة في 21 مارس - آذار - 1930 وحثاً له على العمل والإنتاج:

«.. قد وعدت أنك ستكتب وتكتب.. عن كتابي، وعن تولستوي وعن أدب الفرنجة، وأنت سترجم قطعاً وآيات شعرية.. وغيرها، ولكنك لم تنفذ من كل وعودك شيئاً. ما هذا أيها الصديق؟ إن تونس لفي حاجة إلى أبنائها الذين تتدفق في دمائهم عزمات الفتوة ونخوة الشباب ونشوة الأحلام. إن تونس لفي حاجة إلى أن تتقدم بخطوات ثابتة إلى سبل النور والزهور.. إن تونس لفي حاجة إلى أن ترفع رأسها عالياً حتى تشاهد أنوار السماء وشموسه وحتى تقبل شفتها أضواء النجوم.. ولئن كانت تونس فقيرة إلى هذا الضرب من أبنائها، هذا الضرب الذي يحن إلى أن يعيش عيشة كلها حق ولذة وجمال وكلها إحساس وشعور وعواطف، أقول: إن كانت تونس فقيرة إلى مثل هذا النوع من

أبنائها ليجب على هذا النفر القليل منهم أن يبذلوا كل ما في
جهدهم من عزم وقوة وحمية وشباب، حتى يستطيعوا أن يكونوا
نشأ حياً مخلصاً، شاعراً يواجه لأمته وللحياة وللوجود بأسره،
وأن يخلقوا في الواقع ذلك الوسط الحي الجميل، الذي نتصوره
في أحلامنا ثم نلتفت حوالينا فلا نلمح له أثراً. وإذن فلتكتب
ولتعمل ولتطرد عنك خواطر الراحة والسكون، فإن شعبك في
حاجة إليك وليس لك شيء من العذر في أن تسكن ولا تعمل».

وفي مكان آخر من الرسالة نفسها، يتحدث عن الصدى
الذي أحدثته مجلة «العالم الأدبي» في الشرق، ولا يخفي فرحته
بذلك، لأن تونس قد صار لها صدى أدبي بالخارج. . ويندد ضمناً
ببعض الاحتراقات والتخوفات التي أبداها الرجعيون تجاه نزعة
المجلة التحررية.

يقول الشابي:

«.. ما أحدثك عن العالم أولاً، والعالم الأدبي ثانياً، لقد
أحدثت من الرجة في الخارج ما أحدثت وغيرت نظرة الشرقيين
إلى تونس تغييراً ما كانوا يتوقعونه، وأصبحوا ينظرون إليها نظرة
لم تكن من قبل».

وغني عن القول، أن الشابي والحليوي والبشروش كانوا مع زين
العابدين أقطاب هذه الحركة الثورية، التي كانت مجلة «العالم الأدبي»
لسانها الناطق وكان الشابي محور الجناح التقدمي فيها. وقد حمل نفسه
بذلك فوق ما يطيق، ولكن حبه لتونس ورغبته الجامحة في أن يراها
تسرع الخطى نحو النهضة والتقدم، وأن تختفي منها مظاهر التأخر
والرجعية، ويعلو فيها صوت الحق والحرية والتطور، كل ذلك جعله
يضحي بشبابه وصحته وسلامته كلها. فرغم مرضه الحاد ونهي الأطباء

الصريح له للكف عن كل نشاط ذهني، رغم كل ذلك نجده يواصل السعي لإيجاد حركات قوية في الصحافة والنشر والتأليف وإنتاج الأدبي عموماً. وفي رسائل الحليوي ورسائله معه، البرهان عن كل ذلك وأكثر من ذلك.

وهاكم في النهاية هذه الفقرات الملتهبة من رسالته المؤرخة بـ 10 أبريل - نيسان - 1932. حيث تتبين في الرجل وجهاً آخر من وجوه عظمته ووطنيته.

يقول الشابي مخاطباً صديقه الحليوي:

«نعم يا صديقي، فإنني لا أعلق على غيرك ممن أعرفهم من الأدباء ما أعلقه عليك من إحياء الأدب ورفع اسم تونس، تونس العزيزة، عالياً بين أسماء الشعوب ولكنك أنت بهجرانك الأدب أو بانتحارك - كما أقول أنا - تقوض كل هاته الآمال وتهدم هذا البناء المشيد، فانظر أي صنيع تصنع يا صاحبي؟ وانظر أية جريمة أنت تقدم على اجترامها.. إن هاته الثورة التي تعصف في جوانب صدري لا تهدأ ضجتها ولا يسكت هديرها ولا يخمد طغيانها العارم المرید، وأن المعاني لتزدحم وتتصارع في رأسي بصورة مزعجة، وأنني لعاجز عن أن أصور إليك الآن ما يصطفق في قلبي من ثورة وسخط، وغضب وحيرة، وشك وتساؤل وآلام، ثورة على القدر وشك في المستقبل وآلام لحظ تونس المنكوس.

ربما عذرتك عن عدم كتابتك في «العالم العربي» ولكن كيف تريد مني عتابك في هجر الأدب والانقطاع عنه؟ على أنني حين أفكر وأرجع إلى نفسي لا أعذرك حتى في انقطاعك عن «العالم الأدبي» فلتقل ما شئت في خطة الصحيفة وفي صاحبها، ولتقل ما شئت في مواضيعها الغثة الباردة المستقلة المرذولة ولكن ألا يحز في قلبك وينغص عليك الحياة أن يقول عنا أبناء العالم: أن هاته

الأصوات الميته والأصداء الخافتة هي كل ما في تونس من
صيحات الحياة؟ أما أنا فإنني حين أفكر في هذا يسود الفضاء
المنير أمامي، وتتضايق حوالي رتعة هذا الوجود.

لنتحمل يا صديقي كل شيء في سبيل النهوض بتونس وآدابها ما
دعنا إنما نجاهد لإحياء الوطن والرفع من شأنه بين الشعوب، فإن
المجاهد يا صديقي ليفترش القش وحتى المزابل إذا اضطره
الدهر».

والآن هل تريدون دليلاً آخر على وطنية الشلبي وكفاحه من أجل
شعبه؟ إن أمامكم ديوانه، ورسائله وكتاب «الخيال الشعري عند العرب»
ففيها جميعاً ما يقنع كل عاقل ويملأ كل قلب بالإكبار والإجلال لفقدنا
«أبو القاسم الشابي».

ومع ذلك، من منا لا يذكر قصيدته «إرادة الحياة» ولم يحفظ
مطلعها ويردده في شتى المناسبات الوطنية بل لقد أصبح هذا المطلع
نشيداً وشعاراً للملايين في كل مكان.

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد للظلم أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر
هذا هو الشابي، وتلك بعض آرائه ومواقفه الأدبية والوطنية.

وإننا حين نأخذ بعين الاعتبار - ويجب أن نفعل ذلك - أن الشابي
لم يعيش سوى ربع قرن، وأنه قضى سنواته الست الأخيرة في تعب
متصل، وعناء متلاحق بسبب النكبات والمرض، وعنت الرجعية التي
كانت تعوقه وتعوق كل حركة تقدمية إن في الدين أو الأدب أو في
غيرهما.. إذا أخذنا بعين الاعتبار كل ذلك فإن ميزاننا لأدب الشابي
وسلوكه وأقواله، سيختلف تماماً، وإن تقديرونا وأحكامنا له أو عليه
ستكون أكثر عدلاً ونزاهة وإنصافاً.

وهذا واحد من جملة الأسباب التي حملتني على اعتبار الشابي
شاعر تونس الأول في العصر الحديث . واعتباره أيضاً الشاعر الوحيد -
حتى الآن - الذي استطاع أن يجعل لتونس كل هذا الصدى الأدبي الذي
تتمتع به اليوم في العالم، وأن يجلب لها - في دنيا الأدب - كامل التقدير
والإكبار والاهتمام .

رسالة نادرة بخطه أو

أضواء جديدة حول «الخيال الشعري عند العرب»

تمهيد:

اسمحوا لي في مستهل كلمتي أن أعيد هنا فقرة قصيرة سبق أن نشرتها عن الشابي منذ خمسة عشر عاماً لعلاقتها بموضوع اليوم . . جاء فيها:

«إن الشابي - كأديب آخر - لا يمكن للتاريخ وللنقد أن يزنا حياته أو أدبه بميزان العدل والإنصاف، ولا للباحثين أن يستوعبوا صورته الأدبية ويتعمقوا تحليل شخصيته وعبقريته وإنتاجه . . لا يمكن لهؤلاء جميعاً أن يفعلوا شيئاً من ذلك ما لم تتوفر لديهم جميع مصادره الأساسية. وهي في رأينا:

أولاً - آثاره الشعرية والثرية، وخاصة ديوانه المؤرخ ويوميته ورسائله.

ثانياً - آراء معاصريه وذكرياتهم وانطباعاتهم عنه وعن علاقاتهم به وما اعتور ذلك كله من قضايا وشؤون بل وشجون أيضاً، ولأصدقائه هنا قول خاص.

ثالثاً - دراسة عصره بكل ما كان فيه من أوضاع وتيارات فكرية واجتماعية وسياسية، وما جرى فيه من أحداث غيرت المفاهيم ومشت بالتاريخ وجهة أخرى.

ولا شك أن بلوغ جميع هذه الأغراض أمر يحتاج إلى زمن طويل وجهود عديدة وأجيال من الدارسين... ومن هنا لا مناص من أن نتعقب الخطى وراء كل إمكانية متاحة لكي نظفر بأثر جديد من آثار الشابي أو نكتشف حقيقة كانت غامضة أو مجهولة. وفي كل ذلك لا يسعنا إلا أن نكبر كل جهد يبذل في هذا السبيل ما دام القصد نزيهاً والنتائج عادلة والغايات شريفة.

أجل! إن أهم مصادر الشابي هي آثاره، وإن أهم هذه الآثار هي ديوانه المؤرخ، ويوميته ورسائله.

فأما ديوانه، فقد كان لمهرجان الشابي سنة 1966 يد كريمة في إنجاز طبعة جديدة، مستوفية معظم قصائد الشاعر. ولا شك عندي في أن تاريخ القصائد - ومن حسن الحظ أن الشابي كان يؤرخ كل قصائده، وهو أمر قل أن انتبه له من الشعراء - لا شك في أن وضع تاريخ القصائد في طبعة جديدة سيحدث انقلاباً كبيراً في دراسة الشابي وفهم نفسيته ومؤثرات العصر فيه⁽¹⁾.

أما يومياته، فإنها دون الديوان والرسائل شأنًا، رغم ما يعلقه عليها بعض الباحثين من آمال مبالغ فيها. إنما هي أقرب للخواطر الوجدانية والمقالات الجبرانية، وليست من نوع اليوميات التي يقص فيها كاتبها حياته الخاصة وانطباعات الحياة والناس في نفسه.

ومع ذلك فإننا قد نظفر فيها ببعض الملاحظات أو التفسيرات الهامة، لبعض حوادث الشابي اليومية، وما جرى بينه وبين معاصريه من حوار أو مشاكل أو علاقات⁽²⁾.

(1) انظر، مثلاً، سلسلة مقالاتنا القادمة عن «موقف الشابي من حركة محمد علي» النقاية، المستفادة من تواريخ بعض قصائده..

(2) انظر بحثنا القادم «منزلة الأدب الشعبي عند الشابي».

على أن لي أملاً واحداً كنت أرجوه في هذه اليوميات وهو أن نجد فيها شيئاً من حديث الشابي عن حياته الداخلية، أعني حياته الخاصة، زواجه أو حبه أو ميوله العاطفية. لكنها لم تسعفنا بشي من ذلك. وهكذا ضاعت منا الحقيقة كاملة عن حياة الشابي - العاطفية. تلك الحياة التي توميء إليها بعض قصائده، ولكننا لا نظفر فيها بيقين: وإن بالغ بعض الكتاب في وضع الأحكام القاطعة حولها.

أما رسائله، فإنها تأتي في الدرجة الثانية بعد الديوان من حيث الأهمية، ولكنها من حيث علاقتها بالأحداث العامة والعلاقات الاجتماعية والحياة الأدبية في تونس والبلاد العربية، أشد التصاقاً وأكثر دلالة من الديوان نفسه، ومن اليوميات كذلك.

إن رسائل الشابي تعيننا إعانة كبيرة جداً على كل كثير من المشاكل والقضايا المتعلقة بحياته وبأدبه وبمكانته في عصره، ومدى تأثيره بأحداثه ورجاله ومعطياته المختلفة.

وهي إلى ذلك صورة صادقة لأفكاره وميوله وكفاحه الأدبي والاجتماعي.

أضيف إلى ذلك أنها قد كتبت دون تعمل فني أو صناعة أدبية، لأنه لا الشابي ولا زملاؤه كانوا يكتبون هذه الرسائل لتنشر يوماً بين الناس.

ولذلك فهي، في رأيي، أكثر صدقاً وصراحة من اليوميات، لأن اليوميات التي يكتبها ذوو الشأن في الحياة، معروف لديهم سلفاً أنها قد تنشر يوماً ويقرؤها الناس، لذلك فهم لا يكتبون فيها إلا ما يريدون أن يطلع عليه الآخرون⁽¹⁾.

(1) الشابي من خلال رسائله نشر حلقات متتالية في جريدة «الصباح» بداية من عدد 1968/11/10 ثم مجموعاً قبل هذا المبحث.

ومن هنا وجهت عنايتي إلى البحث عن رسائل الشابي لدى أصدقائه ومعاصريه ممن كان يرأسلهم.

وكان تركيزي على الصديق المرحوم محمد الحليوي باعتباره أكثر الأدباء مراسلة مع الشابي. وكان لفظته، قد جمع لديه رسائله مع البشروش واستعاد رسائله الخاصة للشابي من عائلة الفقيد عقب وفاته، مما يدل على أنه كان يقدر قيمتها ويفكر في نشرها.

وبمتابعة الجهد مع الحليوي أمكن لي أن أقنعه بنشرها، وأن أتولى شخصياً الإنجاز والتقديم لها عام 1966 في طبعة ممتازة.

ثم واصلت البحث للظفر بآثاره النثرية الأخرى وخاصة رسائله. وقد أسعفني الحظ بالعثور على نصوص نثرية هامة جداً لدى عدد من هؤلاء الأصدقاء.. أذكر منهم هنا مع فائق التنويه والتقدير.

- زين العابدين السنوسي.

- محمد صالح المهدي.

- إبراهيم بورقعة.

- الدكتور علي الناصر.

- سامي الكيالي.

وجميعهم انتقل إلى رحمة الله خلال العشرين سنة الماضية.

ومعلوم أن الثلاثة الأوائل كانوا من أهم وأعز أصدقاء الشابي بعد البشروش والحليوي.

أما سامي الكيالي وعلي الناصر فكلاهما من سوريا وقد عاشا معاً في حلب خلال العشرين سنة الأخيرة من حياتهما.

لقد أشار أكثر من باحث من معاصري الشابي، وخاصة المهدي، إلى أن الشابي كان يرأسل عدداً من أدباء المشرق العربي، وأن من بينهم:

- الدكتور أحمد زكي أبو شادي.

- الدكتور إبراهيم ناجي.

- الدكتور علي الناصر.

ويبدو أن الشابي راسل مرة واحدة سامي الكيالي حين أهدى إليه كتابه «الخيال الشعري عند العرب». . حيث نوه به الكيالي في كلمة قصيرة، نشرها عنه فور وصول الكتاب إليه.

ومنذ مطلع الخمسينات، وأنا دائم البحث لدى هؤلاء الأصدقاء ومع غيرهم للعثور على شيء لديهم من رسائل الشابي أو إنتاجه غير المنشور.

وقد أشرت إلى شيء من هذا وإلى نتائج هذا البحث مع بعض هؤلاء كأبي شادي وإبراهيم ناجي في كتابي «آثار الشابي وصداه في الشرق».

لكن الحظ أسعفني بعد صدور الكتاب عام 1961 بالعثور على عدد من النصوص النثرية والشعرية لدى عدد من أحياء الشابي وأصدقائه⁽¹⁾.

وثيقة بخط الشابي:

ويسعدني في هذه المناسبة أن أقدم نصاً واحداً من نشره، متمثلاً في رسالة كتبها إلى الدكتور علي الناصر الشاعر والطبيب السوري المولود بحماة سنة 1894 والمتوفى بحلب مقتولاً بالرصاص داخل عيادته سنة 1970⁽²⁾.

(1) منها قصيدته في رثاء الشيخ محمد النخلي (ت 1924) والتي نشرناها لأول مرة في مجلة الفكر عدد 1 - س 30 - أكتوبر 1984.

(2) ترجمته في الأعلام للزركلي ج 5 ص 27 ط 4.

ويعود الفضل إلى الصديق المرحوم سامي الكيالي الذي توسط في الحصول على هذه الرسالة من الدكتور الناصر. . وكان ذلك عام 1966 على مرحلتين، ففي الأولى نسخ لي الأستاذ الكيالي نص الرسالة بخطه. . وفي الثانية بعث لي بنسخة مصورة عنها كما هي بخط الشابي⁽¹⁾.

ويشير الكيالي (المتوفى هو الآخر عام 1972) يشير إلى أن الدكتور الناصر لم يعثر في أوراقه إلا على هذه الرسالة⁽²⁾.

تحمل الرسالة تاريخاً بالسنة والشهر دون اليوم، إذ هي مؤرخة بشهر أوت/ أغسطس/ 1930 ومكتوبة على ورق عادي مسطر، من النوع الذي كان شائعاً لدى عامة الناس في كتابة الرسائل. . ويبدو أن الشابي كان يستعمل في أغلب الأحيان نوعين من الورق في كتابة رسائله إلى أصدقائه:

- النوع الرسمي الذي كان يستعمل في الدوائر الرسمية ولدى المحاكم (والمعروف بالوزير) وهذا ما عثرنا عليه في رسائله للسنوسي.

- النوع العادي، أو الشعبي، وهو الورق القصير المسطر، وهذا ما أمدنا بنماذج منه عدد من أصدقائه مثل خريف والمهيدي.

ومن هذا النوع الأخير. . كان حجم ورق رسالة الشابي إلى الدكتور علي الناصر، كما يمكنكم ملاحظته في النسخة المصاحبة لهذا التقديم.

وبدون أن نطيل عليكم في النتائج والملاحظات التي يمكن

(1) ألحقنا صورة للنسختين بهذا التقديم.

(2) ترجمته في الأعلام للزركلي ج 3 ص 75 ط 4.

الوصول إليها من قراءة «الرسالة» وربطها بأحداث عصره وبحياته وظروفه الأدبية الخاصة..

سنكتفي هنا بتلخيص ذلك فيما يلي - كمرحلة أولى - تاركين التفاصيل والمقارنات إلى مناسبات لاحقة.

أولاً - الشكل :

هي رسالة طويلة - نسبياً - يلفت النظر فيها - لأول وهلة - أن الشابي قد تعمد أن يكتبها بخط الرقعة الشائع في المشرق، ولم يكتبها بخط النسخ التونسي الذي اعتاد أن يكتب به كتاباته الأخرى. ومع ذلك فقد وفق إلى حد ما في هذا التقليد لخط مخاطبه.

وهذه الظاهرة الكتابية الثابتة نرد بها على من زعم أن الشابي كتب قصائده إلى مجلة أبولو - فيما بعد - بخط مغربي صعب القراءة. مع أن الشابي كان جميل الخط ومفهومه حتى في خطه التونسي. وهو لو فعل هذا لأشار إليه صديقه الآخر - الأهم بين أصدقاء الشابي في المشرق - المرحوم أحمد زكي أبو شادي صاحب المجلة.

فقد كتب لي أبو شادي أكثر من عشرين رسالة انطلافاً من الشابي وحول أدبه وعن معاصريهما وذلك بين سنوات 53 - 1955 حيث توفي هو الآخر في أبريل عام 1955.

ثانياً - المضمون :

تتضمن الرسالة عناصر وأفكاراً كثيرة منها ما يتعلق بظروف الرسالة والدافع إلى كتابتها.

وكما بدا لي فإن الرسالة هي الأولى التي بعثها الشابي إلى صاحبه، وإنه قد كتبها كرد وتحية منه إلى الدكتور الناصر، الذي كان البادئ في

ربط الصلة بالشابي من خلال إهدائه ديوانه الأول «قصة قلب» ..

وهذا ما جعل الشابي يستهل رسالته بشكر الناصر على بادرته بالهدية ويشي ثناء أديباً جميلاً على «قصة قلبه» .. ويعدّه في ختام الرسالة بأنه سيهديه ديوانه «أغاني الحياة» الذي شرع في إعداده للطبع.

وبين تنويه الشابي بـ «قصة قلب» للشاعر السوري، الذي استهل به رسالته وبين ما ختم به من وعد بإهداء ديوانه إليه بعد طبعه .. . راح الشابي يصول ويجول بأسلوبه الساحر المثير .. مركزاً كلامه في نقاط جوهريّة هامة .. تمحورت في موضوعات رئيسية ثلاثة:

أولاً - تحدث عن كتابه «الخيال الشعري عند العرب» وما أثاره من سخط وغضب في أوساط تونس الأدبية والرجعية.

ثانياً - دعا بقوة وحرارة وشباب الأدب في المشرق إلى أن ينهضوا بالشرق، ويجددوا أدبه بثورة تبعث فيه لهيب الحياة.

ثالثاً - حاول أن يعطي لمخاطبه صورة عن نهضة تونس الأدبية الشابة، وقد أبدى في هذه الصورة غيرة على بلاده دفعته إلى تجميلها أكثر من حقيقتها.

وبخصوص كتابه عن الخيال الشعري، فإن الشابي اعتبره «جهاد قريحة» ودعوة إلى التجديد وتحرير الناس من القديم البالي .. لكن دعاة الرجعية قابلوها بالسخط والغضب والإمعان في التمسك بالماضي ورسومه الدراسة. وهذا نص خطه حرفياً:

«وإني أقدم لك نسخة من كتابي الصغير «الخيال الشعري عند العرب» الذي وإن لم يكن «قصة قلب» فإنه «جهاد قريحة» أرادت أن تحرر الناس وتدعوهم إلى سواء السبيل، فلم تلق منهم إلا كل غطرسة وعناد. فقد ألفت كتابي ثم نشرته عل الناس ودعوت فيه إلى منهاج جديد من البحث والفهم والتقدير لمفهوم الأدب العميق، فأرضي ناساً

وأسخط آخرين . وكان أكثر إغضاباً لمشيخة «الماضي» التي لا تفهم من الحياة إلا يوم الأمس، ولا من المجد إلا ذكريات القديم ولا من الأدب إلا أصداء الأمس البعيد.. فثاروا وعجبوا ورموني بكل سخط ونكير، فتجلدت لهم وصبرت. وسأكون المنتصر اليوم أو غداً أو بعد أن يطويني الموت في ظلامه ويلفني الأبد في شملته».

وقد جره حديثه هذا عما لقيه هو وكتابه من عنق وانتقاد إلى توجيه دعوة حارة إلى شباب الأدب العربي كي يثوروا على القديم، ويحققوا طموح الأمة العربية، التي يرمز لها الشابي بالشرق والشرقيين، في الثورة على واقعها المريض وحياتها الراكدة الخاملة. . قائلاً:

«إن الأدب العربي في حاجة إلى ثورة أدبية تجتاح كل ما رث من قديمه وبلي من جذوعه، إلى نهضة «رومانتيكية» تنفخ فيه روحاً جديداً وتبعث فيه لهيب الحياة القوية الثائرة، فتخلقه خلقاً جديداً يلائم نفوس الشرقيين الطامحين إلى آمال جديدة وحياة كاملة. وليس للشرق أمل إلا على الشباب المخلص من أبنائه. هذا الشباب الذي يضحى بكل شيء إرضاء للحقيقة ونصراً للحق والجمال. إن أدبنا لم يتحدث بجمال الوجود ولم ينبع شعراؤه برحيق هذه الفتنة الساحرة؛ فنحن في حاجة إلى من يحدثنا بمثل ذلك، إن أدبنا لم يتحدث عن عواطف الإنسان البعيدة وأحلامه العميقة وأفكاره الغريبة المستترة النائية ونحن في حاجة إلى من يحدثنا بذلك.

إن أدبنا لا يشعر قارئه أنه دخل إلى عالم كله فن وسحر وجمال، وكله أحلام وأطياف كأنه من جمال الفردوس أو من أعماق الجحيم ونحن إلى ذلك في حاجة، وإذن فليعمل شباب العالم العربي لهذا إن أراد الحياة وليعمل بهذا إن أراد المجد والخلود؛ ولذا فإني أدعوك وأدعو نفسي إلى العمل لإيقاظ روح الشرق الجميل من سباتها

الطويل»⁽¹⁾.

بعد هذا يصل الشابي إلى ختام رسالته، فيرى من واجبه أن يحدث صاحبه عما بدا من تباشير نهضة جديدة في تونس. ولا شك أنها كانت متمثلة في الشابي أولاً وفي زمرة الشباب الذين بدأت طلائعهم تبرز في معظم مجالات الحياة الوطنية في أيامه.

يقول الشابي:

«في تونس اليوم نهضة تجديدية لا بأس بها، ولكنها ما زالت مستضعفة بين أنصار الجمود الكثيرين وأنها ستتصر اليوم أو غداً لأن الشيوخ لا حجة لهم غير الأوهام والأباطيل».

وقبل أن نترك نص الرسالة بخط الشابي بين أيديكم.. لتتابعوا بأنفسكم العناصر الأساسية والثانوية الأخرى، التي لم نتعرض لها هنا، لضيق الوقت، ولأننا أيضاً لم نقرأ عليكم إلا فقرات معينة من الرسالة..

قبل ذلك.. أرجو أن يتسع صبركم وحلمكم إلى سماع الملاحظات الرئيسية التالية حول محتوى الرسالة بصفة عامة:

إن هذه الرسالة، من حيث أسلوبها تضعنا من جديد مع أسلوب الشابي الشعري، بألفاظه الأنيقة والبسيطة في آن واحد، وجمله القصيرة المنعمة والشفافة.. الحافلة بالمتقابلات المتداعية والصور الشائقة.

ومن حيث مضمونها نرى فيها المواقف التالية:

- تأكيد آرائه في الخيال والتبشير بها من جديد.

- كشفه لأول مرة عن غايته من هذا الكتاب.

- شعوره بالألم والإحباط لما لقيه هو وكتابه من رفض حاد

(1) نذكر هنا بقصيدته «إرادة الحياة» وقصيدته القائل فيها:

ألا انهض وسر في سبيل الحياة فمن نام لم تنتظره الحياة

ومصادمة عنيفة من معاصريه .

- توضيحه طبيعة العمل والمنهج الجديد الذي قام به في البحث الأدبي لأول مرة بتونس .

- تقسيمه لمعارضيه منهجه الجديد إلى جيلين .. جيل الشيوخ وجيل الشباب .. وإن الشيوخ كانوا أشد غضباً وتهجماً .
- تحمله وصبره على ما نقموا .

- إيمانه القوي بأنه المنتصر، اليوم أو غداً، أو بعد وفاته .. وهذا ما حدث بالفعل .. وما هذه الذكرى العالمية إلا دليل على ذلك . وهذا ما حدث له أيضاً في مجال أعظم وأهم .. حين تنبأ بزوال الاستعمار وانتصار الشعب .. يوم لم يكن أحد يقول ذلك أو يتوقعه ..

كان هذا عام 1925 عقب محاكمة محمد علي الزعيم النقابي بأيام قليلة .. والحكم عليه وعلى رفاقه بالنفي خارج أرض الوطن ولم يكن في ساحة النضال صوت واحد يعد الجماهير بالخلاص .. فإذا الشابي الذي لم يتجاوز عمره - يومئذ - ستة عشر عاماً يعلن قسم الموت من أجل تونس .. ويبشر شعبها بالحرية والخلاص :

أنا يا تونس الجميلة في لجج الهوى قد سبحت أي سباحه
شرعتي حبك العميق وإنني قد تذوقت مره وقراحه
لا أبالي وإن أريق دمائي فدماء العشاق دوماً مباحه

* * *

إن ذا عصر ظلمة غير أني من وراء الظلام شمت صباحه
ضيق الدهر مجد شعبي .. ولكن سترد الحياة يوماً وشاحه

ونعود للرسالة، لنقول بأننا نجد فيها أيضاً:
- دعوته إلى ضرورة التجديد في الأدب بما يتماشى مع طموح

الأجيال.. ويجدد حياة الأمة العربية.. لكنه في دعوته هنا يكاد يكرر نفس الأفكار والمعاني وبنفس العبارات تقريباً.. التي سبق له أن أعلنها في كتابه «الخيال...» وهي في هذه الرسالة أكثر قرباً وتشابهاً لما أعلنه في سنوات لاحقة إلى صديقه محمد الحليوي من خلال رسائله.. وهو في النهاية يلخص موقفه بأن الأدب، والشعر منه خاصة، هو جمال وسحر وثورة وتجديد أو لا يكون.

وفي الرسالة موقف جديد وواضح.. وهو اعتباره لنفسه مساهماً في نهضة العرب - لا نهضة تونس فقط - وعلى حد قوله فهو يعمل «لإيقاظ روح الشرق من سباتها الطويل».

- ونود في الختام أن نسجل حقيقة تاريخية هامة جداً في حياة الشابي الأدبية تجاه معاصريه التونسيين.. وهي أن الشابي لم يرد على أحد ممن انتقد كتابه بتونس.. سواء من دعاة الرجعية والمتشددين نحوه أمثال حسين الجزيري ومحبي الدين القليبي.. أو الذين كانوا من أصدقائه ومنهم من كان يشاطره في معظم آرائه.. ولكنهم مع ذلك انتقدوا عليه أشياء كثيرة.. وفي طبيعة هؤلاء صديقه محمد الحليوي.. الذي اعتبر معظم آراء الشابي في الخيال إعادة وترديداً لما سبق أن أعلنه نقاد المشرق.. وخاصة منهم العقاد وميخائيل نعيمة.

والحقيقة أن موقف الصمت الذي لاذ به ولازمه الشابي نحو منتقدي كتابه في تونس، قد تغير بعد سنتين في قضية أخرى، وإن كانت ذات صلة بموضوع كتابه، وهي قضية «السرققات الشعرية» التي تحول الحديث فيها، عنده وعند الحليوي إلى حديث عن الشعر بوجه عام.. عن مفهومه وجوهره، والغاية منه، ومدى صدقه في تعبيره عن أحاسيس الشاعر وقضايا المجتمع؟.

ومع هذا يبقى السؤال مطروحاً:

لماذا لازم الشابي الصمت في تونس حبال منتقدي كتاب الخيال ..
مع أنه رد، وبشدة، على ناقدية المشاركة؟ .

ثم هو - كما أعلم - لم ينفس عن كبتة حتى في مراسلاته الخاصة
مع أصدقائه التونسيين .. الذين عرفنا جانباً كبيراً من رسائله إليهم ..
أمثال الحليوي وخريف والمهيدي؟ في حين نراه يفعل ذلك في رسائله
للمشرق .. كما تؤكد رسالته هذه؟

من رسائل الشابي

نص الرسالة

تونس في أوت [أغسطس] 1930

سيدي الأديب الفاضل المحترم

تحية وسلاماً

وبعد، فقد اتصلت بقصة قلبك يا صاحبي، فإذا بها قصة قلبي وقلب كل بشري رأى فتنة المرأة وجمال الوجود، فأسكرته تلك وصعدت به هذه إلى مدارج الإلهام، وإذا قصة الحياة الإنسانية في أحلى عهد من عهودها وأزهر فصل من فصولها: في فجر الشباب . . . وإذا بي أماشيك بنفسي بين سبل المزارع ومسالك الجبال فأراك واجماً عابساً، أو ضاحكاً مستبشراً، أو مفكراً صامتاً، وأراك تغني وقلبك أغاني المسرة وترشف قلبك كؤوس الجمال، أو تعنف نفسك الدامية بين أشواك السير . . . ورأيتك في أرجوحتك مع من تحب وفي رياضك مع من تهوى تمر في جحيمك تتألم لأوجاع قلبك وآلام نفسك. فهنيئاً لك يا صاحبي بقصة قلبك، وهنيئاً لك بنفسك الحساسة وشعورك الفياض وهنيئاً لك بآلام نفسك فإنها خير كنوز الخلود . . .

وإني أقدم لك نسخة من كتابي الصغير «الخيال الشعري عند العرب» الذي وإن لم يكن «قصة قلب» فإنه «جهاد قريحة» أرادت أن تحرك الناس وتدعوهم إلى سواء السبيل فلم تلق منهم إلا كل غطرسة وعناد. فقد ألفت كتابي ثم نشرته على الناس ودعوت فيه إلى منهاج جديد من البحث والفهم والتقدير لمفهوم الأدب العميق فأرضي ناساً وأسخط آخرين وكان أكثر إغضباً لمشيغة «الماضي» التي لا تفهم من الحياة إلا رسوم الأمس ولا من المجد إلا ذكريات القديم ولا من الأدب إلا أصداء الأمس البعيد . . .

فثاروا وعجوا ورموني بكل سخط ونكير، فتجلدت لهم وصبرت وسأكون المنتصر . . .

تونس في اوت ١٩٤٠

سيدي اديب كندل المترم

تحية راسدا

وبعد، فقد انضلت بصفة قلبك يا صاحبي، نياها قصة قلبه وقلبه
كل بشري رأى قصة المرأة وجمال الرجولة، فأسكرته تلك رصعة
به هذه المصاحف الالهام، واذا قصة الحياة الانسانية في اطي حرد
من عمودها وأزهر فضل من فصلها: في فجر الشباب... وانا
في اماشيك نفسي بمرسيل الزايغ ومالك الجبال فاراك راجا
عاباء او ضاحكا مستبشرا، او منكرا احاسنا، وارانك نغني
وقلبك اغاني المسرة وترشف قلبك كذرسى الجبال، او تصف
فكك الدامية بمر اشراك السيل... ولجج ورايتك في
ار حوزك مع مره فسد... يا ضك مع مره تحوى تمرة بتمك
تتالم لاوجاع قلبك وآلام نكك. فزينالك يا صاحبي بصفة
قلبك، وهينالك بنكك السابة وشعورك الفياضه وهيا
لك بالأم نغك فانها غير تنوز اللورد...

وان اتم لك سنة من كتابي الصغير «البنال الشعري هذا العرب»
الذي واده لم يكتمه «بصفة قلبه» فانه «فواد قريية» ارادت انه
نمر الناس ورسولهم الى سواء السيل طلم تلت عنهم الكوكب فطرسة
وغناء. فقد التت كتابي ثم نشرته من انسى ودمرته فيه انتمهاجم
حديث من البث والزم والتقدير المفهوم الادب البيرة فادرس ناسا اكنط
أخر ميه واما كتر اغضا ما شينه.. المافي «الاولا فهم من الحياة» اليرحم الومس وانه
الجد الا ذكر بات القديم فلا عود الادب الا اصاء الومس تبعيد...
فتار واد بخيرا ودمر لي بكل سخطا وكليز، فتمبله ته بحم ورسر، سا كره النظر

اليوم أو غداً أو بعد أن يطويني الموت في ظلامه . ويلفني الأبد في شملته . .

إن الأدب العربي في حاجة إلى ثورة أدبية تتجتاح كل ما رث من قديمه وبلي من جذوعه، إلى نهضة «رومانتيكية» تنفخ فيه روحاً جديداً وتبعث فيه لهيب الحياة القوية الثائرة. متخلقة خلقاً جديداً يلائم نفوس الشرقيين الطامحين إلى آمال جديدة وحياة كاملة. وليس للشرق أمل إلا على الشباب المخلص من أبنائه. هذا الشباب الذي يضحي بكل شيء إرضاءً للحقيقة ونصراً للحق والجمال. إن أدبنا لم يتحدث بجمال الوجود، ولم ينبع شعراؤه برحيق هذه الفتنة الساحرة، فنحن في حاجة إلى مَنْ يحدثنا بمثل ذلك. إن أدبنا لم يتحدث عن عواطف الإنسان البعيدة وأحلامه العميقة وأفكاره الغريبة المستترة النائية. ونحن في حاجة إلى من يحدثنا بذلك.

إن أدبنا لا يشعر قارئه أنه دخل إلى عالم كله فن وسحر وجمال. وكله أحلام وأطياف كأنه من جمال الفردوس. أو من أعماق الجحيم ونحن إلى ذلك في حاجة. وإذن فليعمل بهذا إن أراد المجد والخلود، ولذا فإني أدعوك وأدعو نفسي إلى العمل لإيقاظ روح الشرق الجميل من سباتها الطويل.

في تونس اليوم نهضة تجديدية لا بأس بها، ولكنها ما زالت مستضعفة بين أنصار الجمود الكثيرين. وإنها ستنتصر اليوم أو غداً لأن الشيوخ لا حجة لهم غير الأوهام والأباطيل لقد أهديتك كتابي «الخيال الشعري» وسأهديك ديواني «أغاني الحياة» الذي سأشرع في طبعه والسلام عليك وعلى أمثالك من شباب سوريا العاملين.

أبو القاسم الشابي

حاشية: لقد كنت أجل نفساً وأكرم سجية حين وجهت لي قصة قلبك وقد كنت أود لو وجهت لك نسخة من كتابي بمجرد وصول كتابك الجميل. ولكن إلى القدر ذلك فقد ورد الكتاب وأنا متغيب ببعض الجهات التونسية ولم أتصل به إلا قبل اليوم بقليل ولذا أعتذر إليك وسلام عليك. أبو القاسم.

العلم أم لا، أو بعد النظر في الشرع في ظاهره، بل في الأثر في شملته...
 إنه الدين العربي في حاجته إلى تربية أديبة تتباح كل ما رث عنه
 قد يجرب، ويدين به، فهدوه إلى نهضة «دروما نسيكية» تنفع فيه روحها
 هدياً وتبعث فيه لحيات الحياة القوية الشائرة، فمطلقه فلقا حديد
 إليه ثم نفع من الشريعة الطامحة إلى آمال هدية روحية كالمع
 وليس للشريعة أصل إلا في الشباب المخلص من ابتائهم، هذا الشباب الذي
 يصحى بكل شيء، وإرضاء الحقيقة، ونظم الشعر والجمال، ما به أدبنا لم نعد
 بجمال الوجود ولم ينبع شعراؤه برهيمه هذه السنة الساهرة فمعه
 في حاجة إلى عهد جديد شامع ذلك، إنه أدبنا لم يقدش عهداً طاف
 لأنسانه البعيدة، أو حلاص الحقيقة، وأفكاره الغربية المستنيرة للنانية
 ونعمه في حاجة إلى عهد جديد تبارك ذلك.

إنه أدبنا لا يتبعه قارئاً، أنه دخل إلى عالمه كله في وسعه وجمال
 ذلك الخلام والخيال، كما أنه من جمال التردد في أومه أعماقه الجسيم
 ونعمه إلى ذلك في حاجته، ولأنه فليجعل شباب العالم العربي يهتف
 أنه أراد الحياة وليجعل بهذا أنه أراد المجد والخلود، ولذا فإني أريد
 وأدعم نفسي إلى العمل لا يفانئ، وهو في السوء الجميل من سبائنا الطويل
 في نون اليوم نهضة جديدة من لباسه برأه، والنزهة حارة المستنيرة
 بيه انظار الجود الكثير سره، ولنا سننصر اليوم أو غداً للدار الشيعية لآية
 لهم ينزلا وهام والباطل - لقد أهديتك كتابي (الخيال العربي)
 وأهديتك كتابي ديواني «أغاني الحياة» الذي أسس في طبعه

والسلام عليك وعلى أمثالك من شباب سرور العالمين:
 حاشية لقد كنت أهديتك كتابي «أغاني الحياة» الذي أسس في طبعه
 وقد كنت أود لو وهبته لك سنة من كتابي «أغاني الحياة» الذي أسس في طبعه
 ذلك فقد ورد الكتاب وأنا متعجب من بعضه الجهات التوسعية ولم أظن به إلا قبل اليوم
 بتقبل ولذا أعتذر إليك من عدم عليك ١٠ أبو القاسم

تونس في اوت: ١٩٤٢

سيد الاديب الفاضل المحترم

تحيّة رسوماً

ديدي، فقد انقلت بقصة قلبك يا صاحبي، فاذا بها قصة قلبه
وقلب كل بشرى رأى قصة الرأفة ورحم الرجود، فأسرتة تلك
وصعدت به هذه الى صارج الاطعم، واذا قصة الحياة الالهية في
أهل عهد محمد بن محمد، وانظر فضل من فطرت في جزالها... واذا بي
اما شيله بنفسي به سبل الازرع رساله الجبه فأراك واجمعا عابها
رضا حكما مستترا، وفقرآ صامتا، وارك تنفي قلبك اعان في الرة
وترتف قلبك كورس الجوى، او تنف نطق الامة به اسوال السبل...
ورأيتك في ارجو حلة من تجبه وفي رياضه من تهوى تمر في جميله
تألم لاجاع قلبك، وحننا لك بخله الحقة يا صاحبي
... قصة قلبك، وحننا لك بنفرك الامة وشعورك البياض، وحننا
لك بالام نفعه فأفقا خير كوز اللود.

وان اقدم لك قصة من كتابي الضمير «الجاني الشري عند الرب» الذي انه
لم يلبه به قصة قلبه، فانه مدحها ورتبة «ارادة انه محرر الناس
وتدعوهم الى سواه السبل». فلم تالف منهم الا كل غطرسة وعناد. فقد الف
كتابي ثم نشره على الناس وكرن فيه الى كجاج جديره من الجب والنهم

والتقدير لصنوع الادب العيس، قاضي ناساً واخط آخريه، طاب الله
اعضاباً طينة ورائحة، التي لا تفهم من الحياة الا رسم الذم، ولانه
المجد الا ذكر بان القديم ولاصه الادب الا اصداء الامم البعيدة،
فأراد وحنياً ورسوق بطن كخط ويكر، فتجلت طعم وجره،
وساكون المنظر اليوم رغماً او بمراده بطونى المود، في زلاله، والفتى
الذبح في سملته...

الادب البريق في حاجة الى ثورة ابدية تحتاج نوراً وحرارة
ديلي من جزوى، الى كل صفة، ما تشبه، تنفتح فيه روحاً حديداً
وتفت فيه لحب الحياة القوية الثائرة، فتخلق خلقاً حديداً يلامح
نفوس الشريحة الطامحة الى آمل حديدي وحياء لامة، ليس للثورة
الذ على الشباب الموهوب من ابناءه، لهذا الشباب الذي يذبح بغير
ارضاة للفتنة وذهاب للحمه والجمال، انه اربنا لم يتركنا تحت
الرجوع، ولم يبع شراؤه برحمة هذه الفتنة العسيرة، فحينما
الامه بحدنا، نحل ذلك، ان اربنا لم يتركنا عن عواطفنا الازاء
البيعه واحلامه المبتعة وانفاسه الفريفة المسترة النابذة،
ونحن في حاجة الامة بحدنا بذلك.

انه اربنا لا يتركنا فيه انه دخل الى عالم قلبه فهدى
وجوهه، وكله اهدى واطيان فانه من حبلى الفروس، اومه
اعماه الجهم ونحه الى ذلك في حاجة، وازنه فليل

بهذا انه اراد الجرد والخود ، ولذا فان ادخله وادخله على المعنى
لا يطاق . روح الشرح الجيد مد بها الطول :

في نون البرم هفتة تجديده لا بأس بها . ولا ما انت
ستضعت به الاشارة الجرد كثيرة . وانها ستفقد انهم اولها
لانه السيف لا حجة لهم غير الارواح والاباطين . قد اهدته
كتابك . اشارة الشرح . وسأذكر في كتابك الامة . اذ
سأشرح في طبع رحمة وادبك . ومع انك قد
ادريه

شانه : لقد كنت اجد لغزاً واكرم كجته
وحبها في رفة قلبك وقد كنت ارد لو رجعت
لستة صدقاني مجرد وكون كتابك الجيد . والله اعلم
ذلك فقد ورد الكتاب . وانا متيقن بوجه المهران الكون
ولم اقدر به الا قبل البرم بقليل ولذا وقد اريدك ولهم

ادبكم

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

صديقي العزيز!

الشاعر العبقرى والكاتب النابغة سيدي محمد بوشريية .
لقد كنت أكتب كلما قرأت كتاباً لك إذ أحس بتلك الجذوة النارية
التي تلتهب في أعماقك؛ عندما تمسك القلم لترسم لنا ظل أحزانك
ورفرقة الآمك حول نفسك، ساكباً على القرطاس دموعك مداداً، معلناً
لنا خفايا قلبك، وأمياالك، مسطراً بقلمك المشتعل لوعتك الثائرة
وعواطفك المهتاجة .

لقد كنت أحزن حتى أسمع لأحزاني نحياً، ولأوجاعي وجياً،
ولكنني كنت أعزى برفيق قد أبقته معي صروف الأيام متعللاً به وهو
حضرة الصديق سيدي محمود الباجي .

أما الآن - وقد ترحل عنا إلى القيروان - فلتأسي أيتها النفس
ولتحنني، ولتنتحب أيها القلب التعيس بكل ما فيك من حياة وبكل ما
في الحياة من شجو وأسى .

أما الآن فإن ذكريات الأيام الجميلة التي قد طواها الزمن تتوارد
إلى نفسي كأسراب الطيور، تالية على مسامع القلب ندبات الأسى
والألم، مرددة رنات النحيب والنواح، صارخة بأهوال الغد الأتم، مهيبة
بي :

«لقد غررتك الحياة زمناً أيتها النفس الشقية! وأسمعتك من أفراحها

نغمًا خلّابًا فتتلك أصدائه، فأصبحت مغتبطة بابتسام الأيام.. لقد كان ذلك بالأمس، وقد تلاشى الأمس بما فيه في بيداء الأبد، كما تضمحل أغنية الشاعر في صمت الظلام.

أما اليوم فلتهبطي من قمة الحلم الجميل إلى هاوية القنوط، ولترجعي إلى أغوار الأسى حيث الوحشة والانفراد تترنمان بصوتهما الرائع الأبدي لتنسحقي في هوة الألم.

فما أنتِ من أبناء الحياة المتغنية، إن أنتِ إلا من أبناء الحياة المنتحبة.

وما أنتِ خليفة بأفراح الليالي وغبطة الأيام، إنما أنتِ صدى بعيد على مسمع اليوم أحزان الأمس البعيد.

لا تشفق علي أيها الصديق! ولا تأبه لأنثاتي وأحزاني، فما أنا إلا دمة مظلمة سكبها محاجر الظلام، فلما أبصرت جمال الحياة في أشعة الفجر، وتألقت تحت شفق الحياة استرجعتها أجفان الدجى ففرت في أعماق الظلام لا ترحم.

أيها الصديق! فتى يكتب لك (بدماء قلبه) فما هو إلا فتى قد نفته تعاسة الحياة عن فردوس الأفراح، ثم تركته حيناً يمرح في حقولها الساحرة، فلما امتلأت نفسه بروعتها، وطفحت كأسه برحيق أزهارها وعبير أنوارها أبعده عنها فرجع إلى مهده الأول حيث الكآبة المريرة والوحدة الأليمة.

ولا تسكب دمة على طائر ألف جذب الحقول، فلما اكتحلت أجفانه بمرأى الرياض الضاحكة جرفته العاصفة إلى حيث الصخور الواجمة والكهوف المظلمة، الصماء التي لا تسمع أصوات قلبه ولا ترحم نوحه وانتحابه.

ولا تكتب من أجلي أيها الصديق! فما قلبي إلا زهرة زاوية بذرتها
العواصف في ظلمة الأعماق، حيث لا تسمع إلا نذب الأسي، ولا تبصر
إلا الغصون الكثيرة العارية، فلما أبصرت جمال الشمس، وأصغت إلى
نغمة البلبل الصداح قصفت عودها اليد الجائرة فتهاوت إلى قلب الحلح
وفي صدرها حشجة الموت.

وأخيراً فأنعمًا أيها الصديقان! - محمد ومحمود - بأيام أعذب من
حلم العذارى، وأجمل من أشعة الشفق، ودعًا الحزن والانفراد لقلب
ألف الأسي منذ الفطام . . .

تقاسما كؤوس الحياة حلوها وقراحها، ودعًا في قرارة الكأس تلك
النظفة المرة لقلب يتغنى بوحشته وانفراده، ويترنم بصوت نفسه الحزين،
القائل:

. . . ولكم سكبت مدامعي، حتى تقَرَّحت الجفون

ثم التفتُّ، فلم أجد قلباً يقاسمني الشجون

نعم! لقد تغنيت بوحدي وانفرادي في ليالي الألم التي قد طواها
الزمن بيمينه ثم أعادها إلى الحياة، وها هي تحديق بي من خلال الظلام،
كأنما هي أرواح معذبة هائمة في مسارح الجحيم.

لست أرجو منكما أن تكتبنا لأجلي، إنما أرجو أن تذكراني عندما
تطفح في أيمانكما أقداح المسرة، كما أمل الخيام من حبيته أن تهرق
على ثرى قبره من خمرها حتى تخضلّ جوانب القبر، بل حتى ترتوي في
أعماقه أوصاله.

ولكما أشجى تحية يصعدها قلب قريح، لا تسألا له الشفاء بل
خلياه وكلومه الدامية، فما علمته إلا أوصاب الحياة، وأقصى شوق تكنه
نفس شجية، كما ذلك في.

إلى حضرات الأدباء الكتاب النبغاء والشعراء المبدعين السادة:
الشيخ صالح سويسي - والشيخ محمد الحليوي - والشيخ محمد الفائز -
والسلام.

من حافظ الود:
بلقاسم بن محمد بن بلقاسم الشابي
[؟]

(ملاحظة):

أرجو منكم أن تحتفظوا بهذا الكتاب إلى أن نلتقي، حيث إنه لا
نظير لي منه، والسلام.

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم
في 17 ربيع الأول سنة 1346 = 1927/9/20

صديقي الحميم! وصفيني العزيز!

وصلني كتابك، وقد ألفت السماء على قلبي أحزان الليالي
والأيام، ونثرت على نفسي كل ما في راحة الزمن من قتام الأسى، وما
في صدره منغصات الألم، فخيّم على نفسي ظل الحياة الكثيب. وكما
تحتجب وراء ظلال المساء الواجمة أزهار المروج توارت وراء غيوم
الكآبة كل ما تألّق في أعماقي من عواطف وأفكار، حتى تبكّم علي
الكلم، وانتبذت اليراع والقرطاس، وأخذت أطياف السّامة والملل ترفرف
حول قلبي كما ترفرف أجنحة اللهب حول الأرواح التائهة في بيداء
الجحيم، وطفقت المرارة تتدفق إلى أعماقي مثيرة حول نفسي تنهدات
الحسرة، وأصداء الأسى.

أما والله أيها الصديق! لولا كتابك لما استطعت أن أمسك القلم
وأخط الحروف، وما ذلك لعلّة في جسدي، ولكن لعلّة في روحي
جهلت مآتها، ولم أدرك لها كنهاً. هي علة غريبة تسربت إلى نفسي
بسكون كما تسرب الظلمة في صدر الوجود حبيت إليّ السكوت،
وكرهت إليّ الكلام، وعذبتني بلا رحمة... بالضجر من كل شيء، فلا
مرأى يبهج نفسي، ولا صوت يشفي قلبي من وهدة الملل والخمول.
فإذا ما تناولت كتاباً ألفيته واجماً عابساً، وإذا ما حدقت بالكون تراءت
إليّ وجوه الأيام المغمورة بالدماء والدموع... وملامح الليالي التي قد
برقعتها الأحزان وأخرستها الغصص، ثم تمّلس من أمامي غير تاركة

سوى الحزن في قلبي والظلام في بصري .

لقد رنقت عليّ هذه العلة منبع الفكر، وجدول الأحلام، ولست أدري إلّا أنّي تنتهي بي؟ . . . إن طالت صحبتها لي ومضاضتي بها .

لقد أتاني كتابك فألفيتك تشكو فيه ألماً حلّ بك ظلّه، ولعجبتك لواعجه . فسألت لك الله الشفاء، ورجوت لك الإبلال السريع من ألم أقضّ عليك المضجع، وأحرمك الغبطة والارتياح .

ولكنني رأيتك بعد ذلك قد انتهجت منحى من مناحي التفكير قد أرى نفسي صادقة عنه غير مطمئنة إليه، وارتأيت بعض آراء حذيتني بها ربما خالفتك فيها . من ذلك أنك ذهبت إلى تخطئة المتنبّي في قوله :

أتى الزمان نبوة في شبيته فسرهم وأتيناها على هرم

ذاهباً في ذلك إلى أن الزمان لم يسرّ بنيه في فجر حياته ورينق شبابه، ويحزنهم في شيخوخته وهرمه، لما خمدت في قلبه نار الشباب، وأوشكت أن تذبل فيه أزهار الحياة - كما يدعي أبو الطيب - بل إن أحزانه لأبنائه، وقسوته عليهم سنة قد خطها على نفسه منذ الأزل . ولم يزل يعامل بها أبناءه من عهود قصية متغلغلة في القدم، بل إنه قد عاملهم بها منذ بدء الحياة، وسيعاملهم بها إلى أن تنطفئ نار الحياة في صدر الوجود، وتضم أصداء الكائنات الهاتفة بأغانيتها وأناتها . وليست تلك السنة الرائعة بمنتية إلا بانتهاء الحياة عندما تتشعث ظفائر النور وغدائر الظلام، وتغبر وجوه الليالي وملامح الأيام، وليست بمتحولة أو متحوّرة إلى نظم أو نواميس أخرى أكثر غبطة وأوفر سعادة إلا بانتهاء الدهور .

أنت ترتني هذا، وأنا لا أنازعك فيما تقرره من أنها سنة وُلدت مع الدهور ولا تُلحد إلا معها، وأنا أنازعك في تخطتكت لأبي الطيب وانتقادك عليه في بيته هذا، وذلك لأنه لم يحد بك للانتقاد على أبي

الطيب إلا زعمك أنه قد قال ما قال على أنه حقيقة فلسفية يدين بها ويتخذها شرعة لآرائه وقبلة لأفكاره؛ أما أنا فأرى أن المتنبي قد قال بيته على أنه نزعة شعرية، وخاطرة خيالية، لأن الشاعر كثيراً ما يشقى بشعوره، ويتألم بذلك الوتر الحساس الذي وضعته في قلبه الحياة.. ذلك الوتر الذي يسمع الشاعر وهو في مقصف الحياة وملعبها... أغاني المأساة... ورناء الفاجعة... ذلك الوتر الصّاح الذي يصرف مسامح الشاعر عن رنات الأفراح وأنغامها إلى نحيب الأسي ونواحه، لقد عذبتة الحياة بإحساسه، ولكنها أبت أن تقضي عليه لأول طعنة.

بل شاءت أن تستنزف دماء قلبه على مهل لتخضب بها شفيتها... وأن تستمطر صرخات نفسه بهدوء لتتخذ منها الأغاني والأنغام... أرادت أن لا تعذبه بقساوة مؤلمة... فجعلت له إزاء هذا العالم الضنك الذي يؤلمه ولا يتسع لأحلامه وأمانيه عالماً آخر بديعاً جميلاً، يتسع لما ضاقت به مسالك الوجود، وينفّس لما حُرّفت عنه مناهج العالم... عالماً شعرياً سعيداً مطمئناً... هو عالم الخيال الرحيب. ولعمري إنه لولا عالم الخيال لما استطاع أن يحيا الشاعر الحساس بين ظهرائي الحياة، بل لسدت في وجهه سبل الأمانى ولصعقته لأول مرة صواعق اليأس والقنوط. وهل يستطيع الشاعر الحساس أن يحيا حياة ملؤها الآلام والغصات في عالم يعب عباب فتنه، فيطغى به تيار الدماء والدموع، جارفاً إلى الهاوية أشلاء الجثث وآمال المستضعفين.

هل يستطيع الشاعر أن يحيا مثل هذه الحياة دون أن يلفي من الخيال منفرجاً، وهو الذي لم يعش العيشة الراضية مع ما له من فسحة الخيال ونور الأمل؟

لولا الخيال ولولا الأمل، وما الأمل إلا ابتسامة الخيال، لما استمع الكون لوعي العبقريّة الشاعرة... بل لما استطاعت العبقريّة أن

تنمو في وادي الحياة الوبيل... وما المتنبي إلا شاعر عبقرى حساس، تلفت نحو الوجود فلم يجد مما حدثته به أحلامه وتغنت به أمانيه إلا الحسرة والقنوط، فطفق ينحت من تلال الدهور الغابرة والأزمنة المنصرمة رسوماً بديعة وتمائيل فاتنة، تتجلى بها كل مظاهر العصر الشعري... بما فيه من غبطة وجمال، متعللاً عن خيبته وانكساره بأن الحياة قد تذوقت فيما سلف لها طعم اللذة والسعادة، معتذراً أمام نفسه عن فظاظة الزمن وقطوبه بأننا قد «أتيناه على هرم».

نظر المتنبي في الحياة، وفكر، فلم يلف إلا دهرًا عنيدياً عسوفاً قد اتخذ من «أفاضل الناس أغراضاً» لسهام غيظه وحرده؛ فمنهم من لم ينفك متبرماً به متألماً بمآتيه، ومنهم من قد ألف ما تلده أوابده وتحضنه لياليه، قد أفرغ عليه الدهر كل ما في جعبته من نبال حتى لم تعد تجد لجنييه من مساغ بل كلما توالى عليه النبال «تكسرت النصال على النصال». ثم نظر، فلم يجد إلا جيلاً كافراً جاحداً، لا يعبد البطولة، ولا يمجّد العظمة. بل إنه «شر الحر من سقم على بدن». فلما لم يجد بين أصوات الحقيقة تلك النعمة التي طالما ظل ينشدها بين أصدقاء الزمن، اتخذ من الخيال قيثاره هاتفة بأغانيه الضائعة، يتسلى بها في آناء القنوط، شادياً بقوله:

أتى الزمان بنوه في شبيته فسرهم، وأتيناه على هرم

ولم ينفرد المتنبي وحده باتخاذ من الخيال مسلكاً لا حياً بيناً في عسفة الحقيقة، ونهجاً معبداً بين هواة الحياة، بل ذلك سنة كثير من الشعراء الملهمين. ولا أكون مبالغاً إن قلت: إنها سنة كل شاعر تفتحت مغالقه نفسه لفلسفة الوجود، فاتخذ منها قبلة يستقصي أسرارها ويتحسس أغانيها.

ولئن أردنا أن نبحت عن هذه الحقيقة في شعر شاعر، فشعر شاعر

البشر أحق وأجدر، فهو الشاعر الذي تفتحت براعم نفسه لأضواء الحياة وظلماتها، وأصغت مسامع قلبه لأغاني الوجود ونواحه، وهو شاعر الحياة الكئيب الذي لا تكاد تقرأ له قطعة إلا وتلفي عليها مسحة من القطوب وجدوة من الألم، ولقد تشبعت نفسه بأرزائها وقطوبها، وتحطم قلبه بين أحزانها وأوجاعها، فكان له من الانكسار أجنحة تغلقت به في صميم الوجود، وحلقت به على قنن الحياة، فأبصر ما هناك من لوعة وألم، واستمع لما تهتف به من نذب ونحيب. ولما امتلأت نفسه بأغانيها ومشاهدها، أخذ يتلو على البشرية الصادية أصوات الحياة، ساكباً في أغاريد الشعر صوت الحقيقة الرهيب.

فكر المعري في الحياة باحثاً بين مظاهرها وأطوائها عن نبع المسرة الخالدة، متوجساً أصداء أفراسها وأهازيج أمانيتها، ولكنه كلما تغلغل في أعماقها القاتمة إلا وامتلات مسامعه بأصداء النياحة والألم. فيخرج من بين أغوارها يائساً قانطاً صارخاً بكل ما في القنوط من قوة.

وكل يؤمل صفو الحياة وذلك في فلك لم يدر

وكلما فتش عن «الخير» والفضيلة... بين أفئدة البشر وفي تعاريج الدهور، ومنعطفات الأزمنة، إلا وولى خائباً يائساً هاتفاً:

من ادعى الخير من قوم فهم كذب لا خير في هذه الدنيا ولا خير
مردداً هاته الصرخة الأليمة... صرخة اليأس والانكسار...
صرخة الشاعر الذي آلمته رذائل أبناء الحياة... صيحة الفيلسوف الذي
أعياه طلاب الفضيلة بين عواطف البشر وساءه أنها منبوذة مجتواة...
وأن الرذيلة معبودة مقدسة تجنثو على قدميها أمانيتهم وأحلامهم...
صيحة مؤلمة أرسلها الشاعر مخضلة بأحزانه وأوجاعه حتى أنك لتشعر
وأنت تقرأ قوله:

«لا خير في هذه الدنيا ولا خير».

بالمرارة التي امتلكت نفس الشاعر واستولت على مشاعره، ولكنك مع ذلك تجده يقول في غير هاته القطعة: لقد كانت الفضيلة معانقة أميال البشر ولكنها قد أهدتها الصروف.

سألنا المعاشر عن خيرهم؟ فقالوا بغير اكتراث: قبرا!
فقلنا: وكيف أتاه الحمام؟ عاجله بغتة أم صبر؟
فقالوا: تمادى به وقته وأدركه الموت لما كبر
وغادر في أهله ثروة ومالاً أذيع ونخلاً أبر

وقد يحكم المتعجل في حكمه على المعري بأنه مضطرب العقيدة في هاته النقطة الفلسفية غير مُرس على قرار مكين، ولكن إذا التزم المرء سبيل الأناة، وأشبع شعر المعري درساً، وجد أن الفكرة السائدة على شعره إنما هي فساد الغرائز منذ الأزل وهو يصرح بها في كثير من شعره زاعماً أن تهذيب الغرائز، وتقويم الطباع ليس إلا عبث وهراء لأن عنصر البشر إنما هو الحمأ المسنون... وإذ ذاك يعتقد الشخص أن المعري إنما انتهج في قطعته هذه نهج الخيال فحسب وليست في الحقيقة مناقضة لفكرته في نفسية الإنسانية بحال من الأحوال.

ولقد حدثتني عن السعادة يا صاحبي وأبدت لي فيها رأيك، وأنا أيضاً أريد أن أبدي لك فيها رأيي. وإن كنت أعتقد أنه سيكون غريباً لديك:

السعادة أمل شعري، لم يزل يختلج في صدر الإنسانية ويتمايل بين عواطف البشر...

هي حُلِيم جميل، فتان، قد اختلب مشاعر الحياة منذ البدء ولكنه لم يزل مقنعاً بالسديم، محجباً وراء أعماقها. وقد تغنت به الحياة ولم تزل تهتف به في أفراحها وأحزانها، وتردده على مسامع الليالي والأيام

في أعراسها ومآتمها، مشببة به أو رائية له، ولكنها لم تفقه معناه ولم تدرك كنهه.

هي طيف ساحر غريب مكلل باللذة مجنح بالأفراح، لا ينفك منتصباً بين حلم الحياة ويقظتها متألقاً ككوكب المساء. ولكنه لا زال ملتبساً غامضاً مكتنفاً بالضباب... وهي لا زالت تشبب به ولا تفهمه، وترنم بأغانيه ولا تفقهها، كما ترنم أصداء الكهوف بالنغمة الساحرة دون أن تخفق لها عاطفة.

وليست السعادة عندي إلا كلمة شعرية قد رسم بها شاعر من الشعراء... - ولا أعني به من أوتي المقدرة على النظم وإنما أعني به الشاعر المطلق... - ميلاً من ميوله النفسية التي قد تمايلت بين مشاعره، وتغلغلت في صميم أعماقه فضلت في كنهها الألباب إذ خالها الناس حقيقة خالدة لها حيز في صدر الزمن ورسم في فؤاد الدهور...

ليست السعادة عندي إلا كلمة شائعة يصح لكل أن يتخذها رمزاً لكل ما تخفق له مشاعره وتهتز له جوانحه من أمانيه وأحلامه، وليس لأحد أن يبتزها دون سواه أو يستبديها دون غيره زاعماً تخطئة غيره إن استعملها في غير ما استعملها هو له. ونظرة واحدة في بعض ما عرّفها به الفلاسفة والمفكرون، تكون كافية لإقناعنا بصحة هذه الدعوى، وأن السعادة التي اتخذها الكل رمزاً لأقدس ما تهفو إليه نفسه وأنبل ما تشاقه أمانيه؛ فقد عرّفها أحد فلاسفة اليونان الأقدمين بأن «السعادة في العمل والفضيلة، وبهما يحرز المرء على مباركة «المشتري» ومرضاته، وبهما يتقي شر الأكاذيب والمظالم».

وقال بوذا: «السعادة السلام». وقال شوبنهر: «السعادة أمانى الفوز قبل معركة الحياة، والوزير الأمين عند حلول النوائب». وقال روسو: «السعادة التخلص من مظالم الملوك والردائل». وقال الرافعي: «السعادة

طفولة القلب». وإنني أعتقد أنك ستبتسم على الأقل، إن قلت لك: إن «رتشرد» قد قال: «إن السعادة دخل خمسة آلاف ليرة في السنة»، ولكن حذار أن تسخر به أو تتعجل في تخطته، فالسعادة قد اتخذها الكل واسطة للتعبير عن أحب ما يأمله، والأمل يختلف باختلاف النزعة الروحية والمادية.

أجل يا صديقي! إن مذهبي في السعادة هو أن لا أخطيء هذا ولا ذلك فيما يفهم منها، وكل ما أفعل - إن أردت الفعل - هو أن أقول: إن هذا التعريف ألصق بقلبي وأندى على كبدي فحسب. ولو سألتني: أي هاته الأفهام أحب إليك؟

لقلت لك: إن الشاعر يفضل قول الرافي، والمفكر يؤثر كلمة بوذا.

السعادة كلمة شعرية شائعة كالأثير، متسعة كالحياء، ومن العبث محاولة قصرها على معنى دون آخر، وما مثلها عندي إلا «عروسة الشعر التي تشبَّ بها الشعر وتغنى بها الشعراء... وما هي في الحقيقة إلا الجمال الشعري المنسق على ظواهر الكون وخوافيه.. ذلك الجمال الإلهي البديع... ذلك الجمال الحزين المكتئب، أو المغتبط الضحوك... ذلك الجمال العبقرى الذي يلمحه الشاعر دون سواه في كل شيء في لجة الشغف الساجية... وفي ظلمة الليل الداجية... وفي غيوم المساء المخضبة بأموج الشفق... وفي قرع الربيع المخضلة بأنداء الأفق، مرفرفة في عرش السماء كسرب من الحمام البيض... وفي الزهرة اليانعة والوردة الذابلة...، وفي طلاقة المرج، وكآبة الوادي... وفي كل ما تعلنه الحياة ويضمرة الموت... وفي كل ما ينشره النور ويطويه الظلام.

ليست عروسة الشعر إلا الحياة التي تكمن في أعماقها الموسيقى

الأزلية التي يسمعها الشاعر من وراء الوجود . . .

ليست عروسة الشعر إلا الكائنات المتغنية بتلك الأغاني الإلهية التي لا تسمعها الإنسانية إلا من أفئدة قد طهرت مرآشفها ألسنة اللهب، وأذوت شفاهها النار المقدسة . . . نار المحبة والألم.

وكما أن «عروسة الشعر» قد تختلف مظاهرها وإن اتحد معناها، كذلك السعادة تختلف بحسب اختلاف الآمال والأحلام، ولكنها في الحقيقة هي هي السعادة، وهي هي الأمل القوي المترنم بين عواطف الحياة.

فكما أن «عروسة الشعر» قد يبصرها شاعر بين زنابق الحقول كنفحة إلهية تبعث الأمل والحياة، قد يرمقها آخر بين أمواج الجدول الرقراق . . . كالنغمة السماوية التي تصعد بالنفس إلى مشارب الخلود . . .

وكما أنك قد تجد شاعراً يتحسس أغانيها في الأنشودة الخالدة التي ترددها الأمواج على ضفة اللجة الركود، كذلك قد تلفي آخر يتوجس ألحانها الشجية بين غيوم المساء حيث «عروسة الشعر» في عرش الشفق تعبت بقياراتها الذهبية فتطير من حولها الأغاني والأنغام . . .

كذلك قد تجد مفكراً يفهم من السعادة أنها «السلام» وتلفي شاعراً يفهم من أنها «طفولة القلب».

ولقد شئت أيها الصديق أن تنتقد بعد ذلك على الطغرائي في قوله:
«ما أضيّق العيش لولا فسحة الأمل».

معللاً ذلك بأن: «ضيقة العيش واشتداد أزمة لا تتأتى من خيبة الآمال، واندحاز الأماني، ولا من الجد العائر والحظ الوسن كما يقول غيره، بل تتجمع جراثيماً (كذا) من التوق إلى تحقيق ما في الواهمة، والتعلق بأذيال الممتنع . . .».

وكانك أدركت ما في عملك هذا من الجرأة الغريبة والإقدام العجيب إذ تعمد إلى حقيقة قد نزعت إلى صحتها أدمغة كثير من المفكرين محاولاً هدمها من قواعدها وتركها أنقاضاً مبعثرة بعد أن كانت عملاً فنياً باهراً.

كانك استشعرت ذلك فمهدت لانتقاد قولك: الآن وقد وصلت بك إلى الغاية، وانتهى المسير بنا إلى السفح، فلأصعد بك إلى القمة فأقول: دعني يا صديقي، قبل أن أناقشك في انتقادك، أحمد لك هاته الجرأة التي أمجدها، إذ قد دفعت بك لأن تنتقد دونما وجل على ما تعلم أنه مما تضافرت على صحة العقول.

نعم! يا صديقي! إنني أحمد لك تلك الجرأة وذلك الإقدام، وأمجد فيك تلك البطولة الأدبية التي قد تقلصت روحها من أفئدة أدبائنا الكثيرين، وحلّ محلها الجبن والهلع من انتقاد يصادم آراءهم أو اعتراض يقارع مبادئهم.

وتلك هي العلة المزمنة التي سدت على الشرق وجوه الحياة . . . تلك هي الجاثوم الهائل الذي جعل الشرقي يبصر من الأفكار البائدة والبدع الواهنة ما لو صدمته أو هن صدمة لهوى للحضيض دون أن يرفع يداً ضدها أو يعلم فكرة تخالفها، وهو ما قضى على الكثير من المواهب، وألحد في قبر العدم كثيراً من الأفكار التي لو لامست أنامل الشرق بما بها من نار ولهب لايقظت في قلبه صوت الأمل، ولاستثارت في صدره أنفاس الحياة.

والآن وقد اطرد القلم في هاته الحلبة، وكاد أن يأخذ من القرطاس الكثير، أعلن العود على البدء، وهو مناقشتك في انتقادك على الطفرائي فأقول: قد بدأت انتقادك على الطفرائي بقولك: «ضيقة العيش واشتداد أزمة لا تتأتى من خيبة الآمال واندحار الأمانى».

ولا أرى الطغرائي قد قال شيئاً مما نقضته عليه وغاية ما أفهم من بيته هو: «الله كم تشتد ضيقة العيش لو انعدمت الآمال التي تصاحبه». ولعمري إنها حقيقة خالدة لا قبل لمنتقد بإسقاطها.

نعم أقول: إنها حقيقة خالدة لا لأن قائلها من جابرة المفكرين أو من أبطال الشعراء، بل لأنها صوت من أصوات الحياة، ولا يهمني بعد ذلك إن كان قائلها شاعراً عظيماً أم لا. وإنني أعتقد أن الحياة لو تكلمت في هاته النقطة بالكلام الذي نفهمه لما قالت غير:

«ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!»

وهل يمكن أن ينفس العيش أمام من سد عليه القنوط أبواب الأمل؟

لتعتمد إلى أسعد الناس حياة وأرضاهم عيشاً، وجرده من كل أحلامه وآماله ثم انظر ماذا تجد بعد ذلك؟

لا شك أنك واجده إما مجنوناً، أو ميتاً، بل لا يمكن أن تجده إلا ميتاً، إذ حتى المجنون لا بد أن تجد له مارباً في حياته يدأب لتحقيقه ويجدّ لنيله، ولا يمكن أن يتجرد من كل أمانيه، ثم يستطيع أن يلبث بين ظهرائي الحياة.

أو ليس حتى المجنون يهتبل الفرص لكي يمكنه أن يتجرد من ثيابه ويبرز عارياً للناس؟...

لا تبسم يا صديقي! فما ذلك إلا أمل، وما هو إلا مارب.

ثم إنك بعد ذلك قد أثرت غارة شعواء على من تسميهم أرياب الشخصيات العنيفة منكرأ عليهم سعة آمالهم وانفساح أمانيتهم، وما هم في الحقيقة يا صاحبي إلا اللهب المقدس الذي يبعثه الله ليكتهم الحطام السحيق، ويستبقي ما ترنضيه الألوهية.

أنت تسخط على أولئك الناقلين الساخطين، أما أنا فأمجدهم بل أحسبهم هم الفانوس السماوي بين ظلمات الحياة لأن «القائمين يجلسون ساكتين في أماكنهم، وأما الساخطون الناقلون فهم الذين يجني منهم العالم كل خير». فلولا محمد صلى الله عليه وسلم وهو ذلك الناقل على أباطيل الجاهلية وضلالاتهم، والذي يضم من الآمال ما هو «أجل من الدهر».

هل كانت البشرية تعرف الإسلام؟ وهل كانت الثورة الفرنسية تقف على أبواب الحياة لولا روسو وهو ذلك الرجل الساخط على نواميس البشرية حتى أدى به سخطه الملتهب إلى أن يدعو الناس لأحضان الطبيعة حيث الجمال والسلام...

بل هل كانت الحياة تجتاز دور السذاجة الأولى لو لم يتح لها الله إلا أولئك القائمين الراضين؟

أنا لا أنكر أن فلسفة السخط قد تنتج المضرة كما أنها تنتج المنفعة، ولكنني أقول: إن ضرر الفئة الساخطة أقل بقليل من منافعها إن وازنا بينهما. أما الفئة الراضية القانعة فماذا أفادت المجتمع وماذا أجدت الحياة؟ لا شيء! اللهم إلا التخاذل والخمول.

إن الفئة الساخطة وإن أضرت قليلاً فقد أفادت كثيراً، إذ أنها منبع الإبداع والتجديد، وهي القوة الهائلة التي تسير بالحياة الإنسانية إلى الأمام... إلى القمة السامية دون خوف أو وجل... أما الفئة القانعة، فهي التي تتلو على مسامع الحياة أغاني النوم، وهي التي تغمض أجفانها في بدء السبيل.

لقد حدثني يا صديقي في كتابك الممتع عن أمور كثيرة، ولكن ما شأن الأخ محمود؟ ذلك البلبل الصداح، ترى ما له أسمعنا أغرودة من أغاريد المبهجة ثم سكت؟ أقد شغلته بلابل القيروان عن ذلك الغراب

المنتحب الذي قد نفته أحداث الزمن إلى حيث يسكب دموعه وأناته على أقدام الصخور القاسية؟ أم قد أسكته التفتيش عن «وظيفته في الحياة»؟ لست أدري أي العاطفتين أحرسته. وعسى أن لا يكون شأنه معنا كشأن حافظ إبراهيم إذ قال المنفلوطي: «بلبل غرد على البؤساء وسكت».

وبعدُ فقد أزمعت الرحلة نحوكم عندما جاءني كتابكم مرتين الأولى قبل المولد بأيام ثلاثة، ولكن عاقني عنها أن الرفيقين اللذين أزمعت معهما السفر قد عرض لهما عارض في ذلك اليوم أوجب عليهما السفر للحاضرة في اليوم نفسه... وما أمكنهما الإياب إلا على الساعة العاشرة من اليوم الذي يعقبه المولد، وما فتّ كل هذا التأخير في عضدنا، بل إنه كان داعية للجدد في البحث عن سيارة تكون «السبب الكافي» لذهابنا وإيابنا، ولكن شاء ربك أن تذهب مساعينا أدراج الرياح فلم نلف سيارة على كثرتها بهذا البلد. هذا ما فعلته أنا لحرمة ذلك القسم عندي الذي أقسمتموه، وهو بحرمة الأدب، أما أنتم فلا أعلم ماذا قد فعلتم بحرمة الوعود الوثيقة العرى...

هذا تأنيب، ولكن يشهد الله أن مصدره ليس إلا الأخوة الخالصة الصراح... وعلى كل فإنني أقول كما قد قلت: «لا تثريب عليك، يغفر لك الأدب والفضل».

وسيصلكم صحبة هذا الكتاب «مقررات المجتمع الأدبي» لكي تسلمها إلى حضرة الأخ سيدي محمود الباجي وما حدا بي لتأخير بعثها له لحدّ الآن إلا أبالسة النسيان وسعاليه...! قاتل الله سائرهم «ويرحم الله عبداً قال: أمينا!!».

هذا، وتعلموا يا حضرة الصديق أنني سأمتطي قطار الحاضرة يوم الاثنين الآتي إن شاء الله لكي توجهوا إليّ رسائلكم إلى المدرسة اليوسفية إن علمتم أن وصولها يقع بعد يوم الاثنين.

ولا يفوتني التأكيد عليكم في أن تشعروني في كتبكم الآتية بما قرّ
عليه قرار حضرة الصديق سيدي محمود الباجي في شأن قدومه للحاضرة
وهل هو القدوم أم غيره؟ - لا قدر الله - لأنني أخال أنه في صراع مستمر
مع أهله وذويه في هذا الشأن بالخصوص.

وأخيراً بلغوا عني أعطر التحيات وألصقها بمكامن العواطف إلى
حضرات السادة: محمود الباجي - وصالح السويسي - والفائز -
والحليوي - وعمر العجرة وسائر أدباء القيروان ونبغائها وإلى حضرة
الأبوين الكريمين.

ودمت كما رمت للأدب وللوطن ولصديقكم المخلص:

بلقاسم بن عمر بن بلقاسم الشابي

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

«أرجو أن تحتفظ بهاته الرسالة - إلى الملتقى القريب»

في 24 صفر سنة 1346 = 1927/8/23

صديقيّ⁽¹⁾ العزيزين! أو رفيقيّ في بأساء الحياة وسرّائها!

تحية وسلاماً يرسمان أمامكما ما بقلبي من عواطف الود وخواطر
الولاء.

وبعد، فقد ألقى إلي البريد رسالتيكما فقرأتها وكأنما قرأت
سطين في كتاب الحياة أو كلمتين في سفر الوجود، ناطقتين بما في
خوالج الزمن من مشاعر وآراء؛ قرأتها فرأيت في الأولى جحيماً صارخاً
يقذف بالنار والحمم على حياة غاصة بالمآتم والأحزان، ورأيت في
الثانية جدولاً متراكضاً في مروج الأحلام قد تعانقت على ضفتيه الزهور
وغردت على حافتيه البلابل، ولكن أمواجه لم تزل قاتمة قد أخرستها
الظلمة وأبكاها الألم.

قرأتها، فسمعت في الأولى صوتاً من أصوات الجبابرة قد جنحته
الدموع وغلفته الأحزان، فكان قوياً كالعاصفة، رهيباً كالظلام، متبرماً
بكل ما في الحياة، متفجراً بكل ما في الوجود، وماذا في الوجود إن لم
تك اللوعة والألم؟

(1) هما الشاعران محمد بوشريه ومحمد الفائر من شعراء مدينة القيروان.

وسمعت في الثانية أغنية من أغاني الحياة مخضلة بالدموع، مقنعة
بالابتسام، مغمورة بنور المسرة ودجية الاكتئاب.

أصغيت لهما فسمعت لَحْنَيْنِ قد رتلتهما العاطفة... لجن يردد
على مسمعي صراخ الهاوية، وندب اللجج، وضجات العواصف التي تبعث
الموت والحياة... ولحن يردد على مسمعي قصيدة قد تشاركت في
صوغها الآلام والأحلام، فكانت صوتاً عذباً كنغمة العصفور، مريراً كأنه
الأوجاع.

* * *

قرأتها فحركتا في نفسي عواطف قد كانت ساكنة كقلب الظلام،
وأنطقتا في قلبي مشاعر قد كانت خرساء بصمت الأسي، وأيقظتا في
صدري تلك الأنشودة المرة التي رتلتها الحياة، ثم ألقتهما في أعماقي
مفعمة بمرارة موجعة ونواح أليم، وأثارتا ذلك الصدى المكتئب الذي
كان يرفرف حول نفسي في ساعات وحدتي وانفرادي، جاعلاً من همس
السكينة نغمة مشتعلة أهواها وتهواني.

فيا أيها القلب! النابض بكل ما في الأيام من لوعة وألم! ويا أيتها
النفس! المتشائمة التي لا تبصر في الوجود إلا الحلك!... ولا
يتلألأ بين أجفانها شعاع أو يرتسم عليها ومض قبس يمزق عنها نقاب
الظلام.

أيها الصديق المكتئب! أيها القلب المعذب! أي رفيقي الساخر!
الهازيء، لقد رأيت رسالتك فرأيت في كل حرف من حروفها جذوة
ملتهبة، وفي كل كلمة من كلماتها دمة دامية، وفي كل سطر من سطورها
ألف ابتسامة ساخرة بالحياة وما في الحياة... ومن وراء كل ذلك...
ومن وراء السخط المشتعل والأسى المضطرم والسخرية الساجية... من

وراء كل ذلك أبصرت نفساً، شاعرة، حساسة، مفتونة بالجمال والانسجام الشعري في كل شيء ، ولكنها لما حدثت بالوجود لم تجد إلا عَوْجاً أمتاً، وتنافراً شديداً، فثارت بها العاصفة، ولما أن خمدت نائرتها طفحت بها دموع الأسي، فلما أعيهاها كل ذلك اتخذت من السخرية سلوة تهوّن بها من ثورة القنوط، وتجفف بها من مدامع الأحزان.

هي الحياة التي أصدتكم على هاته المعارج الثلاث، لأن السخبط يخرج من أعماق النفس ما بها من أرجاس... والدموع تصقل النفس بصيقل الأسي حتى تصبح نقية مقدسة... والسخرية تعدل بالقلب عن مسلك الغضب إلى مسلك الطمأنينة والدعة.

ولكنني بالرغم من ذلك لم أزل ألمح في نفسك قطوباً لأحزانك، ونفرة من أوجاعك، وحنيناً إلى حياة أخرى غريبة عن هذه الحياة... حياة يعانقها الجمال، وتساورها المحبة، ويظللها السلام، وتقنعها الغبطة.

أما حنينك فإنني أحبذه يا صاح! لأن الشوق هو الشعلة المقدسة التي تلمس بأناملها شفاه الهشيم الواجمة، فينقلب إلى أزهار فاتنة متغنية بقصائد الحب، وأغاني الربيع... أما حنينك فإنني أحبذه يا صاح! لأن الشوق هو اليد الإلهية التي تستخرج الحياة من الموت، وتبتدع الوجود من قلب العدم... ولكنني أؤثر أن يستحيل ابتئاسك بحزنك وقطوبك لأساك إلى اغتباط وطلاقة له.

لقد رأيتك يا رفيقي! من وراء الدموع، شاكياً، منتحباً، متبرماً بحزنك، متضجراً ببلواك، فألقيت إليك من خلف الغيوم بابتسامة متندية بالدموع، مغالباً مرارة حزني ومضاضة آلامي، لأنني رأيتك ضعيفاً بحزنك، شقيماً بمرارتك... وأنا أبتغي أن أراك قوياً باكتتابك، سعيداً

بتلك الآلام التي تصهر قلبك على ذوائب اللهب... وتمزقه بأصابع
من حديد.

ورأيتك يا صاحبي! تسعى على مسلك مفرد انبثت على جانبيه
الأشواك، والتفت على حافتيه الأفاعي، مجدفاً على حياة لا تعرف
الأسى، ولا تفقه الألم، تواقاً إلى حلم لم يزل متميلاً في فضاء نفسك،
فأحبيتك، لأن الشوق المرير والحنين المؤلم إكليل لعظمة النفس،
ولكنني أشفقت عليك، لأنني رأيتك تحدد من وراء الظلام بأبناء الحياة،
فتراهم يمشون في مناكبها على سبل قد عبدها الأفراح. وابتسمت على
حافتيها الزهور، فتبتس وتقنط لابتئاسك، لأن السماء قد وضعتك شقياً
بنفسك، متألماً بقلبك، ولا تسمعك صوت السعادة الصداح الذي تنشده
منذ الأزل.

أشفقت عليك يا صاحبي! لأن القمة الجميلة يؤدي إليها مسلك
وأنت تتحب، والهاوية المريعة تقف عندها سبلهم وهم يهزجون.

وإن كان الحب يا صاحبي أجمل عاطفة في الوجود، فالحزن
أقدس عاطفة في الحياة، لأن الحزن الذي نستمرىء ولا نستعذب مذاقه
هو الحقيقة الكبرى الرائعة، والصيحة الألهية الخالدة ما بين أصدقاء
الدهور. ولولا الحزن الذي نتبرم له لكانت الحياة جافة كالحبة لا تتألق
بين أجفانها دمة، ولا تترقق على ثغرها ابتسامة، لأن الحزن الأليم هو
الذي علمنا الابتسام، والمرارة الهائلة هي التي أفهمتنا الأمل.

وهل كانت الحياة تسمع ما سمعته من أصوات القلوب وأغاني
النفوس؟ أم هل كانت الإنسانية تبتهج بروائع الفن وبدائع الخيال؟ بل هل
كانت البشرية تفهم ما فهمته من رموز الحياة وتفقه ما فقته من أنغامها
لولا الحزن الهائل والألم المرير.

وما هو الشعر في الحقيقة؟ أليس هو نفسه ثورة من ثورات الألم،

وصوت من أصوات الأوجاع؟ أفلا تبتهج إذا كنت ضحية على مذبح البشرية تقدها بدموع روحك ودماء قلبك؟ بل! إنك تبتهج بذلك وتغتبط إن كنت دمعة في جفن الحياة ولم تكن طعنة في قلبها.

بلى! يجب عليك يا رفيقي! أن تبتهج بحزنك لأن الحزن يستمطر الدموع الخالدة من سحاب الأبد، فيغسل بها كلوم القلوب حتى تصير طاهرة خالدة... يجب عليك أن تفرح بتلك الكتلة الملتهبة التي وضعتها في قلبك الحياة، لأن اللهب لا يلتهم إلا الأنصاب والهشيم... وأن تسرّ بذلك الجدول المترع بالعبرات، المترنم في جوانب نفسك، لأن السيل لا يجرف إلا ما سئمه الحقول...

وإنني، يا صاحبي! أعتبط لأحزانك أكثر مما أبتهج بأفراحك. وليقل فيّ القائلون ما شاءوا لأن المعرفة بذرة مقدسة لا تنبت في حقل السعادة، ولكنها تنبت على ضفة التعاسة؛ ولأن المجد الخالد زهرة غريبة إن لم تغذيها الدموع ذوت أوراقها تهاوت للحضيض. وما هو المجد المقدس؟ إن لم يكن في أن تغسل النفوس بدموعها أقدام الإنسانية المخضبة بالدماء، وأن تطهر بلهب آلامها كلوم البشرية.

هذا هو الصوت الإلهي الذي تغلغل في أعماق نفسي، ولكن يسوءني أن أرى كثيراً من الناس في غفلة عن جمال الأسى وروعة الأحزان.

كثيرٌ من الناس يا رفيقي! لا يريدون من المفكر أو الفيلسوف أو الشاعر إلا أن ينظر إلى الحياة بمجهرهم، فإذا ما رنا للوجود ببصره وقال لهم: «إنكم يا هؤلاء تضربون في بيداء الظلم» أعرضوا عنه وقالوا: «إن على أجفانه غشاوة قاتمة حجبت عنها أنوار السماء».

كثيرٌ من الناس، يا صاحبي! يبتغون من الشاعر أن يكون رساماً يرسم لهم خطوط أفراحهم وخيوط أمانهم... ومن الشعر أن يكون

رسماً جميلاً، مغموراً بالبسمات، متلمعاً بالأضواء، يستعرضون فيه ملامح أحلامهم كما يشاؤون لا كما تشاء الحياة.

هم يشاؤون من الشاعر أن يكون كالنحلة التي تجني من الأزهار الرحيق وتترك الشوك للعاصفة... ومن الشعر أن يكون هادئاً كأشعة القمر، ساحراً كأجنحة الفجر... فإذا ما كان الشاعر كالنسر القوي يجمع أمامهم الجثث ويفجّر لديهم الدماء... وكان الشعر غضوباً كأنشودة الأمواج، مقطباً كوجه الظلام، صرخوا متضجرين: «إنه متشائم، لا يعرف من الحياة إلا أحزانها، ولا يسمع من قيارة الزمن إلا النحيب».

هم يحبون من الشاعر أن يكون مطرباً كذوباً، يداجيهم وينافقهم، مرتلاً لهم ألحاناً شجية تطربهم ولا تبكيهم، وتفرحهم ولا تشجيهم، سائراً دموعه بابتسام متصنع، مسكناً صوت قلبه بضوضائهم التي يهوونها، فإذا ما التفت إلى نفسه وكشف لهم عما بها من كلوم، وأسمعهم صوتاً من أصوات الألم الذي أخرجته ضجائهم صاحوا متبرمين: «إنه أعمى لا يحدق إلا بالظلام... ولا يبصر إلا أودية الدموع...».

هم يودون من الشاعر وهو في أعماق الجحيم أن يحدثهم عن أغاني الفردوس...

هم يؤثرون من كان كأنفاس السحر يرتل لهم أغاني السبات، ويريهم الأحلام الباسمة على من كان كالعاصفة الغضوب يوقظهم في وادي الظلام... ويحصبهم بالشوك والحصى...

هم يكرهون هذا لأن الشوك يدمي أناملهم... والحصى يعمي أبصارهم...

ولكن! يا ليتهم يعلمون أن الشوك لا يهدر إلا الدماء الفاسدة... والحصى لا يعمي إلا الأبصار المظلمة...

هم يتغنون ممن أترع جفنه ظلام المنون، وأحنى رأسه إكليل الموت، أن يرتل لهم أغاني الحب في فجر الشباب، مشبهاً بسرب من صبايا «أفروديت»، ساحرات الأجنان، فائنات لمراشف، ينظرن بأعين مكحولة بالنور والأحلام، ويتسمن بشفاه وردية قد صبغتها أشعة الشفق، وخضبت بها حلاوة الابتسام.

هم يريدون من الشاعر، وهو في أغوار الظلام، أن يسمعهم أنشودة الصباح، ويربهم طيف الفجر الجميل، منتصباً في صدر الحياة كحورية من عرائس الأبد، قد بسطت جناحيها الفاتنين، وتطارت من شفاهها وأجنانها البسمات والأنغام. والويل له إن أسمعهم صراخ القبور وضجيج الهاوية، أو أراهم طيف الظلام الواقف كمارد من مرده الجحيم! الويل لشاعر يتلو على قومه أغنية الظلام لأنهم في قلب الظلام، ويسمعهم نحيب الألم لأن الألم واجم في قلوبهم.

هم يحبون من الشاعر أن يضحك مثلهم لتبكي الحياة، والشاعر يحب أن يبكي ليسلي الحياة.

هم يحبون منه أن يضحك مثلهم والليالي ساخرة بهم، فإذا قال لهم منتحباً: إنني عليكم أبكي يا قومي! ولأجلكم أنتحب يا أبناء بلادي! سخروا به وقالوا: إنه شاعر مجنون... يقف راثياً منتحباً في أعراس الحياة.. نادباً باكياً في أفراح الدهور.

هم يقولون هكذا... لأنهم لا يفقهون ولا يعلمون... إنهم ضحايا في مآتم الزمن، وأصداف في لجة الأيام.

هم يضحجون فرحين لجهلهم وغباوتهم... أما الشاعر فيثن مكتئباً لنبوغه ومعرفته.

وسيقول كثير من الناس يقرأون شيئاً لشعراء الدموع: «ما لهم هل

ضاقت عليهم مسالك الحياة أم سدت في وجوههم أبواب الأمل؟ فطفقوا
ينحتون من أوتار الأسى ألحاناً مريرة، ويصوغون من بسمات الحياة
دموعاً دامية؟ سيقولون هكذا مراراً... ولكنهم سيعجبون بعد حين بشعر
الكآبة والملل، وسيتهجون بشعر الدموع والألم، وسيقدسون ما يتبذونه
اليوم أو يتبرمون به.

فإلى الغد الغريب... يا صاحبي! إلى الغد المستر وراء غيوم
الأبد...



قرأت رسالتكما أيها الصديقان! فأثارتا فيّ ما أثارتا، ثم أعدت
الكرة في القراءة للأولى والثانية فسمعت الأول يقول لما غلب عليه
اليأس وأضناه الملل:

«... ذكرتني رسالتك... أفكارى المضطربة الهازئة بالموت
والحياة، الساخرة من الفضيلة والرذيلة، العابثة بالحقوق المقدسة والآراء
النبيلة...».

وسمعت الثاني يهيب بي ضارباً على أوتار الأمل العذب: «تعال
معي وارم بنفسك وحدودك ومقالاتك ساعة، وسايرني فوق ذلك الشاهق
لنرى... ساحة تبسم لأحلامنا، وتصفق لأمانينا، وتعبس لتشاؤمنا،
فتصارع فلول جيوشنا كتائب الدهر، وتختم الرواية بشقائه
وسعادتنا...».

ولكنه يعود قائلاً حينما يلتفت إلى يمينه وشماله فلا يرى إلا
الذجنة... «ولكن ليس في إمكانني أن أصدق هذا الأمل ما دامت نفسي
متوغلة في أودية الأسى متغنية بأنشودة...».



قرأتهما فوجدت فيهما معرضين تتجلى فيهما عاطفتان قويتان هما
المسيطرتان منذ البدء على مجاري الدهور: عاطفة قانطة يائسة، وأخرى
يقتادها الأمل، ثم يثنيها القنوط:

أما الأولى فمهما تتبعتها إلا واستدرت من أعماقي الأسي .
وأما الثانية فقد بعثت فيّ السكينة... ولكن الصديق محمود أبي
إلا أن يغتصب من شفتي ابتسامة مستكرهة بعذر أبداه، هو يعلم مقدار
ضعفه، وكأنه شاء بذلك أن يثير نقع الجدل كما قد أهاجه من قبل في
موطن الحوار والجدل...

ولكن يا صاحبي! بالرغم عن وهن اعتذارك فقد قبلته على الرحب
والسعة، لأنني لا حاجة لي بالمماحكة واللجاج، والفقه يرمقني بالنظر
الشزر والمغلاة مني على قاب قوسين.

ولقد شئت أيها الصديق! أن تجعل الغلبة لك في الختام - فله
أبوك من مجادل عنيدا - بقولك: وأما بقية الحفلات الآتية فستشاهدها
بنفسك حال حلولك بمدينة القيروان... وها موسم المولد قد أقبل...
أتذكرت...!.

بلى يا صديقي! فإنني لم أزل على ذكر من ذلك، ولكن أحسبك
نسيت ما اتفقنا عليه من أن ذلك لا يكون إلا بعد قدومكم نحونا،
والأستاذ محمد بوشريية على ذلك من الشاهدين.

لقد كدت أنسى أن أحدثكم عن الصدمة الهائلة التي أحدثتها لي
رسالتك فقد ذكرت فيها أن سيصلني خطاب الأستاذ بوشريية. وكم كانت
حيرتي شديدة حينما بحثت عنه في أضعاف الكتاب وأطواء الظرف ولكن
دون أن يجدي.

وما انتشلي من وهدة الغرابة والحيرة إلا «ملاحظتك».
وأخيراً أرجو أن تتواتر علي كتبكما دون أن تكون متوقفة على

مكاتبتني، ولا أعني أنني لا أكاتبكم.

والآن وقد كلت أنا ملي من حمل القلم أستودعكما الله وقد بقي كلام كثير أرجئه للرسائل الأخرى.

ولي الأمل القوي أن تبلغوا عني معشر المحتفل بهم من شبيبة القيروان الناهضة: «أنني قد كنت معهم ليلة الاحتفال، وإن لم أكن جالساً لكم بجسدي فإنني معهم بروحي المرفرفة حوليهم».

وأبلغوهم تهاني القلبية وتحياتي الصميمة ولا سيما حضرات الأدباء البلغاء: الشيخ صالح سويسي - والشيخ محمد الفاتر - والشيخ محمد الحليوي - ولكما ولأبويكما بحنوهما وانعطافهما ولمن سر بلاقما أزكى تحية يضمها قلب، وأعمق عاطفة تكتمها نفس.

المخلص في الود والإخاء.

بلقاسم بن محمد بن بلقاسم الشابي

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

في 5 رمضان سنة 1346 = 1927/2/27

«ليس لي نظير من هذه الرسالة»

أخي الفاضل!

هي أيام ثمانية! كأبواب جهنم. كل يوم سلك بي شعبة من شعب الجحيم، وإن القلم لعاجز عن وصف لمحة من لمحات الأيام الثمانية ولو كان من نار. وإن البيان لَيَبِي لو أوتي ما لم يؤتاه (كذا) بشر من بلاغة في القول، وقوة في العارضة، وفصل في الخطاب، عن أن يتمثل ما انطوت عليه أيامي الثمانية: من لواعج النفس، وبرحاء الجسد.

وكيف يستطيع من خاض الجحيم راجلاً، وأبصر من أهواله ومخاوفه ما تزوت له نفسه رعباً وفرقاً، أن يصفه لقوم لم تكتحل أجفانهم إلا بنور الصبح وشعاع الطفل، ولم تخط أقدامهم إلا في كل معبد من منهج وممهّد من سبيل؟ وهل يقتدر الجالس في وحشة الليل على أن يتحدث لمن لم يعرفوا إلا شمس الظهرية عن أشباح الظلام كما امتلأت بها نفسه وعانقتها أحلامه؟

كلا! ولكن حسب الظامء نطفة من غمام، وحسب الأعمى عصا يتوكأ عليها ويتعرف بها الطريق، وحسبي أنا أن أصور لك ظلاً حائلاً من برحائي في أيامي الثمانية.

مضض اليم يتسقر، تنهك الجسم برحاؤه ولواعجه، وأفكار سوداء مغبرة الوجوه، شعشاء الغرائز، شعشاء الملامح، من بنات الظلمة الهائمة

في أودية الجحيم الموحشة، المرتوية بدموع الأحزان الدامية، المرتجفة بين هاوية الموت ولجج الحياة... ونفس دامعة كالحزن، قاتمة كالظلام، يائسة، قانطة، لا تعرف لها مستقراً ولا مأوى إليه، كلما طافت بها أحلام الحياة النادرة تلوذ بأكناف الغربة والانفراد حتى عن الأهل، لتبكي نفسها، وترثي لأبناء الحياة، قد برحت بها الأرزاء الكمينية والكلموم الدفينة، وعذبتها الذكريات المطلولة بالدمع، المخضوبة بالدماء، وأهاب بها صوت الأمس البعيد المستيقظ من أحشاء القبور، الهاتف بمأساة الحياة والحب والمنون.. الراجف بحسرات الأيام وتنهيدات الليالي. وصاحب بها صوت الغد الغامض الساكن خلف مظاهر الحياة... المتهدج بالمخاوف والأحزان والرغبات... المتدفق بين أمواج القنوط الراغبة بهول الحياة والموت، وبين جداول الأحلام الناطقة بحسيس النجوم... ووسوسة الزهور... ووحى المساء والفجر... وقلب باكٍ غريق، في بحر لجّي من الحزن عميق كالموت، فسيح كالحياة... زاخر بالدماء والعبرات، جائش بالنحيب والشهقات، لا تكاد تجد له شاطئاً أو تقف له على مرفأ إلا مرفأ الموت أو ساحل الأبد... ولكنه قد ظل بين جرجرة الأمواج، وهدهدة اللجج، عالق الطرف بنجم قصي منطفئ هائم بين ظلمات الفضاء، كروح شريد ينظم فيه مرثي الموت وأغاني الحياة الباكية، منتحياً بها على مسمع من الأمواج الطاغية التي لا تعبأ بغصات الشجي، ولا تصغي لأنات القلوب، وكلما حدق بالليل فألفاه كالمقلة العمياء، قاتم الأعماق، منطفئ الوميض، فاضت عليه الحسرات، وغشاه من كآبته موج قاتم الزبد، رجاف الجوانح، وكثيراً ما حاولت أن أغريه بأحلام الصباح الباسمة... وكثيراً ما شبيت بفجر الحياة، ولكن باطلاً كان ذلك لأن قلبي عصي عنيد، قد برحت به أوجاعه، وآلمته جراحاته النجلاء.

فكم قد أعدتُ على مسمعه أغنية السلوى! وكم قد رددت على

أذنيه:

تجلد ولا تستكن لليالي فخلف الدياجير فجر جديد
ولولا غيوم السماء الغضاب لما نضد الروض تلك الورود
ولولا ظلام الحياة العبوس لما نسج الصبح تلك البرود

ولكنني مهما قلت لقلبي ذلك لوى جيده وبادرته الدموع فعلَ اليتيم
اليانس الضائع، بين اذكارات الأمس وحقيقة اليوم، ثم يهتف بما قال لا
مرتين من قبل «إن شمس الأحياء لا تدفء الموتى». فلا تعلق نفسك
بالظلال...، ولكنني أتصامم عن قوله ثم أمسك يميني مزار الحلم
الخصيب، متغنياً لقلبي بتعلات شعرية أحسبها تفتته وتستبيه، وترفعه إلى
حيث يرنق الفجر بجناحيه، ويخفق المساء، وتتألق الزهرة الساحرة،
مترنماً بأغان أدعوه فيها للسبات اللذيذة، الذي تتندى فيه الأحلام كغيوم
الربيع، وترتفع فيه الرؤى كأشجار اللوز المزهرة في تعاريج الأودية،
وأعلمه أن الحياة الشقية لا تتطلب من الدمع المزيد، لأن كأسها مترعة
ومعزفها فائض بالأنين:

يا قلب نهنه دموع الأسي، ولوعة روعك
إن الدهور البواكي غنية عن دموعك
حسب الحياة أساها فاطو الأسي في صدوعك
واحلم بفجر الليالي... ففجرها في هجوعك
فإن غفوت فإن الحياة ليست تروعك
وسوف يقضي خريف الأسي ويأتي ربيعك...

ولكن قلبي الكسير العنيد لا يلبث بعد ذلك أن يقول في انكسار
ولجاجة «إن شمس الأحياء لا تدفء الموتى» ثم يسترسل ليأسه وشكاته.
ذلك لون من ألوان الحياة القاتمة التي أنسدل على ظلها خلال
أيامي الثمانية المنصرمة، وما تركت أكثر وأدهى، فأين حمى النفس
المرمضة؟ وأين حمى الجسد المتوهجة؟ وأين وهن الجسم وإغلاله؟

وأين ملل الفكر وفتوره؟ وأين شحوب الوجه وحؤولة اللون؟ كل ذلك وأكثر قد علت عن التحدث عنه .

أيامي الثمانية! ويا لله منها! وماذا سأقول عنها وهي التي ذهبت بما أوعتني الحياة من قوة في الجسد ومخ في العظام، وولت بما أنفت على نفسي الأيام من بسماث ضئيلة وأفراح قليلة. فأصبحت واهناً، واهياً، متهدماً، متحطماً، مفكك الأوصال، ومضعض الحواس، شارد اللب، ملولاً من كل شيء، شؤوماً من كل موجود، ولقد مرت بي أثناءها فترات حسبت النفس فيها تصعد في جبل وعر مسنون الجوانب، أو تلج في سُم الخياط لما بها من ضيق وكراهية وملل .

ولولا أخي الصغير - أبقاه الله - الذي كنت أستروح منه أنسام الحياة الحرة لضاقت علي الدنيا بما رحبت ولغصت بي حناجر الزمن . . .

فقد كنت كلما أمرضتني الأوجاع والهواجش وانتابت قلبي الذُكر المرة أدعو إليّ أخي الصغير أقتبس منه عذوبة الحياة، وأتحدث إليه بلهو الطفولة، وألمح في طرفه وميض السماء الذي لا يزال يلتمع في أجفان الأطفال، وكأنه ظل ملك من ملائكة الرحمة هبط إلى الأرض ليخفف من بأساء الإنسان، ثم لا يزال يخبو كلما تدرج الطفل في سلم الحياة وصعد في عقبات الأيام إلى أن ينطفئ حتى الموت فلا يبعث ثانية إلا في السماء . . . مصدره الأول .

ذلك لألاء النفس يتألق في غرارة الطفولة، وكلما خوّض المرء في حمأة الجسد واقترب من مغائر المادة كلما ضعف ذلك البريق وتضاءل ذلك الشعاع . . .

لقد اتخذت منه والطفولة الساذجة تظله بجناحيها الساحرين . . .
فنناً مزهراً يتأود في بيداء نفسي المجدبة، وكوكباً نيراً يتألق في ظلمات أفكاري الدامسة .

فمن بسمته أتوكّف وحي السماء البريء... ومن نظرته أتعرف إلى
الإنسان الأول الذي كان يمرح في فردوس السماء... والذي كانت
ملامحه مرآة صادقة لنفسه الهادئة كغدير روقته أنسام السحر في، إنك
لتستطيع أن تستشف منها ما في قرارة النفس من عواطف وأحلام.

ويل للإنسان لقد أصبح وحشاً كاسراً، يلتحف الليل، ويتقلد
الأهوال، ويرتشف الدماء في الجماجم واللحوم، وقد كان من قبل في
المساء روحاً، وديعاً، بريئاً، فياضاً بالطهر والابتسام، وكأنه الطفل في
غرارته ونقائه... وما الطفل إلا صورة الإنسان الملائكي الذي أنشأه الله
في القدم.

ويحك أيها الإنسان! ما غرك بربك الكريم؟
هل تقمصك الشيطان! فأصبحت تدنس الحق وتقدس الأنصاب
والأصنام، وتقترب الجرائم والمآثم باسم الإنسانية التي رفعها الله إليه؟
إن كنت كذلك فويل لك من روحك الخبيث! وويل لروحك من
لعنة الله الخالدة! أم هل أنت هو الإنسان الأول الذي أنشأه الله في
أزله؟.

فما لك إذاً قد غلبت عليك شقوة الخطيئة، ولم تستمع لتعاليم
ربك ولا لصوت نفسك المهيب؟

عجباً لك أيها الإنسان! أتنسى حياتك الأولى السماوية لأنك
تدثرت بدثار من صلصال... تلك هي الأفكار التي كانت تخالجنني كلما
رمقت أخي الصغير، أو سمعت لثغاً من لثغاته المحبوبة... تلك اللغة
السماوية التي تتحد من شفاه الأطفال على القلوب القريحة تحدر الطلّ
على الأزهار الطامثة... تلك اللغة السماوية العذبة التي تحمل النفس
بأجنحة سحرية عائدة بها إلى وطن الأرواح البديع... ذلك الوطن الذي
طمست ذكرياته عواصف الزمن وسنابك الحياة.

تلك هي الأفكار التي تتمايل في نفسي كلما سمعت أخي لاغياً أو
متكلماً بلغو الطفولة... ولكنني أنكفيء على نفسي قائلاً: بل إن
الإنسان الأول هو الإنسان الأخير... ولكن:

هكذا النفس: قبضة من شعاع يتندى، وقبضة من دخان

فمن طغى دخانه على لهبه حتى أصبح نحاساً قاتماً، فتلك هي
النفس... النفس الجهنمية التي ويل للحياة منها، وويل لها من لعنات
الحياة.

ومن خلصت نفسه من دخانها حتى أصبحت شعاعاً خالصاً، يتألق
فهي الشفق المحجب إلى الحياة.. وهي النور الجميل الذي يطهر كل
شيء ولا يدنس شيئاً.. وهي النفس القوية الهادئة التي تنبعث عنها
أضواء النبوة والعبقرية إلى غياهب الدهور.. وهي هي النفس التي
تستلهم الحياة لترشد أبناء الحياة، وتستوحى السماء لتسمع تلك القلوب
التي أدخلت إلى التراب الأحمر أغاني السماء الخالدة.

لقد كانت نفسي يوم تناولت كتابك مفعمة بأحزانها، متبرمة
بأوجاعها، وكانت لم تنفك جياشة بمأساة لامرتين ومرثاة جبران. فلما
أعطيت كتابك رجوتُ أن أجد فيه تعزية وسلوى ومنفجاً مما أناجيه،
ولكنني ما قرأته حتى ألفتته دمة حائرة ولوعة نائرة وشكاة ترتجف بين
الرياح.. وأنة تعتلج في ظلام الليل.. وألفتك تشكو لي أضعاف ما
أشكو إليك.. ووجدتك يائساً متوجعاً فقلت في نفسي: هل تستطيع
الزهرة الذابلة أن تعزي الزهرة التي خنقتها الأشواك؟ وهل يستطيع الطائر
الساقط في الشرك أن يواسي البلبل الكسير الجناح؟

ولكنني أسأل الله له الشفاء الوشيك، وأن يمسح عنه ما به من داء،
وذلك جهدنا أبناء هذه الحياة.

«فليسعد القول إن لم يسعد الزمن».

ولكن مَنْ لِلْسَّانِ بقول يسلي به في هذا الزمن الأكد؟!
قد أكون مذنباً بكتابتني على هذا النحو في نظر قوم، لأنني لم
أستوح الفجر ما أكتب وإنما استوحيت ظلمة الليل كتابه ، مرة أحداث بها
صديقاً له من أحزانه ما ينوء بحمله، وقد أكون غير ذلك عند آخرين . .
أما أنا فأقول لأولئك ولهؤلاء ولكل أبناء الحياة: إن النفس المتأججة
ببأساء الدهر لا ولن تلمس شيئاً إلا وسمته بوسم اللهب . . وإن القلب
الباكي المسودّ بنحاس الحياة لا يذرف دموعه إلا مغطاة بالدخان . . .
ولقد سئل رجل عن ثعلب خبيث . . . فقال: إنه ضرب من
المكر . . .

وسئل ناقد عن قصيد مشوّه فقال: إنه مسخ من الشعر . . .
أما ذلك «الرجل» فماذا أقول فيه! إنه مخلوق غريب، يزدوج فيه
الشر بالرديلة، والخبث بالغباوة، ولا أقول فيه إلا أنه حمأة الإنسان
الذنس . . .

وإنه ليسوءني أن يختم كتابي بالحديث عن مثله ولكن تلك مشيئة
الله .

ولكُم تحيات الوالد ودعوته الصالحة - إن شاء الله - .
وتحياتي الخالصة لكم ولحضرة الوالد الكريم ولكافة الأهل .

والسلام

من المخلص بلقاسم الشابي

اليوم أحاول النفس على الخروج إلى فضاء الله بعد احتباس دام
أياماً ثمانية . . لم ألمح خلالها وجوه الطبيعة إلا من وراء النوافذ،

ولكنني قد أجمعت أمري على أن لا أخرج اليوم. وبذلك تتم أياماً تسعة
لا أعرف أثناءها أسكفة الباب.

وإنني أرجو من صميم نفسي أن لا تجسم نفسك مكاتبتي لأن في
ذلك من التعب المتبادل والنصب المزدوج ما نحن في غنى عنه. . أما
أنت فيضطرك على الانحناء والتفكير ساعة أو نحوها، وأما أنا فيدعوني
إلى صرف وقت في الكتابة، أنا في حاجة لصرفه في الفراغ أياماً، ولأنني
لا أستطيع أن يصلني كتابك وأبقي على القلم.

هذا ما أطلبه منك ولا أخالك إلا تحققه لأنني به أنشد راحة
الجميع التي نتطلب تحقيقها من الله.

والسلام

لقد كاد المؤذن أن يهتف للمغرب بكلمة الإسلام

فإلى اللقاء! والسلام

وثيقة جديدة للشابي

حين نشرت في عام 1952 كتابي «الشابي - حياته وشعره» وهو أول كتاب صدر عن الشابي - توجهت ببناء⁽¹⁾ لنشر كل آثار الشابي ومؤلفاته، خدمة لأدبه وللأدب التونسي الحديث، واعتقاداً مني أن الباحث والمؤرخ الأدبي، لا يستطيع بدون وثائق كاملة أن يقوم بدراسة الشابي دراسة موضوعية شاملة، وإن كل عمل يتم بدون ذلك سيكون عرضة للتقصير أو عدم الشمول.

وقد كررت النداء نفسه في مناسبات عديدة أخرى، كما عملت شخصياً على نشر العديد من النصوص والوثائق المتصلة بحياة الشابي أو أدبه⁽²⁾.

ويسرني اليوم أن أنشر لأول مرة وثيقة جديدة تتصل بحياة الشابي، وهو دون العشرين من عمره.

وتبدو أهمية هذه الوثيقة الجديدة في كونها تلقي أضواء ساطعة على بعض الجوانب والقضايا من حياته كثر فيها الاجتهادات وتباينت حولها الآراء.

ومما يزيد في أهمية الوثيقة أنها بقلم الشابي وبخطه، وأنه كتبها لصديقه زين العابدين السنوسي، لتكون له أساساً يبني عليه ترجمة الشابي

(1) الطبعة الأولى ص 88.

(2) انظر، كفاح الشابي، و«آثار الشابي وصداه في الشرق» و«الشابي - حياته وشعره» ورسائل الشابي «التي توليت نشرها عام 1966».

وتقويم مختارات من شعره في الكتاب الذي وضعه زين العابدين السنوسي، عن «الأدب التونسي»، وبالرجوع إلى هذا الكتاب، وإلى الفصل الذي ترجم فيه السنوسي للشابي⁽¹⁾ نجد آثار هذه الوثيقة واضحة فيما ختم به السنوسي تعريفه بالشابي⁽²⁾.

ونكتفي اليوم بتقديم نص الوثيقة، وصورة لها، نقلاً عن النسخة الأصلية - أي الأم - مع ذكر بعض الملاحظات السريعة، على أمل أن نعود إلى درس الوثيقة بتفصيل كامل، ومقارنتها بالوثائق والنصوص والآراء التي تتفق أو تختلف مع ما جاء فيها من معلومات وحقائق:

أولاً - تاريخ ميلاد الشابي، اختلفت فيه الآراء، وكثرت الاجتهادات⁽³⁾ فقد كان المعلوم الشائع حتى عام 1959⁽⁴⁾ أن الشابي قد ولد في مارس 1909، وبدون تحديد ليوم معين، وهذا ما كان شائعاً في تونس، واعتمده شخصياً في كتابي الأول عن الشابي. ولم ينتبه أحد إلى التاريخ الذي نشره المرحوم السنوسي في كتابه عن الأدب التونسي، منذ عام 1928 حيث أرخ ولادة الشابي بيوم 3 صفر 1327 هجرياً، وهو يوافق 24 فيفري 1909. وقد قام الأستاذ محمد عامر غديرة بجهد مشكور في ضبط تاريخ ميلاد الشابي اعتماداً على نصوص ووثائق عديدة، ولكنه لم يصل فيه إلى رأي قاطع إذ جعله يتراوح بين يوم 24 فيفري و 3 إفريل 1909.

ولكن الوثيقة - ولا ننسى أنها بخط الشابي تحدد مولده بيوم 3 صفر 1327 هجرياً الموافق 24 فيفري 1909⁽⁵⁾.

(1) انظر الجزء الأول من المجلد الأول ص 202 - 208.

(2) نفس المرجع ص 208.

(3) ذكر الزركلي في الأعلام ج 6 ص 20 نقلاً عن ح ح عبد الوهاب أن ولادته عام 1906، وذهب ابن أبي شنب إلى أنها عام 1910 إلخ (انظر المرجع التالي).

(4) حين نشر، م. ع. غديرة تواريخ مدققة عن حياة الشابي «الفكر» ص 5 ع 3 ص 18 - 25 ودراسات عن الشابي ص 42 - 50.

(5) المرجع السابق.

وهذا - فيما نعتقده - قول فصل ونهائي في هذه القضية .

ثانياً - تذكر الوثيقة عدداً من التفاصيل الهامة جداً عن أطوار ومراحل حياة الشابي وتنقلاته مع أبيه، في المدن التي كان والده يشتغل بها قاضياً .

فقد كان في قابس وهو في الخامسة من عمره، وطوف مع أبيه في مدن أخرى، لم يذكرها الشابي، حتى انتهى إلى مجاز الباب، حيث انتقل منها - وفي الثانية عشرة من عمره - إلى العاصمة ليلتحق بالزيتونة .

ثالثاً - يذكر الشابي شيئاً مهماً وجديداً للغاية عن دراسته الابتدائية الأولى، وهو أنه التحق - في قابس - بمدرسة (عربية فرنسية) ولكنه لم يمكث بها سوى خمسة عشر يوماً، نقله والده بعدها إلى الكتاب، حيث تقرر مصيره فيه، وظل ينتقل من كتاب إلى آخر في جميع المدن التي انتقل إليها والده . وكان آخرها كتاب بمجاز الباب . ولا يخفي الشابي مرارته من حصر دراسته الابتدائية في هذه الكتابيب، وذلك كامن في أسلوبه .

رابعاً - تحدد لنا الوثيقة أيضاً تاريخ التحاقه بالزيتونة، وهو عام 1339 هـ - 1920 .

خامساً - يحدد الشابي نفسه بداية حياته الأدبية فيجعلها عامين سابقين عن الالتحاق بالزيتونة فهو يذكر لذلك سنة 1337 - 1918 حيث كان شغوفاً بالأدب، مستعيناً بكتب والده على إرضاء شغفه . ولكنه وجد ضالته في العاصمة، لا سيما في مكتبة الخلدونية .

وفي هذا الصدد تمدنا الوثيقة بمعلومات هامة جداً تتفق كلها مع ما كان المرحوم محمد الصالح المهدي قد نشره عن الشابي، في مجلة الأفكار، وفي مجلة الندوة التونسية⁽¹⁾ وكذلك بعض ما أشار له السنوسي

(1) الأفكار س 1 ع 2 ص 83 - 85 (1 - 12 - 1936) .

ومجلة الندوة عدد خاص بالشابي (أكتوبر 1953) .

في كتاباته العديدة عن الشابي، لكن السنوسي لم يستفد من هذه الوثيقة كما استفاد منها المهدي .

سادساً - يحدد الشابي طلائع شاعريته، وأوليائه الشعرية بأنها كانت وهو في الثالثة عشرة من عمره، غير أنه يسخر من إنتاجه الشعري في هذه المرحلة، ويعلن أنه لا قيمة له، إذ هو تجربة صبيانية ينبغي إهمالها وعدم الاحتفاظ بها، وهو ما يثير جدلاً حول ما وقع نشره من آثاره الشعرية الأولى، في طبعتي ديوانه الأخيرتين، حيث وجدنا قصائد تعود إلى هذه المرحلة التي كان الشابي يرغب في طيها ونسيان ما أنتجه فيها .

لكن احتفاظه - شخصياً - بتلك القصائد ومستوى بعضها الفني يبعث على التساؤل فيما إذا لم يكن الشابي نفسه قد نقحها ورفع من مستواها، لتكون لا شاهد نبوغ مبكر فحسب بل حجة ناطقة بشاعريته المتدفقة منذ طفولته الناضجة؟!!

سابعاً - يؤكد الشابي اهتمامه البالغ بالنثر، كأسلوب للتعبير عن ذات نفسه وخواطره وأفكاره المختلفة وأنه لئن كان قد كره النثر وتعلق بالشعر في مرحلة أولى من حياته، إلا أنه (زمن كتابة الوثيقة) متعلق بهما معاً وإن كان يتوق دائماً إلى الشعر ويميل إليه أكثر من النثر، وهذا أمر واضح ومفهوم من شاعر فنان كالشابي .

ثامناً - وأخيراً، يشير الشابي إلى قضية تبدو غامضة للغاية بل لغزاً مستغلقاً على الأفهام، إذ هو، يثير شوق مخاطبه إلى سر من أسراره الداخلية الخاصة، ولكنه يعلن في نفس الوقت تصميمه التام على كتمانها والاحتفاظ به وعدم البوح به لأحد؟! فهل تراه يعني حباً دفيناً في نفسه ملك عليه شغاف قلبه واستحوذ على مشاعره وعواطفه الشابة؟ ولماذا كل هذا الإصرار العنيد على أنه «سبقيه طيفاً غامضاً إلى الأبد»؟!!

لقد كان موضوع المرأة في حياة الشابي، من القضايا الشائكة جداً والتي لم تختلف فيها آراء النقاد والباحثين فقط، وإنما تضاربت وتناقضت

إلى أبعد الحدود، ولئن كانت عبارته الأخيرة لا ترفع الغطاء عن سره
الدفين، إلا أنها تؤكد الرأي الذي سبق أن أعلنته منذ عام 1952 وهو أن
الشابي قد أحب فعلاً امرأة معينة من لحم ودم، ولئن كنا لا نعلم حقيقتها
- وقد لا نعلم شيئاً عنها أبداً - إلا أن النصوص والدلائل الكثيرة متوفرة
على وجودها، سواء في شعر الشابي، أو في نثره. وها هي وثيقة جديدة
تعزز ذلك الرأي الذي كنا أول من أعلنه وتمسك به⁽¹⁾.

تاسعاً - تاريخ الوثيقة هو 17 محرم سنة 1346 هجراً الموافق 17
- 7 - 1927 ميلادياً - كما هو واضح في نهايتها -.

(1) الشابي حياته وشعره، فصل «زواج وحب» ص 70 - 77 من الطبعة الأولى
- بيروت 1952.

نص الوثيقة من خط الشابي [إلى زين العابدين السنوسي]

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم .

في ليلة اليوم الثالث من صفر سنة 1327 [24 - 2 - 1909]

لفظتني السماء إلى هذا العالم الغريب فكنت بشراً سوياً .

ولما بلغت الخامسة من سني حياتي، بعث بي والدي - وكان إذ ذاك ببلدة قابس - إلى المكتب [أي المدرسة] العربي الفرنسي ولكنني لم ألبث به إلا أياماً قلائل لا تتجاوز الخمسة عشر حتى أخرجني منه وأرسلني إلى الكتاب فلبثت به بضع سنين أقرأ القرآن ثم ارتحلت مع والدي إلى بلاد كثيرة بالأقاليم التونسية ومهما حللنا ببلد إلا وقرأت بأحد كتاتيبها . إلى أن طوحت بنا النقل إلى بلد مجاز الباب فمكثت فيه سنين عدة أقرأ بعض الكتاتيب هناك . إلى أن بلغت من العمر الثانية عشر فوجهني الوالد إلى الكلية الزيتونية وكان ذلك في سنة 1339 فلبثت بها أقرأ ولا زلت إلى الآن . . .

أما حياتي الأدبية . فتبتدىء من سنة 1337 تقريباً حيث أنني شغفت بالأدب منذ صباي شغفاً عميقاً إذ صادف في نفسي هوى كامناً فأثاره .

فكنت أتلقف بلهفة، كل ما استطاعت يميني تناوله من كتب والدي أو من غيرها . ولما قدمت إلى المعهد الزيتوني اشتد بي التوق إلى الأدب فكنت كثيراً ما أذهب إلى المكتبة الخلدونية أطالع ما بها من طارف الأدب وتليده . ولما بلغت من العمر الثالث عشر أي في السنة

الثالثة من سني دراستي بالمعهد الزيتوني نظمت الشعر. ولكن ما نظمته في تلك السنة على قلته قد طواه الزمان فاندثر: بعضه ضاع في أيدي الرفقاء. وبعضه لم أدر له مستقراً.

وقد تناوبتني من ذلك العهد أفكار متنافرة في فترات مختلفة حببت إلي النثر أحياناً. وبغضت لي الشعر. وقلبت لي ظهر المجن في فينات آخر فكرهت النثر وأحببت الشعر. أما الآن فهما خدناي في فجر الحياة وغروبها، وبلبلاي في ابتسامها وقطوبها. وإنى وإن كنت إلى الشعر أتوق مني إلى النثر لكنني لا أضن على نثري بعقب من عواطفي وأفكاري.

تلك هي الكلمة التي أقولها لك أيها الصديق مقتضبة غامضة حاولت بها أن أنشر أمامكم بعض ما طوته مني السنون. وأن أعيد لذاكرة الأيام رسماً قد تلاشى في ظلام النسيان.

أجل! إنها مقتضبة؛ لأن أعظم ثورة أيقضتها الأيام في نفسي فحولت في قلبي مجاري الحياة، لم أصارحك بها ولن أصارحك بها بل أنها ستبقى سراً مكتوماً هائماً مع أحلامي في ظلام الفؤاد وستبقى طيفاً غامضاً إلى الأبد⁽¹⁾.

وكتب في 17 محرم الحرام.

سنة 1346

بلقاسم بن محمد

[17 - 7 - 1927]

بن بلقاسم الشابي

(1) يلي هذا نص الشابي بخطه . . ويلاحظ أن به هفوات . . سببها - كما يبدو - السرعة وعدم المراجعة. كما أن الشابي، رسم حرفي القاف والفاء بالطريقة المغربية. أي نقطة واحدة فوق القاف ونقطة تحت الفاء.

رسالة إلى:

الطاهر الحداد

كلمة اعتذار

وصلتنا هذه الكلمة من طرف الأديب أبي القاسم الشابي يعتذر فيها على عدم تمكنه من الحضور لأنه مريض وقد قرئت في أثناء الحفلة . ونحن خاصة نرجو لصديقنا كاتب الكلمة إبلافاً سريعاً وشفاءً عاجلاً .

- اللجنة -

نص الرسالة

حمداً وصلاةً وسلاماً .

لجنة الاحتفال المحترمة .

تحية لجميعكم وسلاماً .

وبعد فإنني أشاركم قلبياً في حفلتكم التكريمية المباركة وأشكر لكم سعيكم الجميل . ولكنني آسف لعدم استطاعتي الحضور شخصياً إذ ما فائدة حضوري إذا لم أصرح بما تجيش به نفسي من أفكار وما يطفح به قلبي من

عواطف لقد حجر علي الطيب كما تعلمون مباشرة أي عمل فكري فلم
أستطع أن أخط كلمة أشاركم بها في الاحتفال ولذلك رأيت أن حضوري
لا جدوى وراءه فأثرت السفر على الحضور رغم ما يحدث في ذلك من
حرمان وألم .

وفي الختام أرجو أن تقبلوا عذري والسلام من بلقاسم بن محمد بن
بلقاسم الشابي .

[ديسمبر 1930]

رسالة إلى:

مصطفى خريف

توزر في 23 أكتوبر 1930

أخي الفاضل⁽¹⁾.
تحيةً وسلاماً.

وبعد، فماذا أقول لك؟. لست أدري والله، إن أحاديث النفس كثيرة، وذكرياتها لا تنقطع ولكن نفسي المتشائمة الملول لا تدري ما تقول إليك.

ستقول: وأنى يساورك الملل ولك من أخلائك وعشيرتك الأقربين من تجلس إليه وتطارحه الحديث ويلقي إليك بذات نفسه البريئة الساذجة؟ وأنا أقول لك: أما في ظهيرة أيامي وأمسياتها فإني أستطيع أن أتجرد من نفسي المتبرمة السائمة وأن أعيش مع الناس أنى يعيشون وأتحدث إليهم كما يتحدثون، وأما في أصباحها - حين يهبط الناس السوق وألبث وحدي في القرية الصغيرة - فماذا تراني أصنع؟ ماذا تراني صانع والشمس تنوقد في الأفق وتلقي على الأرض الصامتة رداءً من لهيب؟ كل ما أصنع أن أذهب إلى النهر الصامت الحزين، وهناك على ضفة من ضفافه النائمة في ظلال النخيل أجلس وحدي أعاتب عصاي واسترسل إلى أحلام نفسي وأحاديثها الكثيرة التائهة. وتمضي نفسي بأسئلتها الغامضة، ويقسو علي قلبي بذكرياته الحزينة الباكية... وتتغرد حوالي الطيور، ويغمغم النهر غمغمة ضعيفة خافتة كأنه يحلم، وتنطلق نفسي المثقلة بالجراح في هذا العالم

(1) هو الأستاذ مصطفى خريف.

الغامض المسحور وحيدة ملتذة موجعة . . . ثم أصحو من حلمي المبهم
على نعمة ضعيفة واهية ترسلها شفتاي من أغاني عبد الوهاب. أو من
أغاني التي لم يسمعها بشر . . .

وتسطو أشعة الشمس على ظلي الذي أحتمي به فأنهض متثاقلاً كأنما
أحمل على منكبي عبء مائة عام من أحزان الدهور . . .

تلك صورة من حياتي التي أحيها في هاته القرية الصغيرة من بلاد
الجريد، ولعلها حياة مملة مؤلمة، وربما كانت حياة لذيدة أيضاً.

* * *

تقول في رسالتك الجميلة: . . . «إنك مخلوق معذب» وهل عدوت
في هذه الكلمة الصغيرة أنك تحدثت عن قصة الكائنات في أكبر مظاهرها
وأفخرها، وفي أصغر أنواعها وأحقرها.

لا تسأل قلبي وقلبك وقلوب أبناء البشر، فأنت تدري أنها قلوب
معذبة جريحة، لا تفاوت بينها في العذاب إلا من حيث دقة الحس وقوة
الشعور وشدة الإصغاء إلى صرخات الروح وتسألها. - ولكن سل الحياة
نفسها أي شيء هي؟ ثم انتظر ماذا تقول لك . . . ستقول لك أنها شيء
معذب، تصبه الأقدار في قوالب من أشكال هذا الوجود وتسلبه حرته
بهاته النواميس الطبيعية التي تكبله.

ليست الحياة نفسها يا صاحبي إلا قوة مجهولة تسير في الكائنات
مصفدة بقيود الأمكنة والدهور . . .

وإذا كانت الحياة ذلك فماذا يكون أبناؤها؟ أنتم أشقياء معذبون
تمشون في مناكب العالم مقيدين بالحياة وأغلال الحياة . . .

فلا تأس يا صاحبي لنفسك المعذبة لأنك لست وحدك الذي يحمل
بين جنبه مثل هاته النفس.

ولقد ضربت صباح اليوم في الصحراء المجذبة التي لا يزخر عليها

تيار الحياة، ولا تتغلغل فيها إلا الرياح الشاحبة المروعة المجنونة التائهة، فسألتها كيف هي في هذا الوجود؟ فوجدتها تشكو جفاء الحياة وقسوة القدر العنيد الذي ضرب عليها الوحشة والسهوم. ومرت الريح حوالي مولهة متنهدة، فسألتها عن نفسها فإذا هي مجدفة نائرة ساخطة تلعن قوانين الوجود. فرجعت أدراجي واتخذت مكاني من ضفة النهر وجلست أسأله هل هو سعيد؟ فأجابني متبرماً: وأي سعادة في اقتحام الأغوار والأنجاد، والسير في هاته السبل الكثيرة؟ إن الحياة تسوقنا كرهاً إلى غاياتها. فتألمت ثم قلت في نفسي: وهل للحياة غاية؟ ما أراها تضرب على هدى ولا تمشي إلى مستقر. وما أحسبها إلا تعدو إلى غير غاية أو إلى غاية مجهولة تعرفها الأقدار. وبدا لي أن أسأل هاته الأشجار المتحركة وهاته الأطيوار المغردة وهذا الأفق الصامت وهاته الشمس التي تشرق وتغرب، ثم عدلت عن ذلك وعلمت أن الجواب واحد: لوعة وشكاة. أنها كلها خرجت من حيث لا تعلم وستذهب إلى حيث لا تعلم وهي تمشي في مسالك «المجهول».

وحسبت أنني الآن لست بحاجة إلى أن أقول لك: أنني غير سعيد...

وماذا نحن في هذا العالم حتى نكون سعداء؟ إننا لسنا إلا سهاماً حية تطلقها الأقدار... وأي سعادة للسهم الذي يسعى إلى ما لا يعرف، ويخرج من حيث لا يدري...؟

حسبي الآن فقد عييت، ولكنني أشعر بشيء من الفرح إذا أشعر أنني فرغت من واجبك الذي حملتنيه، وهو كتابة رسالة إليك.

فخذ هاته الرسالة واقراها إن وجدت فيها ما يقرأ، وسلام عليك وعلى والدك الوقور وعلى أهلك وإخوانك وأخلاء الجميع. ودمت لأخيك⁽¹⁾.

(1) العالم الأدبي س 4 ع 19.

رسالة ثانية إلى:

مصطفى خريف

حمداً وصلاةً وسلاماً.

المشروحة: مقاطعة قسنطينة «الجزائر» 25 - 5 - 1352.

[16 - 9 - 1933]

أخي الفاضل،

تحيةً وسلاماً، وبعد فقد اتصلت برسالتك الجميلة من عهد بعيد؛
ومرت بي الأيام بعدها زمراً إثر زمرة، ومرت بي الحياة ذات ألوان شتى،
فكنت سائماً ملولاً حيناً، وكنت مبتهجاً مسروراً أخرى، وكنت حالماً
أناجي بنات الخيال، آونة أخرى، وكنت نافخاً ساخطاً ثائراً على الدنيا
والناس - كما أنا الآن - وقد شاء القدر أن لا أكتب إليك إلا في هاته الأيام
التي لا أفتأ أردد فيها أبيات أبي الطيب:

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثم
أجل يا صديقي تلك هي الحقيقة وإن من يحسن ظنه بالناس لهو
الطفل الغرير، والجاهل الغبي الأحمق المأفون الذي لا حظ له من القدر
إلا صفة الموت، وقهقهة السخر العميق.

تلك كلمة طفحت بها النفس وفاض بها القلب وما كان من حقي أن
أكتبها إليك أنت الرجل الحالم في ليلك ونهارك ولكن قدر فكان. وبعد

هاته الخلطة أقول لك أنني ربما قدمت إلى الحاضرة بالرغم عني آخر هذا الشهر! نعم أقول بالرغم عني وأسأل الله أن لا يقدر ذلك أيضاً! لأنك تعلم أن الحاضرة لا تلائمني قط، ولذلك فقد كرهتها رغم ما لنا بها من إخوان ووددنا لو سمح الدهر فضم شملنا بهم وشيكاً.

أما صحتي يا صديقي فإنها بين بين، لا تسوء كثيراً ولا تسر كثيراً، وتلك هي حياة الرجل العليل.

أما البلدة فهي جميلة وخصوصاً ضواحيها في المساء وفي ليالي القمر ولكنني أقول لك أنني لبثت بها نحواً من شهرين مقفل النفس ميت المشاعر لا أحس لها بجمال قط. وما تحركت نفسي بجمالها إلا حين جاءت «النوبة» وأخذتني حمى الشعر، إذ ذاك أدركت جمالها وتفتحت له نفسي وأصبحت أحس أنني حلم طائر في عالم مسحور...، ولكن «النوبة» لم تنته حتى هاجمتني الدنيا بما لم أكن أنتظر من أقدارها وغنائها وذلك هو الإعصار الجهنمي الذي كان من شواظه طالعة هاته الرسالة.

أرجوك أن تكتب إلي فإنني في شوق إلى أخبارك وأخبار الحاضرة ولا يفوتني يا صديقي أن أشكر لك ما وجهت إلي من جرائد الشرق أما أنا فماذا أهدي إليك؟ لقد حاولت أن أنسخ إليك قصيداً جديداً أقدمه هدية صغيرة إليك، فاستسختف الفكرة وزادني عنها صدوداً كسلي المطبق ونفور نفسي في هذه الأيام.

أرجوك أن تقرئ صديقنا الفاضل سيدي علي بن حميدة تحياتي وإنني أرغب أن يوجه إلينا فوراً ما سأذكره من كتب على طريقة «ضد الدفع: كونتربورسما» وأقول فوراً لأنني أريد أن أتصل بها قبل سفري القريب المنتظر حتى أتمكن من تسليمها إلى أربابها أما الكتب فهي:

٢٣٠٠ مصحف قرآن من النوع الذي سعره.

١٥٠٠ شمس المعارف الكبرى سعرها.

٠٢٠٠ شرح البروج سعره.

١٤٠٠ مصحف قرآن من النوع الذي سعره .

وقد أخبرني الأخ مهدي أن هذا المصحف الأخير بهذا الثمن يوجد عند الأمين فإن كان لا يوجد عند سي علي فالرجاء أن يشتريه ويوجهه مع الثلاثة أسفار المذكورة فوقه . والأمل المبادرة بذلك . كما أرجو أن تقابل الأمين وتسأله كم باع من العشرين نسخة التي سلمتها له من «الخيال» وأسأل الثميني مثل ذلك وأسألهما طرح ما ينوبهما من الأجر وبيان الباقي خالصاً لي . ولا بأس من استفسار سي علي عن المقدار الذي يأخذه أصحاب المكاتب عادة في مقابل بيع الكتب لأربابها . وسلام عليك .

أخوك أبو القاسم الشابي

رسالة إلى:

محمد صالح المهدي

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم .

عشية يوم الأحد في 26 محرم الحرام سنة 1337

[1927/1/24]

حضرة صديقي الأديب سيدي محمد الصالح مهدي .

تحيةً وسلاماً وبعد فقد كنت وعدتكم - ووعد الحر دين - أن أذهب إليكم أمس التاريخ لاستلام الورقة المعهودة ولكن للضرورات أحكام قاسية لا ترحم، جائرة، لا تعدل، دفعت بي لأن أخلف الوعد، قسر إرادتي .

فقد عرضت لي أمس شواغل عاقتني عن الذهاب إليكم طبق الوعد وأجبرتني على أن أقعد عن تنفيذه، أما اليوم فقد أنهكتني الكلال وهد فؤادي الإعياء الشديد من جراء ما عانيت من اقتناء لوازم ضرورية لا يمكن أرجاؤها إلى حين حيث أنني شاخص إلى زغوان بكرة الغد، وبما أن الأعياء قد أبهضتني أعباؤه فإني أستمنحكم عفواً إن جاءكم قلبي بدل قلمي، لأنني وددت لو أمكنتني المسير إليكم لتسلم الورقة، أما وقد عرض ما عرض فإني أرجو منكم - وأنا مطمئن، بأن أملني سيصادف تحقيقاً وأن صوتي سيلقى تلبية - أن توجهوا لي الورقة ضمن كتاب توجهوه باسمي إلى بلد زغوان .

وفي الختام تقبلوا امتناناً وتحيات المخلص بلقاسم بن محمد بن بلقاسم الشابي .

رسالة ثانية إلى:

م. ص. المهدي

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم.

توزر الجريد في ذي القعدة سنة 1349

[مارس / أبريل 1931]

أخي الفاضل المحترم⁽¹⁾.
تحيةً وسلاماً،

وبعد فإنني أشكرك على رسالتك الجميلة القيمة وعلى عواطفك النبيلة نحو وطنك وقوميتك وعلى نصائحك الثمينة التي كنت بها متشائماً في ظنك بالناس وبالحياء أكثر من المعري وشوبنهاور ولكنه رغم تغاليه تشاؤم جدير بالإعجاب والتكريم لمن أراد أن يكون من الناجحين في الحياة وإن تعجب فأعجب لهذا التشاؤم الذي يجدر بالطامحين المتفائلين اتباعه إن أرادوا الفوز في معمة الكون ومعركة الكائنات. أما حديث «المدرسة القرآنية التوزرية» فإنني سأوجز لك خبره في هاته الأسطر:

لقد أشعل جذوة هاته الفكرة إخواننا تلامذة جامع الزيتونة، فانعقد بفضل مساعيهم الاجتماع الأول الذي ضم قداماء تلامذة الجامع الأعظم ومحدثيهم وبعض الذوات الذين يتعشم فيه⁽²⁾ استنارة الفكر ومعاوضة هاته

(1) بالتأكيد هو صديقه محمد الصالح المهدي: كما يدل مضمون الرسالة كجواب عن رسالة المهدي الآتية.

(2) كذا بالأصل.

المشاريع وفي هذا الاجتماع انتخبت الهيئة الأولى الذي عهد إليها إعداد العدة لعقد الاجتماع العام الذي تنتهي فيه وظيفتها. وقد قامت هاته الهيئة بما في استطاعها أول الأمر فخبرت عامل⁽¹⁾ المكان بالفكرة فكان من المستبشرين بها المعجبين حتى أنه ذهب بنفسه إلى المراقبة المدنية ليستأذن المراقب⁽²⁾ في عقد ذلك الاجتماع ولكن الصدف السيئة قضت بمرض المراقب في ذلك اليوم نفسه وملازمته الفراش فاضطر العامل إلى كتابة ورقة وإبقائها بالمراقبة ريثما يبرأ المراقب ويطلع عليها وضمن بها الفكرة والطلب، وظللنا ننتظر بفارغ الصبر شفاء المراقب وتصاعدت الدعوات بشفائه إلى عنان السماء، وهاته أول مرة يدعو فيها المسلمون ربهم لفائدة مسيحي «كافر»، وطال المرض بالمراقب مدة فاقت على العشرة أيام ولما خرج وقيل إنه نقه من مرضه ذهب إليه العامل مهتماً بالشفاء ومجدداً في الطلب؛ فما كان من المراقب إلا أن جذب مجموعة أوراق مكتوبة بالقلم الفرنسي، وقال له إن الفصل كذا نص على أنه لا يأذن بعقد الاجتماعات العامة إلا الوزير الأكبر ولذا فهو يشير بأن يوجه للوزارة الكبرى بهذا الطلب. وأعلمنا العامل بذلك وإني لحد الآن لا أعلم علم اليقين هل أن ما قاله المراقب صحيح أم لا. وقد فتت هذا الجواب في أعضاء كثير كثير من أعضاء هاته الهيئة الوقتية وأوجب تكاسل الكثير منهم لأسباب كثيرة. وبعد اللتيا والتي حرر المكتوب إلى الوزير الأكبر بهذا الطلب وقد وجه إلى الوزارة على طريق إدارة العمل منذ أيام ثمانية أو أكثر.

وقد طلب بعض تلامذة الجامع بتونس من سي علي بن عمار العدل بتوزر ورئيس الهيئة الوقتية أن يوجه بعدد المكتوب حتى يمكنهم إثارة على الوزارة في هاته القضية وأحسبه وجه إليهم بالعدد؛ وبهذا تنتهي مهمتنا

(1) العامل هو تونسي يمثل الحكومة التونسية، بمثابة الوالي أو الحافظ.
(2) المراقب المدني (في أيام الاحتلال الفرنسي، هو مدني فرنسي يتولى حكم المنطقة نيابة عن سلطة الاحتلال الفرنسي.

نحن وتبقى مهمتكم أنتم . وها نحن ننتظر ما تعملون نجح الله الأعمال
وحقق الآمال .

وفي الختام تقبل التحية من أحمد عبد السلام ومن خالي الذي
أضافك ومن سائر إخواننا الذين يعرفونك أو يسمعون باسمك ومن أخيك
المخلص .

أبو القاسم الشابي

رسالة ثالثة إلى:

محمد صالح المهدي

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم.
عين دراهم في ربيع الأول سنة 1351.

[يوليو - 1932]

حضرة الأخ الفاضل⁽¹⁾، تحيةً وسلاماً، وبعد فقد كاتبك بمكتوب طلبت منك فيه أن تجيبني عما يأتي:

- (1) هل اتصل صاحب الزهرة⁽²⁾ بالفرنكات 100 كاملة؟
- (2) أن تؤكد على كبريائك⁽³⁾ في إتمام المفاهمة مع صاحب (الدبيش)⁽⁴⁾ وتعريفي بنتيجتها وبما وقع الاتفاق عليه في الثمن.
- (3) أن توجه إلى توصيل جريدة الزهرة في المائة فرنك حتى يمكنني الادلاء به عند الحساب.
- (4) إذا رأيت منه تراخياً فيما يتعلق بالدبيش فإنني رغبت منك أن تتفاهم بنفسك مع إدارة الدبيش في ثمن النشر وتعرفني بالنتيجة وتعطي الإعلان إلى الأخ عثمان الكعك أو من ترى فيه كفاءة الترجمة ثم تسلمه لإدارة الجريدة.

(1) هو بالتأكيد صديقه محمد صالح المهدي.

(2) جريدة تونسية يومية.

(3) شاعر تونسي توفي 1945.

(4) جريدة فرنسية استعمارية واسعة الانتشار ولا نعلم موضوع الإعلان؟

هذه أسئلة كنت طلبت منك الإجابة عنها وحدثتك فيها عند وداعنا، وقلت لك، أنها أمور «حيوية»، ولذلك فالمرغوب أن تعبرها اهتمامك التام خصوصاً وأنت على علم من أن آخر أجل هو أوت [أغسطس] وهو قريب جداً، ولكنني رغم كل ذلك لبثت أنتظر بدون طائل أو جواب منك؛ ولهذا فالمرغوب من أخوتك وحزمك وفضلك و«رئاسة تحرير الزمان» أيضاً وغير ذلك.. المرغوب من كل هاته الأشياء المحترمة أن تتكرم بإجابتي عما ذكر وأن تتم الأعمال وتعرفني بالنتيجة، خصوصاً وأنه يصلكم صحبة هذا ظرف مطبوع بطابع البريد بحيث لا يكلفكم الأمر إلا القيام بما طلبت منك وإجابتي بالخلاصة ولا أخالكم تبخلون على أخيكم الذي اعتمدكم في تلك المهمة بالعمل والجواب.

وها أنا أنتظر ورجائي أن يصلني جوابكم سريعاً سريعاً حتى أوجه لكم المال المتفق عليه من طرفكم مع إدارة الدبش ولكم شكري العميق.

وختاماً فإنني ألاحظ لكم أنني أنتظر جوابك والأخ مصطفى والأخ عثمان في موضوع القدوم، وأيضاً فإنك في هذا الأسبوع قد تراخيت علي في توجيه الزمان بحيث أنه لم يصلني اليوم «الاثنين» كعادته.

وبلغ سلامي لحضرة الإخوان مصطفى، الكعك، السنوسي، كرباكة، وسائر الإخوان والسلام عليك.

رسالة رابعة إلى:

محمد صالح المهدي

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم.

المشروحة في ربيع الأول سنة 1352.

[25 - 7 - 1933]

حضرة، الأخ الفاضل سيدي محمد الصالح مهدي، تحيةً وسلاماً فقد كنت وافقت لبعض أحبابي على جبّتين⁽¹⁾ قمراية⁽²⁾ شخمة⁽³⁾ بتونس⁽⁴⁾ عند أحد البرانصية⁽⁵⁾ ولكن البرانصي⁽⁶⁾ لم يحضرهما يوم سفري فكلفت الأخ سيدي أحمد بن إبراهيم ومحمد عبدالسلام بردي بأن يتسلمهما من البرانصي عند إتمامهما ويوجهانهما إلي على طريق البريد ولكن لقد مضى الآن نحو عشرة أيام ولم أتصل منهما لا بالجبّتين ولا بأي خبر وأخشى أن يكون الأخ أحمد بن إبراهيم والأخ عبد السلام قد سافرا وتركوا الجبّتين؛

(1) لباس بلدي تونسي.

(2) نوع من القماش.

(3) لون مشهور بتونس (رمادي).

(4) مدينة تونس.

(5) جمع برانصي، وهو خياط البرنوص من الملابس المغاربية المشهورة.

(6) مفرد الكلمة السابقة.

ولذا فالمرغوب منك أن تتفاهم معهما في الأمر إذا كانا هناك وتعرفني
بالنتيجة ولك وافر الشكر.

والرجاء أن يكون الجواب سريعاً فإني في شك مريب.
ولقد وجهت إليك صورة تذكارية للمشروحة فلعلها وصلتك سلامي
إلى سائر الإخوان وخصوصاً: خريف، الكعك.

وسلام عليك: أبو القاسم الشابي

رسائل إلى الشابي

1 - من المهدي إلى الشابي

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

تونس في 28 رمضان وفي 1 مارس سنة 1347 هـ 1929 م.

أيها الأخ الفاضل العزيز سيدي أبو القاسم الشابي تحية صديق وسلام ودود، وبعد: فقد تشرفت يوم التاريخ بمكتوبكم وبعد قراءته حمدت الله على حسن صحتكم وشكرتم على حسن ظنكم بي لكوني أرسلت لكم النديم والزمان حسب الوعد، وهذا أيها الصديق، لم يقع مني؛ وذلك لأن الأخ السيد أحمد بن إبراهيم هو الذي قد قام وحده بتلك المهمة وبها اكتفيت. أما المفاهمة مع السيد السنوسي في شأن المسامرة⁽¹⁾ فهي الآن أصعب من الصعب؛ وذلك لأنه كما لا يخفاكم أن السيد المذكور صهر الأمير الذي رقي عرش الإمارة هذه الأيام⁽²⁾ وبذلك صار السيد السنوسي دامادا لا يقاس بما تقاس به الرعية وتحول الاشتغال بالأدب إلى الاشتغال بالتشريفات وصار وجوده في النادي الأدبي⁽³⁾ أعز

(1) أي محاضراته عن الخيال الشعري.. حيث أوكل لصديقه المهدي المفاهمة مع صديقهما زين العابدين السنوسي صاحب مطبعة العرب في طبعها عنده وهو ما تم فعلاً.

(2) هو الباي أحمد الثاني. وكان الزين السنوسي قد تزوج قريبة له «أميرة..» وآل أمره معها إلى الطلاق.

(3) التابع لجمعية قدماء الصادقية الذي كان الشابي والسنوسي والمهدي من أنشط أعضائه ويمثلون فيه تياراً قومياً من التجديد والتحرر الفكري.

من بيض الأنوق . وفي الحساب أنه عما قريب ستحول إلى ما تحول إليه أمثاله الأدباء من قبل . ولعل أحسن وسيلة يمكن لنا بها نشر المسامرتين⁽¹⁾ أو المسامرات في هاته السنة هي المفاهمة مع (الجيلاني الفلاح) أو مع الأمين الكتبي أو غيرهما من ناشري الكتب وهذا لا يمكن في هاته الأيام خصوصاً وأن عيد الفطر على الأبواب ولترك المسألة إلى شهر آخر ريثما نضيف إليهما مسامرات⁽²⁾ أخرى ليكون النفع أكثر والشوق أبعد، أما مسامرات النادي الأدبي في شهر رمضان فستفاهم عليها ملياً عند رجوعكم إلى تونس في اليوم الثاني من عيد الفطر حيث أننا أرسلنا لك مكتوباً في الدعوة إلى حضور حفلة المعايدة التي سيقدمها النادي في اليوم الثالث من شهر شوال . هذا وأنا على أثر كتابة هاته السطور سأذهب إلى مسامرة الختام التي سيقوم بها السيد أحمد خير الدين زميلي الفاضل .

وتقبلوا في الختام فائق الاحترام من أخيكم محمد الصالح [المهيدي]

(1) هما مباحرة الشابي عن الخيال ومباحرة المهدي عن امرئ القيس . وهذه لم تنشر إلى الآن .

(2) يبدو أن فكرة النشر كانت في الأول نشر موسم محاضرات النادي لعام 1929 . ولكن لم ينشر منها سوى مباحرة الشابي وعلى حسابه الخاص .

2 - من المهدي إلى الشابي

أخي العزيز وصديقي المخلص السيد بلقاسم الشابي .
تحيةً وسلاماً وبعد،

أخي لا أستطيع أن أعبر لك عما حل بي من السرور عند ما طرق سمعي خبر عزمكم مع ثلة من فضلاء توزر على تأسيس مدرسة قرآنية بتوزر تكون نواة النهضة القومية في تلك الواحات وبين تلك السباسب والنفادف؛ تلك النهضة التي سعى غالب سكان المدن والعواصم في البلاد التونسية في التحصيل عليها بواسطة النوادي والمدارس والمؤسسات الأهلية فكان نصيبهم منها ملائماً لما بذلوه من الخدمات في هذا السبيل. أما بلاد الجريد فقد كانت لعهد قريب مضرب المثل في الذكاء والفطنة والنبوغ ويُعزى إليها الفضل الأكبر والقسط الأوفر في النهضة التي توالى في هذا القطر مدى الدول الإسلامية. وهاته كتب التاريخ تحدثنا عن مآثرهم العلمية والاجتماعية، وهاته الأسفار الضخمة التي خطها علماء الجريد في مختلف العصور في كل العلوم التي كانت معروفة عند أهل تلك العصور أكبر دليل وأقطع برهان على صحة ما نقول؛ لذلك، إذا قمتم اليوم بهذا العمل الجليل - حقق الله نجاحه - وأنتم تنشرون مجدداً رفيعاً وذكراً حميداً وتنشرون صفحات مطولة من سجل تاريخ المدينة الذهبي الذي أشاده أجدادنا على أسس متينة ملؤها القوة والثبات.. ثقوا أيها الصديق بأن عملكم هذا سيرمق من مواطنينا سكان بقية القطر بعين الإكبار والإجلال، حيث يذكرون ذلك التاريخ المجيد وتلك العصور التي أنجبت ابن الشباط وابن الكردبوس وأبا

الفضل النحوي ومحمد بن خلف النفطي⁽¹⁾ قاضي الجماعة بالحاضرة وغيرهم من رجال العلم، وأمثال بني يملول وبني خلف وبني مدافع وغيرهم ممن أسسوا الدول وامتلكوا الزاب والجنوب بتمامه من الشمال الإفريقي، وغير هؤلاء من رجال السياسة الذين ارتعدت منهم فرائص الدول في ذلك التاريخ ودوخوا الممالك الصغرى، وملكوا الرقاب وأشادوا الدول. بمثل هذه الاعتبارات وغيرها سيرمق مشروعنا هذا غيرنا من سكان بقية البلاد؛ فلنحقق هذه الأمنية فينا ونقدم المثل الأعلى في العمل ولنكن خير خلف لخير سلف، وليكن رائدنا في العمل الإخلاص للوطن - الإخلاص للوطن - الإخلاص للوطن - فمثل هذا الاعتبار وبمثله وحده نبغ المرام ونحصل على المقصود، قد كفى ما فات من الشقاق والنفاق، ومضى عصر التناؤب بالألقاب والتحدث بالنقائص والمشى بالنميمة. والجريد كله بلد واحد والإيالة التونسية كلها بلد واحد والشمال الإفريقي كله وطن واحد، فقد جمعت بيننا رابطة الدين القويم واللغة الشريفة والعادات والأخلاق تشربت من بعضها. وإن الطباع تشرف الطباع. وهذه الحركة التجارية والارتباط المتين والتلاحم الذي يزداد يوماً بعد يوم بين مدن الجريد من أكبر عوامل الوحدة. كما إن الوحدة الجغرافية والطبيعية تجعلنا كالحلقات المفرغة لا يُدرى أين طرفاها، وهذه أخيراً الوحدة الإدارية توجب هذا الارتباط وتعتبره قاعدة أساسية في تسيير دولاب الحياة العامة في ذلك القطر. فلتكن هذه العوامل أيضاً رائدنا في العمل الذي تقومون به وليكن اتحادنا فعلياً قبل كل شيء فإذا جمعنا هذه الكلمة ووجدنا صوتنا أمكن لنا النجاح في العمل⁽²⁾.

أخي - وعذري قبل كل شيء - وفي ذلك خاصة أن الحياة العملية

(1) من مشاهير علماء الجريد في العصور الإسلامية.

(2) كانت بين مدن الجريد حساسيات جهوية. والمهيدي يشير - ضمنا إلى ذلك - خاصة وهو شخصياً من مدينة نفطة، والشابي من مدينة توزر.

هي غير ما نتصوره نحن الذين شرعنا في الدخول إليها ولا زال البعض منا يدب إليها دبيب النمل؟ فهي حياة ولكنها موت إذ أساسها النفاق وقوامها المداجاة؟ وعمدتها المراوغة وروحها الملق؛ فإذا اتخذ الإنسان بمبادئ دستورها هذا فهو ناجح لا محالة أما إذا تتبع الإنسان الحقيقة التي تتصورها فقط ولا سبيل إلى الحصول عليها فهو ضال لا محالة ويكبو به الجواد من أول خطوة. أخي إن الجهل سائد ويتحكم في الأموال والأرواح.. هو وحده هناك، فليكن دائماً نصب عينيك هذه الحقيقة.

قاسم بن صالح

وإن الحرب سجال كما يقول المثل، ولتترصد الفرص الملائمة للانتصار، فالقوم سلاحهم الجهل فليكن سلاحك العفو والصفح والمعذرة، وبعبارة أصرح المراوغة والنفاق والملق وغير ذلك من الأسلحة الرائجة سوقها في هذه الأيام. واعلم أن الصبر هو مفتاح باب النصر فليتسلح به الإنسان قبل كل شيء.

ويجب أن تغض الطرف عن فلسفة نيتشة والمعري ومن ذهب مذهبهما في الحياة. فليس هذا بعصر التشاؤم والتنفير من الحياة والحط من كرامتها، بل يجب أن نأمل وأن نعيش - موقتاً - بالأمل. والله در الشاعر القائل:

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

أخي أقول لك هذا حيث أعتقد أنك الآن فوق الدرجة العليا من سلم الاستطلاع وراء صور الحياة. فها أنت تنظر إلى هذا البحر الخضم المتلاحم الأمواج من الأخلاق والعادات والتقاليد والأوهام والتي يعبر عنها بالحياة الاجتماعية. إنك ولا شك، وقد نظرت لأول مرة في هذا المجتمع، أدركت هذه الحقيقة، قبل أن تنزل إلى الميدان، وتكافح مع هؤلاء الذين ألفوا هذا المجتمع الأرعن. ولتكون خطوتك الأولى عند

نزولك لهذا الخطر ثابتة، معتمداً فيها على دستور حياة المجتمع الذي قدمته لك. وليكن سلاحك المعنوي المتين الذي تعتمد عليه في تبليغ دعوتك لتحقيق نجاح المشروع هو الصبر، فبه وحده يمكن الفوز في هذه الحياة.

أخي لا تعتقد أنني أفرض عليك هذا فرضاً كي تكون عبداً لي وتحت إشارتي، بل إن غايتي من ذلك أن تجرب هذا المبدأ وتختبر بنفسك نتيجة العمل به، فهو عندي ولا شك أنجع وسيلة لبلوغ المراد.

وفي الختام أتمنى أن يبرز مشروع القرآنية التوزيرية إلى عالم الوجود في وقت ليس بالطويل وأن يكون فاتحة لمشاريع أخرى تؤسس بتوزر ودعوة لبث فكرة النهوض والعمل على منواله من لدن سكان بقية مدن الجريد، فيشمروا على ساعد الجد ويعملوا كلهم يداً واحدة للنهوض بالمشاريع القومية!

وفي الختام أتمنى أن يُحيطني علماً بكل ما وقع من الأعمال لإبراز هذا المشروع إلى الخارج ولو بإجمال كي أكون على خبرة تامة إذ ربما تساعدني الظروف على بسط هذه المسألة للرأي العام التونسي في الصحافة، وأقوم بها بيث الدعاية هنا أمام الفكر العام والحكومة، كي تمهد بها السبيل للنجاح. على أن هذا العمل الذي أطلبه منكم ربما لا ينحصر إلا في الأعمال الأخيرة أما الأولى، وإن كانت بتراء - فقد أعلمني بها السيد عبدالعزيز سعيد بشيء من العاطفة دلني على تمكن هذه الفكرة - منه حتى أصبحت عقيدة راسخة له ولأمثاله. حقق الله هاته الأمنية للجميع كما أنني لا أنسى أن أذكر لكم عاطفتكم الجميلة نحوي بما أرسلتموه لي من التهئة بعيد الفطر. واذكر دائماً وأسأل كثيراً عن أخ الجميع السيد أحمد بن عبدالسلام، فقد بلغني خبر الحادث الذي أصابه أيام زفافكم المبارك بما عكر نوعاً صفو السرور الشامل؛ فبلغ إليه تحيتي، وإلى السيد أحمد بن إبراهيم وإلى السيد الكيلاني والسيد رمضان

وأخيهم الشيخ أحمد أبناء سعيد، وإلى السيد الحاج إبراهيم بن عمارة
وإلى خالكم المفضل الذي أضافنا في السنة التي قبل الماضية وإلى
السيد محمد الغول وإلى جميع الزملاء والرفقاء وجميع أهلكم ومن يسأل
عنا من أهل الجريد.

وأخيراً تقبل فائق احترامات متمني سعادتكم ونجاح مشروعكم:
صديقكم محمد الصالح المهدي. وحرر في 9 شوال وفي 25 فيفري
[شباط] سنة 1349 هـ 1931 م.

محمد علي السراج

دمشق، الجمعة: في 20 تشرين الثاني سنة 1931 تونس.

يا أبا القاسم:

زرت قبل ثلاثة أسابيع عاصمة بني حمدان «حلب» فألفت
الطبيب الشاعر السيد علي الناصر يطالع خيالك الشعري الذي أهديته
إلى الأخ سامي الكيالي صاحب مجلة الحديث فأرادني الناصر على
تصفحه لما يعلم من نزعتي للوثوب من الأسر في سجن الأدب القديم
المحتم؛ إلى الانطلاق بالفكر، والتحليق في سماء الآداب على جناح
الخيال الحر لتبرز العاطفة طبيعيةً محببةً إلى النفوس مع إلباسها ما
يلائمها من الصبغة القومية والطابع الخاص المستمد من روح الشرق لا
من طراز تفكيره.

قرأت بعض الفصول من الخيال الشعري فتجسدت لي من بين
تضاعيفه روح وثابة وجرأة تونسية مباركة بها جرأة قطان «الكنانة»
خصوصاً (الطحاسين) منهم لأن نزوع أبي القاسم مقرون بالمقابلات
الصحيحة والمثل المقنعة مع المحافظة على الديباجة العربية والتركيب
الصحيح.

وقد حملني الإعجاب بخيال أبي القاسم وإقدام أبي القاسم وباقتناء
آثار أبي القاسم على تكليفه الإيعاز إلى صاحب المكتبة الموكل ببيع
«الخيال الشعري عند العرب» أن يتلطف بإرسال نسخة إليّ بعنوان:

«دمشق - مدرسة التجهيز والمعلمات. مدرس الأدب العربي محمد علي السراج». وليكن ذلك في البريد ضد الدفع، أو ليعلمني مقدار الثمن لأقدمه مع الشكر حواله على البريد.

آمل أن تكون أنجزت وضع مؤلفك الثاني لنغذو به أرواحنا العطشى لصوب التفكير الحر مستنداً إلى العلم الصحيح والذوق السليم وهذا غاية ما يصبو إليه صديقك في الروح والمنزع.

محمد علي السراج

أحمد زكي أبو شادي

سيدي المفضل الأستاذ أبو القاسم الشابي المحترم:
لجهلي بعنوانكم الخاص بعثتُ إلى حضرتكم بعنوان (مطبعة العرب
بتونس) بمجلة «أبولو» فأرجو أن تكون قد وصلتكم.
ونظراً لأنني بين من يقدرّون مواهبكم الممتازة فأرجو أن لا تُخرَم
«أبولو» نظراتكم الدراسية في الشعر العربي وقصائدكم الفنية..
وتقبلوا أحسن تمنياتي وولائي.

المخلص

أحمد زكي أبو شادي
سكرتير (جمعية أبولو)

32/12/14

أحمد زكي أبو شادي

عزيزي الأستاذ الشابي .

لعلّ ما ينقصك من أعداد مجلة أبولو قد وصلك، وكلّي شكرًا لفضلك ولمعاونتك القيّمة وكذلك لمعاونة الأستاذ الحليوي (ونحن مع الأسف نجهل عنوانه فليس في إمكاننا إرسال المجلة إليه)، وقد أنجزنا نشر جميع ما تفضّلتَ به من قصيد في مجلة أبولو، ويسرّنا موالاتنا بشعرك البديع وأن تخصّ أبولو في المستقبل بإنتاجك الشعري ودراساتك الشعرية .

وإني أنتهز الفرصة لأشكر لك ما بعثتَ به من تقرّيز لديوان (الشعلة) وإذا كنتُ قد تحاشيتُ نشره فذلك راجعٌ إلى ما اعتدناه من تجنّب نشر التقاريز، ولكنني أُسرّ بدراسةٍ من قلمك تصلح تصديراً لديوان «الينبوع» الذي تقوم بطبعه الآن مطبعةُ التعاون . وإني مرسلٌ إليك مع هذا الكتاب الكراسة الأولى من هذا الديوان الجديد، وأحسب أن ديوان «أطياف الربيع» قد بلغك من قبل لأنني علمتُ أنه أرسل إليك فعلاً وكذلك محاضرة الأستاذ أحمد محرم ومحاضرة الأستاذ محمد عبد الغفور .

فإذا طاب لك التفضّل بكتابة تصدير لديوان (الينبوع) فسيسرّني موافاتك بالكراسات التي تُطبعُ منه تبعاً تاركاً لك حرية التحليل والنقد، ولك أن تسهب كما تشاء وأن تضمّن هذا التصدير زبدة مطالعاتك في

الشعر العربي وغيره وما تراه من تطوّر فيه وما انتهى إليه الآن من منزلةٍ
محمودةٍ بحث تكون هذه الدراسة بمثابة كتاب عن الشعر عامة وتحليل
للديوان خاصة فنعتزّ به .

وتقبّل يا صديقي النابغة أذكى تحياتي وإعجابي .

المخلص دائماً
أبو شادي

33/10/13

طاهر الطناحي

حضرة الأديب المفضل الأستاذ أبو القاسم الشابي المحترم .
تحية واحتراماً . وبعد - فقد قرأت لكم بعض قصائد ممتعة في
بعض المجلات ، ويسرني أن ترسلوا إلينا قصيدة من قصائدكم التي لم
تنشر من قبل لنشرها في الهلال .
وأقبلوا فائق احترامي .

سكرتير تحرير الهلال
طاهر الطناحي

القاهرة في 8 يناير 1934

القسم الثاني

مواقف الشابي
من عصره

للتاريخ

البؤسُ لابن الشعب يأكل قلبه
والمجد والإثراء للأغرابِ
والحقُّ مقطوع اللسان مكبلٌ
والظلم يمرح مذهب الجلبابِ
والشعبُ معصوب الجفون مقسمٌ
كالشاة بين الذئب والقصابِ
وأَمْض ما صدع القلوب ورضها
عِزُّ الصليبِ وذلة المحرابِ (1)
هذا قليل من حياة مرة
في دولة الأجاب والألقاب

«الشابي»

(1) هذا البيت محذوف من ديوانه في جميع طبعاته ١٩

مواقف الشابي
من الكفاح النقابي
والوطني

موقف الشابي من حركة محمد علي (1)

كلما قام في البلاد خطيب
أحمدوا صوته الإلهي
أبسوا روحه قميص اضطهاد
إن ذا عصر ظلمة غير أني
موقف شعبه يريد صلاحه
بالعسف، أماتوا صداحه ونواحه
فاتك شائك يرد جماحه
من وراء الظلام شمت صياحه
ضيع الدهر مجد شعبي ولكن
سترده الحياة يوماً وشاحه

الشابي

في منتصف عام 1952 صدرت الطبعة الأولى من كتابي «الشابي حياته وشعره»، وجاء في خاتمة الكتاب - بالخصوص - ما يلي:

«... كان الشابي من جند الطليعة القليلين، الذين تكبدوا وحدهم أمر التضحيات وأهول العذاب، في سبيل الرسالة المقدسة والعمل النافع لأمتهم، فلقد حمل الشابي لواء التجديد في الأدب، كما حمل المرحوم الدكتور محمد علي لواء الإصلاح الاقتصادي والدفاع عن الطبقات العاملة المضطهدة وإلى جانبهما كان المرحوم الطاهر الحداد، قد بذل حياته العزيزة يوم تقدم وحده إلى ساحة النضال وحمل بشجاعة نادرة لواء الإصلاح الاجتماعي بدعوته الجريئة الصادقة، إلى تحرير المرأة والنهوض بها... كذلك نرى فريقاً آخر⁽¹⁾ من المناضلين الأحرار،

(1) هم قادة الدستور الجديد.

قد حمل وحده لواء الإصلاح السياسي والنهوض بالشعب من جموده وركوده، ودفعه إلى معمعة الحياة، ليكافح في سبيل حقه فيها، وليناضل عن استقلاله الفريد وحرته الضائعة.

«وقد اتخذ هؤلاء المصلحون الأختيار - كل في ميدانه الخاص - سبيل التجديد، واستعملوا أساليب فنية مستحدثة، لا عهد لسابقيهم بمثلها، فيها القوة والإيمان، والحيوية والعزم، والثبات والجد، والتضحية والفداء، وأن أي عمل مقدس جليل من أعمال البشرية، كان خالياً من واحد من تلك المثل جميعاً، لمحكوم عليه سلفاً بالفشل والانحجار.

وما كان طريق المجد - في يوم من الأيام - مفروشاً بالأزهار والورود ولا كان للإنسانية - في تاريخها الطويل - أن تخطو إلى الأمام شبراً واحداً دون آلام وضحايا.

وما كان لقائد أن يكسب معركة في حرب، أو ينال نصراً في قتال، دون خسارة في جنده، وتضحيات في عدده وعتاده.

... وها هي تلك الجهود الرائعة، التي بذرها الشابي في حياته، وبذرها رفاقه (من جند الطليعة) في مناحي الحياة الأخرى، وسقوها جميعاً بدمائهم وتضحياتهم، ها هي اليوم تمد ظلالها الوارفة على حياة الشعب التونسي، وتخلق منه قوة جبارة واعية، تعمل للخلاص في كل حقل من حقول الحياة وتشيد بناء المجتمع الجديد المنتظر، في كل ركن من أركان الوطن.

رفاق الفكر والكفاح

ولا شك في أن القارئ قد أدرك - من خلال هذه الفقرات - مغزى

هذا الربط - الواضح - بين الشابي من جهة، وبين محمد علي والطاهر الحداد وحركتنا الوطنية الجديدة⁽¹⁾ التي أمكنها - فيما بعد - أن تقود البلاد إلى النصر.

ذلك أنني منذ عام 1952 وأنا أشعر بوجود علاقات فكرية وربما شخصية بين هذا الثالث الفقيد: محمد علي والحداد ثم الشابي.

وتتابعت الأيام والأحداث، فازددت بها وبالوثائق التي اطلعت عليها، يقيناً في وجود تلك الصلات والروابط - على نحو ما - بين هؤلاء الشبان الثلاثة، الذين اشتركوا أيضاً في تقديم مواهبهم وحياتهم فداء للوطن، وسامداً ليقظته ونهوضه واستقلاله.

ولئن كنت أشم رائحة تلك الصلات والروابط وأتلمس صدى حركة محمد علي في شعر الشابي، فإنني لم أكن أجزم بأي تحديد لها في أي قصيدة معينة من قصائد الشابي الوطنية.

وكانت صعوبة ذلك متأتية - أول الأمر - من أمور ثلاثة، هي:

أولاً - أن شعر الشابي المنشور، في حياته وفي طبعة ديوانه الأولى، كان خالياً من أي إشارة للأحداث المعاصرة له، وخالياً من أي تاريخ لأي قصيدة⁽²⁾.

ثانياً - أن الشابي في شعره الوطني كان ينزع فيه إلى تعميم إنساني، يصعب معه ربطه بالأحداث السياسية والوطنية في عصره، إلا بعض قصائد ومقاطع محدودة جاءت مرتبطة بشعبه بصورة واضحة لا غموض فيها.

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) إلا ما يرجح إجمالاً عن مجموعة السنوسي وما افترضته شخصياً في مختاراتي من شعره حيث قسمتها إلى ما قبل العشرين وإلى ما بعدها.

ثالثاً - إن حركة محمد علي قد ظهرت ثم محققها الاستعمار، ونفى أقطابها، وباعثها بالخصوص، خلال عام واحد (بين 24 - 25)، ولم يكن الشابي في هذا الوقت إلا مراهقاً في الخامسة عشرة من عمره، فهو أقرب إلى الطفولة منه إلى الشباب، فضلاً عن إدراك أي مسؤولية، وافترض أي وعي وطني قد يجعله يتجاوب مع كفاح شعبه ونضال مواطنيه، من العمال خاصة⁽¹⁾.

ولكن . . . رغم هذه العوامل الثلاثة فقد كنت أقف مراراً عديدة، أمام قصيدته «الصوت الكئيب» - المنشورة عام 1927 في كتاب «الأدب التونسي» للمرحوم زين العابدين السنوسي - أقف متسائلاً ومفكراً في الأسباب التي حملته على نظمها، وهي من قصائده الوطنية، النادرة في وضوح ارتباطها بشعبه، ودفاعه عنه، وإيمان صاحبها بمستقبل شعبه الظافر المنتصر.

إن ذا عصر ظلمة غير أني من وراء الظلام شممت صباحه
ضيع الدهر مجد شعبي⁽²⁾ ولكن . . . سترد الحياة يوماً وشاحه
وقد ازددت يقيناً، بعد دراسة تاريخ الكفاح الوطني (بين أعوام 20 - 1927) بأن الشابي لم يكن يعني بقصيدته تلك سوى محمد علي، وحركته النقابية، عقب اعتقاله أو نفيه:

كلما قام في البلاد خطيب موقظ شعبه يريد صلاحه
أحمدوا صوته الإلهي بالعسد ف، أماتوا صداحه ونواحه
ألسوار وروحه قميص اضطهاد فاتك، شائك، يرد جماحه

(1) حاول بعضهم التنديد بالشابي لأنه لم يذكر في شعره أحداثاً معينة، حدث بعضها عام 1920؟

(2) لم يستعمل الشابي كلمة - شعب - مضافة إليه في جميع شعره إلا هنا ومكانين آخرين في ديوانه.

وقد ازداد يقيني بذلك للأسباب التالية :

أولاً - لم يكن في تونس بين أعوام 20 - 1927 سوى حركتين وطنيتين هما: حركة الدستور (القديم) وحركة محمد علي النقابية .

ثانياً - أن الشابي لم يكن ليتجاوب مع حركة الدستور (القديم) لرجعية تفكير معظم قاداته من ناحية، وثورية الشابي في تفكيره وأدبه من ناحية أخرى .

وعلى هذا لا يمكن أن تكون هذه القصيدة إلا صدى لحركة محمد علي وما لقيه - هو ورفاقه فيها - من قمع واضطهاد، ثم نفي وتغريب عن وطنه وشعبه .

ثالثاً - أن الشابي، كان في ما بعد عام 1925 من أصدقاء الحداد، وكان في عام 1930 من أنصار دعوته الجريئة إلى تحرير المرأة، ومعروف أن الحزب القديم وقف ضد حركة محمد علي أولاً، وضد الشابي ثانياً، وضد دعوة الحداد إلى تحرير المرأة ثالثاً .

رابعاً - أن الشابي لا ينتظر منه - مهما كانت عبقريته - أن يقول شعراً ناضجاً قبل سن الخامسة أو السادسة عشرة من عمره . وهو ما جعل شاعريته المتفتحة على موعد تاريخي ممتاز مع حركة محمد علي (في عامي 24 - 25)، حيث كان الشابي فعلاً في هذه السن من عمره اليافع الغض .

وهكذا قامت الحجج وتأكدت بالبراهين المختلفة⁽¹⁾ ثم زادها يقيناً ظهور تاريخ القصيدة نفسها، في طبعة الديوان الثانية، وهو ينص على أن الشابي قد نظمها يوم 2 جوان 1925 كل ذلك لا يدع مجالاً للشك

(1) سبقت الإشارة إلى هذا الاحتمال - توفيق بكار - في دراسته عن الشابي عام 1966 وإن كان فيها متحاملاً على الشابي .

والاختلاف في أن الشابي قد نظم قصيدته «الصوت الكئيب» أو «تونس الجميلة» ليندد فيها بالاستعمار الذي قمع حركة محمد علي و «أحمد صوته بالعسف والإرهاق، وألبس روحه قميص اضطهاد». ولكن الإيمان بمستقبل الشعب حمل الشابي على التبشير بأن بذور محمد علي النقابية والنضالية والقومية لن تموت بل ستحيا من جديد وتقود الشعب بقيادة جديدة إلى الفوز والمجد وإلى الاستقلال والنور:

إن ذا عصر ظلمة غير أني من وراء الظلام شمت صباحه
ضيع الدهر مجد شعبي ولكن سترد الحياة يوماً وشاحه

موقف الشابي من حركة محمد علي (2)

أنا يا تونس الجميلة في لجج الهوى قد سبحت أي سباحه
شِرعتي حبك العميق وإنني قد تذوقت مره وقَراحه
لست أنصاع للواحي ولو مت وقامت على شبابي المناحه
لا أبالي وإن أريق دمائي فدماء العشاق دوماً مباحه
وبطول المدى تريك الليالي صادق الحب والولا وسجاحه

استعرضت في الحلقة الماضية من «موقف الشابي من حركة محمد علي» الحجج والبراهين على أن الشابي قد تجاوز مع حركة محمد علي، رغم صغر سنه (16 سنة)، وأقامت الدليل على أن قصيدة «الصوت الكئيب» أو «تونس الجميلة»، ليست إلا صدى وطنياً قوياً لما لقيه محمد علي ورفاقه من اضطهاد وتنكيل على أيدي سلطات الاستعمار.

وفي حلقة اليوم نستعرض القصيدة كاملة، بحسب عناصرها المتتالية، ونوضح ارتباط كل جانب منها بحركة محمد علي، ومصيرها من ناحية، وما كان عليه الشعب من ظلام استعماري، وتأهب للنضال، من ناحية ثانية، وما كان يتوقعه الشابي ويتنبأ به من مستقبل مليء بالنضال والحرية للشعب التونسي برمته.

فأولاً: نجد الشابي واضحاً كل الوضوح، في مطلع قصيدته إذ هو يصور لنا كيف أناخ الاستعمار بظلامه وظلمه على الشعب، وأنه - أي الشابي - إنما يئن وينوح من أجل ذلك، ومن أجل أن الشعب لم يجد

القائد - بعد محمد علي - الذي يقاوم ذلك الظلم، ويزيح عن الشعب
كابوسه الثقيل:

لست أبكي لعسف ليل طويل أولربيع غدا العفاء مراحه
إنما عبرتي لخطب ثقيل قد عرانا، ولم نجد من أزاجه

ثانياً: إن الاستعمار، ما زال ممعناً في التنكيل بقيادة الشعب، وإنه
لا يكاد يترك لأحد منهم الفرصة ليعمل على إيقاظ الشعب ودفعه من
طريق النهوض والكفاح والحرية، وأن ما تلاقيه طلائع القيادة والإصلاح
«محمد علي مثلاً» ليس إلا القمع والتنكيل و«الاضطهاد والعسف
والإزهاق»:

كلما قام في البلاد خطيب موقظ شعبه يريد صلاحه
ألبسوا روحه قميص اضطهاد فاتك، شائك يرد جماحه
أخمدوا صوته الإلهي بالعسف ف، أماتوا صدحه ونواحه
وتوخوا طرائق العسف والإر هاق تواء، وما توخوا سماحه

ثالثاً: يحاول أن يبعث الأمل في الشعب، ويقاوم روح اليأس
والتخاذل التي تسود النفوس عادة، بعد فترات القمع والتنكيل، وإثر
اعتقال الزعماء أو نفيهم، مذكراً الجميع، بأن الزعماء والقادة المصلحين
معرضون في كل مكان منكوب بالاستعمار، إلى مثل المصير الذي لقيه
محمد علي ورفاقه:

هكذا المصلحون في كل صوب رشقات الردى إليهم متاحة

رابعاً: يصف في بيت واحد.. توالي محن الاستعمار على شعبنا،
ولعله هنا يعني الخصوص، حركات القمع المتوالية التي أنزلها الاستعمار
بالعمال التونسيين خلال الإضرابات المتتالية التي قاموا بها في العاصمة
والأحواز ومدن أخرى، والتي سبقت اعتقال محمد علي:

غير أنا تناوبتنا الرزايا واستباحات حمانا أي استباحه

خامساً: ثم يعود بعد ذلك كله، فيثير الهمم إلى النضال من جديد، معلناً أن ذلك الاضطهاد هو الذي يزيد التونسي، حباً لوطنه وتعلقاً بشعبه، واستعداداً للموت في سبيله، وإن ذلك الفداء هو الطريق الوحيد للخلاص والحرية، ويعاهد تونس «الحبيبة الجميلة» على الولاء لها والبر بها وأنها سترى من حبه وتفانيه من أجلها أصدق ما ترى:

أنا يا تونس الجميلة في لجج	الهوى قد سبحت أي سباحه
شرعتي حبك العميق وإنني	قد تذوقت مره وقراحه
لست أنصاع للواحي ولو مت	وقامت على شبابي المناحه
لا أبالي وإن أريق دمائي	فدماء العشاق دوماً مباحه
ويطول المدى تريك الليالي	صادق الحب والولا وسجاحه

سادساً: وما دام التونسي سيصمد بوجه الطغيان، وسيناضل وسيزيده القمع حباً لوطنه وتضحية من أجله، فإن فجر الحرية والنور آت لا ريب فيه، وإن مجد الشعب سيعود يوماً إليه، وإن ظلام الاستعمار إلى زوال:

إن ذا عصر ظلمة غير أني	من وراء الظلام شمت صباحه
ضيق الدهر مجد شعبي ولكن	سترد الحياة يوماً وشاحه

وقد ردت الحياة للشعب التونسي وشاح الحرية وعزة الاستقلال والسيادة، بفضل كفاحه ودمائه وتضحياته، وهي كلها مظاهر إرادة الشعب وتعلقه بالحياة والحرية:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة	فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد للظلم أن ينجلي	ولا بد للقيد أن ينكسر

وهكذا يتبين لنا ويتأكد، بأن قصيدة «الصوت الكئيب» التي نظمها

الشابي يوم 25/6/2، أي بعد اعتقال محمد علي (25/2/5) بأربعة شهور فقط⁽¹⁾، هي قصيدة تتعلق بحركة محمد علي، وتسجل موقف الشابي من هذه الحركة. وهو موقف للتأييد والمناصرة من ناحية والدفاع عن حق الشعب من ناحية ثانية، والاحتجاج على الوضع الاستعماري وما فيه من ظلم وقمع من ناحية ثالثة، وحث للشعب على المضي في الكفاح حتى النصر أو الموت من ناحية رابعة.

ورغم أن تاريخ القصيدة لم يعرف إلا بعد نشر ديوان الشابي في طبعته الثانية، أي سنة 1966 إلا أنني كنت أعتقد أنها عن حركة محمد علي، منذ عام 1952، كما أوضحت ذلك في الحلقة الماضية. وقد حملني هذا الاعتقاد القائم على الحدس، على:

أولاً: تغيير عنوان القصيدة، فسميتها «تونس الجميلة» عوض «الصوت الكئيب»، إذ وجدت أن الاسم الجديد أنسب وأولى وأكثر انطباقاً على فحواها والغاية البعيدة منها. فإن تونس - كما تراءت للشاعر من وراء الغيب - لا تكون جميلة إلا بكفاحها أو استقلالها وقد تابعني في هذه التسمية شقيق الشاعر الأستاذ محمد الأمين الشابي، حين نشر ديوان أخيه في طبعته الأولى عام 1955، فوضع بعض أبيات القصيدة تحت العنوان الجديد، ثم جعلها كلها تحت نفس العنوان الجديد في طبعة الديوان الثانية عام 1966.

ثانياً: تركيز الانتباه بصورة مستمرة على أبيات معينة من القصيدة، وخاصة البيتين الأخيرين منها:

إن ذا عصر ظلمة غير أنني من وراء الظلام شمت صباحه

(1) من المحتمل أن الشابي نظم القصيدة قبل يوم 25/6/2 بشهرين أو ثلاثة وأن هذا التاريخ يسجل قناعته ورضاه بشكلها النهائي. ولنا أمثلة أخرى تؤكد هذا الاحتمال.

ضيق الدهر مجد شعبي ولكن سترد الحياة يوماً وشاحه
هذا.. وقد تبينت حقائق أخرى.. بعد ظهور الطبعة الثانية من
ديوانه، حيث نشر معها تاريخ كل قصيدة، فتأكدت بذلك حقائق كثيرة،
وزالت كثير من الأوهام والتخمينات والأحكام المعتبرة التي كانت تعلن
باستمرار حول الشابي وشعره، وخاصة حول وطنيته وموقفه من كفاح
الشعب التونسي عامة، وعماله خاصة. وسنعود مرة أخرى لتقديم
حقائق، وبراهين جديدة على وطنية الشابي من ناحية وموقفه الإيجابي
المناصر لكفاح العمال من ناحية أخرى.

موقف الشابي من حركة محمد علي (3)

أرى المجد معصوب الجبين مجدلاً على حسك الآلام يغمره الدمُ
وقد كان وضاح الأسارير باسمأ يهب إلى الجلى، ولا يتبرمُ
فيا أيها الظلم المصعرخده رويدك إن الدهر يبنني ويهدمُ
سيثأر للعز المحطم تاجه رجال .. إذا جاش الردى فهم همُ
رجال يرون الذل عاراً وسبة ولا يرهبون الموت، والموت مقدمُ
(من زئير العاصفة للشابي)

أعود للمرة الأخيرة إلى موقف الشابي من حركة محمد علي،
لأتوسع هذه المرة بذكر أصدقاء أخرى لكفاح محمد علي في شعر
الشابي. ولئن كانت الدلائل قليلة والمناسبات غير واضحة، فإننا مع
ذلك، نميل إلى ربط الصلة بين حركة محمد علي وبين القصائد
والمقطوعات التي نظمها الشابي في عام 1925، والتي ورد فيها ذكر
الشعب أو تحدث فيها عن معان تتصل بحياة المجتمع، أو تصور الصراع
القائم يومئذ بين قوى الحق والخير والحرية وبين قوى الطغيان والظلم
والاستعمار.. بين شعب ضعيف بمدده المادية، وبإمكانياته العلمية وعدد
سكانه، وبين احتلال يسانده طاغوت مدجج بالعلم والسلاح والقوة في
جميع مظاهرها..

من هنا.. لم يجد الشابي بدأً من أن يحاول إيقاظ شعبه من سباته

ودفعه إلى الأمام، عن طريق العلم أولاً، وعن طريق قوة الإرادة والعمل الجاد المنظم المتصاعد دائماً.

وقد شعر الشابي بحاجة الشعب إلى كل ذلك، لأنه رأى أن حركة محمد علي، ما كان ليقضى عليها، وبكل تلك السرعة والسهولة، لو كان في الشعب علم صحيح، وإرادة جبارة تصارع قوى الشر والاحتلال مهما كان تفوقها.

وقد تطورت هذه الأفكار والمواقف عند الشابي بعد أن بلغ سن الرشد، واجتاز - بالخصوص - سن العشرين.

فقد أدرك في سنواته اللاحقة أن العشب محتاج إلى زعامة من نوع خاص، زعامة تتصف بالعبقرية والمقدرة الخارقة، كي تستطيع فعلاً.. أن تملأ - بمواهبها الفذة - الفراغ الهائل والتفاوت الكبير بين قوى شعبنا المادية والعلمية والحضارية، وبين قوى أعدائه المماثلة..

فلا عجب بعد هذا أن رأينا الشابي في سنة 1930 يصيح بالشعب المستسلم إلى جلاديه، وإلى الرجعية والتخلف، قائلاً:

أيها الشعب! أنت طفل صغير لاعب بالتراب والليل مغس والصراع العنيف بين قوى الظلم والحق:

أنت في الكون قوة كبلتها ظلمات العصور من أمس أمس أنت في الكون قوة لم تسسها فكرة عبقرية ذات بأس

ولست أحب هنا أن أتوسع في شرح جميع مواقف الشابي من كفاح الشعب التونسي حتى عام 1934 أعني إلى سنة وفاة الشابي، فإن هذا موضوع واسع، ولنا فيه مجال آخر.

ولكني أحب أن أؤكد - مرة أخرى - ما سبق أن قلته في الحديثين الأخيرين، من تجاوب الشابي مع حركة محمد علي خاصة، ومع مقدماتها وذيولها بصفة عامة.

وإن من مظاهر ذلك، اعتقاد الشابي يومئذ - وهو في السادسة عشرة من عمره - بأن جهل الشعب وتخلفه الاجتماعي والحضاري، هو من أهم أسباب وجود الظلم والاستعمار في بلاده، وأن الدعوة إلى العلم هي إحدى الدعائم الصحيحة لتحرير الشعب وتقدمه ونهوضه، ومن هنا وجدنا الشابي ينظم قصيدة بتاريخ 25/6/13 يهيب فيها بقومه كي يجددوا مجدهم العلمي، ويسلكوا في الحياة طريق العلم من جديد:

يا قوم مالي أراكم	قطتم الجهل دارا
أضعتكم مجد قوم	شادوا الحياة فخارا
أبقوا أسماء المعالي	بما أضاءوا منارا
حاكوا لكم ثوب عز	خلعتموه احتقارا
ثم ارتديتم ..	لبوس خزي، وعارا

ومن السهل جداً، أن نفهم دوافع الشابي في إعلان «صيحته» هذه في تلك الظروف بالذات... ومحمد علي ورفاقه ما زالوا رهن السجن، في انتظار المحاكمة، وصدى حركتهم ما زال يتردد ويجمع في نفوس العمال المكبوتين، الذين - لفرط الجهل فيهم - لم يتحركوا بقوة العقل والإرادة نحو الحياة من جديد، ولإنقاذ زعيمهم، ودفع حركتهم للأمام وللنجاح من جديد.

ويكاد الشابي ينادي الجمهورية في تلك الظروف العصيبة، لما لمسه من تساند وتآمر بين الاستعمار والرجعية والنظام الملكي القائم يومئذ فهو يرى الباي وجماعته، صامتين تجاه كل ما يحدث في البلاد،

وكان الأمر لا يعني شعبيهم الذي يتولون أمره - بحكم الوراثة - وليس بحكم الشعب أو بحسب الكفاءة، وهم - كالأجانب - يتفرجون على ما ينال الشعب - وعماله خاصة - من تنكيل وقمع، وتقتيل دون أن يحركوا ساكناً.

وأمام ذلك كله.. يعلن الشابي صيحة أخرى ضد النظام الملكي، الذي كانت جميع الأقسام - تقريباً - تعترف به، ومعظم الشعراء يتزلفونه بقصائدهم في المناسبات المختلفة، فإذا الشابي يعلن قصيدته - وقد نظمها في نفس التاريخ المتقدم قائلًا:

لا أنظم الشعر أرجو	به رضاء الأمير
بمدحة أو رثاء	تهدى لرب السريير
حسبي إذا قلت شعراً	أن يرتضيه ضميري
ما الشعر إلا فضاء	يرف فيه مقالي
فمايسر بلادي	ومايسر المعالي
ومايثير شعوري	من خافقات خيالي

ولعلك تدرك جرأة الشابي في إعلان ذلك كله، في تلك الظروف، وفي وقت كان فيه الشعر لا يزال عبداً لصاحب التاج، بل إنك لتجد الصلة أقوى جرأة، في ربط موقف الشابي ذاك بحركة محمد علي حين يقول في ختام القصيدة:

كم حطم الدهر	ذاهمة كثير الرماد
القاه تحت نعال	من ذلة وحداد
رفقاً بأهل بلادي	يامنجنون العوادي!

ولا نستطيع أن نترك الشابي، دون أن يقف مع قصيدة أخرى، (نظرة في الحياة) ولا شك أنه - لصغر سنه - لم يكن يعرف بعد من

الحياة إلا ما كان يجري حوله . . وكله (رهيب عجيب) لهذا لم يجد ما يستخلصه من جميع الأحداث التي تجري في بلاده وعلى حياة شعبه، سوى الحكمة الخالدة التي لا يصل إليها إلا من جرب الحياة وحلب الدهر أشطره، كما يقال:

إن الحياة صراع	فيها الضعيف يداس
ما فاز في ماضئها	إلا شديد المراس
إن السكينـة روح	في الليل ليست تضام
والروح شعلة نور	من فوق كل نظام
لا تنطفئ برياح الإ	رهاق أو بالحسام
بل قد يعج لظاها	سيلاً ويطغى الضرام
كل البلايا جميعاً	تفنى ويحيى السلام
والذل سبة عار	لا يرتضيه الكرام

ولا شك أن الشابي يحاول أن يقضي على روح التخاذل، ونفسية الوهن والاستسلام التي كان عليها الشعب يومئذ، وخاصة بعد اعتقال محمد علي، ونشر التهمة الموجهة إليه وإلى رفاقه، وما كان ينتظر الجميع من أحكام الطاغية عليهم وقاسية.

في وسط ذلك اليأس والظلام، يصبح الشابي:

الفجر يسطع بعد الـ	دجى، ويأتي الضياء
ويرقد الليل قسراً	على مهاد العفاء
وللشعوب حياة	حيناً وحيناً فناء
واليأس موت ولكن	موت يثير الشقاء
والجدد للشعب روح	توحي إليه الهناء
فإن تولت تصدت	حياته للبلاء

تلك . . . ومضات من النور والحق، أضواء كالنبراس من شعر
الشابي عام 25 وهو في السادسة عشرة من عمره .

وليست هي كل ما أنار به الشابي درب الكفاح والحرية لشعبه، وفي
ذلك العام بالخصوص، بل هناك غيرها من المشاعل . . . وعلى الأخص
قصيدته الرائعة «زئير العاصفة» التي لا أشك مطلقاً في أنه قد نظمها عن
محمد علي ورفاقه وحركته . ورغم خلوها من أي تاريخ، فإني أكاد أجزم
بأنه إنما نظمها إثر اعتقال محمد علي .

**موقف الشابي
من الكفاح الوطني**

زئير العاصفة!! (1)

في آخر حديث عن «موقف الشابي من حركة محمد علي قلت: بأن هناك آثاراً أخرى غير التي تحدثت عنها، تتعلق بكفاح محمد علي، وبالحركة النقابية عامة، وأن قصيدة الشابي «زئير العاصفة» هي أبرز تلك الآثار، بعد قصيدته «تونس الجميلة».

وكنت أنوي أن أقف عند الحديث الثالث، حتى لا يمتد الكلام ويطول، وهو كثير التفاصيل، متعدد الجوانب، مما قد يسبب بعض الملل عند محبي القراءة السريعة، واللمحة الخاطفة.

غير أن اقتراحاً وجيهاً، عبر عن رغبة صادقة في مواصلة الحديث، حتى يستوعب كافة نواحيه، بل وأن يمتد إلى غير الشابي ممن أسهم بدور فعال، أو قول صادق في خدمة الحركة العمالية ببلادنا، ودافع عن العامل «الخدّام» بكل ما أتيج له من إمكانيات، في جميع الظروف، وخاصة رجال الرعيل الأول من جماعة محمد علي، ومن عاصرهم أو تلاهم مباشرة.. وترك في تاريخنا القومي عامة، وفي تاريخ النضال النقابي خاصة، عملاً محموداً، وجهداً مشرفاً أو قولاً سديداً وكلمة صادقة.

ونبدأ اليوم بإتمام جولتنا مع شعر الشابي، وما يتعلق منه بحركة محمد علي، وكفاح شعبنا في عصره، أعني بين سنتي 24 و1925، وما تلاهما مباشرة، كنتائج وذيول اجتماعية وسياسية لحركته.

وقبل أن نتحدث عن «زئير العاصفة»، أحب أن أشير، إلى مقطوعة أخرى، نظمها الشابي يوم 1924/8/2 بعنوان «خله للموت»؟! فهذا التاريخ يتفق تماماً مع الفترة التي بدأ فيها محمد علي تحوله من التنظيم الاقتصادي، إلى تكوين النقابات، بل يتفق أيضاً مع بدء نتائج حركة محمد علي النقابية، حين أخذ عمال الميناء بالعاصمة يستعدون للإضراب مطالبين بزيادة الأجور، ولم يكونوا منظمين في نقابة، مما جعلهم يهرعون إلى محمد علي ويطلبون مساعدته، فكان ذلك بدء التكوين النقابي، بل بدء تحول محمد علي من الكفاح الاقتصادي إلى الكفاح النقابي - كما سنذكره فيما بعد - وقد أدى هذا التلاقي بين محمد علي وعمال الميناء، إلى تنظيم صفوفهم أولاً، ودفعتهم إلى الكفاح الإيجابي ثانياً. وهكذا أعلنوا الإضراب يوم 24/8/13 ومن هذا نفهم أن العمال - خاصة عمال الميناء - كانوا قبل هذا التاريخ في منتهى الفوضى والاستغلال، ولم يستطيعوا قط أن يوحدوا صفوفهم، ويقاوموا سياسة الاستعمار التي كانت تستغلهم بل تسترقهم، وهم مستسلمون متخاذلون. . وهذه الحالة الأليمة اليائسة التي كانوا عليها قبل يوم 8/3 هي التي أوحى للشابي بأن ينظم أبياته «خله للموت»:

كل قلب حمل الخسف وما مل من ذل الحياة الأردل
كل شعب قد طغت فيه الدما دون أن يشار للحق الجلي
خله للموت يطويه فما حظه غير الفناء الأنكل (؟)

ولا شك أننا نستغرب بل نرفض مثل هذا «الخيار» العصبي الذي يريد الشابي أن يضع فيه الكفاح الوطني في عصره. . ولكننا لا نملك إلا تبرير موقفه بل وتفسيره أيضاً، فهو أولاً كان صغير السن جداً دون السادسة عشرة من عمره. وثانياً كان اليأس مستحكماً في النفوس، بحيث لا يمكن أن تنهض حركة كفاحية، بمثل هذه السهولة والسرعة التي كان

يسعى إليها محمد علي، والتي كانت تراود أحلام الشباب الوطني وثالثاً فهي تدل على مدى الحماس والاندفاع الوطني في نفس الشابي، كما تدل على قلة تجاربه في الحياة، إذ هو يتصور - ككل المراهقين - أن الحق واضح فما على المظلومين إلا أن يتحركوا للدفاع عنه، أليسوا هم يعانونه كل يوم ويتدمرون منه كل لحظة؟ فلم لا يتكتلون ويتحدون تلقائياً، ويعلنون الحرب على الاستغلال والاستعمار؟! وحيث هم لا يفعلون ذلك فهم أهل للفناء والاندثار، وعلى المتيقظين أن يتركوهم وحدهم للموت يواجهونه مستسلمين؟!!

ومن الواضح أن هذه «نزوة طفولية» غير ناضجة عند الشابي، يدل عليها تحوله عنها في أقل من سنة، حين رأى كفاح محمد علي، وما أدى إليه من حركة حقيقية حية في النفوس، حيث أعلن الإضراب على كل مكان، وحيث الضحايا والشهداء وحيث تظاهر الشعب، وتنادي عالياً بحقه في العدالة والحرية والكرامة الإنسانية.

هنا نجد الشابي ينقلب من يائس قانط على مصير الشعب، إلى متفائل مبشر بالغد الأفضل والفجر الجديد.

ورغم جحافل الطغيان التي جرفت العديد من أبطال الحرية والكفاح، وفي مقدمتهم محمد علي ورفاقه، فإن الشابي لم يضعف ولم يتراجع، بل يعلنها صرخة داوية في وجه الطاغوت الاستعماري، ويظل صداها يتردد في قصائد عديدة «تونس الجميلة» يوم 25/6/2 و «شعري» يوم 6/13 و «الصيحة» في نفس اليوم و «نظرة في الحياة» يوم 25/9/30. حتى إذا جاء عام 26، وتبين فعلاً ما يببته الاستعمار من رغبة في إسكات صوت الحق، بعد نفي محمد علي ورفاقه، انطلق الشابي «يزأراً» كالعاصفة في وجه الاستعمار، فإذا هو إعصار عنيف كالحق الصراح:

ألا أيها الظلم المصعر خده رويدك! إن الدهر ييني ويهدم
أغرك أن الشعب مفض على قذى لك الويل من يوم به الشر قشعم
ألا إن أحلام البلاد دفينه تجمجم في أعماقها ما تجمجم
ولكن سياق بعد لاي نشورها وينشق اليوم الذي يترنم
هو الحق يبقى راكداً فإذا طغى بأعماقه السخط العصفو يدمدم
وينحط كالصخر الأصم إذا هوى على هام أصنام العتو، فيحطم
إذا صعق الجبار تحت قيوده سيعلم أوجاع الحياة، ويفهم!

أي جبروت هذا؟ وأي إعصار يتوعد به الشاعر أعداء الشعب
وطغاة الوطن إنه سيل الجماهير إذا اتحدت وتيقظت ومشت نحو غايتها
لا تلوي على شيء.

وشتان بين هذا الإيمان العارم بمستقبل الشعب في هذه القصيدة،
وبين ذاك اليأس القديم القاتم، الذي كان لحظة عابرة في (طفولة الشابي)
ولما ينضج بعد.

وتمضي الأيام تباعاً حتى أواخر سنة 26 أو أوائل 27 - على أكثر
تقدير - والشابي صامت لا يتكلم، وكأنه في غفلة عما يجري حوله في
حياة الشعب. . . وكأنه كان مسافراً منقطعاً عن الناس ثم عاد فرأى الظلم
قد ازداد، والاضطهاد قد استفحل، ومصير الشعب في ظلام دامس كئيب
فلا قائد ينظم الصفوف، ولا زعيم يحدو الهمم ويبث الوعي واليقظة
والإيمان في القلوب والعقول. . فتجيش الآلام والآمال معاً في نفس
الشابي، وقد نسي الناس محمد علي ورفاقه، وغاب قادة الحركة الوطنية
الآخرون بين الموت والمنفى والاستسلام والسكوت فإذا صوت الشابي
يعلو من جديد في قصيد تعددت أسماؤه، واختلفت أقسامه، وتباين
تاريخه، فبعضه باسم «الحق» والآخر باسم «لعله الحق» والثالث «زئير

العاصفة» . . . والرابع «إلى الطاغية».

وليس هنا مجال مناقشة الروايات المتعددة، والنشرات المختلفة، ولكن ما نؤكدده هو أن القطع الأربع هي قصيد واحد، نظم في وقت واحد، ولكن نقح مرات، ونشر على دفعات، فانتهى إلى هذا التشتت والاختلاف وعنوانه الأصح عندي هو «زئير العاصفة» وتاريخه المرجح هو 27/2/18، باعتباره تاريخاً أدنى، انتهى فيه الشاعر من تنقيح شعره، وأما تاريخه الأعلى فيصل عندي إلى أوائل سنة 26 أي بعد نفي محمد علي ورفاقه بشهور ثلاثة أو أربعة.

وليس أدل على ذلك، من اتحاد الوزن والقافية في القطع الأربع، وتداخل أبيات كثيرة منها جميعاً في النشرات المتعددة لها.

وبحسبنا الآن هنا أن نختم هذا الحديث بالأبيات التالية من قصيدته «زئير العاصفة» كما جاءت في آخر نشرة لها، أعني ص 280 في آخر الديوان الثانية:

تسائلني: مالي سكت ولم أهب بقومي وديجور المصائب مظلم
وسيل الرزايا جارف متدفع غضوب، ووجه الدهر أريد أقتم؟!!

فهل سكت الشابي فعلاً، أمام الرزايا التي تدفقت على شعبه؟ هذا ما سنراه في الحديث القادم.

زئير العاصفة..!(2)

لك الويل! يا صرح المظالم من غد
إذا نهض المستضعفون وصمموا
إذا حطم المستعبدون قيودهم
وصبوا حميم السخط.. أيان تعلم
أغرك أن الشعب مغض على قذى
وأن الفضاء الرحب.. وسان مظلم
هو الحق يفضي ثم ينهض ساخطاً
فيهدم ما شاد الظلام ويحطم

رأينا - في الحديث الأخير - كيف انقسم قصيد «زئير العاصفة» إلى أربعة قطع، كل منها نشر بعنوان وتاريخ مختلف عن الآخر.. وقد بينا أنها جميعاً شتات لأصل واحد.. وتصوير لحالة نفسية واحدة، وموقف وطني ثابت، تجاه حركة محمد علي وخاصة تجاه ما لقيته من سلط الاستعمار - يومئذ - من اضطهاد وقمع وتنكيل، أحدثت كلها صدمة هائلة في النفوس، وأوشكت أن تقضي على الأمل والروح النضالي في الشعب. وهذا ما يفسر سكوت الشابي عاماً كاملاً بعد نفي محمد علي ورفاقه عن أرض الوطن.. مما جعل الشابي يستهل قصيدته بالسؤال التالي، مخاطباً به نفسه على لسان امرأة.. ربما كان «ضميرها المؤنث» رمزاً لتونس برمتها:

تسألني: مالي سكتُ ولم أهب
بقومي.. وديجور المصائب مظلم
وسيل الرزايا جارف متدفق
غضوب، ووجه الدهر أريد أقتم؟

ويجب الشابي عن هذا السؤال بأنه لم يسكت خوفاً أو يأساً، أو استخفاءً، وإنما صمت ليفكر في آلام الشعب ومحنه، وفي آماله البعيدة وحاضره الدامي الكئيب، وليقارن بين مجده الضائع وواقعة الخانع التعيس، وبين ما كان يتوقعه في شعبه من كفاح وضمود ومقاومة:

سكت، وقد كانت قناتي غضة تصيخ إلى همس النسيم، وتحلم
وقلت، وقد أصغت إلى الريح مرة فجاش بها إعصاره المنهزم
وقلت، وقد جاش القريض بخاطري كما جاش صحاب الأواذي أسحم:
أرى المجد معصوب الجبين مجدلاً على حسك الآلام، يغمره الدم
وقد كان وضاح الأسارير باسمًا يهب إلى الجلى ولا يتبرم

إلى هنا.. لم يحدد لنا الشابي موقفاً معيناً، من طاغوت الاستعمار، وتنكيله بحركة محمد علي.. وإنما اكتفى بتصوير ما كان وما آل إليه حال الشعب التونسي.. وقد كان عليه - في ذلك الظرف بالذات - أن يحدد موقفه، ويرسم خطوط المستقبل: مستقبل الاستعمار وكذلك مستقبل الشعب في كفاحه ونضاله من أجل الحرية والكرامة والاستقلال.

والحق.. أن الشابي لم يعودنا قط بمواقف سلبية، أو هروبية بل كان دائماً في منتهى الشجاعة والجرأة والإخلاص.. وحتى في بعض المواقف القليلة التي استولى فيها الهم على شعوره واستحكم القنوط في تفكيره نجده يتخذ موقفاً واضحاً وإن كان غير ناضج، أو غير مقبول.

وعلى ذلك فإنه لن يتركنا هنا بدون موقف واضح، من الاستعمار المتتشي بخمرة ظلمه وعدوانه، ومن الشعب الذي إن غلب يوماً، فإنه لن يغلب أبد الدهر..

وبهذا المعنى يصل الشابي إلى «زئيره» الذي لم يجد أنسب من أن

يضيفه إلى «العاصفة» مخالفاً بذلك مألوف اللغة السائدة من إضافة الزئير إلى الأسد . . وفي ذلك ما فيه من الروعة والوضوح والتوعد للاستعمار: فالعاصفة إذا ما هبت من الشعب إنها لا تبقي من الطاغوت ولا تذر . . وهي وحدها الإنذار الحقيقي إلى «الظلم المصعّر خده» بأن العاصفة آتية عليه لا ريب فيها:

فيا أيها الظلم المصعّر خده رويدك إن الدهر يني ويهدم
أغرك أن الشعب مغض على قذى لك الويل . . من يوم به الشر قشع
سيأر للعز المحطم تاجه رجال إذا جاش الردى . . فهم هم
رجال يرون الذل عاراً وسبة ولا يرهبون الموت . . والموت مقدم
وهل تعتلي إلا نفوس أبية تصدع أغلال الهوان، وتحطم!!

أجل! لقد «صعر الظلم» الاستعمار خده، على الشعب، وظن أنه بقمعه لحركة محمد علي، ونفيه مع رفاقه . . قد «صفى» آمال الشعب، وقضى على «عبقريته الولود» فلن يظهر من بعدهم أحد يقود الكفاح النقابي والوطني، ويحمل مسؤولية القيادة من جديد، ويضيء بروحه - كالمشعل - طريق الحرية والكرامة لمواطنيه.

ولكن الشابي . . يتوعد الاستعمار بمستقبل أظلم، يوم يظهر رجال آخرون يرون الذل عاراً وسبة، ويشأرون لمحمد علي ورفاقه . . ويقتحمون بالشعب معارك الحق والحرية، مهما كان الثمن، وكانت التضحيات.

وقليل من التأمل البصير في ألفاظ معينة وردت في الأبيات السابقة، تدلنا على مدى اقتناع الشابي، بأن بذور محمد علي النقابية والكفاحية لن تذهب أدراج الرياح . . بل لا بد أن ينهض في الشعب - من أبنائه - من ينميها ويحقق على آثارها وبهداها حقوق الشعب كاملة، ويزكي

ذكرى محمد علي ويدعم كفاحه بالدماء والشهداء، والبطولات والانتصارات، أوليس تاريخنا الوطني - بعد محمد علي - إلى اليوم . . هو مرآة صادقة وإنجازات رائعة لما قاله الشابي؟!!

وتتكرر هذه المعاني كلها، في قصيدته «إلى الطاغية» التي هي - في رأينا - امتداد وتكرار لقصيدة «زئير العاصفة» ولكنها مع ذلك أكثر صرامة وتوعداً للاستعمار والطغاة المتجبرين الذين يغريهم بالظلم سكوت الجماهير وسكونها، فيخيل إليهم بأن ظلمهم رحمة، وطاغوتهم نعمة، وأن كل مآتهم لن تقابل إلا بالحمد والشكر والامثال، فيسرفون على أنفسهم ويمعنون في غيهم، حتى يستفحل شرهم ويتصاعد إثمهم، وعندها يتحرك المستضعفون ويزار المستعبدون، ويحطمون قيودهم وتأكل نارهم كل احتلال واستعباد وجبروت:

لك الويل يا صرح المظالم من غد	إذا نهض المستضعفون وصمموا
إذا حطم المستعبدون قيودهم	وصبوا حميم السخط . . . أيان تعلم
أغرك أن الشعب مغض على قذى	وأن الفضاء الرحب وسان مظلم
هو الحق يغضي . . ثم ينهض ساخطاً	فيهدم ما شاد الظلام ويحطم
إلى حيث تجني كفه بذر أمسه	ومن زرع الأوجاع لا بد يندم
إذا ما سقاك الدهر من كأسه التي	قرارتها صاب مريـر وعلقم
إذا صعق الجبار تحت قيوده	يصيخ لأوجاع الحياة ويفهم!!

وفعلاً . . فقد صعق الجبروت الاستعماري واندحر بكفاح الجماهير وصمود شعبنا، وبطولات شهدائنا - العديدين - من محمد علي، إلى معركة بنزرت، فانتصر الحق على الظلم. وعادت لشعبنا كرامته وحرية واستقلاله، وتحققت بذلك كله آماله الأولين، وشعرائه المناضلين من أمثال محمد علي وأبو القاسم الشابي.

بين الأمل والقنوط..!!

ضعف العزيمة لحد، في سكينته تقضي الحياة، بناه اليأس والوجل
وفي العزيمة قوات مسخرة يخر - دون صداها - الشامخ الجبل
والناس شخصان: ذا يسعى به قدم من القنوط، وذا يسعى به الأمل
هذا إلى الموت، والأحداث ساخرة وذا إلى المجد، والآمال تتصل

لست أدري إذا كان ثمة أحد من القراء غير مقتنع بوطنية الشابي،
بعد تلك البيانات والحجج المفصلة التي قدمتها عن موقف الشابي من
حركة محمد علي، ومن الطاغوت الاستعماري في عهده، والشابي يومئذ
لما يبلغ السادسة عشرة من عمره.

أقول هذا. . لأن هناك أكثر من واحد من الكتاب التونسيين الذين
أجهدوا أنفسهم - في محاولة يائسة - لإثبات سلبية الشابي تجاه الأحداث
الوطنية في عهده، ولنفي الشعور الوطني عنه، وبالتالي الادعاء بأنه لم
يكن قط - شاعراً وطنياً - ولم يتجاوب مع كفاح شعبه ونضاله من أجل
الحرية والكرامة والاستقلال(١٤).

ولا أريد هنا أن أعيد شيئاً مما قلته عن وطنيته العميقة ونضاله
القومي الفذ وذلك في سنوات 1952 و 1954، أعني في كتابي
«الشابي - حياته وشعره» ثم في كتابي «كفاح الشابي، أو الشعب والوطنية
في شعره»، فإن كلا الكتابين ميسور الاطلاع عليه لكل أحد، وإنما

أسوق هنا أدلة أخرى على وطنية الشابي وكفاحه الوطني المتصل
الحلقات، لا في شعره فقط، بل وفي نثره أيضاً، وكذلك في مساهماته
العملية في بعض المنظمات والحركات القومية في عهده.

وسأبدأ بشعره، حيث تكثر الدلالات القاطعة، وتقوم الحجج
الدامغة، لا على وطنية الشابي فقط بل وعلى أنه شاعر وطني من الطراز
الأول، وبأنه تجاوز مع آمال شعبه في الحرية وأمانه في التقدم
والرقي، والتطلع إلى غد أفضل، ومستقبل مليء بالنور والرخاء
والسعادة.

ولعلنا نقرب الحقائق أكثر فأكثر إلى القارىء، حين نعتمد فيها
على الأرقام والإحصاءات التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من
خلفها - كما يقولون - .

فقد بلغت قصائد الشابي ومقطوعاته في أحدث طبعة لديوانه 98
قصيدة ومقطوعة، منها 26 في الحب، و21 في الاجتماعيات، ومثلها
في المعاني الوطنية، و30 في الوجدانيات.

فإذا طرحنا شعر الحب جانباً، بقي معظم شعره (76 قصيدة
ومقطوعة) في المعاني الوطنية وما يتفرع عنها من موضوعات مختلفة،
وحتى قصائده الوجدانية التي يتغنى فيها بالأم نفسه وأحلامها وخيالاتها،
تفيض في كثير من جوانبها، بإحساسات إنسانية، وبصور عامة ملتزمة، لا
يمكن إلا أن تكون تصويراً لمأساة الإنسان التونسي في عهده، وما كان
يرزح فيه من أعباء الاستعمار وكابوس الكبت والحرمان، ومحن الفاقة
والبؤس، ودجى التخلف وأغلال التقاليد.

وبصرف النظر عن تواريخ قصائده ودلالاتها النفسية، فإنها جميعاً
- في جوهرها - غذاء إنساني رائع السخاء لعبقرية خارقة رائعة.

ولن نرهق القارىء بأي كد ذهني خاص، ولا بجداول منطقية

عقيمة وإنما سنربط - مباشرة - بين ضميره وشعوره من ناحية وبين شعر الشابي وملابساته الخارجية من ناحية أخرى، لنصل معه - دون عناء - إلى حقائق التاريخ والنقد المجردين من الأهواء أو الدوافع الخاصة.

وعلى سبيل المثال - لا الحصر - نقف مع هذه الأبيات المؤرخة بيوم 21 - 2 - 1925 حيث يقول الشابي بعنوان «الحياة»:

أن هذي الحياة قيشارة الله وأهل الحياة مثل اللحن
نغم يستبي المشاعر كالسحر وصوت يخل بالتلحين
والليالي مغاور تلحد للحن من وتقضي على الصدى المسكين

ترى، هل هي شعر وجداني، يتغنى بمشاعر ذات منطوية على نفسها، منعزلة - تماماً - عن الناس والحياة، أم هي شعر اجتماعي يمثل تجربة شاعر في فجر حياته، ولما تنهض به قوة التجربة إلى صف الحكم الجارفة، كما في شعر المتنبي، أو إلى قمة الفلسفة الشاعرة، كما هي عند المعري؟! ومع ذلك تحس بأن هذا «الشاعر المراهق» ينم عن أعجوبة مبدعة في دنيا الشعر والفن والإلهام.

ولعل أقوى ما في شاعريته تلك، أنك تؤخذ بشعره - دون استثناء - حتى هذه الأبيات المبكرة جداً، والتي عجم بها قناته الفنية، ودرب عليها سليقته الشعرية.

وأن العجب ليأخذ عليك كل نفسك حين تلتقي مرة أخرى، مع هذا الشاعر، في قصيدته «غرفة من يم» المؤرخة بيوم 27 - 3 - 26 والشاعر يومها في الشهر الأول من عامه السابع عشر (19) فإذا أنت أمام فلسفة المعري الإنسانية الناقدة، وتجاه حكم المتنبي الحياتية العميقة، وكان قواهما الشعرية والعقلية قد تقمصتهما روح هذا الشاعر اليافع الغض.

وحتى تبرز لك خصائص الشعارين في قصيدته تلك، أراني مضطراً
إلى تقسيمها إلى نصفين وإعطاء كل منهما عنواناً خاصاً، تاركاً لك
وحدك أن توزع منهما ما تشاء لمن تشاء.. ملفتاً نظرك إلى أنني لم أفعل
ذلك عن حذقة أو اعتباطاً، بل اعتماداً على تقسيم قديم صنعه الشاعر
نفسه، ونشر عليه نصفي القصيدة. فقد نشر نصفها الأول بعنوان «الأمَل
والقنوط» قائلاً:

ضعف العزيمة لحد، في سكينته	تقضي الحياة، بناه الياس والوجل
وفي العزيمة قوات مسخرة	يخردون صداها الشامخ الجبل
والناس شخصان: ذا يسعى به قدم	من القنوط، وذا يسعى به الأمل
هذا إلى الموت، والأحداث ساخرة	وذا إلى المجد، والآمال تتصل
ما كل فعل يجعل الناس فاعله	مجداً، ولا كل من خاض الدجى بطل
المجد صنفان: صنف في تمايله	لحن الخلود، وصنف فوقه الخبل
ما المجد إلا ابتسامات يفيض بها	فم الزمان، إذا ما انسدت الحيل
وليس بالمجد ما تشقى الحياة به	ويحسد اليوم أمساً ضمه الأزل!

ونشر نصفها الثاني بعنوان «الحرب» ولعلك ترشحه من أجلها إلى
نيل جائزة «نوبل» للسلام، وإني لموقن - سلفاً - باستحقاقه لها.. وبأن
أي شاعر عربي، لم يصف هول الحرب وآلامها وكوارثها، وآثامها
بالخصوص، بمثل هذه البلاغة والروعة والإيجاز العميق، الذي أبدعه
الشابي قائلاً:

هل الحروب سوى وحشية، نهضت	في أنفس الناس فانقادت لها الدول
فأيقظت في قلوب الناس عاصفة	غام الوجود لها، وارتدت السبل
فالدهر متعل بالنار، ملتحف	من المآتم، والأيام تشتعل

والأرض دامية، بالإثم طامية ومارد الشرف في أرجائها ثمل
والموت يسبح في موج الضجيج فلا يبقى، ويخطف من قد خانه الأجل
وفي المهامه أشلاء ممزقة تتلو على القفر شعراً ليس يتحل
تثير في النفس أحزاناً، يرث لها فم الفؤاد، بتغريد فتنهمل

وتسألني - بعد هذا كله - أين وطنية الشابي، في هذا الشعر؟! وأنا
بدوري أسألك أين هي «انعدام وطنيته». في هذا الشعر بالذات؟ علماً
بأنني لم أعرضه هنا للتدليل على وطنيته، وإنما لإثبات أن شعره
الوجداني حافل بروح إنسانية عميقة وطافح بالمثل والقيم العليا التي لا
نظفر بها - عادة - إلا في شعر عمالقة الشعر.. من أمثال المعري
والمتنبي، ومن في مستواهما من شعراء كافة الأمم.

ومع ذلك كله، أراني مضطراً لأن أقنعك بأمثلة صارخة من شعره
الوطني، ومواقفه النضالية.. وهذا موعده معنا الحديث القادم.

هذه الحقائق... أولاً!

لا أنظم الشعر أرجو به رضاء الأمير
بمدحة أورثاء تهدي لرب السريير
حسبي إذا قلت شعراً أن يرتضيه ضميري
ما الشعر إلا فضاء يرف فيه مقالي
فيما يسر بلادي وما يسر المعالي
وما يثير شعوري من خافقات خيالي

أجهد أكثر من كاتب نفسه ليقنع قراءه بأن الشابي لم يتجاوب مع الأحداث الوطنية في عهده، وسبق أهم أحداث ذلك العهد من عام 1920 إلى 1934، متخذاً من العام الذي وفد فيه الشابي على العاصمة (عام 1920) مبدأ للحساب، ومن العام الذي توفي فيه (1934) منتهى ذلك الحساب؟!!

وذكر - هذا الأخصائي - معظم الأحداث التونسية ذات الطابع السياسي، التي حدثت خلال التاريخين المذكورين؟!!

ومن أهم تلك الأحداث: تأسيس الحزب الدستوري عام 1920، وحركة محمد علي النقابية عام 24 - 1925، ثم تعطيل الصحف الوطنية عام 26 من طرف المقيم العام، وانعقاد (المؤتمر الأفخاريسي) عام

1930، والذكرى الخمسون لفرض الحماية على تونس في (12 - 5 - 1931) حيث احتفلت بها سلطات الاستعمار والجمالية الاستعمارية معها، وفي نفس السنة حدثت أزمة اقتصادية بسبب الجذب «وغلو المعيشة غلواً فاحشاً مما هدد سكان البادية والأرياف بالمجاعة» ولم ينصرم عام 34 أو بالأحرى لم يفارق الشابي الحياة يوم 9 - 10 - 34 حتى كان قد جرى في الحياة التونسية حدثان بارزان هما: تأسيس «الحزب الحر الدستوري الجديد» يوم 2 - 3 - 34 واعتقال كبار قاداته يوم 4 - 9 - 34 . .

هذه معظم الأحداث الوطنية في عهد الشابي، كما يحددها ويحتج بها باحثون معاصرون، يحاولون من خلالها أن يجدوا مطاعن معينة في أدب الشابي ومواقفه الوطنية أولاً ومن بلاده وشعبه ثانياً.

وباستثناء «المؤتمر الأفخاريسي» الذي أضفناه نحن لسلسلة الأحداث - حسب روايتهم لها - لأنه ألصق بتفكير ذلك العهد من ناحية، ولأنه كان من ناحية ثانية مبعث نشاط فكري ووطني كبير، تغافل عنه أولئك الباحثون، سهواً أو عمداً. . ولكنه حدث من الأحداث الكبرى في وقته له أثره الخاص على التفكير الوطني يومئذ، ولأن له من ناحية أخرى صدى واضحاً في شعر الشابي بالذات، كما سيأتي.

وقبل أن نناقش هذه السلسلة من الأحداث، من حيث صحة الاحتجاج بها، والبحث في أدب الشابي وحياته (في ضوءها) أو عدم صحة ذلك.

أريد - قبل ذلك - أن أقرر جملة من الحقائق التاريخية والأدبية التي تتصل بحياة الشابي وبأدبه، والتي بدون معرفتها والتسليم بها، يكون كل بحث وكل نقد وكل حكم على الشابي وأدبه ومواقفه المختلفة، حكماً جائراً، خالياً من الإنصاف والنزاهة، والمنهجية السليمة القائمة على الأمانة والأخلاق العلمية الصحيحة.

وأولى تلك الحقائق أن الشابي ولد عام 1909 ومات عام 1934، وعلى التحديد لم يعيش في هذه الحياة سوى خمسة وعشرين عاماً وسبعة شهور ونصف، وهي سن لا تزيد عن سن التعلم واستكمال عدة الثقافة والحياة، لا سيما في عهده، حيث كان معظم الشبان يحرزون على شهادتهم العالية، وربما الثانوية في نهاية هذه السن؟! ولا عبرة هنا بالشواذ، بل يجب النظر إلى المجموع العام الغالب في الحياة يومئذ.

وثانيها: أن الوعي الوطني، والسياسي والاجتماعي بوجه عام، لم يكن من قوة النفاذ والسيطرة والانتشار - حتى على المثقفين أنفسهم - إلى الحد الذي قد نتصوره اليوم، بعد أن قطعنا المراحل، واجتزنا العقبات وطوينا المسافات في تلك الميادين ذاتها.

وثالثها: أن الشابي قد عاش منذ طفولته أسير مرض أضناه وأنهك قواه البدنية، وخاصة في السنوات الست الأخيرة من حياته.

ورابعها: أنه كان - بحكم مرضه وبيئته الجريدية - وأعصابه المرهفة، رقيق الحساسية، سريع التأثر والألم لأقل حركة أو مظهر ينفر منه أو لا يرضاه مما كانت - ولا تزال - الحياة التونسية تعج به، من إعوجاج في السلوك، وفجاجة في التفكير، وسخف في العادات والتقاليد، وتحجر في المفاهيم والنظرة إلى الكون والأشياء وللحياة نفسها. والشابي بحكم - ظروفه وحساسيته وثقافته الأدبية - لا سيما ينابيعها الرومنطيقية - كان مثالي النزعة والتفكير، فكان لذلك كله سريع العطب والألم والتصادم - السلبي - مع المجتمع، من خلال ما يراه ويسمعه ويعانيه أحياناً من أوصاب الناس ومشاكلهم، التي كان الكثير منها قائماً على فراغ النفوس مما يملأ نفسه، فلا غرابة والحالة تلك من أن يبعده ذلك عن الحياة الاجتماعية المتصلة، وعن المشاركة الكاملة في أحداث الشعب الكبرى والصغرى على السواء.

وخامسها: أن شعراء جيله وكتابه، لم يكونوا جميعاً على خلاف ما كان، بل إننا نزعم، إن لم نؤكد بأنه قد كان أكثر تجاوباً مع كفاح الشعب ومشاركة في حياته الثقافية والوطنية من كثير من معاصريه وأصدقائه؟

سادسها: أن الشاعر، الفنان الحق، لا يطلب منه أن يكون بوقاً وصدى لكل ما يجري في البلاد من حركات وأحداث، جليلها وحقيرها، ولا أن يتخذ موقفاً - بشعره - من هذا الحزب أو تلك الشعبة أو ذلك الرجل القائد أو المفكر أو القائم بأي عمل. . وهذا التعميم الإلزامي الذي يحاول بعضهم اليوم أن يحاسب الشابي على أساسه وفي ضوءه، إنما هو إلزام بما لا يلزم وافتعال ما لا يجوز.

ولعل هؤلاء حين ينظرون إلى تاريخ جميع الرجال الوطنيين والمثقفين والأدباء في عهد الشابي، ويفحصونه بدقة ثم يقيسونه بمقياسهم ويطابقون بينه وبين أحداث ذلك العهد. . لعلهم يقتنعون معي، بأن الشابي أفضل من كثيرين جداً ممن كان يشار إليهم على أنهم أقطاب الفكر أو الوطنية حتى عام 1934 - على الأقل - وبعضهم استمرت به الحياة إلى اليوم، وعاصر تفاعلات أكثر قوة وحيوية في كفاح الشعب ونضاله المستميت من أجل الحرية والعدالة والاستقلال الوطني، ومع ذلك ليس لهم ما للشابي من غناء بالحرية وتحريك للشعب، وإثارة للهمم الخامدة، وحب للإنسانية جارف، وذود عن مصير الإنسان - أي إنسان - والتونسي بالخصوص، وتمسك صارم بالمبادئ والمثل العليا التي لا يجوز التفريط فيها أو التخلي عنها.

ففي حين كان شعراء عصره من خزنة دار إلى الكبادي فالقصار فأخريين كثيرين⁽¹⁾ كانوا ينظمون قصائد المديح في البيات والوزراء

(1) لا أستثني هنا أصدقاء الشابي الكبار. . . فما هو دور البشروش والحليوي في الكفاح والتحرير، وما هو موقفهما من تلك القضايا الوطنية الحاسمة التي جرت =

وتوافه المناسبات، كان الشابي يعلن في وضوح وصراحة وصدق:

لا أنظم الشعر أرجو به رضاء الأمير
بمدحة أو ثناء تهدي لرب السريير
حسبي إذا قلت شعراً أن يرتضيه ضميري
ما الشعر إلا فضاء يرف فيه مقالي
فيما يسر بلادي وما يسر المعالي
وما يثير شعوري من خافقات خيالي

وقد عاش الشابي - ما عاش - وفياً لهذه المبادئ، معلماً لشأن الحرف وقداً في الشعر في بلاده، مدافعاً عن الحق والحرية، بصوت وأسلوب وحساسية لم نعرف لها مثيلاً قبله ولا بعده حتى يوم الناس هذا.

وإنه لمجد عظيم أن كان الشابي، كما هو، بكل أبعاده وعطائه وثورته وآلامه ونهايته.

= بعد وفاة الشابي؟!

هذه الحقائق... ثانياً!

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
ولا بد للظلم أن ينجلي
ولا بد للقيد أن ينكسر
ومن لا يحب صعود الجبال
فلا بد أن يستجيب القدر
يعش أبد الدهر بين الحفر
إذا ما طمحت إلى غاية
لبست المنى وخلعت الحذر

استعرضنا في الحديث الماضي، حجج الذين يتهمون الشابي بأنه كان سلبياً تجاه الأحداث القومية الكبرى في عهده، وبأنه لم يشارك عملياً في الكفاح الوطني. وقد بدأنا في الواقع، برد تلك الحجج حين قدمنا جملة من الحقائق الأساسية المتعلقة بحياة الشابي وأدبه والمبادئ الأساسية التي يجب أن يعتمد عليها كل بحث تاريخي أو أدبي يتصل بحياة الرجال، وبحياة الشابي وأدبه وعصره بوجه خاص ولا شك في أن كل باحث أو كاتب عن حياة الشابي وأدبه يغفل أو يهمل تلك الحقائق، إنما هو مشوه للحقيقة طامس للأمانة العلمية والتاريخية.

وغني عن القول أن الشابي لا يمكن الطعن في أدبه ومواقفه بكل سهولة قد يظنها نفر من أصحاب الأفكار العنصرية أو الشيوعية، فيحاولون ربط الأحداث الوطنية بأفكارهم أولاً. ثم يلتمونها كالحجارة ويتهافتون بها على الشابي محاولين بذلك هدمه والنيل منه لأغراض تفضح نفسها بنفسها.

وبدون أن ندخل في تفصيل ذلك، وتحديد تلك «الأفكار» وأولئك «النفر» فإننا سنكتفي هنا بمناقشة تلك الأحداث التي جمعوا بها عصارة «أفكارهم»، ثم نسوق لهم - بدورنا - جملة أخرى - معاكسة - من المواقف والمساهمات التي اشترك بها الشابي في كفاح شعبه وناصر بها كل ما رآه حقاً وسداداً من المواقف والاتجاهات الفكرية والوطنية في أيامه.

ومرة أخرى، نطلب منهم، ومن القارئ بالخصوص، أن لا تغيب عن ذهنه تلك الحقائق الست التي جعلناها مدخلاً لكل بحث - مهما كان - في حياة الشابي وأدبه ومواقفه.

وعلى ذلك، نعلم منذ البداية، بأن ذكر أحداث وطنية أو سياسية أو اجتماعية حدثت في عهد الشابي، هكذا بإطلاق، أمر باطل ومخالف للأمانة العلمية، إذ أن حياة الشابي كانت:

أولاً - قصيرة جداً.

ثانياً - كان فيها - غالباً - معلولاً - مريضاً، وخاصة سنواته الست الأخيرة. وهذا ما يجب أخذه بعين الاعتبار.

ثالثاً - لم يكن في عهده القصير من الحركات الوطنية التقدمية، ما يجذب هو إليه، وباستثناء حركة محمد علي النقابية، القصيرة الأجل، فإننا لا نجد شيئاً يذكر.

وقد رأينا الشابي يتجاوب مع حركة محمد علي - كشاعر فنان - رغم صغر سنه، ويناصر الحداد في دعوته لتحرير المرأة، ويندد بالرجعية الفكرية والدينية، وينادي الشعب إلى الحياة العصرية، والانطلاق من قيود الماضي وأغلال الزوايا والتقاليد المتحجرة. ورغم الظلام السائد في أيامه، فإنه لم ييأس من مستقبل شعبه، بل كان يراه «قوة لم تسسها فكرة عبقرية ذات بأس».

وعواطف الخير والمحبة لشعبه وبلاده كثيرة جداً في شعره ونثره،
وفي مساهماته العملية المختلفة.

ولو عاش الشابي بعد عام 34، وشاهد - مثلاً - انتفاضة 9 أفريل
38 أو ثورة الشعب العارمة أعوام 52 - 54، لكان يعانق شعبه عناق
الرضى والإكبار، ولكان لنا منه ثروة أدبية وقومية أوسع وأروع مما تركه
لنا من غناء بالحرية وتمجيد للشعوب الناهضة المنتصرة.

كل شعب قد طغت في الدما دون أن يثأر للحق الجلي
خله للموت يطويه، فما حظه غير الفناء الأنكلي

ويتبع ذلك منطقياً، أن يمجّد كل شعب كان بعكس ذلك، بل أن
الشابي قد تراءى له - من خلال ظلام الاستعمار والرجعية والتخلف -
مستقبل شعبه يشع بالنور والحرية والمجد:

إن ذا عصر ظلمة، غير أني من وراء الظلام شممت صباحه
ضيع الدهر مجد شعبي ولكن سترد الحياة، يوماً وشاحه

والحياة التي يعينها الشابي هي حياة اليقظة والثورة والكفاح تلك
الحياة التي لم يعبر عنها شاعر في الأرض كما عبر عنها الشابي في
قصيدته الخالدة «إرادة الحياة»:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد للظلم أن ينجلي ولا بد للقيّد أن ينكسر

وهذا ما تحقق فعلاً في حياة شعبنا. ولو لم يترك الشابي سوى
هذه القصيدة، لكان فيها الغناء والكفاية، وكان بها أشعر شعراء الوطنية
- على حد تعبير الدكتور شوقي ضيف - . ولكنه في الواقع ترك كثيراً

غيرها، وساهم بنفسه في كثير من أحداث شعبه وكفاحه، ولكنه في كل ذلك، بقي سجين مرضه، وعمره القصير.

ونعود إلى تلك الأحداث، التي يحتاج بها كتابنا اليوم، فنقول:

حين تأسس الحزب الدستوري عام 1920 كان الشابي في الحادية عشرة من عمره؟! فهل ينتظر منه أن يعي شيئاً، وأن يكون مسؤولاً على عدم انخراطه فيه أو معاضدته له(؟!).

والغريب هنا أن بعض كتابنا يذكر أيضاً تأسيس الشعبة الشيوعية، في هذا التاريخ (؟) التي - حسب زعمه - انقلبت إلى حزب فيما بعد؟! وكأنه بذلك يضع الشابي أمام مسؤولية الاختيار، وينسى هذا الكاتب أن الشابي - فضلاً عن صغر سنه - لا يمكن له أن ينخرط أو يعاضد - لا هذا، ولا ذاك... حتى بعد أن بلغ العشرين من عمره، وكان في إمكانه أن يختار وأن يعاضد ما يشاء. ومرد ذلك إلى حقائق أساسية، لعل حضرة الكاتب الجامعي، لا يعرفها، أو يتعمد عدم معرفتها، وهذه الحقائق هي:

أولاً - كان الحزب الدستوري القديم، حزباً وطنياً، ما في ذلك شك - ولكن أسلوبه في العمل، وميله إلى ربط الدين بالسياسة والتمسك بكثير من الأفكار الرجعية، قد حال دون حدوث أي تجاوب بين رجال هذا الحزب وبين الشابي، بل إن بعض أقطابه وصحافته قد كانوا على الشابي حرباً شعواء، يوم أخرج للناس كتابه «الخيال الشعري عند العرب» وأتى فيه بثورة كبرى في الأدب، والوطنية والاجتماع، بما احتوى عليه من نظرة جديدة للأدب، ودعوة صريحة لإيجاد أدب تونسي قومي، وسنخط على ما يعج به الأدب والمجتمع العربي من تحقير للمرأة.. وما زالت إلى اليوم آثار تلك الحرب في صحافة ذلك العهد، لا سيما ما كان منها مناصراً للحزب القديم.

أما الحزب الشيوعي ، فإنه لم يكن قط حزباً تونسياً ولم يطالب قط بالاستقلال الوطني، ونحن نعرف تاريخه جيداً، إذ كان يضم عناصر من الجالية الاستعمارية واليهودية، وكان - وخاصة بنقابات - يستغل منخرطيه التونسيين في أعمال ومصالح أخرى لا تتصل بالوطن وقضيته الأساسية .

والشابي بحكم ذلك، وبحكم نزعة القومية الخاصة، لا يمكن أن يتعاطف أو يناصر حزباً كان حتى وفاته فرعاً من حزب أجنبي موجود بفرنسا .

وهكذا نرى أن هذه الحجة الأولى، القائمة على هذا الحدث التاريخي، قد بطلت، ولا يستقيم الاحتجاج بها .

وبخصوص الحركات والمنظمات السياسية والوطنية فإن الشابي، لم يتعاطف إلا مع حركة محمد علي، والحزب الدستوري الجديد، وهذا هو الاتجاه السليم الممكن له في أيامه، ولو أنه اتجه اتجهاً آخر لكان منحرفاً وضالاً، حسبما نعتقد نحن ذلك اليوم .

وقد بينا موقفه من حركة محمد علي، ونضيف هنا، إنه مات بعد تأسيس الحزب الجديد بسبعة شهور، وأنه كان خلالها في منتهى المرض الذي أودى آخر الأمر بحياته، ولكنه مع ذلك - فقد اجتمع في صائفة 33 بالأستاذ الطاهر صفر الذي كان من أقطار الحزب الجديد، وأنه نظم قصيدته «إرادة الحياة» عقب هذه المقابلة، كما أنه نشر في جريدة العمل عام 34 عدد 22 مقطوعته «للتاريخ» ومطلعها:

البؤس لابن الشعب يأكل قلبه والمجد والإثراء للأغراب

وهذا كله دليل واضح على تعاطف الشابي مع حزب (*) الدستور

(*) يخشى أن يفهم القارئ الدستور الجديد بمفهوم: مجموع القوانين المسيرة الجديدة ولذلك أضفت كلمة حزب ليفهم معنى الكلام .

الجديد، وعلى أنه من الوطنية والحب والإخلاص لشعبه بما ليس عليه
مزيد، ولولا الموت لكان له في تاريخنا القومي مكانة ذات دلالة سياسية
فوق مكانته الأدبية الخالدة.

وتأكيداً لذلك نذكر أن الأستاذ الطاهر صفر، قد كان في حفل
الأربعين، بين المتكلمين، وأنه قد ركز كلمته بالخصوص على وطنية
الشابي فهل بعد ذلك من شك؟!

هذه الحقائق... ثالثاً!!

لا ينهض الشعب إلا حين يدفعه عزم الحياة إذا ما استيقظت فيه
والحب يخترق الغبراء مندفعاً إلى السماء، إذا هبت تناديه
والقيد يألفه الأموات، ما لبثوا أما الحياة، فيبليها وتبليه

نسوق اليوم طائفة من الأعمال والنشاطات الثقافية والاجتماعية
التي قام بها الشابي، والتي هي - في جوهرها وغاياتها البعيدة - ترمي إلى
النهوض بالشعب ودفعه إلى الأمام.. كي يأخذ بأسباب الحضارة
والتقدم، وليكون له من أسباب القوة والعلم ما يدعم كفاحه الوطني في
تلك الظروف العصيبة.

والملاحظ هنا أن جميع الحركات والمنظمات والقوى الوطنية،
منذ نشأة الكفاح الوطني حتى الاستقلال، لم تكن تفصل العمل الثقافي
والاجتماعي عن العمل الوطني بل كان العمل الثقافي والاجتماعي هو
السييل المباشر إلى الاتصال بالجماهير والتأثير فيها، وتحريك قواها
الكامنة وعواطفها الخاملة نحو الكفاح والتضحية والفداء.

ومن هنا وجب على الباحث والمؤرخ أن لا يفصل الحياة الثقافية
والاجتماعية - في عهد الاحتلال على الأقل - عن الحياة الوطنية
والحركات التحريرية، حتى لو كان العمل الثقافي أو الاجتماعي يبدو لنا
- في ظاهره - منعزلاً عن الكفاح الوطني أو مستقلاً عنه، إذ أن ذلك

الانعزال أو الاستقلال إنما هو ظاهري فقط، أما في باطنه أو مرماه البعيد فهو يهدف إلى دعم قوى الشعب المكافحة بطاقات جديدة من الجماهير المؤيدة الواعية، أو من الشباب المثقف المندفع إلى خدمة الوطن وتحريره من ريقه الاستعمار.

ونستطيع القول - دون أي مجازفة - بأن معظم الجمعيات والنشاطات ذات الصبغة الثقافية والاجتماعية التي قامت في عهد الاحتلال قد كانت في خدمة الأغراض الوطنية والتحررية بعيدها وقربها على السواء.

بل وأستطيع أن أعلن أيضاً بأن الجمعيات الفنية والرياضية التي تأسست في عهد الاحتلال كانت هي الأخرى ضرباً من ضروب الكفاح الوطني لإثبات الشخصية القومية، ولإيجاد قوى حية منفصلة عن قوى المحتلين، تكون - في أي وقت - سنداً للشعب وطاقته تناضل عنه في ميدانها الخاص.

في ضوء ذلك، يمكننا الآن أن نفهم دور الشابي في الجمعيات والنشاطات الثقافية والاجتماعية المختلفة التي قام بها أو ساهم فيها، مع الملاحظة من جديد، بأن الشابي كان يندفع إلى النشاط والمساهمة الفعالة كلما كان في حالة صحية حسنة، وأنه يبتعد وينكمش كلما كانت صحته متعكرة أو متعبة.

وتدلنا أعماله وتواريخها، على أنه كان ميالاً - بحكم صحته الضعيفة وتكوينه الفكري الخاص - إلى النشاط الثقافي أكثر من سواه. لكنه لم يكن قط منعزلاً عن واقع شعبه، وعن محاولة التأثير - عن طريق الكلمة - في حياته ودفعه إلى النهوض والكفاح. وسنرى في خاتمة هذه المقالات، أن الشابي قد تطور في تفكيره الوطني حتى انتهى آخر الأمر إلى الإيمان بضرورة إعلان الثورة المسلحة على الاحتلال والاستعمار.

ولنبدا الآن بعرض نشاطه في مختلف الميادين التي ساهم فيها.

بدأ الشابي حياته الكفاحية العملية في عام 1928 وكان يومها في التاسعة عشرة من عمره، وهو وقت مبكر بالنسبة إلى جيله، وأمثاله من الشباب في ذلك العهد.

ففي هذا العام ساهم في تأسيس جمعية «الشبان المسلمين» وعمل بنشاط في لجنة طلاب الزيتونة التي تكونت للمطالبة بإصلاح التعليم الزيتوني، والتي أعلنت الإضراب وأثارت حركة فكرية واجتماعية قوية، وما زال صديقه الأستاذ محمد الصالح المهدي يحتفظ بأعمال تلك اللجنة وبكل ما حرره الشابي لها بخطه. . وكان للشابي تأثير خاص في نجاح أعمال اللجنة كما حدثنا بذلك الأستاذ المهدي نفسه.

وفي عام 1929 بذل الشابي نشاطاً أدبياً وفكرياً كبيراً بين جمعيتي الخلدونية وقدماء الصادقية وقد كان من أبرز أعضاء النادي الأدبي المتفرع عن قدماء الصادقية، وكان أيضاً من مؤسسيه والعاملين به. ومعروف أن كتابه «الخيال الشعري عند العرب» إنما هو - في الأصل - محاضرة ألقاها في قاعة الخلدونية يوم 1 - 2 - 29 تحت إشراف النادي الأدبي لقدماء الصادقية. وانضمام الشابي إلى نشاط قدماء الصادقية وعمله على تأسيس ونجاح النادي الأدبي بها له دلالة فكرية ووطنية خاصة.

وفي نفس السنة كما في العام الموالي حاول الشابي إلقاء محاضرات أخرى في نادي الجمعية نفسها، فلم يكن هناك جمهور يستمع إليه، بسبب الدعاية المغرضة والحملات الصحفية التي قامت بها الرجعية ضد الشابي، لما أعلنه من أفكار حرة وجريئة في محاضراته عن «الخيال الشعري عند العرب» وهي أفكار ثورية لم يسبق لها مثيل في تونس.

ورغم ما كان لهذه الحملة المغرضة من أثر نفسي خطير على صحة الشابي المنهكة، فإنه ازداد إيماناً بضرورة العمل الثوري في كل الميادين، وخاصة في الميدان الفكري، حتى تتغير «العقليات» المتحجرة، التي كانت تقف حجر عثرة في سبيل تقدم الشعب وتحرره من قوى التخلف والاستعمار.

وليست قصيدته «النبى المجهول» إلا الشرارة الأولى التي انطلقت في «ثورية» الشابي التي تواصلت حلقاتها - رغم مرضه ومحنه - إلى آخر لحظة من حياته:

أيها الشعب ليتني كنت خطاباً	فأهوي على الجذع بفاسي
ليتني كنت كالسيول إذا سالت	تهد القبور رسماً برمس!
ليت لي قوة العواصف يا شعبي	فألقي إليك ثورة نفسي!
ليت لي قوة الأعاصير . . لكن	أنت حي، يقضي الحياة برمس
أنت في الكون قوة . . لم تسسها	فكرة عبقرية ذات بأس
أنت في الكون قوة كبلتها	ظلمات العصور من أمس أمس

والشابي في «ثورته» تلك، لا يكفر بالشعب مهما تنهى «غضبه» واشتد «حنقه» عليه، بل هو في «غضبه» و «حنقه» شديد الإيمان به وبما فيه من قوى كامنة، وطاقات خاملة، وهو إنما يفضب ويحنق ويجدف أحياناً من أجل أن يحرك في الشعب هممه المستسلمة، وحميته الخاملة كي ينهض وكي يثور:

أنت في الكون قوة لم تسسها فكرة . . عبقرية . . ذات بأس

فالشعب إذن قوة . . ولكنها قوة بلا محرك بلا قيادة، وبلا إنتاج، وبالتالي بلا حركة أو ثورة دافعة للأمم، فلا عزم ولا إرادة على الخلق

والكفاح والتحرر والتقدم والنهوض. وهي المعاني التي نراها فيما بعد تشغل ذهن الشابي فيجمعها كلها في فلسفة واحدة هي «يقظة الإحساس» وجميع قصائده الوطنية، وكذلك مقالاته ومحاضراته بعد عام 1930 أي بعد إعلانه قصيدته أو ثورته «النبي المجهول» إنما هي تفصيل أو شرح لفلسفته عن «يقظة الإحساس» التي هي أساس كل حركة وكل ثورة وكل تقدم:

لا ينهض الشعب إلا حين يدفعه عزم الحياة إذا ما استيقظت فيه
والحب يخترق الغبراء مندفعاً إلى السماء، إذا هبت تناديه
والقيد يألفه الأموات، ما لبثوا أما الحياة، فيليها وتبليه

وقد أثبتت الأيام والأحداث المولية أن الشابي كان صادقاً ورائعاً في فلسفته أو دعوته إلى «يقظة الإحساس» في نفوس الشعب، فحين تيقظ الإحساس الوطني جرف في تياره العاصف كل القوى المعادية له، جرف الاستعمار والمماليك والرجعية، وهو الآن يعصف بالتخلف الذي أزمنا بأرضنا مئات السنين، وتلك هي «إرادة الشعب» التي تصنع المعجزات إذا ما تحركت، وتغير التاريخ إذا ما انطلقت، وليس القدر إلا صدى لها ومستجيباً إليها.

ونعود إلى نشاط الشابي، فنراه سنة 32 يلقي في توزر محاضرة عن «الهجرة النبوية» يبين فيها آراءه الجديدة في مفهوم «الرسالة المحمدية» وكون الدين قوة محركة، وليس قيوداً وأغلالاً تعوق البشر عن التقدم والانطلاق والتحرك.

ثم نجد إنتاج الشابي الأدبي - لا سيما منه الوطني - غزيراً جداً بين أعوام 31 - 34 وذلك رغم أن المرض كان قد أجبر الشابي منذ عام 30 على الابتعاد شيئاً فشيئاً عن النشاط الفعال والحيوية المندفعة التي ظهر

بها أعوام 28 - 29. وهكذا بدأت حياة الشابي الصحية تتعكر وتزداد سوءاً يوماً بعد يوم، مما اضطره إلى التنقل بين المناطق الصحية بحثاً عن «الشفاء»، فمن عين دراهم إلى توزر، فالمشروحة بالجزائر، ثم إلى أريانة التي نقل منها مريضاً إلى المستشفى الإيطالي - ثامر اليوم - حيث توفي فجر يوم 9 - 10 - 34 ولم يبلغ السادسة والعشرين من عمره.

دفاعاً... عن الشابي!!

أنت يا شعر . . فلذة من فؤادي تتغنى وقطعة من رجودي
فيك ما في جوانحي من حنين أبدي إلى صميم الوجود
فيك ما في خواطري من بكاء فيك ما في عواطفي من نشيد
فيك ما في مشاعري من وجوم لا يغني . . ومن سرور عهد
فيك ما في عوالمي من ظلام سرمدي ومن صباح وليد

منذ عام 1955 بدأت تظهر آراء عربية حول حياة الشابي وأدبه . ومع توالي السنين أخذت هذه الآراء تتسرب إلى أذهان الناشئة وتحاول أن تسممها بملفقات وأوهام مصطنعة، كثيراً ما انخدعت بها العقول اليافعة، لقلة إطلاعها على تاريخ وطنها من جهة، وعلى الحقائق الصارخة في حياة الشابي وأدبه من جهة أخرى .

وتبدو خطورة هذه الآراء المزيفة، حين تقدم إلى الأجيال الصاعدة خلال دراستها لأدب الشابي في مرحلة التعليم الثانوي، حيث ظهر أن بعض أساتذة الأدب يحرفون حقائق تاريخنا الأدبي، ويزيفون الإطار الحقيقي الذي يجب أن يقدموا فيه شخصية الشابي وأدبه لتلاميذهم . . وهم - في غمرة أغراضهم الخاصة - يتناسون أن المسؤولين عن التعليم والترقية في بلادنا قد حددوا لهم الإطار اللازم لأي أديب، حين جعلوه ضمن برنامج الدراسة، سواء في مجال النصوص أو مجال التاريخ

الأدبي، ذلك أنه لو لم يكن الشابي - في نظر المسؤولية القومية -
شاعراً.. وشاعراً قومياً مجيداً.. لما كان أدبه أو حياته ضمن البرامج
المقررة.

على أن الأمر.. قد تجاوز الموتورين ومن في نفوسهم مرض،
إلى فئة أخرى، عاصرت الشابي، وارتبطت معه بروابط أدبية وأخوية
 واجتماعية عديدة، وكان مفروضاً فيها أن تكون أكثر من غيرها ولاء
 ووفاء وصدق مودة نحو «صديق ميت» لا يستطيع الدفاع عن نفسه،
وربما كان يظن - إن لم يكن يعتقد - في حياته أن أصدقاء الحياة والأدب
سيكونون هم أنصاره الأوفياء والمدافعون السابقون عنه، يوم يناله أي
ضيم أو حيف من ناقد منحرف، أو باحث جاهل.. أو كاتب مغرض.

ونحن، لا نتوسم ذلك على حساب التاريخ وقواعد النقد، وإنما
نتوسمه بحكم «الأخلاق» و«واجبات الوفاء» للصديق الحي، وأخرى
الميت..

هذا إذا سلمنا جدلاً بأن حقائق التاريخ أو قواعد النقد، لا تستطيع
أن تنصف الشابي أو تكون معه، فترفع من شأنه، وتضعه حيث ينبغي أن
يكون.

والواقع، أنني أصبحت متأكداً، بأن بعض «أصدقاء» الشابي، لا
يكادون يعرفونه إلى الحد الذي يؤهلهم للكلام عنه باسم الماضي الذي
عاشوه معه، أو باسم العلاقات الواعية التي كانت تربطهم به..

وقد لا يتسع المجال هنا، لتحليل حقيقة بعض «أصدقاء» الشابي،
ونوع صداقتهم ومدى صدقها وعمقها..، وكذلك سبر المعلومات
والانطباعات والذكريات التي يزعمون أنها لديهم عنه.. ولكن ما
تستنبطه نفوس هؤلاء سرعان ما يظهر في فلتات اللسان أو على سحنات
الوجوه، كما قال علي بن أبي طالب..

ولعل أغرب ما سمعته من بعض «أصدقاء» الشابي: «أن شعر الشابي الجيد لا يزيد عن أربعة عشر قصيدة، وأن الشابي شاعر مطلق، وأنه لذلك، لا يتحدث في شعره عن شعب معين، فكلما ذكر كلمة «شعب» جاءت مطلقة، بحيث لا يمكن اعتبارها تعني شعبه، بل إنه لم يذكر اسم «تونس» أو كلمة «شعبي» مضافة - هكذا - إلى نفسه في كل شعره..!! إلى آخر هذه المزاعم التي ليس لها أي دليل، بل إن جميع ما في شعر الشابي يفندها ويثبت عكسها.

فأولاً.. يصل مجموع شعر الشابي - المعروف لدينا - إلى زهاء المائة قصيدة ومقطوعة، بينها على الأقل زهاء السبعين قصيدة ومقطوعة في مستوى جيد، سواء منها الوطني أو الاجتماعي أو الوجداني أو الغزلي.

كذلك، لا تعني كلمة «شعب» كلما وردت في شعره إلا الشعب التونسي.. ولا يمكن أن تصرف عن هذا المعنى إلا إذا أردنا التجني على حقائق التاريخ والنقد والطنع «المغرض» في «قيم الشابي الوطنية»، وهي أمور لا «تمشي» على العقلاء بسهولة.

ثم إن الشابي ذكر الشعب مضافاً إلى ياء المتكلم في قصائد عديدة، لعل أقربها إلينا، وأكثرها شهرة، قصيدة «النبى المجهول» وكذلك «تونس الجميلة»، ففي الأولى يقول:

ليت لي قوة العواصف يا شعبي	فألقي إليك ثورة نفسي!
ليس لي قوة الأعاصير إن ضجت	فأدعوك للحياة بنفسي!
ليت لي قوة الأعاصير.. لكن	أنت حي يقضي الحياة برمس!

وفي الثانية يقول:

أنا يا تونس الجميلة في لج
 شرعتي حبك العميق وإنني
 لا أبالي وإن أريق دمائي
 إن ذا عصر ظلمة غير أنني
 ضيع الدهر مجد شعبي ولكن
 الهوى قد سبحت أي سباحة
 قد تذوقت مره وقراحه
 فدماء العشاق دوماً مباحه
 من وراء الظلام شمت صباحه
 سترد الحياة يوماً وشاحه

على أن الشعب ورد في قصائد عديدة أخرى، منها بالخصوص
 قصيدة رائعة تمثل لنا حرقه الشابي وآلامه. وثورته، على ما كان يراه في
 أيامه من ركود الحياة، وتعفن التقاليد؟ وموت النفوس.. نفوس
 الجماهير، ومعظم أفراد «النخبة» المثقفة، فكانت ثورته على الجميع
 عارمة، وكانت صيحته داوية، وكان في غضبه كالبركان، والإعصار،
 يريد أن يبعث الحياة والحركة في شعبه، ولو بنفس الأسلوب والقوة التي
 تثيرها الأعاصير والبراكين. وكل هذا يتجلى واضحاً في قصيدته «إلى
 الشعب»:

أين يا شعب قلبك الخافق الحساس؟
 أين يا شعب روحك الشاعر الفنان؟
 أين يا شعب فنك الساحر الخلاق؟
 أن يم الحياة يدوي حوالبك
 أين عزم الحياة؟ لا شيء إلا
 عمر ميت، وقلب خواء
 وحياة.. تنام في ظلمة الوادي
 أي عيش هذا.. وأي حياة!؟
 أين الطموح.. والأحلام؟
 أين الخيال.. والإلهام؟
 أين.. الرسوم.. والأنغام؟
 فأين المغامر المقدم
 الموت، والصمت، والأسى والظلام
 ودم، لا تثيره الآلام!!
 وتنمو من فوقها الأوهام!
 (رب عيش أخف منه الحمام)

وأمثال هذه القصيدة، كثير في ديوان الشابي.. وكلها، يتفجر فيها

بالألم والحسرة، على ركود الجماهير، واستسلامها لأوضاعها
المدمرة.. من استعمار ورجعية وتخلف..

والشابي في جميع شعره الوطني يفيض بالحب العميق لشعبه،
ويتوق إلى أن يراه في قمم التقدم والحرية والاندفاع المتواصل نحو
الحضارة والرخاء والازدهار..

وإن أي محاولة لتشويه هذه الحقيقة إنما هي تزيف للتاريخ،
وانحراف عن الحق وتجرد من الأمانة والتزاهة والضمير!!

وإذا كانت كلمة «شعب» تأتي هكذا مطلقة من أي إضافة، فإنها
غالباً ما تأتي مقرونة بأل، ومعنى أل مع شعب، واضح لكل من تعلم
مبادئ العربية وقواعدها الأولية.. هذا فضلاً عن أن السياق وظروف
القصيدة وحياة الشاعر وعصره.. كلها لا تدع مجالاً لأحد كي يشككنا
في حقيقة الشابي أو مدلولات شعره..

إن الشابي لم يكن - في جميع شعره وأدبه - إلا مرآة عصره
وشعبه، وإن كل معنى أو كلمة قالها إنما هي (تصوير وتعبير) عن حياة
شعبه، وعن «مأساة الإنسان» في وطنه..

وبهذا يندرج كل شعره في باب «أدب الكفاح».. الكفاح عن
الشعب والكفاح عن الإنسان المواطن.. وهذا ما يجعل الشابي شاعراً
قومياً وإنسانياً من طراز فذ.

دفاعاً... عن الشعب!!

ولتشهد الدنيا التي غنيتها: حلم الشباب، وروعة الإعجاب

أن السلام حقيقة مكذوبة والعدل فلسفة اللهب الخابي
لا عدل، إلا أن تعادلت القوى وتصادم الإرهاب بالإرهاب

بهذا الحديث، نختم سلسلة المقالات التي عقدناها لبيان موقف
الشابي من كفاح شعبه الوطني، ومن حركة محمد علي النقاية. وقد
حاولنا أن نعطي القراء صوراً مختصرة عن مساهمة الشابي في تاريخنا
الوطني، لا سيما نشاطه في الحياة الثقافية والقومية التي كانت ترمي إلى
إحياء النفوس وتوعية الجماهير لكي تنهض من جديد وتناضل عن
كرامتها وحريتها وحققها في الحياة الكريمة الفاضلة.

وقد تضمنت تلك المقالات جملة من الحقائق والمعلومات
المتعلقة بحياة الشابي وأدبه، كما تضمنت نماذج مختلفة من أشعاره ذات
العلاقة والصلة المباشرة بكل ما تحدثنا عنه. ومع ذلك نود أن نختم
أحاديثنا بصور ونماذج أخرى من شعر الشابي الذي لم يسبق عرضه أو
الحديث عنه، والذي يتمثل فيه - بوجه خاص - حب الشابي لشعبه،
وغيرته عليه وحماسه الفياضة للدفاع عنه، ودعوته الحارة للنهوض
والثورة على الاستعمار والتخلف والرجعية.

وسنرى في هذه «النماذج» الجديدة دليلاً آخر على وطنية الشابي،

وعلى أنه لم يكن قط من أولئك «الشعراء» المتفرجين، الذين كانوا ينظرون لشعبهم، بكل ما كان عليه من بؤس وتخلف واستعمار، ثم ينصرفون إلى حياتهم الخاصة، وكأنهم «غرباء» عنه، لا يهمهم أمره، وليست له عليهم حقوق؟!!

بل إن منهم من كان ينغمس في أحوال المديح والتملق للبايات وحاشيتهم من «ذراري الممالك».. هذا فضلاً عن تلك الفئة المنحرفة التي ضلعت في خدمة الاستعمار، وكانت مطية لمآربه، وبوقاً لدعايته وأراجيفه.

والشابي، الذي عاش ومات طاهر الذيل نقي الصفحة والضمير، لم يكن - مع ذلك - من فئة المتفرجين، أو المنطوين على أنفسهم، يجترون في بروجهم الفخرية، أحلامهم التافهة وأمانهم الرخيصة.

والحق أن المقارنة والموازنة - حتى بمقياس الضدية - لا تصح مطلقاً بين الشابي وبين أي شاعر من الفئتين السالفتين، لهذا نتقل رأساً إلى ما وعدنا به من شعر الشابي الوطني، الذي دافع به عن الشعب، سواء في ميدان حقه في الحرية والسيادة والاستقلال، أو في ميادين التحرر من الرجعية والتخلف والتعاسة..

وسنرى في نهاية النماذج القليلة الآتية أن الشابي بلغ نهاية نضجه القومي ووعيه الثوري في آخر سنة 34، أي قبيل موته بشهور معدودة.

ولنبداً جولتنا مع الشابي من مطلع عام 1928 حيث كان الشابي على أبواب العشرين من عمره الغض القصير. ففي يوم 8 - 1 - 28 حركته آلام شعبة وغطرسة الاستعمار، فقام يتوعد المستعمرين بفجر الثورة والحرية الذي لا بد من أن يضيء يوماً دروب الحياة والاستقلال لشعبه:

يا أيها السادر في غيه يا واقفاً فوق حطام الجباه
مهلاً ففي أناة من دستهم صوت رهيب سوف يدوي صداه
يا أيها الجبار! لا تزدري فالحق جبار، طويل الأناة
يغفي، وفي إغفائه يقظة ترنو إلى الفجر الذي لا تراه

وإيمان الشابي بمستقبل شعبه قوي عتيد، وهو لا يخفيه في كثير
من شعره ونثره، ولكنه كان - مع ذلك يتألم من حالة الركود والاستخذاء
التي يراها سائدة في أيامه . . فكان يلتهب حماسة وثورة، ويريد أن ينفث
كل ذلك في نفوس مواطنيه، حتى يتحركوا ويناضلوا عن حريتهم
وكرامتهم، ويرفضوا جميع ألوان العبودية وكافة أشكال الاستغلال
والإذلال، وكل هذه المعاني نراها متدفقة مشرقة في قصيدة «يا ابن
أمي»:

خلقت طليقاً كطيف النسيم وحرأ كنور الضحى في سماه
تغرد كالطير أين اندفعت وتشدو بما شاء وحي الإله
فمالك ترضى بذل القيود وتحني لمن كبلوك الجباه
وتسكت في النفس صوت الـ حياة القوي، إذا ما تغنى صداه
وتقنع بالعيش بين الكهوف فأين النشيد؟ وأين الإياه؟
ألا انهض وسر في سبيل الحياة فمن نام لم تنتظره الحياة

في عام 1930 انعقد بتونس (قرطاجنة) مؤتمر ديني مسيحي عرف
باسم «المؤتمر الأفخارستي»، وكان الغرض منه دعم الاستعمار عن
طريق الدين المسيحي وربط وجوده بوجود الكنيسة، وقامت القوى
الوطنية تشهر بهذا التحالف الصليبي مع الاستعمار . . . وكان موقف
«شيوخ الدين» و«شموس الإسلام»، موقفاً مزرياً، إذ بقي أكثرهم

متفرجاً، وكان الأمر لا يعني مصير وطنه ومصير شعبه، بل ومصير الدين الذي به ارتفع إلى «أريكة الإفتاء» أو «مشيخة الإسلام». بل إن منهم من انغمس في الإثم فظاهر المؤتمرين الصليبيين بتأييده أو حضوره.. وكان لكل ذلك صدهاء في الصحافة الوطنية وفي جماهير الشعب.. وكان له أيضاً صدهاء في شعر الشابي، رغم مرضه المتصاعد يومئذ..

وها هو يركز موقفه الإيجابي على التنديد بموقف «رجال الدين» المسلمين السليبي، وهم المسؤولون الأولون عنه:

سكنتم حماة الدين! سكتة واجم ونتمم بملء الجفن.. والسيل داهم
سكنتم وقد شتمتم ظلاماً غضونه علائم كفر نائر ومعالم
مواكب إلحاد وراء سكوتمكم تضج، وها أن الفضاء مآثم
أفيقوا قليل النوم ولى شبابه ولاحت للألاء الصباح علائم

وغني عن القول أن «حماة الدين» لم يفيقوا من نوم الرفاهية والاستسلام للاستعمار، ولم تكتحل أبصارهم بنور الحق والحرية و«الجهاد» عن المستضعفين في الأرض.. بل كان «شموس الإسلام» و«مصايح الظلام»، شمساً ومصايح للطغاة، تنير لهم طريق الاستغلال والاسترقاق، بما كانوا ينفثونه في ضمائر الجماهير ومشاعر الشعب من مخدرات تزيد في استخذاء الشعب ونومه وركوده، مما يتيح للاستعمار فرصة العيش والبقاء، ويتيح لحماة الدين، فرصة المناصب الكبيرة والرواتب الكبيرة أيضاً.

ولكن الشابي، لا يترك لهم وللإستعمار «حاميمهم» فرصة الأمن على الغنيمة، وسلب الشعب قوته وحقه في الحياة والحرية والكرامة في غفلة النائمين، وفي دجى الليل.. فإن ذلك معناه أن تموت الحياة في أرضنا وفي شعبنا، وأن يغدو كلاهما «دنيا ميتة» ليس فيها غير الاستسلام للجلاد:

إني أرى . . فأرى جموعاً جمة
يدوي حوالها الزمان كأنما
الشاعر الموهوب يهرق فنه
والعالم التحرير⁽¹⁾ ينفق عمره
والشعب بينهما قطيع ضائع
لكنها تحيا بلا الباب
يدوي حوالي جندل وتراب
هدراً على الأقدام والأعتاب
في فهم ألفاظ ودرس كتاب
دنياه دنيا مأكّل وشراب

وفي قطعة أخرى عنوانها «للتاريخ» وتاريخها في الديوان سابق عن
تاريخ قصيدة «الدنيا الميتة» نجد الشابي يندد صراحة بطرق الاستغلال
والإذلال التي كان يمارسها الاستعمار وطبقة المحظوظين من التونسيين
الضالعين في خدمته :

البؤس لابن الشعب يأكل قلبه
والشعب معصوب الجفون مقسم
والحق مقطوع اللسان مكبل
وأمرض ما صدع القلوب ورضها
هذا قليل من حياة مرة
والمجد والإثراء للأغراب
كالشاة بين الذئب والقصاب
والظلم يمرح مذهب الجلباب
عز الصليب وذلة المحراب
في دولة الأحباب والألقاب

ونحن نعتقد أن هذه القطعة، لا بد أنها كانت - في الأصل - جزءاً
من قصيدة «الدنيا الميتة» واختلاف تاريخهما وتباعده بينهما لا يعني
شيئاً. وأغلب الظن أن الشاعر كان يفصل بعض القطع من قصائده،
فتبقى على وضعها وتاريخها، ثم يعيد النظر في الباقي، بعد زمن - يطول
ويقتصر - ثم يضع لها عنوان آخر، تاريخ جديد يسجل آخر تنقيح لها.

ونلاحظ هنا أن البيت الرابع من المقطوعة السالفة، لم ينشر معها

(1) يعني به عالم الدين وشيخه .

في الديوان، مع أنه نشر معها في الصحف، في تاريخ قديم. بل هناك من يعتقد بأن هناك أبياتاً أخرى تابعة لها لم تنشر للآن.

ومما يزكي هذا الرأي أن للشابي مقطوعات وقصائد معروفة عند أحبائه والمتخصصين في دراسة أدبه، ولكنها غير منشورة تماماً، أو غير مثبتة في الديوان.

محمد علي الحامي

- محمد بن علي بن مختار، وأمه عائشة بنت عباس.
- ولد حوالي سنة 1894 في حامة قابس، وتحول مع أبيه إلى تونس بحثاً عن لقمة العيش.
- عاش طفولة بائسة واشتغل وهو طفل حمالاً. وتلقى تعليماً متقطعاً برعاية خاصة، وكان فائق الذكاء قوي الإرادة والشخصية.
- التحق بصفوف المجاهدين ضد الغزو والاحتلال الإيطالي لليبيا. وكان سائقاً خاصاً للقائد العثماني أنور باشا. ورافقه إلى تركيا سنة 1914 بعد انسحاب القوات التركية من ليبيا.
- انتقل إلى ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى حيث درس في جامعة حرة ببرلين ونال دبلوم الدراسات العليا في الاقتصاد السياسي يوم 1924/2/22.
- عاد إلى تونس فور نجاحه فدرس حالة الاقتصاد الوطني الذي كان الاستعمار يهيمن عليه ويستغله لصالحه.
- بدأ محمد علي بتأسيس جمعية التعاون الاقتصادي التونسي للنهوض به عن طريق التعااضد، والتعاون الجماعي، لكنه سرعان ما أدرك أن حالة العمال التونسيين يرثى لها وفي حاجة أشد للتجمع والدفاع عن المصالح النقابية والذات الوطنية.
- تحول إلى تكوين النقابات حيث استطاع في أقل من ستة شهور أن يبعث اتحاداً وطنياً للعمال باسم «جامعة عموم العملة».

- طاف معظم المدن والقرى ذات الكثافة العمالية مثل تونس وبنزت وقفصه والملتوي حيث كانت خطبه الحماسية تكتل حوله صفوف العمال كزعيم نقابي قومي ممتاز.
 - خشي الاستعمار وأصابه الفزع من حركة محمد علي فعمد إلى اعتقاله مع جمع من رفاقه يوم 1925/2/5 حيث حكمت عليه يوم 1925/11/28 محكمة استعمارية بالنفي عشرة أعوام عن تراب الوطن.
 - وبعد محاولته الإقامة في إيطاليا وطنجه ومصر، استقر بالحجاز حيث اشتغل سائق سيارة أجرة.
 - في حادث أليم بين مكة وجدة توفي محمد علي يوم 1928/6/5 ودفن بإحدى المقابر في مكة حيث لا توضع علامات على القبور.
 - خلد الطاهر الحداد نضاله النقابي وجهاده الوطني في كتابه «العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية».
 - وجدد الزعيم الشهيد فرحات حشاد حركة محمد علي بتأسيس «الإتحاد العام التونسي للشغل» الذي هو الحصن الوطني للعمال التونسيين.
- «ا. م. ك»

شاعر الحب والحرية

التاريخ لا ينسى رجاله ولو بعد سنين . واليوم تمر إحدى وثلاثون سنة عن وفاة أحد الذين سجل لهم التاريخ صفحات لا تنسى . فهذا أبو القاسم الشابي الشاعر التونسي الذي عاش حياة كلها بأس ومرارة ومع ذلك فإنه صبر وصابر وآمن بقدرة الشعب على الانتصار واستجابة الأقدار لمطامحه .

واحتفاء بذكراه قررت حكومة الشعب إقامة مهرجان قومي بحضور وفود عديدة من البلدان العربية والمستشرقين .

ونشر فيما يلي نقلاً عن جريدة «الشعب» لسان الاتحاد العام التونسي للشغل مقالاً عن شاعرنا الشابي بمناسبة ذكراه .

لم يتغن شاعر عربي بالحب والحرية كما تغنى بهما شاعرنا الفقيد «أبو القاسم الشابي» .

ففي ديوانه «أغاني الحياة» 91 قصيدة ومقطوعة بينها:

25 قصيدة ومقطوعة في الحب .

21 قصيدة ومقطوعة في الاجتماعيات .

18 قصيدة ومقطوعة في التغني بالحرية لشعبه ولكل شعب مضطهد

في أي مكان من العالم .

فإذا أضفنا إلى هذه المجموعة قصائده الوجدانية التي جاء معظمها

في الحديث عن آلام نفسه، وعن تطلعه الدائم إلى الفجر والنور والصبح الجديد، أي إلى الانطلاق من عالم الآثام والبغضاء إلى «فجر الجمال السمردى، ومنهل الأضواء» حيث يتحرر من جميع القيود البشرية: يتحرر من جسده المنهك المعلول، ومن آلامه ومتاعبه، ومن كل السجوف والتقاليد والأباطيل التي تملأ الأرض ظلاماً وحقداً وضلالة.

إذا أضفنا إلى أغانيه هذه في الحب والحرية والمجتمع، أغانيه الوجدانية وعددها 27 قصيدة ومقطوعة.. ارتفع الرقم إلى 91 هو مجموع ديوانه البالغ 2466 بيتاً أو شطرة.

وهذه الكمية تبدو قليلة بالقياس إلى شعراء آخرين تخصصوا في الغزل مثل (الياس أبو شبكة) ونزار قباني، أو في الحرية كمحمد مهدي الجواهري والبياتي والسياب. ولكنها كبيرة جداً بالقياس إلى عمر الشابي القصير.

وإذا تركنا جانباً موضوع الكمية والعدد، وحاولنا أن نجوب خلال المعاني والمشاعر التي عبأ الشابي بها أناشيده للحرية وأغانيه في الحب والجمال، تراءى لنا عملاقاً محلّقاً في سماء الفن والسحر والإلهام، وتبيننا فيه عبقرية فذة مبدعة، عزت عن التشبيه والند والمثيل.

ولو لم يقل الشابي في الحب سوى قصيدته «صلوات في هيكل الحب»:

عذبة أنت كالطفولة، كالأحلام	كاللحن، كالصبح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلية القمراء	كالورد، كابتسام الوليد
يا لها من طهارة تبعث التقدير	س في مهجة الشقي العنيد
أي شيء تراك؟ هل أنت «فينيس»	تهادت بين الورى من جديد
لتعيد الشباب والفرح المع	سول للعالم التعيس العميد

أنت! ما أنت؟ أنت رسم جميل عبقرى من فن هذا الوجود
 أنت روح الربيع تختال في الد نيا فتتهز رائعات الورد
 كلما أبصرتك عينان تمشين بخطو موقع كالنشد
 خفق القلب للحياة، ورف الزه ر في حقل عمري المجرود
 لكان بها أشعر الشعراء في الحب والجمال منذ الجاهلية إلى
 اليوم.

أقول في الحب، ولا أقول في الغزل، والفرق بينهما شاسع مديد،
 فقد يتغزل شاعر بالجمال أو بامرأة جميلة فيكثر من التشابه ويدور مع
 المظهر فلا يتجاوز تجسيم أو تصوير مفاتن الموصوفة بألفاظه، ولكنه في
 كل ذلك يظل فوق الأرض، ويظل عبداً للتقاليد الشعرية القديمة، منها
 يستمد صورته وبها يستعين على إتمام تراكيبه. وبذلك لا يتجاوز في
 وصفه للمرأة أو حديثه عنها الحدود التي رسمها من قبل امرؤ القيس
 وعمر بن أبي ربيعة أو بشار أو أبو نواس. وهؤلاء - كبقية الشعراء العرب
 الآخرين - لم يروا في المرأة قط شيئاً آخر غير سحر العيون، ولين
 القوام، وعطر الرضاب وجمال اللحم والشحم: أي أنهم أؤخذوا
 بمثيرات الغريزة، وانشغلوا بما وراء الثياب فقط. أما ما وراء الجسد
 نفسه، من معان ورموز ومن آفاق وموحيات، بل ومن سموات وعوالم،
 فإن أحداً قبل الشابي لم يكتشفها ولم يتغن بها:

أراك فتحلو لدي الحياة ويملاً نفسي صباح الأمل
 وتنمو بصدري وورد عذاب وتنحو على قلبي المشتعل
 ويفتنني فيك فيض الحياة وذاك الشباب الوديع الثمل
 ويفتنني سحر تلك الشفاه ترفرف من حولهن القبل
 فأعبد فيك جمال السما ورقة ورد الربيع الخضل

وطهر الثلوج وسحر المروج موشحة بشعاع الطفل

ولما كان الشابي قد ندد بالخيال الصناعي التقليدي الحروف،
الذي لا يستعمل إلا التشايبه المادية أو الحسية والغريزية، فإنه من
البديهي أن لا ينغمس في هذه الآثام التي جرم غيره بها ولم يستثن أحداً
سوى ابن الرومي في قصيدة يتيمة واحدة، هي قصيدته في وحيد
المغنية.

وحتى الشعراء العذريين ندد بهم الشابي واعتبرهم شعراء غزل
وليسوا شعراء حب ألم يقل قيس ليلي، وهو أشد العذريين جنوناً وعفة:
مفلجة الأنياب، لو أن ريقها يداوى به الموتى، لقاموا من القبر!؟
وآين هذا من قول شاعرنا:

قد سكرنا بحبنا واكتفيننا يا مدير الكؤوس فاصرف كؤوسك
على أن الحب الذي كان أسمى شيء عند الشابي، أسمى من
المجد والجاه، ومن النفوذ والشهرة، ومن المال والسلطان... هذا
الحب الذي لم يبك على شيء في دنياه كما بكى عليه حين فقده:

لست يا أمسي أبكيك لمجد أو لجاه
سلبته مني الدنيا وبزنتني رداه
... إنما أبكيك للحب الذي كان بهاه
يملاً الدنيا فلأني سرت في الدنيا أراه

هذا الحب هو أقنوم الحياة الثاني بعد الحرية عند الشابي، أقول
الثاني، وأنا أعني لا التعداد فقط بل الرتبة أيضاً.

فالحرية، عند الشابي، هي روح الحياة والكون، وهي سر السعادة

وفرحة القلب ورمز الوجود، واقترانها بالحب ازدواج كاد أن لا ينفصل عنده، وهو في هذا شبيه بالشاعر المجري «اسكندر بيتوفى» الذي قال:

عشق وحرية

هذين أريد

لعشقي أبذل حرיתי

ولحرיתי أبذل حياتي

غير أن الشابي لا يبذل حريته لعشقه فقط بل يبذل حياته أيضاً، ما دام في ذلك حرية وطنه وسعادة شعبه:

أنا يا تونس الجميلة في لجج الهوى قد سبحت أي سباحه
شرعتي حبك العميق وإنني قد تذوقت مره وقراحه
لا أبالي.. وإن أريقت دمائي فدماء العشاق دوماً مباحه

ولم يتعلق الشابي بالحرية لشعبه فقط.. بل نادى بها لكل الشعوب، وطالب بها كل إنسان - أي إنسان - ، لأنه يعتقد أن الحياة بلا حرية هي موت حقير، بل مهانة وازدراء للحق والجمال والفضيلة، وكفر بنعمة الله على الإنسان:

خلقت طليقاً كطيف النسيم وحرأ.. كنور الضحى في سماه
فمالك ترضى بذل القيود وتحني لمن كبلوك الجباه
ألا انهض وسر في سبيل الحياة فمن نام لم تنتظره الحياه

وإذا كان الشابي قد ترك معلقة في الحب يصلي بها المحبون إلى كعبة الغرام وفي محراب الهوى، فإن له في الحرية معلقات كثيرة، لعل واحدة منها لم تتل من الذبوع والانتشار في العالم أجمع ما نالته «إرادة الحياة»:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

وأى شعب لا يريد الحياة؟

إننا قد نستغرب اليوم ذلك - ونحن نعم باستقلالنا - ، ولكن شعوباً كثيرة كانت في أيام الشابي لا تطلب الحرية ولا تريد الحياة . . وهذا ما حدا به لأن يعتبر كل شعب يستنيم للذل ويخنع للطغيان، شعباً غير جدير بالحياة والوجود، حقيق بالفناء والعدم:

كل شعب قد طغت فيه الدما دون أن يثار للحق الجلي
خله للموت يطويه . . فما حظه غير الفناء الأكل

والشابي في كل ذلك يبدو لنا شاعراً فوق الحدود، لا يتكلم عن الحرية أو قضيتها في حيز جغرافي معين، ولا يعالج آمال شعبه بالذات بنفس الوضوح والتحديد اللذين نجدهما عند شعراء آخرين في تونس أو في غيرها من الأقطار.

فالشابي يتكلم - في رأي البعض - عن الحرية كقضية إنسانية شاملة، وكحق إنساني مقدس، لا قيمة للإنسان بدونه، ولا كرامة لشعب يفقده بل إن الحياة بلا حرية هي عيش في الكهوف والقبور والحفر:

ومن لا يحب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

وفي كل هذا يبدو لنا الشابي أوسع من محيطه في شعره للحرية، ولكنه - في الواقع - إنما يتغنى بآمال شعبه بالذات ويتجاوب مع أحداثه وكفاحه وصراعه ضد الطغيان والاستعمار وضد الرجعية والجمود والاستسلام.

فهو يندد بضلال الرجعية وسياسة الاستغلال وجمود الفكر وخنوع

الخانعين، وضياع العمر في المهانة وتوافه العيش:

الشاعر الموهوب يهرق فنه هدرأ على الأقدام والأعتاب
والعالم التحرير ينفق عمره في فهم ألفاظ، ودرس كتاب
والشعب بينهما قطيع ضائع دنياه دنيا مأكّل وشراب

أجل! . كان الشعب في أيامه قطعاً ضائعاً.. وكان في أشد
الحاجة إلى القيادة الرشيدة وللرعاة الصالحين..

أنت في الكون قوة لم تسسها فكرة عبقرية ذات بأس

ومع تلك الأوضاع الفاسدة كلها ومع ما كان يلاقه الشعب من
طغيان وجبروت، وما تحمله طبيعته القيادية من تنكيل وقمع، فإن
الشابي لم ييأس من مصير شعبه، بل كان ينظر للمستقبل بروح الأمل
والثقة، ويرى في الغد القريب فجر الحرية وصباح المجد والكرامة:

إن ذا عصر ظلمة غير أني من وراء الظلام شمت صباحه
ضيع الدهر مجد شعبي ولكن سترد الحياة يوماً وشاحه

وقد وردت الحياة وشاح المجد والحرية للشعب التونسي، يوم
هبّت فيه ريح التاريخ، وانطلقت إرادة الحياة، فإذا هو والقدر على موعد
واحد:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

منزلة الأدب الشعبي عند الشابي (1)

عنوان هذا الحديث هو: «منزلة الأدب الشعبي عند الشابي» ولو
غيرناه إلى صيغة الاستفهام فقلنا:

«هل للأدب الشعبي منزلة عند الشابي؟»

لتغير هدف الحديث تماماً، ولبادر كثيرون بالجواب فوراً وجعلوه
سلباً فقالوا: لا.

وربما تطرف آخرون في جوابهم فقالوا: ما عسى أن يكون للأدب
الشعبي من منزلة عند الشابي غير الاحتقار والاشمئزاز والترفع، وقد
يعللون رأيهم هذا بقولهم:

كيف نتظر من شاعر عبقرى عالمى كالشابى، قامت شهرته وحياته
وثقافته على الأدب الفصيح والشعر الممتاز أن يكون للأدب الشعبى من
منزلة عنده سوى النفور منه والسخط عليه والاستنقاص له؟!!

أليس الشابى سليل بيت من بيوت الإمارة والحكم؟ ووليد أسرة عريقة
جداً من أسر العلم والجاه والدين؟

ألم يرب فى الدلال والرفاهية والبذخ؟ ألم يتلق العلم والأدب على
شيوخ محافظين؟ فكيف بعد هذا كله نتظر أن يجد الشعب بجماهيره
الكادحة وأدبه العامى مكانة عند الشابى، أياً كانت هذه المكانة.. اللهم
إلا أن تكون السخرية منه والاستعلاء عليه والاحتقار له!!

قد يكون ذلك رأي بعضهم وقد كان . .
ولكننا نرى منهج البحث والقول غير ذلك . . إذ ليس لأي باحث
أمين أو ناقد نزيه أن يتسرع في الجواب أو الحكم نفيًا أو إثباتًا إلا بعد
أن يتتبع حياة الشابي وأدبه وآراءه ومواقفه وجميع آثاره وأبعاد الحياة
والمجتمع في كل ذلك .

هذا إذن هو المنهج العلمي والموضوعي السليم، لكننا نجد - مع
الأسف الشديد - عددًا غير قليل من أساتذة الأدب ومن الباحثين
والدارسين للشابي . يطبقون منهجًا آخر، منهجًا أساسه التحامل،
وأسلوبه الارتجال والتسرع في الأحكام، وهدفه الهدم والتشويه
والتزيف .

ومن أجل ذلك كله، وبسببه أيضاً اخترت بكل عناية وقصد أن
يكون موضوع هذا الحديث وعنوانه هو: منزلة الأدب الشعبي عند
الشابي .

ولنعد قليلاً إلى الوراء . . إلى سنة 1966 كي ننطلق من حادثة
كانت وحدها الحافز والمحرك لي على اختيار هذا الموضوع وعنوانه
أيضاً .

ففي ربيع هذا العام - أي عام 1966 - احتفلت تونس بشاعرها
العبقري الخالد (أبو القاسم الشابي) وكان - للمرة الأولى والأخيرة -
احتفالاً شبه عالمي، إذ شارك فيه نقاد وشعراء من أقطار عربية عديدة،
وحضره أيضاً عدد من المستشرقين، كان في طليعتهم المستشرق الفرنسي
الشهير الأستاذ جاك بيرك .

وبالطبع اشترك في الاحتفال عدد كبير من الكتاب التونسيين غير أن
آراء عدد منهم في الشابي كانت غريبة ومتحاملة إلى حد أثار النفور
والاستنكار لدى عامة الجمهور وخاصة من قبل الضيوف .

فقد أوقف بعضهم الشابي كمتهم في «محكمة أمن الدولة» ليحاكمه عن تهم خيانية عديدة مثل احتقاره للشعب، ووقوفه موقف المتفرج على صراع العمال ونضال الجماهير ضد الاستغلال والاحتلال، وكذلك عدم انتمائه - أي الشابي - إلى حزب سياسي معين وبالتالي هروبه - أي الشابي طبعاً - إلى الغابات والواحات تاركاً الشعب يخوض وحده معركة التحرر والنهضة.

ورغم أن التاريخ الصحيح والنقد الصحيح يرفعان عن الشابي جميع هذه البلايا والبلايا الملفقة.

ورغم أنني شخصياً وكتاباً آخرين منصفين قد قمنا في مناسبات لاحقة برد هذه المفتريات بالحجج التاريخية والنصوص والوقائع.

ورغم أن جميع ما في شعره ويومياته ورسائله، وكذلك ما زخرت به حياته القصيرة الخاطفة من مواقف الشرف والوطنية، تقيم سداً منيعاً يحمي الشابي وحياته وأدبه من كيد الكائدين ودعاوي المغرضين والطاعنين.

رغم ذلك كله.. فقد رأيت أن أغتنم هذه المناسبة الجديدة مناسبة انعقاد أول ملتقى أدبي وعربي لدراسة «منزلة الأدبي الشعبي..»⁽¹⁾ أغتنم هذه الفرصة لأتحدث - وبإيجاز عن «منزلة الأدب الشعبي عند الشابي».

وهو موضوع لم يسبق بحثه باهتمام ولا العناية به في مثل هذه المناسبات، وهكذا أضيف لبنة أخرى في صرح الشابي العملاق، وفي إيضاح الحقيقة التاريخية عن مكانته الوطنية وعن حبه العميق لشعبه ولكل ما انتسب لشعبه أو التصق بوطنه من إنسان وأدب وسماء وأرض وما بينهما أو فيهما.

(1) سقط هنا عنوان فرعي هو: النص الأول.

وثيقتان :

سأقتصر في هذا الحديث على نصين كتبهما الشابي حول الأدب الشعبي ونظرته إليه ومكانة شعرائه عنده، مضيفاً بعض الملاحظات والتعليقات المناسبة :

النص الأول: (1)

كتبه الشابي في صفحتين من يومياته⁽²⁾ بتاريخ 13 - 1 - 1934 متحدثاً فيهما عن وقائع يومه مع بعض أصدقائه فأخبر بأنه في هذا اليوم ذهب مع صديقه مصطفى خريف إلى النادي الأدبي بجمعية قداماء الصادقية، ليلقي بحثاً أعده عن شعراء الشباب في المغرب الأقصى⁽³⁾ فلم يجد أحداً من الجمهور⁽⁴⁾ ثم حضر زين العابدين السنوسي ومحمد الصالح المهدي وأبو الحسن ابن شعبان (وجميعهم اليوم في عالم الغيب).

ونظراً لتغيب الجمهور، فقد أمضى الجماعة وقتهم في أحاديث أدبية واغتنم السنوسي الفرصة وقرأ عليهم آخر أقصوصة كتبها وكانت بعنوان «الحبيبة»⁽⁵⁾! وقد استعمل السنوسي فيها بعض التعبيرات العامية من اللهجة الشعبية.. فكان ذلك مثاراً لحوار طريف سجله الشابي في هذه

(1) انعقد بمدينة قفصة أيام 28 - 30 نوفمبر 1979 بمشاركة عدة أقطار عربية، وكان تحت عنوان (الملتقى الأول للأدب الشعبي).

(2) ص 51 - 54 من الطبعة الأولى، تونس 1966.

(3) صدر في عام 1929 كتاب في المغرب الأقصى عن شعرائه المعاصرين، وقد كلف النادي الأدبي الشابي بإعداد محاضرة عن الجزء الثاني منه الخاص بالشعراء الشباب الذين كان منهم يومئذ: علال الفاسي وعبدالله كتون (انظر ما كتبه المهدي عن الموضوع في مجلة الأخبار التونسية).

(4) أظن أن لذلك سببين أحدهما ضعف الدعاية والثاني الحملة الشعواء التي قامت ضد الشابي عقب محاضراته الأولى عن «الخيال الشعري عند العرب».

(5) نشرها في مجلته الشهيرة «العالم الأدبي».

اليومية على النحو التالي⁽¹⁾:

«... هي قصة تونسية حاول - السنوسي - أن يمثل فيها بعض العادات التونسية وصور بعض الأوهام الخرافية التي تستحوذ على عقول العذارى الشابات واستعمل فيها طائفة من التعابير التونسية الخالصة التي لم تألفها العربية ولكن لا تأباها قواعدھا...».

«وظل الأخ زين العابدين يتلوھا إلى أن انتهت في هذه الجملة:
«وظلت أمي حلومة تشمر عن ساعديھا وتضحك إلى أذنيھا!».

«وعلى أثرھا دار الحديث حول الروايات الشعبية والأدب المحلي - أي الشعبي - وكان مؤجج هذا الحديث هو الأخ زين العابدين الذي كان يقول:

«إن الروايات الشعبية والأدب المحلي - كما أنها يجب أن تمثل حياة الشعب بما فيها من عادات وطباع وأخلاق ومميزات - فإنھا يجب أن تشتمل على كثير من تعابيره الفنية الدقيقة، وتراكيبه ومعانيه التي يستعملھا في مخاطباته، لأن هاته أهم ناحية حية من نواحي الحياة الشعبية، ففيھا تبدو صور صادقة من نفسية الشعب التي تتم عنها فلتات قوله والتفاتات ذهنه».

«فقلت: إنني أفرك على رأيك هذا، ولكن على شرط أن يتسفل الأديب «للتحصیل على هاته الغاية» إلى أن يمزج أسلوبه العربي بالأسلوب العامي المحرف، كما يفعل بعض المصريين اليوم، فإن مثل هذه الطريقة السيئة لقاضية على الأدب العربي الجميل، وماسخته إلى نوع من الأدب هجين، لا هو بالعربي البليغ ولا هو بالعامي الصميم، وإنما هو مسخ بين الاثنين، وإنما على الأديب الشعبي الذي يريد أن

(1) ص 51 باختصار.

يكون موفقاً أن يخضع اللغة العربية وأساليبها لاحتمال المعاني الشعبية التي تحمل طابع الشعب وميسمه، وبذلك تكون اللغة قد اكتسبت ثروة معنوية طارفة تضيفها إلى ما لها من كنز تليد. أو أن يدخل تعابير شعبية في اللغة العربية، على شرط أن لا تخل بروح العربية ولا بقواعدها الأصلية، وبذلك يكون الأديب مخلصاً للغة العربية، ومخلصاً لفنه النزيه.

«فقال الأخ الزين: نعم إنها لفكرة قيمة، وهذا ما حاولت أنا اتباعه في أحدى «الحبيبة»، فإن كلمة «ضحكت لأذنيها» كلمة محلية محضة لا تعرفها العربية من قبل، ولكنها مع ذلك لا تنافي شيئاً من ضوابط اللغة، زيادة عما فيها من دقة التصوير لمعنى الضحك والإغراق فيه، ولا أعرف في العربية تعبيراً يضاهي هذا في دقة التصوير لمعنى الإغراء في الضحك، إلا أنني أعرف في الفرنسية تعبيراً قريباً من تعبيرنا في هاته الدقة إلا أنه دونه، وهو قولهم: «ضحك حتى أفتس أنفه».

فقال الأخ إبراهيم بورقعة: «إن العرب يقولون ضحك ملء شديقة» وهو تعبير غير ظاهر المعنى، لأن الضاحك لا يمتلىء شدقاه.

«فأجابه أبو الحسن بن شعبان بأن كيفية الضحك تختلف باختلاف الوجوه والأشكال، وظاهرته أنا على ذلك».

«والذي يبدو لي الآن أن العرب لا يعنون بامتلاء الشدقين انتفاخهما وإنما يريدون امتلاء الفم بصوت القهقهة كناية عن قوة الضحك ثم قلت لهم: «إن العرب يقولون ضحك حتى بدت نواجذه» وهو تعبير قريب المعنى من تعبيرنا لأن النواجذ قريبة من الآذان وإذا انتفخ الفم من الضحك حتى بدن النواجذ فقد قرب من الآذان».

ثم انتقل الحديث إلى الأدب العامي، فقال زين العابدين: «إن في أدبنا العامي دقة في التعبير وجمالاً في التصوير، وسعة في الخيال، بصورة توجب الإعجاب الكبير، أذكر أنني طالعت مرة أنا وأبو القاسم

قطعة من هذا الفن، يصف فيها صاحبها البرق، فأعجبنا بها إعجاباً كبيراً إذ أنه قد عبر بها عنه بأبرع مما عبرت عنه ألفاظ شاعر، وأبدع مما صورته نفس فنان».

فقال أبو رقعة: إنني أعتقد أن الأدب العامي بتونس أبلغ من الأدب العربي بها، وذلك لأن أدباء العربية بها تقيدهم كثير من التقاليد اللغوية والأغلال الشعرية التي توجب عليهم احتذاء من تقدمهم من الشعراء، زيادة عن أنهم يكتبون بلغة ليست لغتهم، بخلاف من كانوا من قادة الأدب العامي، فإنهم بعيدون عن مثل ما يتقيد به الأديب العربي بتونس، ولذلك يكون من الفرق بين أدب هذا وذاك ما بين أدب الطبع وأدب التقليد⁽¹⁾.

* * *

(2)

هذا النص ليس أكثر من ثلاث صفحات كتبها الشابي وهو في الحادية والعشرين من عمره وهو يوضح، ليس فقط اهتمام الشابي - وجيل الطليعة الأدبية في الثلاثينات - بالأدب الشعبي، بل يقدم لنا وثيقة في غاية الأهمية والخطورة عن فكر هذا الجيل وعن مفهوم الأدب والتجديد عنده. . وعن موقفه تجاه الشعب بأدبه العامي وطبقته الكادحة وطموحاته ونضاله في شتى الميادين.

إنه جيل - وفي الطليعة الشابي - لا يحتقر الأدب الشعبي ولا يستنقصه أو يزدريه، بل على العكس من ذلك تماماً. . فهو يرى فيه: ينبوع الذي ينبغي الاستمداد منه. . والروح الأصيلة التي يجب أن تسري في كل تجديد.

(1) ص 51 - 54.

فلا حياة أدبية حقيقية بدون الشعب . . ولا إلهام بدون العودة إلى هذا الشعب نفسه وإلى روحه وأصالته، وبالخصوص إلى أدبه بكل ما يزرخ به من بساطة أو عادات أو أفكار أو أشعار أو أمثال أو خرافات أو أساطير، وبكل ما هو فيه من سلامة فطرة، ومن عفوية في التعبير والتصوير .

وفضلاً عن ذلك ففي نص الشابي ذلك اتجاهات وطموحات أدبية في غاية الخطورة، وليس هو وحده صاحبها بل مشاركها فيها زمرة أصدقائه من دعاة التجديد وهم خلاصة أدباء الطليعة في الأدب التونسي الحديث .

وفي هذا الصدد نتفق مع الصديق الفقيه المرحوم محمد فريد غازي حيث لاحظ من الخطورة في نص الشابي السالف الذكر، فعلق قائلاً:

«وأشعر بأن المدرسة الرومانطيقية التونسية هي أيضاً ذهبت إلى هذا الينبوع الثري (أي ينبوع الأدب الشعبي - الذي أبى أن ينهل منه أدباء العروبة في عصور الجمود والانحطاط .

«أوليس عجباً حقاً أن نجد - دون أن يمكننا ضبط انتقال التأثير - وهو أهم أمر في الأدب المقارن - أن نجد نفس الفكرة التي دعا إليها الإبداعيون الأوروبيون، وهي الرجوع إلى ينبوع الأدب الشعبي . . ذلك الأدب الذي غذى قرائح جورج صاند في ميدان الرواية القصصية، وشوبان الموسيقار العبقري، الذي أثار حماس أوروبا بمقطوعاته المعروفة بالبولونيات!؟» .

ثم يضيف غازي قائلاً:

«بل يذهب الشابي وأصدقاؤه إلى أكثر من هذا . . فهم يعتقدون أن الأدب الشعبي يساوي الأدب الكلاسيكي، إن لم يفقه جمالاً وحيوية . .

يقول الشابي... :

«وأنا أعرف واحداً من هؤلاء الذين يتدلاؤون بروح الشعب ولغته،
من يعمد إلى القطعة من الأدب العربي لكان خير أمثلة النقد الأدبي، فيه
تجلى سلامة الطبع، ودقة الحاسة الفنية»⁽¹⁾.

النص الثاني:

هذا النص أكثر علاقة بنظرة الشابي إلى الأدب العربي وموقفه
منه.. كما أنه أعمق تصويراً وتعبيراً عن مشاعره نحوه ومكانته عنده
وتفضيله له على كثير من الشعر الفصيح الذي كان يملأ حياة الأدب في
أيامه.

ففي مقالة ممتازة نشرها الشابي بعد أقل من عامين من تاريخ تلك
اليومية أي يوم 24 - 10 - 1932 تحت عنوان: «الشعر والشاعر عندنا»
تحدث الشابي عن شعراء تونس المعاصرين له، فقسّمهم من حيث
ثقافتهم إلى مجموعتين واعتبر الأولى جامدة والثانية منحرفة.. ثم
حملهما معاً مسؤولية البعد عن روح الشعب، وعدم التجاوب مع واقعه
وأحاسيسه السامية، وبين كيف أن الشعراء الشعبين والفنانين الشعبين
هم أصدق تعبيراً وأعمق تصويراً لواقع الشعب ومشاعره وحياته من جميع
الشعراء والفنانين القابعين في بروج العزلة عن الشعب والمتحدثين بلغة
وفن غريبين عنه..!!

ومن الواضح أن الشابي، في نصه الآتي، لا يعتبر الداريجة لغة
التعبير الوحيدة، ولا يحمل الفصحى مسؤولية عجز شعرائها عن التكلم
باسم الشعب والتعبير بلسانه والنهل من ينابيعه، بل العلة في ذلك كله
تعود إلى قصور ذاتي عند الشعراء أنفسهم.

(1) الصباح - الخميس 23 أكتوبر 1980.

يقول الشابي . . بعد تحليل مستفيض لأحوال شعراء الفصحى وثقافتهم ومشاكلهم الفارغة وأنواع شعرهم الزائفة كالمديح والثناء والأخوانيات وما إلى ذلك من الموضوعات والأغراض التافهة الأخرى .

يقول مدافعاً عن الشعب، راداً حجة القائلين بأن العلة والداء، في فقر الأدب التونسي يومئذ، كامنان في روح الشعب!!

يقول مجادلاً ومخاطباً صاحبه في الحوار:

«لا يا صاحبي، ليست العلة في روح الشعب فإن روحه غنية زاخرة بقوة الفن وإنما الداء في الألسنة المعبرة، وما عليك إلا أن تذهب إلى صميم البادية، وبين المضارب والخيام، وتصغي إلى أناشيد قلبه الصادقة حتى تدرك أي حياة وفن وجمال في تلك الأغاني والأناشيد الساذجة، بل إن بعضها ليحتوي فلسفة صادقة ونظرات عميقة في الكون وسنن الحياة، وإذا أردت أن تعرف ما في موسيقى الشعب من سحر وقوة وفن، فاستمع إليها في الحقول الفسيحة تتموج فوق السنابل والأغمار وتحت أشجار النخيل والزيتون تتهادى بين السواقي والأنهار حتى أنها رغم بساطتها ورغم أنها لا تتجاوز الشبابة والمزمار لتتسامى أحياناً إلى أن تكون موسيقى وصفية حماسية ترسم لك، في دقة وإبداع، صورة من صور الحياة بما فيها من اضطرابات نفسية عميقة وحوادث وأحوال.

أجل يا صديقي، إن في قلب الشعب التونسي ثروة روحية وفناً قوياً، ولكنها ثروة مهملة وفن غير مصقول، وإن في طبيعة هاته البلاد سحراً يلهم أسمى المعاني وأرفع الأفكار لو كانت للصخر مشاعر حية واعية، وأن الداء كل الداء في الألسنة المعبرة لا في روح الشعب ولا في طبيعة البلاد»⁽¹⁾.

(1) غازي من كتابه (الشابي من خلال يومياته) واليوميات ص 54 .

أجل يا أبا القاسم!

إن الداء في الألسنة المعبرة لا في روح الشعب ولا في طبيعة البلاد .
فهذه الألسنة المعبرة هي التي أتمتكم بالأمس وحتى اليوم بأنك
- رغم كل هذه البراهين - لم تكن تتكلم باسم الشعب ولا تعبر عن
مشاعره أو تستمد من روحه!؟

وكان هؤلاء لم يقرأوا أو يسمعوا مبادئ الشابي المقدسة في
الشعر، حين قال وهو في السادسة عشرة من عمره:

لا أنظم الشعر أرجو به رضاء الأمير
بمدحاة أو رثاء يهدي لرب السرير
حسبي إذا قلت شعراً أن يرتضيه ضميري

أو قوله، وهو في السابعة عشرة:

أنا يا تونس الجميلة في لجج الهوى قد سبحت أي سباحة
شرعتي جبك العميق وإنني قد تذوقت مره وقراحه
لا أبالي وإن أريق دمائي فدماء العشاق دوماً مباحة
إن ذا عصر ظلمة غير أنني من وراء الظلام شمت صباحه
ضيع الدهر مجد شعبي ولكن سترد الحياة يوماً وشاحه

خاتمة:

من هذين النصين اللذين كتبهما الشابي عن الأدب الشعبي، نستنتج
ونلاحظ ما يلي:

- إنه لم يكن معادياً للأدب الشعبي بل كان شديد الإعجاب به

والإكبار له، إلى حد اعتباره أقوى دلالة وأصدو تعبيراً عن روح الشعب ومشاعره. وقضايا من أدب الفصحى وشعرها التقليدي.

- إنه كان يقرأ هذا الأدب ويستمع إليه وكانت له مع صديقه السنوسي جلسات خاصة حول هذا الأدب قراءة ونقداً.

- إنه كان يقبل ويرحب بمزج تعابيره وأفكاره في صلب الأدب الفصيح، ولا يشترط لقبول ذلك سوى شرطين: نقاوة المعنى وسلامة الأداء.

- إنه احتفى بالأدب الشعبي فسجله في يومياته وخصه بيومية كاملة استغرقت أربع صفحات من الأصل البالغ حوالي سبعين صفحة.

- إن الشابي الذي وقف من أدب الشعب هذا الموقف وأكبر الشعراء والفنانين الشعبيين ذلك الإكبار الممتاز، لا يمكن - بأي حال من الأحوال - أن يفر من الشعب أو يتهرب من واجباته نحوه أو يتقاعس عن العمل والنضال في سبيل تحريره والنهوض به.

وبعد:

إنني في موقف لا يسمح - مناسبة وموضوعاً - بالمناقشة والرد، وخاصة بالنصوص والحقائق الأخرى، على أولئك الطاعنين في وطنية الشابي وفي نضاله ودفاعه عن الشعب.

لذلك أكتفي بالتذكير والإشارة إلى حقيقة واحدة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وهي:

إن شعبنا بجماهيره الواعية وعماله المكافحين وبكل زعمائه ومناضليه يرددون جميعاً وبحماس فياض وفي شتى مواقف النضال - قبل الاستقلال - ومواقف الاعتزاز الوطني بعد الاستقلال قوله الشابي الخالدة:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

هذه المقولة الرائعة التي أصبحت شعار الكفاح التحريري والنفصال الوطني منذ قالها الشابي في سبتمبر 1933، فكانت من الشابي بمثابة المساهمة الإيجابية في جميع المعارك التي خاضها شعبنا لا ضد الاستعمار وحتى الاستقلال والنصر والجلء فقط بل ما زالت غايته وشعاره في معارك ضد التخلف ومن أجل البناء والنهضة الشاملة⁽¹⁾ وفي سبيل تحقيق مجتمع العدالة والرخاء.

وستظل شعاراً لشعبنا ولجميع الشعوب العربية الناهضة والمناضلة ما بقي الإنسان العربي في هذه الأرض وكان له تاريخ وضمير.

قفصة 28 - 11 - 1979

(1) مجلة العالم الأدبي (24 - 10 - 32).

الشّابي والرّثاء

(من خلال قصيدة لم تنشر)

لا أنظم الشعر أرجو به رضاء الأمير
بمدحة أو رثاء تهدي لرب السريير
حسبي إذا قلت شعراً أن يرتضيه ضميري

هذه الأبيات من قصيدة «شعري»⁽¹⁾ التي أعلن فيها الشابي مذهبه الأدبي والسياسي وهو ما زال مراهقاً في السادسة عشرة من عمره؛ فكانت بمثابة العهد الذي قطعه على نفسه والميثاق الذي ربط بينه وبين شعبه من جهة وبينه وبين الشعر من جهة أخرى؛ عهد منه بأن لا يقول شعراً في أي من الأغراض التافهة والمناسبات العابرة.. وخاصة في المديح والرثاء وعلى الأخص أن يكون ذلك في أمير أو صاحب تاج.. ويحدد الشابي، في القصيدة نفسها مجالات شعره الكبرى، وآفاقه التي لا يحلق في سواها قائلاً:

ما الشعر إلا فضاء يرف فيه مقالي
فيما يسر بلادي وما يسر المعالي
وما يثير شعوري من خافقات خيالي

(1) الديوان، ط تونس 1966، ص 26.

وقد دلنا الاستقراء لكل ما نشر من شعر الشابي أنه كان مخلصاً في عهده وفياً لقداسة الشعر. فلم يرث ولم يمدح أحداً، ولم يقل شعراً في أي من الموضوعات الخصوصية أو العابرة.. إلا نادراً جداً⁽¹⁾. وكل ما عرفناه حتى الآن لا يتجاوز:

1 - قصيدة قالها في رثاء والده بتاريخ 29/10/1 إثر وفاته بأيام قليلة، وهي تختلف بمضمونها وخصائصها عما ألفناه في هذا الباب من الشعر العربي، قديمه وحديثه على السواء⁽²⁾:

يا موت! قد مزقت صدري وقصمت بالأرزاء ظهري
ورميتني من حالق وسخرت مني أي سخر
... وفجعتني فيمن أحب ومن إليه أبث سري

وقد نشر هذه القصيدة في مطلع سنة 1930 فأثارت حفيظة دعاة القديم، وفي طليعتهم صاحب جريدة «النديم»⁽³⁾.

2 - مقطوعة بعنوان «الاعتراف»⁽⁴⁾، وهي أبيات ثمانية نشرها لأول مرة في مجلة «أبوللو» المصرية⁽⁵⁾ وفيها يعترف بأنه قد تخلى عن أحزانه على أبيه واندفع (كالطفل) يلهو بأفراح الحياة، لأن الإنسان «عبد الحياة الصادق الإيمان».

(1) انظر: «أبو القاسم الشابي» السنوسي، ط 1، ص 16.

(2) الديوان، ط 2، ص 140.

(3) هاجم صاحب «النديم» هذه القصيدة، بعنف شديد، وأكثر من مرة.. في باب كان يسميه «في المقص»! ونعتقد أن هجوماته هذه كانت الحافز الأكبر للشابي على نظم قصيدته «الني المجهول».

(4) عنوانها الأول المنشورة به في حياة الشاعر هو «الإيمان بالحياة».

(5) المجلد الثاني، العدد التاسع، ص 846، (ماي 1934).

وهو في هذه القصيدة كما في قصيدته الأولى يتحدث عن نفسه وأشجانه ومشاغله أكثر مما يتحدث عن أبيه .

3- وتوجد في ديوانه قصيدة ثالثة بعنوان «رثاء فجر»⁽¹⁾ مؤرخة بـ 14 - 9 - 31، أي سنتين بعد تاريخ القصيدة الأولى، وقبل سنة ونصف من القصيدة الثانية .

غير أن الشابي في (رثائه لفجره) لم يحدد لنا ما يعنيه بالفجر؟ أهو رمز لإنسان عزيز عليه، حبيب إلى قلبه، قضى عليه الموت وحرمه منه ومن سعادته به . . كما فعل معه من قبل بموت أبيه؟؟ أم هو خيال مجتوح وحلم خاص من أحلام سعادته بالطبيعة . . واندماجه الرومنطقي في مظاهرها المختلفة؟!

إن آخر بيت في هذه القصيدة قد يخرج بها عن هذا السياق . . ليضيفها إلى مجموعة أخرى من قصائده التي يتحدث فيها جميعاً عن «حب مات وليداً» ولم يبق منه إلا «الذكرى» و «أغنية الأحزان» يرددها في شعره الآخر وفي يومياته . . وكل هذا سر من أسرار الشابي يتيه في سرابه المجتهدون والنقاد ولا يهتدون .

4 - هنا أيضاً قصيدة أخرى، ليست من الرثاء، ولكنه قالها سنة 30 أيام زفافه بتوزر، وقد حملة على قولها تقاليد العائلة وظروف المناسبة؛ حيث بعث إليه أحد شيوخ العائلة الشابية (الشيخ عامر الشابي) بقصيدة تهنئة يوم عرسه . . فتأثر بها الشاعر واختلى عن رفاقه ساعة ليحجبه عن التهنية الشعرية بقصيدة مماثلة (رفعاً للخرج واحتراماً لمكانة الشيخ عامر). وقد أضيفت هذه القصيدة إلى ديوانه⁽²⁾. وهي على كل حال ،

(1) الديوان، ط 66، ص 176 .

(2) ط تونس 1970، والطبعات الموالية .

يمكن اعتبارها من شعر المناسبات والضرورات التي لا مفر منها .
هذا . . كل ما عرفناه وعرفه الباحثون اللاحقون - وما أكثرهم - من
شعر المناسبات الخاصة - إن صح التعبير - عند الشابي .
غير أن الصديق العزيز الأستاذ الأديب محمد النخلي - شفاه الله ،
ومتعه بالصحة وطول العمر - أطلعني منذ سنوات على قصيدة للشابي ،
وبخطه ، قالها في رثاء الشيخ العلامة محمد النخلي . . وقد تفضل
الصديق فأهداني هذه القصيدة في نسختها الأصلية ، وهي - فيما أعلم -
غير منشورة ، لا في ديوانه ولا في أي مكان آخر .

ويبدو من ديباجة القصيدة أن الشابي بعث بها كرسالة تعزية لأحد
أقرباء الشيخ الفقيه ، ويدعى «قاسم النخلي» .

والقصيدة لا تحمل تاريخاً لها أو لديباجتها . غير أننا بالرجوع إلى
المصادر التي ترجمت للشيخ النخلي نتأكد من أنه قد توفي في شهر
رجب 1342 / فيفري 1924 .

والشيخ النخلي كان من كبار علماء الزيتونة المستنيرين . . وعلى
يديه تخرجت أجيال من الطلبة . . وكان من دعاة الإصلاح السلفي ،
والتخصص من بعض العلوم الإنسانية كالتاريخ والجغرافيا .

وإلى ذلك كله كانت له مكانة اجتماعية كبيرة وخاصة لدى طلبة
(الآفاق) ، وهو ما تؤكد كثره القصائد التي قالها هؤلاء الطلبة الوافدون
من (الآفاق) في مديح الشيخ النخلي وفي رثائه⁽¹⁾ .

وتحت هذا التأثير الطلابي العام ، وبدافع المكانة العلمية الخاصة
للشيخ النخلي عند طلبه (الآفاق) انساق الشابي مع التيار ونظم
قصيدته . . وبعث بها لأهل الفقيه

(1) ترجم له الشيخ مخلوف في «شجرة النور الزكية . .» ، ج 1 ، ص 5 - 426 ف .

والقصيدة، في حد ذاتها، لا تساوي شيئاً من قصائد الشابي الأخرى المعروفة لدى القراء... كما أنها لا تضيف للشابي من الناحية الشعرية أية إضافة. ولكنها مع ذلك وثيقة هامة من حيث دلالتها على:

1- موقف الشابي من شيوخ الزيتونة الأكثر مكانة ودعوة للإصلاح.

2- تأثر الشابي بمناخ الطلبة العام، وما كانوا يشعرون به من ضيم وغبن، وازدراء - أحياناً - من طرف (المشائخ البلدية) وعكس ذلك تماماً من (الشيوخ الوافدين من الداخل) كالشيخ النخلي⁽¹⁾.

3- اتجاهات الشابي الشعرية المبكرة، وهي لا تكاد تختلف في شيء عن اتجاهات غيره من شعراء تونس في عصره، إذ أن القصيدة تأتي مماثلة لما جاءت به القصائد الأخرى، بل لعلها الأضعف؛ والسبب هنا واضح جداً... فالشابي - عندما كتبها وراسل بها أهل الفقيه - لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره... وأكبر الظن أنه لم يكن من تلامذة الشيخ.. وإنما كتبها انسياقاً مع التيار العاطفي (الآفاقي) لطلبة الزيتونة نحو شيخهم (الآفاقي) الكبير.

4- تمثل القصيدة إحدى تجارب الشابي ومحاولاته الأولى في نظم الشعر.. فهو يتدرب بها على طرق المواضيع الشعرية التقليدية، ويحاكي الآخرين، كشأن الناشئين دائماً. ومن هنا لا يمكن، بأية حال، عدها من تراثه أو ضمها إلى ديوانه.

والذين أضافوا للديوان القصائد والمقطوعات التي كان الشاعر نفسه قد استبعدها.. لم يحسنوا صنفاً، ولم يحترموا موقف الشاعر

(1) قصة الشيخ محمد الخضر حسين كانت تنتقل من جيل إلى جيل كمثال صارخ على هذا الضيم.

الأساسي من شعره.. فهو قد أعد ديوانه بنسق معين واختيار محدد.. فتجاوز ذلك لا يكون بإضافة ما حذفه من أشعاره إلى الديوان، وإنما تضاف إلى الدراسات والنشريات حول الديوان.

فهذه القصيدة - مثلاً - تعتبر، من حيث تاريخها، ثاني قصيدة لما في مجموعة الديوان (ط 1966)، وهي لا تكاد تختلف في نسيجها مع قصيدته الأولى «الغزال الفاتن» التي يبدو أن الشابي نفسه لم يكن راضياً عنها ولا اختارها لديوانه؛ بدليل أنها غير مثبتة في الطبعة الأولى - (القاهرة 1955) - وهي الطبعة الموافقة - فيما نعتقده - لاختيارات الشاعر، أو الأقرب إلى رغبته، لكن طبعت الديوان الموالية (وخاصة من 1970) قد كثر فيها (الاجتهاد) غير المصيب، وحشرت فيها قصائد ومقطوعات عديدة، منها قصيدة (الغزال الفاتن).

وقبل أن نترك القراء مع رثاء الشابي للشيخ النخلي الذي عنوانه بـ «دمعة أرسلتها عين الضمير»!؟ نرجو ألا يجتر (المجتهدون) و(الصيادون) هذه القصيدة ويضيفوها إلى ديوان الشابي، باعتبارها «اكتشافاً» من اكتشافاتهم الفريدة.

هذا وقد أبقينا النص على حاله كما جاء بخط الشاعر باعتباره تجربة ومحاولة.. وليس أكثر من ذلك.

أبو القاسم محمد كرو

تونس 84/9/15

حضرة العبد الباطل البعوض الالبد فانس التخلع سلا ما ورا من اراما وبعدها
انا ارسل لكم اياتا وارشاء ليقيد العلم في زمنا الضمير من سدة وقاتمة هامة =
البلدية العقلية التي تخرج لنا ما العالم باسرا كما محمود والذكر التوسيعي خصوصا
وهاميه في حلة من حدة او

دعوة ارسلتها عن الضمير

هلقت قلب العالمين باسرها

وتغلقت حواديت الازمان ..

ولت جيو نثر العلم هاربا في فود

كلفت اصمهم ردة الكوشان ..

مات الامام (والتبلي) وبال

تسبلي يدعها للعباني ..

يا عنز مودى بالهدامع ذابها

حتى يصعب الدع العرفان ..

يا الهب نفسي غاضب العلم يا

نفسه الكبي حلال من الاحزان ..

يا دهر انت مجعنا في شمسنا

يا دهر انت مجدد الاشجان

العلم يترب علكه لنعائك

ويضي لاني ميت بانعاني

وبكف بلائنه وفالنت وبليني

كلم ينف لي من اهل برعاني

علمت رزيتك اهل تنفسك لهم

لما نعى لنا عبي يبيع الشاة

فكما افاض عليهم من علمه

فاضت دعوههم كما العرفان ا

الحمد لله

وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

يا بحر المنان
 وتم فواو بلقلم جمر سه
 عن بعد هذا العالم السمياني
 بعد الفضاء بكلمة في عالمي
 بدرو سدنكمت عفو دجهان
 فد كان شمس امش فابعلوه
 بدو لرتوس نرفيدن بشان
 العلم لسوع طيبينه ومراده
 ومرا فديفتاد كه بهنان
 غذي كثر من لبان معلومه
 لبني نداء الله الهد الرمان
 ومضى لال سيدد وبقينا في
 حزن ن عليه كالمسكينان
 فم في هنيء اليها العلم السنه
 لاعتبت لبقته كتنوسيكان

يا فبره فده عزت كل وفضيله
 وعويت علمار اسخ الاركان
 يا فزنة صبي عليه وارتد في
 يا ربه من وامل الاضوان
 للذي عوايا اهل تنوس واصبروا
 بل الموت غايتنا يني انسان

يا بلناسم نر كبر بلناسم الشان

دَفْعَةٌ أُرْسِلَتْهَا عَيْنُ الضَّمِيرِ

شعر: أبي القاسم الشابي

حضرة الفاضل المفضل السيد قاسم النخلي سلاماً واحتراماً وبعد
فها أنا أرسل لكم أبياتاً رثاء لفقيد القلم زفر بها الضمير من شدة وطأة
هاته البلية العظمى التي تزعزع لنبأها العالم بأسره عموماً والقطر التونسي
خصوصاً وها هي في حلة من حداد:

هلعت قلوب العالمين بأسرها وتفطرت لحوادث الأزمان
ولت جيوش العلم هاربة وقد طعنت أميرهم يد الحدثان
مات الإمام (محمد النخلي) فاله تبك بدمع هاطل أجفاني
يا عين جودي بالمدامع دائماً حتى يصير الدمع أحمر قان [!]
يا لهف نفسي غاض بحر العلم يا نفسي البسي حلاً من الأحزان

* * *

يا دهر أنت فجعتنا في شمسنا يا دهر أنت مجدد الأشجان
العلم يندب حظه لنعائه ويقول: إني ميت فانعاني
وبكت بلاغته وقالت: ويلتي لم يبق لي من كافل يرعاني

* * *

عظمت رزية أهل تونس كلهم
فكما أفاض عليهم من علمه
وتفرقوا وبكل قلب جمرة
لما نعى الناعي رفيع الشان
فاضت دموعهمو كما الطوفان
من فقد هذا العالم السجاني

* * *

نقد القضاء بحكمه في عالم
قد كان شمساً مشرقاً بعلومه
العلم طوع يمينه ومراده
غذي كثيراً من لبان علومه
ومضى لحال سبيله وبقينا في
نم نم هنيئاً أيها العلم الذي
بدروسه نظمت عقود جمان
في قطر تونس لا يقاس بثان
ومرامه يقتاده بعنان
لبي نداء إلهه الرحمان
حزن عليه كألسن النيران
طعنت لفقدك تونس بسنان

* * *

يا قبره قد حزت كل فضيلة
يا مزنة صبي عليه واغدقي
لا تجزعا يا أهل تونس واصبروا
وحويت علماً راسخ الأركان
يا رحمة من وابل الرضوان
فالموت غايتنا بني الإنسان

أبو القاسم الشابي

الفهرس

الصفحة	الموضوع
5	- المقدمة
9	- أبو القاسم الشابي

القسم الأول: نثر الشابي

	- دراسات ومحاضرات :
23	- إلمامة: الأدب العربي في العصر الحاضر
37	- شعراء المغرب الأقصى
73	- عيد الهجرة النبوية
80	- اليقظة الإسلامية الحاضرة
84	- روح نائرة
	- مقالات وخواطر أدبية :
93	- يقظة الإحساس وأثرها في الفرد والجماعة
97	- الشعر ماذا يجب أن يفهم منه
102	- الشعر والشاعر عندنا
108	- الفنون والنفس العربية
111	- مات جبران
114	- الخيال الشعري .. (لمختار الوكيل)

الموضوع	الصفحة
- رد الشابي على نقد الوكيل	117
- لصوصية الشعر	122
- صفحات دامية من حياة شاعر	128
- صفحات من كتاب الوجود	131
- شعر منشور:	
- قصيدة النثر عند الشابي وجيله	141
- من شعره المنشور:	153
- النفس التائهة	153
- أغنية الألم	157
- أيها القلب	160
- رسائل الشابي:	
- الشابي من خلال رسائله	163 - 188
- رسالة نادرة بخطه	189 - 201
- من رسائله:	203
- رسالته لعلي الناصر	205
- من رسائله إلى محمد بوشريية	212 - 248
- وثيقة جديدة للشابي	249
- رسالة لزين العابدين السنوسي	254
- رسالة إلى الطاهر الحداد	256
- رسالة إلى مصطفى خريف	258
- رسالة ثانية	261
- رسائل إلى محمد صالح المهدي	264 - 271
- رسائل إلى الشابي:	
- من المهدي محمد صالح	275 - 281
- من محمد علي السراج	282
- من أحمد زكي أبو شادي	284

الصفحة	الموضوع
285	- رسالة ثانية
287	- من الطاهر الطناحي

القسم الثاني مواقف الشابي من عصره

291	- للتاريخ؟
	- مواقف الشابي من:
311 - 295	- موقف الشابي من حركة محمد علي (1 - 2 - 3):
356 - 313	- موقف الشابي من الكفاح الوطني:
357	- محمد علي الحامي
359	- شاعر الحب والحرية
366	- منزلة الأدب الشعبي عند الشابي
379	- الشابي والرثاء

مطبعة الكويت 
KUWAIT PRINTING PRESS
تلفون : 4747518 - 4744412 - 4726322 (965)
فاكس : 4762405 (965)